على الذاكرة

أسعد داغر

تقديم وتحقيق: خالد زيادة

مذكراتي
على هامش القضية العربية



المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات
Arab Center for Research & Policy Studies

على هامش القضية العربية

========================

أسعد داغر

========================

تقديم وتحقيق
خالد زيادة

سلسلة «طي الذاكرة» من «طي النسيان» إلى «طي الذاكرة»

بين الذاكرة والتاريخ مسافة زمنية ونفسية تفصل بين حالتين: حالة التذكر عبر استحضار الذاكرة صورًا وأفكارًا ونصوصًا من الماضي، وحالة النسيان حيث يطوي الزمن صفحته على الذاكرة فيقفل عليها، فكأن شيئًا لم يكن من ذكريات ونصوص وصور.

وإذ درج القول عن شيء نُسي إنه «طي النسيان»، أي إنه غاب عن الذاكرة أو غُيّب، فنفته هذه الأخيرة إلى عالمٍ مجهول، فإن «طي النسيان»، بهذا المعنى النفسي يبطن معنى اللاوعي؛ ولهذا فإن البحث، في المقابل، عن المنسي من الإصدارات العربية، يفصح عن جهدٍ واعٍ، أي عن وعي منقّبٍ في مجاهل الذاكرة، لاكتشاف معالم ما نسي أو كاد يُنسى ووضعه **«طي الذاكرة» لا «طي النسيان»**، أي لإعادة الوعي به في تاريخ تسلسل الأفكار العربية وتواصلها، وكي لا تنقطع أزمنة النهضة العربية بين مراحلها وكتبها.

خلال أزمنة النهضة العربية، وخلال ما شهده عمر المطبعة العربية، وهو ليس بالطويل، صدرت منشورات كثيرة، بعضها قُدّر له أن يكون له شأن في الثقافة العربية ولما يزل يصدر، وبعضها الآخر أدى دورًا في لحظة ما، لكن نُسي، وبعضها كان يمكن أن يؤدي دورًا، لكن لم يُنتبه له فأهملته المطبعة ونُسي أيضًا.

بناءً عليه، يُعلن المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات عن اعتماد سلسلة «طي الذاكرة» في إصداراته، باحثًا عن المنسي والمفيد من الكتب، وناشرًا المتميز فيها، منذ بدأت المطبعة العربية بنشر بواكير كتب النهضة وحتى خمسينيات القرن العشرين وستينياته، أملًا بترميم الجسور المعرفية، وردم الهوة والثغرات بين عوالم الأفكار ومراحلها، وإعادة الوعي والاعتبار إلى ما نُسي منها أو كاد يُنسى.

المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات

ملاحظة: نلفت القارئ إلى أن المحرّر حافظ على النص كما ورد في الطبعة المعتمدة، ولم يتدخل إلّا في حال وقوع غلط طباعي أو نحوي. أمّا ما أضافه المحقّق من شروح وإيضاحات، فقد وضع في الهامش مشارًا إليه بحرف (م) أو علامة [ ] إذا كانت الإضافة في المتن.

الفهرسة في أثناء النشر إعداد المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات

داغر، أسعد

مذكراتي على هامش القضية العربية/ أسعد داغر؛ تقديم وتحقيق خالد زيادة. – ط. 2.

(سلسلة طي الذاكرة)

يشتمل على ببليوغرافية.

ISBN 978-614-445-339-1

1. العرب – تاريخ. 2. البلدان العربية – تاريخ – العصر العثماني، 1517–1918. 3. البلدان العربية – تاريخ – الحرب العالمية الأولى، 1914–1918. 4. البلدان العربية – تاريخ – الثورة العربية، 1916–1918. 5. مصر – تاريخ – الوحدة مع سوريا، 1958–1961. 6. سوريا – تاريخ – الوحدة مع مصر، 1958–1961. أ. زيادة، خالد. ب. العنوان. ج. السلسلة.

العنوان بالإنكليزية

Memoirs from the Margin of the Arab Cause

by Asaad Dagher

Preface and Introduction by Khaled Ziadeh

الناشر
المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات

شارع الطرفة – منطقة 70 وادي البنات – ص. ب: 10277 – الظعاين، قطر –
هاتف: 00974 40356888

جادة الجنرال فؤاد شهاب شارع سليم تقلا بناية الصيفي 174
ص. ب: 4965 11 رياض الصلح بيروت 2180 1107 لبنان
هاتف: 8 991837 1 00961 فاكس: 1991839 00961

البريد الإلكتروني:
beirutoffice@dohainstitute.org

الموقع الإلكتروني:
www.dohainstitute.org

الطبعة الثانية
بيروت، نيسان/أبريل 2020

صدر هذا الكتاب في طبعته الأولى عن دار القاهرة للطباعة، 1959

المحتويات

الفصل الخامس.

في مصر من سنة 1914 إلى سنة 1919

الفصل السادس.

الثورة العربية الأولى

الفصل السابع

في سوريا سنة 1919-1920

الفصل الثامن

في مهب العاصفة

الفصل التاسع

في مصر من سنة 1920

الفصل العاشر
في بغداد

تمهيد

قرأت كتابَ **مذكراتي على هامش القضية العربية** لأسعد داغر قبل عقدين ونيف من الزمن، حين كنت أعدّ روايتي **حكاية فيصل**[1]. تنبهت آنذاك إلى مقدار تماهي صاحب المذكرات بالقضية العربية التي نذر حياته كلها من أجلها. وكانت إعادة نشرها في طبعة موثقة قد راودتني منذ ذلك الحين، ثم عاودتني الفكرة خلال التحضير للمؤتمر الذي أقامه المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات بعنوان «الحكومة العربية في دمشق 1918-1920»، والذي عُقد في بيروت في نيسان/ أبريل 2019، لمناسبة مرور مئة عام على قيامها. وشاءت الظروف أن أتلقى دعوة للمشاركة في ندوةٍ عُقدت في مناسبة صدور كتاب **مراسلات أسعد مفلح داغر** في تنورين، البلدة التي وُلد فيها، فترسخت عندي فكرة نشر هذه المذكرات لأهمية ما تشتمل عليه من معطيات ووقائع، ولأهمية أسعد داغر ودوره خلال نصف قرن من الزمن في التقريب بين الساسة العرب في سبيل الوحدة والعمل العربي المشترك.

تبدت لي أهمية هذا الكتاب في هذه المرحلة التي نمر بها بعد عقدٍ شهد ثوراتٍ في العديد من الدول العربية، فرأيت من الضروري العودة إلى الثورة العربية الكبرى وتجربتها في إقامة أول حكومة عربية في العصر الحديث، من خلال نص كتبه أحد المشاركين في النضال العربي، والذي لا يتوانى عن ذكر الأخطاء ونقد التجربة، على الرغم من إيمانه العميق بعدالتها وضرورتها التاريخية.

قمت بتدقيق أسماء الأعلام وتوثيق ما وجدت ضرورة تعريف القارئ به. كما كتبت مقدمة حاولت فيها أن أضع المذكرات في إطارها التاريخي، محللًا أبرز ما انطوت عليه من أفكار المؤلف ورؤيته للحركة العربية. وذكرت بعض المراجع حين وجدت ذلك ضروريًا، لكنني أثبتّ قائمة بالمراجع التي استخدمتها كخلفية للتقديم الذي كتبته، واضعًا بذلك أبرز المؤلفات التي يمكن القارئ أن يعود إليها بخصوص المرحلة التي يتناولها المؤلف[2].

إذ أضع هذا الكتاب بين أيدي القرّاء، بعد ستين عامًا على صدوره أول مرة، فلا بدّ لي من أن أذكر أنني كنت أناقش بعض المسائل مع أخي غسان الذي كان يسألني عن مدى تقدمي في العمل، على الرغم من معاناته قبل رحيله. فإليه أهدي جهدي المتواضع في إعداد هذه الطبعة من مذكرات أسعد داغر **على هامش القضية العربية**.

خ. ز.

22 كانون الثاني/يناير 2020

---

(1) الصادرة عن دار النهار للطباعة والنشر، 1999.

(2) الهوامش المذكورة في الكتاب وضعها المحقق، باستثناء ما كتب إلى جانبها (المؤلف) أو (الناشر).

تقديم

خالد زيادة

يتنمي كتاب أسعد داغر إلى مجموعة كبيرة من الأعمال والمؤلفات التي تتراوح بين المذكرات الشخصية والدراسات التاريخية. وكما في جميع المذكرات، فإن المؤلف كتب مذكراته بعد مرور وقت طويل على وقوع الحوادث التي ذكرها، ألا أنه بدا لنا من خلال التحقيق أنه احتفظ بملاحظات ووثائق ومراسلات استخدمها في صوغ المذكرات. وتشاء المصادفات أن يكملها قبيل وفاته في عام 1958. وصدر الكتاب في مطلع عام 1959 عن دار القاهرة للطباعة، قبل أن يكمل المقدمة التي أراد أن يضمنها ذكر المعطيات الرئيسة التي كان شاهدًا عليها، ورؤيته لتطور الحركة العربية خلال نصف قرن.

يقول أسعد داغر في الصفحة الأولى إنه كتب المقدمة مرات عديدة، وفي جميع المرات كان يكتب تقديمًا للقضية العربية التي يقول فيها: «إن تفكيري كله كان وقفًا على هذه القضية التي بدأ ظهورها مع فجر حياتي».

في مذكراته، يحدثنا أسعد داغر، عن سنواته المبكرة التي اكتشف خلالها انتماءه العربي، كما يحدثنا عن تطور وعيه بالقضية العربية من خلال مراحل حياته في لبنان ثم في اسطنبول ثم في القاهرة وبعدها في دمشق، ثم تنقله بين عمان وبغداد وبعض عواصم أوروبا. ومن خلال مسار حياته نكتشف أننا إزاء شخصية نذرت حياتها لهذه القضية من دون أن يكون لديه مطمع في منصب أو نفوذ أو مجد شخصي؛ إذ كان واحدًا من أولئك الذين تكوّنت شخصياتهم وأفكارهم من خلال متابعتهم ومشاركتهم في الحوادث التي تطورت خلالها العروبة من فكرة إلى ثورة إلى حكومة، وكانت العقيدة التي بُنيت عليها الدول الوطنية التي نشأت بعد عام 1920. ينتمي داغر إلى الجيل الذي نذر شبابه في سبيل الفكرة العربية. فكان من بين أبناء هذا الجيل من قضى على أعواد المشانق في ساحات القتال، وتسنى لبعضهم الآخر أن يضطلع بالمسؤوليات، فكان إداريًا أو سفيرًا أو وزيرًا أو رئيسًا أو قائدًا عسكريًا، من الذين يصفهم بأنهم «النخبة الممتازة التي تولت قيادة الأمة في أعظم مرحلة من مراحل حياتها». ويقول فيهم: «كانوا يعرفون أنفسهم معرفة تامة، ويبحثون دائمًا عن أفضلهم وأشجعهم ليسيروا وراءه (...) اندمجت أشخاصهم بمبادئهم وتجسّدت هذه المبادئ بأشخاصهم وأحزابهم، كانوا يُعدّون بالألوف سواء في ذلك رجال الفكر أو رجال السيف».

إذ نتحدث عن أسعد داغر وجيله، يجدر بنا القول إننا نتحدث عن مئات الأشخاص (الآلاف بحسب تعبيره) الذين يشتركون في تكوين مشترك وتجارب واحدة، وهم متقاربون في العمر؛ فالأغلبية العظمى منهم من مواليد العقد التاسع من القرن التاسع عشر (1881-1890)، جاءوا من مناطق مختلفة: من الحجاز وفلسطين وسورية ولبنان والعراق، وينتمون إلى أديان وطوائف مختلفة، بينهم ابن المدينة وابن الريف وابن العشيرة. ومع ذلك، شكلوا فريقًا متجانسًا. كانوا أبناء حقبة واحدة، وبدأ وعيهم حين كان

السلطان عبد الحميد الثاني لا يزال يحكم الدولة العثمانية، وكانت المعارضة لحكمه تتوسع، وأغلب هذه النخب كما يسميها أسعد داغر درست في اسطنبول، شهدت الانقلاب الدستوري في عام 1908 أو آثاره في السنوات القليلة التالية.

كان معظم أبناء هذا الجيل في بدايات القرن العشرين طلابًا، أما التعليم الذي تلقوه في المدرسة العسكرية أو مدرسة الحقوق أو كلية الطب، فكان علمًا حديثًا مأخوذًا من البرامج الأوروبية، وكان أساتذتهم من الأوروبيين أو العثمانيين متأثرين بالفكر الوضعي، كما كان قادة الأحزاب المعارضة مثل «**تركيا الفتاة**» و«**الاتحاد والترقي**» مأخوذين بأفكار أوغست كونت الفيلسوف الاجتماعي الفرنسي.

أولئك الذين درسوا في باريس الطب أو الحقوق أدركوا الحقبة التي تبنت فيها فرنسا العلمانية في عام 1905. كانت الفكرة الدستورية هي التي نشأ عليها هذا الجيل من أبناء العرب، ولهذا كان الاحتفال بالانقلاب الدستوري عظيمًا وشاملًا جميع الفئات الاجتماعية التي كانت تنتظر تغييرًا ينهض بالبلاد ويضعها على طريق الحرية والتقدّم.

إلا أن الانقلاب الدستوري بصفته حدثًا محوريًا شبهه معاصروه بالثورة الفرنسية الكبرى[3]، خصوصًا لإطلاقه حرية القول والصحافة والجمعيات، أطلق أيضًا كل النوازع الإثنية - القومية التي كانت هي الأخرى تنهض في أوروبا التي تكرست فيها الدولة القومية، خصوصًا بعد الوحدة الإيطالية والوحدة الألمانية.

كان الانقلاب الدستوري هو السبب الذي دفع أسعد داغر إلى اختيار اسطنبول بدلًا من باريس لدراسة الحقوق. وحين وصلها في مطلع عام 1909، كانت تضج بالحوادث والنقاشات السياسية، وشاءت الظروف أن يمضي فيها خمس سنوات، انخرط خلالها في البيئة العربية المتحلقة حول عزيز علي المصري في «**جمعية العهد**» التي ضمّت بعض مئات من الضباط العرب، كما كان على صلة بالمنتدى الأدبي والشخصية الأبرز فيه، أي عبد الكريم الخليل. كانت السنوات الخمس الحافلة بالحوادث تشهد على انفكاك العرب عن الأتراك بعد أن أظهر قادة «الاتحاد والترقي» ميولهم القومية المعادية للعرب، الأمر الذي أدى إلى تأكيد العرب على هويتهم العربية. وفي هذه الأثناء، عقد المؤتمر العربي الأول في باريس في عام 1913[4]، وأعلن مطالب العرب في الاستقلال الذاتي وتأكيد الهوية العربية من دون الانفصال عن الدولة العثمانية. لكن هذا المؤتمر كان سببًا إضافيًا لاتساع الشرخ بين العرب والأتراك، خصوصًا من جانب «**جمعية الاتحاد والترقي**» التي صار قادتها أصحاب النفوذ في السلطة داخل الدولة والحكومة العثمانية، فأخذوا بالتضييق على الناشطين العرب في اسطنبول. اختار أسعد داغر المغادرة إلى مصر تفاديًا للاعتقال قبيل نشوب الحرب العالمية الأولى مباشرة، التي باعدت بين أولئك الذين ضمّهم النشاط السياسي المشترك في اسطنبول. وقد أمضى أسعد داغر نحو خمسة أعوام في القاهرة مارس خلالها مهنة الصحافة.

شارك داغر في نشاطات العرب المنفيين أو المقيمين في مصر، متابعًا حوادث الثورة العربية. وما إن دخلت قوات الجيش العربي إلى دمشق، حتى قرر الالتحاق برفاقه القدامى الذين ساهموا مع الأمير فيصل بن الحسين في تأسيس أول حكومة عربية[5] في العصر الحديث.

يقول أسعد داغر عن دمشق التي وصلها من مصر في مطلع عام 1919: «فلا غرو فقد ضمت دمشق في تلك الأشهر الخالدة من تاريخ سوريا رجالات الأمة العربية وخيرة شبابها ومفكريها من جميع الأقطار، وأصبحت كعبة لكل وطني عربي(...). «وكانت دمشق في حياتها الاستقلالية القصيرة دماغ الأمة العربية وقلبها النابض ويدها العاملة ومصدر النور الذي تستضيء به في طريقها إلى الحرية والحياة»[6]. فقد وفد إليها العراقيون الذين شاركوا في الثورة العربية، وجاء إليها رجالات سورية الداخلية وسورية الغربية ولبنان وسورية الجنوبية أي فلسطين، وعاد إليها المنفيون من مصر وأولئك الذين تأخروا في اسطنبول.

كان حلم هؤلاء إقامة المملكة العربية، إلا أن هذا الهدف أعاقت تحقيقه الخلافات الداخلية والمخططات الغربية، فارتضى المؤتمر السوري إعلان المملكة السورية وانتخاب فيصل ملكًا. ولم تمض سوى أربعة أشهر حتى وقعت معركة ميسلون[7] ودخل الجيش الفرنسي إلى دمشق، فانفضّ هذا الحشد من العروبيين الذين جعلوا من دمشق مدة عامين قلب العروبة النابض، وعاد العراقيون إلى العراق خصوصًا أن الثورة اندلعت هناك ضد الاحتلال الإنكليزي. ورجع الفلسطينيون إلى بلادهم ليجابهوا الاستيطان اليهودي والاستعمار الإنكليزي. وفرّ السوريون إلى شرق الأردن، وبعضهم إلى مصر، ورجع اللبنانيون إلى لبنان أو تفرّقوا بين شرق الأردن ومصر، وعاد أسعد داغر إلى مصر التي جاء منها.

كانت العروبة هي الفكرة والقضية التي جمعت هؤلاء الذين توافدوا إلى دمشق وانضووا تحت قيادة الحكومة العربية. وكانت الفكرة العربية حتى ذلك الوقت قد عرفت تطورًا خلال ما يزيد على نصف قرن من الزمن، من خلال تعدد الروافد. وتمثل الرافد **الأول** باللغويين اللبنانيين من أمثال بطرس البستاني وناصيف اليازجي وأحمد فارس الشدياق ويوسف الأسير الذين عكفوا على ترجمة **الكتاب المقدس** إلى العربية، وصاغوا عربية حديثة تستوعب المصطلحات القانونية والعلمية والفكرية بناءً على معاجم اللغة الكلاسيكية. وازدهرت هذه العربية على أيدي الشعراء اللبنانيين، خصوصًا الموارنة، وعلى أيدي مؤسسي الصحف الذين وضعوا هذه الفصحى المحدثة مجال اختبار في مقالاتهم التي يحررونها وينشرونها في صحفهم. وكانت العودة إلى العربية الفصحى تعني التمايز عن الأتراك وسائر الأقوام، وكذلك العودة إلى ماضٍ سابق للإسلام بامتداح المثل العربية كالكرم والشجاعة، ونُظمت القصائد على غرار المعلقات. في تلك الفترة، ساهمت الاكتشافات الأثرية والمؤلفات التاريخية الاستشراقية في تمجيد الحقبات القديمة كبابل في العراق وتدمر في سورية وفينيقيا في لبنان، فضلًا عن اكتشاف تراث الفراعنة في مصر. أما الرافد **الثاني** فتمثل بالإصلاحية الإسلامية وأفكار رائدها الإمام محمد عبده؛ فإضافةً إلى تحقيقه بعض أمهات التراث العربي مثل **أسرار البلاغة** للجرجاني و**نهج البلاغة** للإمام علي بن أبي طالب، كان الإمام محمد عبده يرى أن تقهقر الحضارة الاسلامية أتى على أيدي غير العرب. أما عبد الرحمن الكواكبي الذي اشتهر بنقد الاستبداد، فدعا في كتابه **أم القرى** إلى اجتماع علماء المسلمين من جميع الأقطار في مكة المكرمة، ما يعيد الاعتبار إلى دور العرب في انبعاث الإسلام وتاريخه. أما السيد رشيد رضا فأيّد الثورة العربية عند اندلاعها، وكان نائبًا في المؤتمر السوري ورئيسًا له لفترة وجيزة. والواقع أن تأثير الإمام عبده من خلال تلامذته في المشرق والمغرب كان كبيرًا، وكان أثره في نهوض الشعور الوطني بارزًا. وتعززت العروبة برافد **ثالث** مثّله الطلبة الذين عاشوا في الفترة التي برز فيها النشاط السياسي تحت شعار «عودة الدستور»، وأفادوا من انتشار التعليم الإرسالي والوطني والرسمي الذي ازدهر في الثلث الأخير من القرن التاسع عشر. وكان أغلبهم شهودًا على الانقلاب الدستوري في عام 1908، أو شهودًا على أثاره والتطورات المتسارعة التي باعدت بين العرب

والترك. ويعبر تأسيس «**العربية الفتاة**» عن ردة فعل على جمعية «**تركيا الفتاة**» و«**الاتحاد والترقي**» وعلى تأثر الجمعيتين بالمنحى العلماني.

يمكن القول إن العروبة التي مثلتها الحكومة العربية في دمشق هي حصيلة هذه الروافد أو التيارات الثلاث [الثلاثة]؛ اللغوية والإصلاحية والدستورية العلمانية. وهذه العروبة التي أصبحت عقيدة عروبيي المشرق لم تستطع أن تحافظ على مشروعها في بناء دولة عربية في الجزء الآسيوي من العالم العربي، إزاء التطورات المتسارعة المتمثلة بالضغوط الغربية التي مارسها الحلفاء من فرنسيين وإنكليز، والذين رأوا أن المنطقة تتسع لعدد من الحكومات والدول. بل إن الحكومة العربية في دمشق أذعنت للمؤتمر الذي أعلن سورية مملكة، متخليًا عن العراق والحجاز. من ناحية أخرى، كانت أجزاء من هذه المملكة تقع عمليًا خارج سلطة حكومة دمشق، فكان هناك لبنانيون يفاوضون على إقامة دولة ارتسمت معالمها بعد الاحتلال الفرنسي لدمشق، في الوقت نفسه الذي قامت فيه الثورة في العراق ضد القوات الإنكليزية، فكانت ثورة العشرين أساسًا لنشوء الوطنية العراقية، بعدما أُرغم العراقيون على مغادرة دمشق إلى بلادهم. كما أن أخبار الاستيطان اليهودي عجلت في عودة الفلسطينيين إلى بلادهم. ففي الوقت الذي كانت تتبلور فيه فكرة عربية جامعة، كانت الوقائع تدفع إلى بروز الوطنيات العراقية والفلسطينية والسورية واللبنانية.

لكن الفكرة العربية لم تمت أو تتلاشَ، بل على العكس من ذلك، فالوطنيات الناشئة لم تستطع أن تتخطى العروبة الجامعة. فأولئك الذين اكتسبوا وعيهم العروبي مبكرًا وشاركوا في الثورة أو انضموا إلى الحكومة العربية في دمشق كانوا هم أنفسهم بناة الدولة الوطنية في سوريا والعراق وشرق الأردن، كما شارك بعضهم في صوغ الميثاق الوطني اللبناني في ما بعد.

لم تضعف الفكرة العربية، بل على العكس من ذلك، فإن تقسيم المشرق العربي إلى دول بناء على معاهدة سايكس - بيكو، والوعد الإنكليزي بإقامة وطن يهودي في فلسطين، عززا فكرة العروبة ببُعد النضال ضد الاستعمار؛ إذ إن المعاهدة والوعد جعلا العروبة عقيدة معادية للاستعمار. يُضاف إلى ذلك أن معركة ميسلون أصبحت رمزًا مبكرًا للمعركة ضد الاستعمار الذي يعمل على تكريس التقسيم ومناهضة الوحدة العربية.

كان أسعد داغر الذي غادر دمشق بعد معركة ميسلون عائدًا إلى القاهرة التي أتى منها، ممتلئًا بفكرة العروبة والقضية العربية بعد تجربته الدمشقية التي جعلته على صلة بجميع أولئك الذين سيقودون لاحقًا العراق وسورية والأردن. وكانت الأفكار التي تشغله تتوزع على أربعة نقاط: إيجاد الدولة التي يمكنها أن تكون قاطرة العمل العربي والقاعدة التي تنطلق منها مسيرة الوحدة العربية؛ والعمل على ضم مصر إلى الفكرة العربية؛ وتكوين نواة تكون أساسًا للدعوة العربية؛ وإيجاد الزعيم الذي تلتف حوله الأمة.

كان انتقال فيصل إلى عرش العراق قد أعاد الأمل إلى أولئك الذين يبحثون عن نقطة ارتكاز للعمل العربي والقضية العربية. وفي واقع الأمر، وجد الملك فيصل بانتظاره مجموعة كبيرة من الضباط الذين رافقوه في معارك الثورة العربية، وكانوا على أهبة الانتقال إلى العمل السياسي وتسلم مناصب الحكومة والادارة. ورافقه إلى العراق أشخاص مقربون من غير العراقيين، أمثال ساطع الحصري ورستم حيدر وأحمد قدري وغيرهم. وتوجهت أنظار العروبيين إلى العراق، ومن بينهم أسعد داغر الذي كان يرى أن العراق يمكنه أن

يؤدي دور إقليم بيامونت وعاصمته تورينو في توحيد إيطاليا. ويذكر هذا المثال في كتاب مذكراته مرات عديدة. وكانت وفاة هذا العاهل العظيم في عام 1933 نقطة تحول في تاريخ القضية العربية، فبدأت الأنظار تنصرف عن العراق باحثة عن أمل جديد بدلًا من الأمل الذي تبدد، وأخذت الحوادث تتوالى في بغداد فتزيد الحالة سوءًا والموقف شدة.

في سياق مذكرات أسعد داغر، نلمح كيف أن المملكة العربية السعودية صارت محط أنظار بعض العروبيين الذين فقدوا الأمل بقيادة الهاشميين للقضية العربية. وكان داغر واحدًا من الذين تنبهوا إلى دور يمكن أن يؤديه الملك عبد العزيز بن سعود، خصوصًا بعد لقاء المصالحة الذي عقد بين الملك فيصل وابن سعود، على الرغم من أنه جرى على ظهر بارجة إنكليزية بحسب ملاحظته. وفي الخلاف بين المملكة السعودية والعراق، سعى أسعد داغر إلى التوفيق بينهما، خصوصًا أن العراق كان يدعم معارضي الملك عبد العزيز داخل أراضي المملكة. كذلك، فإنه يذكر ميزات الأمير فيصل بن عبد العزيز الذي كان يُبدي كل الدعم لأي مسعى في سبيل القضية العربية.

لكن أسعد داغر، ومنذ وقت مبكر، كان يتطلع إلى اندراج مصر في القضية العربية، فكان يرى أنها البلد العربي الأكبر، وانضمامها إلى القضية العربية سيغير المعادلات، ويجعلها قاطرة العمل العربي. ولا شك في أنه كان منحازًا في تفكيره إلى مصر التي اختار العيش فيها، واكتسب جنسيتها، وعدّ نفسه مصريًا مثل كثير من اللبنانيين الذين سبقوه في الهجرة إلى مصر وعملوا فيها، خصوصًا في الصحافة التي كانت مهنته طوال حياته.

كان يدرك، منذ وصل إلى مصر أول مرة، التباعد بين مصر وعروبيي المشرق. وازداد هذا التباعد مع اندلاع الثورة العربية في الحجاز، وكان على علم بالمراسلات التي تجري بين قيادة الاحتلال الإنكليزي في مصر والشريف حسين (مراسلات حسين مكماهون)، وشعر المصريون الذين ثاروا على الاحتلال الإنكليزي في عام 1919 أن ليس ثمة من أمر مشترك يجمعهم إلى الحكومة العربية في دمشق. وبغض النظر عن السوريين واللبنانيين المقيمين في مصر الذين كان يشغلهم ما يجري في سورية، فإن المصريين كانوا غير مكترثين بالحكومة العربية في دمشق. وحين عُرض على سعد زغلول، زعيم حزب الوفد تأليف وفد عربي مشترك إلى محادثات السلام في فرساي، أبدى عدم اكتراثه؛ إذ لم يرَ فائدة تُرجى من ذلك[8]. ولم يكن ما يجري في دمشق يثير اهتمام الرأي العام في مصر أو صحافتها، ويذكر داغر أن سقوط دمشق بعد معركة ميسلون لم يشغل غير خبر صغير في الصحف المصرية. لكن موقف الرأي العام المصري تبدّل مع اندلاع الثورة السورية الكبرى في عام 1925، فأثارت أخبار المقاومة البطولية التي أبداها السوريون من جهة، والقصف الوحشي الفرنسي لأحيائهم ومدنهم من جهة ثانية، عواطف المصريين تقديرًا لتضحيات السوريين. وليست قصيدة أحمد شوقي «سلام من صبا بردى» سوى التعبير عن عمق التعاطف وعن تقدير تضحيات السوريين في سبيل استقلال بلادهم.

اجتهد أسعد داغر في سبيل إيصال صوت القضية العربية إلى المصريين من خلال عمله في الصحافة. إلا أن ذلك لم يكن غير جزء بسيط من جهوده في سبيل تكوين نخبة مصرية مؤمنة برسالة العروبة. وعلى طريقته، ينسب الجهد لسواه، بل ينسبه إلى مجموعة من الطلاب. ويذكر أنه في عام 1936، أُسست في مصر «جمعية الوحدة العربية»

التي ضمّت طلابًا ومفكرين معروفين أمثال عبد الستار الباسل وعبد الرحمن عزام ومنصور فهمي ومحمد علي علوبة، وانتُخب أسعد داغر أمينًا عامًا للجمعية. يقول إن أعضاء هذه الجمعية «من المؤمنين بأن لا عروبة بدون مصر، ولا وحدة ولا استقلال إلا بعد دخولها معهم». ولا شك في أن هذه الجمعية أدت دورًا مهمًا في السعي إلى تأسيس جامعة الدول العربية، فأصبح عبد الرحمن عزام أمينًا عامًا للجامعة، وأصبح أسعد داغر مدير الاستعلام والنشر فيها[9].

كانت فكرة الزعيم أو القائد الذي تعلّق الأمة عليه آمالها قد راودته مبكرًا، وكان لا يزال طالبًا في اسطنبول حين وجد في اللواء عزيز علي المصري الشخصية القيادية التي يمكن أن تقود الأمة، خصوصًا أنه كان عسكريًا مرموقًا خاض كثيرًا من المعارك، ومؤيدًا للانقلاب الدستوري وداعمًا له. وكانت رتبته العسكرية الرفيعة وتأثيره في الضباط العرب في اسطنبول قد جعلا منه شخصية تتطلع إليها أنظار العرب الذين كانوا يفتقدون الرجل الذي يقود نضالهم في سبيل الاستقلال. إلا أن أسعد داغر فقد الأمل بعزيز علي تدريجًا بعد أن شغلت أمور عديدة هذه الشخصية التي ما عادت قادرة على أداء الدور الذي يتوخاه منها.

بعد وصوله إلى دمشق في عام 1919، وجد أن تعدد الآراء وتضاربها ناتجان من الافتقار إلى قيادي، بعد أن لمس في الأمير فيصل عدم تمتعه بصفات الزعامة. فتطلع إلى ياسين الهاشمي، العسكري المرموق، إلا أن الفترة التي أمضاها في السجن الإنكليزي أفقدته ميزته واستعداده للزعامة. ودار في ذهنه أن الأمير زيد، الشقيق الأصغر للأمير فيصل، يملك من الميزات ما يؤهله لأداء هذا الدور، بل إنه فكّر في أن البلاد تحتاج إلى ديكتاتور. وفي هذا يقول: «على أن سورية كانت في تلك الأثناء أشد حاجة إلى زعيم عسكري منها إلى زعيم سياسي لأن تنظيم الشعب وتدريبه واستكمال أسباب القوة فيه، والقضاء على النزعات المختلفة بين أفراده وتوحيد صفوفه وتوجيهه إلى هدف معين، كل ذلك كان يتطلب يدًا قوية لم يكن أحد يظن قبل ظهور لينين وموسوليني وهتلر أنها قد تكون يد غير عسكرية».

لم تغادره فكرة زعيم يوحد الأمة ويحمل آمالها، ويضع العرب ثقتهم به، ففي الصفحة الأخيرة من المذكرات، وتحت عنوان «آمال تتحقق» يقول: «لقد كنت دائمًا أقول إن الأمة العربية أصبحت الآن في حاجة إلى نبي أو زعيم، وإن هذا الزعيم لا بدّ من أن يظهر قريبًا. وقد كنت أعتقد بهذه الحقيقة منذ بدء النهضة العربية، وسبق لي أن سمعت بعض الذين عقدت عليهم الآمال من رجال الأمة العربية. فأضاعوه الواحد تلو الآخر، إلى أن قامت ثورة مصر الكبرى بقيادة الرئيس جمال عبد الناصر. وقد تسنى لأسعد داغر أن يلتقي عبد الناصر في اجتماع عام ضم أصحاب الصحف، فأطال النظر إليه ودرس حركاته وسكناته، كما يقول، فوجد فيه الزعيم الذي اختاره الله لإنقاذ الأمة العربية.

قُيّض لأسعد داغر أن يرى بعض آماله تتحقق. فقبل وفاته بأشهر قليلة، قامت الوحدة بين مصر وسورية. وكانت الوحدة العربية الحلم الذي عمل كثيرًا من أجل تحقيقه. ففي الصفحة الأخيرة يقول: «إن الفكرة العربية التي كانت حلمًا لذيذًا لي ولإخواني في عهد الصبا أصبحت حقيقة ملموسة في عهد الكهولة... وجدت أن مصر أصبحت ركن العروبة وملاذها، وأن الشعوب العربية التي كانت متناثرة متخاذلة، لا كيان لها ولا وجود إلى ما قبل سنوات قليلة، قد اتحدت وتضامنت وسارت بخطى الجبابرة في طريق المثل العليا».

فما هي الفكرة العربية بحسب أسعد داغر؟ لا شك في أن هذه الفكرة تطورت في ذهنه تبعًا لتطورها في الواقع. فإذا كانت هذه الفكرة ذات طابع لغوي وإصلاحي مع ميلٍ إلى فصل الدين عن الدولة، فإن العروبة «الهاشمية» إذا جاز التعبير، وهي التي حملها الجيل الذي شارك في الثورة العربية وفي الحكومة العربية في دمشق، وكان لبعض أفراده أن يرتقوا إلى سدّة الحكم والحركة الوطنية في بلدان المشرق، تأثرت بالأفكار القومية التي ظهرت في بلدان أوروبا، وأخذها بعض المفكرين الذين بادروا إلى صوغ آراء في القومية ذات طابع راديكالي، فنرى التحول من العروبة Arabisme إلى القومية العربية Arabité. وفي نهاية كتابه، وفي مناسبة الحديث عن «**جمعية الوحدة العربية**» التي وضعت في بيان تأسيسها المبادئ التي تلخص ما آلت إليه الفكرة العربية، ومن المرجح أن أسعد داغر هو من صاغ هذه المبادئ، نجد تعريفًا للوطن العربي وهو البلاد التي يسكنها العرب، والأمة العربية هي الجماعة التي تسكن هذا الوطن، والقومية العربية هي مجموعة الصفات والمميزات والخصائص والإرادات التي ألفت بين العرب وكونت منهم أمة واحدة، والقضية العربية هي الحركة التي يقوم بها العرب لتحرير أمتهم من الاستعمار والاستعباد والفقر والجهل، والدولة العربية هي دولة قومية لا دينية، والحريات العامة حق مقدس للجميع، ولكن يسّوغ للقانون تقييدها إذا قُصد بذلك مصلحة الأمة. وهكذا حتى يصل إلى البند الثاني عشر؛ فكرة الأمة العربية التي تستمد نشاطها من حياة اللغة العربية وتاريخ الأمة العربية واتصال البلاد العربية بعضها ببعض.

بقي أسعد داغر مؤمنًا بالعروبة التي اكتشف انتماءه إليها مبكرًا، وهو المولود في بيئة تتحدث العربية من دون أن تسمع بالعروبة، عدا ما سمعه من والده عن أصل عائلته الذي يرجع إلى قبيلة عربية في العراق. ولد أسعد داغر في عام 1893 في بلدة تنورين في جبل لبنان الشمالي لعائلة مارونية ولوالد متعلم يمارس المحاماة، وله صلات برأس الكنيسة آنذاك البطريرك الياس الحويك. أرسل الوالد ابنه أسعد إلى إحدى المدارس الإرسالية العريقة، حيث التقى هناك طالبًا مسلمًا هو رياض الصلح الذي عرف من خلاله عروبته.

لا يخبرنا أسعد عن نشأته وعائلته وبيئته إلا القليل؛ إذ ذابت شخصيته في القضية التي نذر نفسه لها. وهو إذ يخبرنا عن إقامته في مدينة طرابلس شهرين في عام 1908، فكي يروي كيف عرف حضارة العرب من خلال العلماء الذين درس الفقه على أيديهم. وتشاء المصادفات أن يكون على متن الباخرة التي أقلته إلى اسطنبول نواب العرب إلى مجلس المبعوثان في عاصمة الدولة العثمانية بحسب تعبيره. وهناك، في هذه العاصمة التي تضج بالحوادث، بدأ نشاطه في الجمعيات العربية وتعرّف إلى أعضائها، وبدأ بممارسة المهنة التي ستكون مهنته طوال حياته وهي الصحافة، إلى جانب نشاطه في القضية العربية، والتي يشير إليها في مذكراته. كما تشير إلى ذلك مراسلاته[10] مع أبرز الشخصيات العربية التي تدور حول مسائل تتصل بالعمل العربي والجهد المبذول لتحقيق الوحدة.

لا يشير أسعد في مذكراته إلى الشأن الذي أداه في سبيل إنشاء جامعة الدول العربية، كما لا يشير إلى المنصب الذي تسلمه في أمانتها العامة وهو منصب مدير الاستعلام والنشر، وهو غادر هذا المنصب في عام 1954 بعد أن حقق حلم حياته بإصدار صحيفة تكون صوت العرب في جميع أقطارهم.

إضافة إلى **مذكراتي على هامش القضية العربية**، الصادر في عام 1959 عن مطابع جريدة القاهرة، لأسعد

داغر عدد من الأعمال والترجمات هي:

– **ثورة العرب ضد الأتراك، مقدماتها– أسبابها– نتائجها**: صدر باسم (أحد أعضاء الجمعيات السرية العربية) عن دار المقطم في عام 1916. ثم أعادت دار مصباح الفكر في بيروت طبعه في عام 1987، ثم دار التضامن في بيروت في عام 1994.

– **حضارة العرب: تاريخهم، علومهم، آدابهم، أخلاقهم، عاداتهم**: صدر عن مطبعة الموسكي في مصر في عام 1918.

– **عمر وجميلة أو في ربى لبنان**: رواية معربة عن الفرنسية لمؤلفها هنري بوردو. طبعت في مطبعة العرب بمصر (بدون تاريخ).

نضيف إلى ذلك **رسائل لرجال من زمن النضال**، أنطوان داغر (جبيل– لبنان: 2018).

بدأ أسعد داغر حياته المهنية مبكرًا حين كان لا يزال بعدُ طالبًا في اسطنبول، فراسل صحيفة **المقطم** في القاهرة. وحين غادر إلى مصر عمل في مجلة المقطم سنوات عدة، ثم في جريدة **الأهرام** نحو ثلاثة عقود. وتسنى له أن يصدر جريدة **القاهرة** في عام 1952، والتي كانت مشروع حياته، وأرادها أن تكون صوت العرب في أجواء أقطارهم. ألمت به وعكة صحية في عام 1947، فكتب وصيته التي وجهها إلى أربعة أشخاص هم أحب الناس إليه بحسب تعبيره، وهم: شكري القوتلي والأمير فيصل آل سعود وعبد الرحمن عزام وخير الدين الزركلي.

أوصى بجميع ما يملكه وبمستحقاته لشقيقه وشقيقتيه. كما أوصى الذين وجّه إليهم الوصية بالاعتناء بصحتهم، وبإنقاذ فلسطين لأن في ضياعها قضاء على كيان الأمة العربية، وأن يعملوا على تبديد الغيوم المتلبدة في أجواء البلدان العربية. كما أوصاهم بالحرص على لبنان فإنه سيكون ابن العروبة الأبر. وأخيرًا أوصاهم بتربية الشبيبة تربية وطنية قويمة[11].

كتب أسعد داغر وصيته في 4 كانون الأول/ديسمبر 1947. وقُيّض له أن يعيش بعدها إحدى عشرة سنة، فكانت وفاته في 26 تشرين الثاني/نوفمبر 1958. وكما أوصى، نُقل جثمانه إلى بلدته تنورين ودفن في مدافن العائلة.

---

(3) ينظر: سليمان البستاني: **عبرة وذكرى أو الدولة العثمانية قبل الدستور وبعده**، تقديم وتحقيق خالد زيادة (الدوحة/ بيروت: المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، 2019).

(4) يُنظر: **وثائق المؤتمر العربي الأول 1913: كتاب المؤتمر والمراسلات الدبلوماسية الفرنسية المتعلقة به**، تقديم ودراسة وجيه كوثراني (الدوحة/بيروت: المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، 2019)، يورد الكتاب أسماء الوفود المشاركة، ص 117-122.

(5) استمر الحكم العربي في دمشق من أيلول/سبتمبر 1918 إلى تموز/يوليو 1920. تبدلت خلالها مجالس المديرين مرات عدة. ينظر: خيرية قاسمية، **الحكومة العربية في دمشق**، ط 2 (بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر،

1982)، ص 46-63.

(6) عن دور دمشق وقياداتها ومواقفهم من الحكومة العربية. يُنظر: فيليب خوري، **أعيان المدن والقومية العربية** (بيروت: مؤسسة الأبحاث العربية، 1993)، الفصل الرابع: «الأعيان والقوميون وحكومة فيصل العربية»، ص 121-147.

(7) من أبرز المراجع عن الأوضاع التي سبقت معركة ميسلون ورافقتها، كتاب ساطع الحصري، **يوم ميسلون.. صفحة من تاريخ العرب الحديث** (دمشق: منشورات وزارة الثقافة، 2004).

(8) يُنسب إلى سعد زغلول، ردًا على عبد الرحمن عزام الذي حاول إقناعه بتأليف وفد عربي مشترك إلى مفاوضات السلام في باريس، قوله: «كم يساوي الصفر إذا أضيف إلى أصفار أخرى».

(9) أنطونيوس بطرس داغر، «أسعد داغر وإسهامه في النهضة العربية من خلال أدبه السياسي»، أطروحة دكتوراه، بيروت، الجامعة اللبنانية، كلية الآداب والعلوم الانسانية، الفرع الثاني، 1999-2000، ص 97.

(10) أنطوان داغر، **رسائل لرجال من زمن النضال: مراسلات أسعد مفلح داغر** (جبيل - لبنان: نشر خاص، 2018).

(11) يُراجع النص الكامل للوصية في: داغر، «أسعد داغر وإسهامه في النهضة العربية»، ص 53-54.

مذكراتي
على هامش القضية العربية

مقدمة

ليست هذه المرة الأولى التي أحاول فيها كتابة مقدمة لهذه المذكرات، فقد كتبتها من قبل عدة مرات، وكانت تأتي في كل مرة وكأنها تقديم للقضية العربية. والواقع أن تفكيري كله كان وقفًا على هذه القضية التي بدأ ظهورها مع فجر حياتي، والتي رافقتها منذ نشأتها بروحي وعقلي ودمي، ووهبتها أجمل أحلامي وأطيب أماني. وعشت معها ولها طيلة أيام شبابي وكهولتي، فكان من الطبيعي أن تشغل قلمي كما شغلت دائمًا قلبي، وأن يكون لها أعظم الأثر في كل عمل من أعمالي.

ولا أريد هنا أن يتطرق إلى ذهن أحد أني أهدف في هذه المذكرات إلى إبراز أهمية دوري في تاريخ القضية العربية، فأنا لست إلا واحدًا من الملايين الذين ساهموا في صنع هذا التاريخ، وقد لا يتعدى دوري فيه دور النملة في قصة «لافونتين»[12] المعروفة[13].

إلا أنه قد قدر لي في شتى مراحل القضية العربية أن أعرف الكثير من أحداثها، حلوها ومرها، والكثيرين من رجالها، الأحياء منهم والأموات، البارزين والمغمورين، التابعين والمتبوعين، رجال الفكر، ورجال السيف.

عرفت شهداء الرعيل الأول الذين استقبلوا مشانق جمال السفاح[14] في دمشق سنة 1916، بقلوب عامرة بالثقة والأمل والإيمان.

عرفت الألوف المؤلفة من المجاهدين الذين رووا بدمائهم الزكية أقدس بقاع العرب في الحجاز وفلسطين وسوريا والعراق ومصر والجزيرة والمغرب.

عرفت رجالات العرب كبارًا وصغارًا، مدنيين وعسكريين، ملوكًا ورؤساء، قادة وأمراء، وصادقت الكثيرين منهم، وكنت دائمًا موضع ثقتهم وأحيانًا مستودع أسرارهم.

عرفت هؤلاء وأولئك، وسرت إلى جانبهم مع هذه الأمة في جميع الأدوار التي مرّت بها، وعشت معهم في كل مراحلها، وكل لحظة من لحظات تطورها.

لهذا كله أرى من واجبي نحو أمّتي أن أعرض عليها بعض ما رأيت وما سمعت في هذه الفترة الخطيرة من التاريخ، عسى أن تجد فيه من العبرة والعظات ما قد يعود عليها ببعض الفائدة.

كما إني أرى من حقي على أبناء هذا الجيل والأجيال المقبلة أن يولوني شيئًا من الثقة والأناة وسعة الصدر وهم يتصفحون هذه المذكرات، التي أرجو أن لا يجدوا فيها غير الحق أو ما اعتقدت أنه حق.

وأول ما أريد أن أقوله لهم الآن هو أن الفترة التي تناولتْها هذه المذكرات من تاريخ الأمة العربية، فاقت بخطورة وقائعها وكثرة مفاجآتها كل ما رواه تاريخ البشر منذ الخليقة، وأن المكانة التي يحتلها العرب اليوم في المجال العالمي، هي ثمرة أعظم قصة من قصص الكفاح، سطرها شعب في فترة وجيزة من الزمن.

فمنذ خمسين عامًا كان العرب لا يدركون معنى العروبة، وكانوا يفاخرون بالانتساب إلى عناصر أخرى

كالترك وغيرهم، وقد أوشكوا أن يفقدوا لغتهم، بعد أن فقدوا عزّتهم وكرامتهم بتزلفهم للمستعمرين وتراميهم على أقدام الأجانب. فلما ظهرت الدعوة إلى القومية العربية قبيل الحرب العالمية الأولى رأى فيها بعض العرب ضربًا من الخيانة، والبعض الآخر دسيسة تهدف إلى تحطيم الدولة العثمانية التي كانت دولة الخلافة العظمى.

ولكن كفاح الطليعة الأولى من أبناء هذه الأمة في سبيل نشر الوعي القومي، كان له أعظم الأثر في جماهير الشعب. فما بدأت الحرب العالمية الأولى حتى كانت الأمة كلها قد استيقظت من رقادها تعلن عروبتها، وتطالب بحريتها وتقرير مصيرها.

وكانت الدعاية للقضية العربية تسير منذ ذلك الحين وفقًا للقواعد التالية التي وضعها شباب المنتدى الأدبي[15] وأقرّتها الأحزاب الأخرى وهي:

– اتخاذ القضية العربية أساسًا لكل عمل ولكل فكرة.

- توحيد الشعور العربي وتعزيزه بدعاية قوية منظمة.

- نبذ سياسة الخوف والتذرع بالشجاعة في كل ما هو حق.

- التسلّح بكل ما يمكن من أسباب القوة المادية والأدبية.

- خلق صداقات قوية للأمة العربية مهما كلف ذلك من ثمن.

- بذل كل التضحيات لجعل إقامة المستعمر مستحيلة في البلاد.

- تربية الروح العسكرية في النشئ [النشء] الجديد وإعداده إعدادًا سليمًا لمعركة الحرية.

وسارت الأمة في طريق هذه الأهداف خطوات واسعة بفضل الجهود التي بذلها مجاهدوها الأحرار، فلم يمض وقت طويل حتى أصبحت القومية العربية أمنية العرب جميعًا، وأصبح العرب في مختلف أقطارهم كتلة واحدة تفكر بعقلية واحدة وتعمل بقلب واحد. كما أنهم نبذوا سياسة الخوف وقاموا بأعمال رائعة من أعمال البطولة في مختلف ميادين الكفاح.

وإذا كانوا قد عجزوا عن تدارك السلاح الذي كان ينقصهم، وعن خلق الصداقات اللازمة لهم، فما ذلك إلا لأن العالم كله كان ضدهم، يكيد لهم ويبث الألغام في طريقهم، ومع ذلك لم يقنطوا بل قاموا بثورات متوالية كانت كل منها تضطر المستعمر إلى التراجع قليلًا أو كثيرًا، حتى جاء وقت انسحابه نهائيًا من البلاد.

لقد علمتنا التجارب أنه ليس في السياسة صديق أو عدو، بل هناك مصالح توضع موضع المساومة، وقوة تفرض إرادتها. وقد دفعنا ثروات بلادنا، وكثيرًا من كرامتنا، ثمنًا لصداقات كنا نسعى إليها، ولكنها أفلتت من يدنا وضاع الثمن علينا.

وكانت الثورة العربية الأولى[16] مثالًا صادقًا لذلك، فالظروف القاهرة التي فرضتها علينا سنة 1916،

كانت تتطلب أمورًا كثيرة لم تكن متوفرة لنا، أهمها الأصدقاء الذين يؤيدون أهدافنا، ويشدون أزرنا، فلما اضطررنا إلى الدفاع عن أنفسنا ضد الترك لم نجد أمامنا غير السير مع الحلفاء ونحن عالمون بما لهم من مطامع في بلادنا. ولكن الخطر العظيم الذي كان يهددنا به الترك، وهو خطر الإبادة والفناء، لم يترك لنا مجالًا للتفكير أو الاختيار، فلم يكن هناك شرّان، بل كان موت محقق من جهة إذا لم نثر على الترك، وجهاد شاق طويل في سبيل حياة حرة كريمة من جهة أخرى. لذلك لم تكد تنتهي الثورة العربية ضد الترك بتقسيم البلاد بين الإنجليز والفرنسيين، حتى استؤنفت ضد المستعمرين الجدد، في سوريا وفلسطين والعراق.

وكانت هذه الثورات المتوالية موضع فخر الأمة العربية، لما أبدته فيها من بسالة وإقدام وبُعد عن كل ما يشينها، بينما كان المستعمرون يسيرون في أعمالهم من عار إلى عار.

وكان يظهر في خلال هذه الأزمات بعض ضعفاء النفوس من العرب، ولكن رجال الوطنية كانوا دائمًا بالمرصاد، يسارعون إلى معالجة العيوب، وسد الثغرات الخلفية بما لديهم من وسائل، موجهين كل عنايتهم إلى تقويم الأخلاق، وترسيخ المبادئ السامية في النفوس، وتعزيز القيم الروحية وتقويتها، والدعوة دائمًا إلى المثل العليا، فتمكنوا بذلك من صيانة الأمة برغم التيارات التي كادت تكتسحها، وما كانت تتركه من آثار الضعف والوهن في بعض النفوس.

أذكرُ مرة أن شابًا من الشبان تمنى، على مسمع مني، أن تحتل إحدى الدول البلاد لحماية العرب من اليهود، ولا أذكر بأية لهجة خاطبته حينئذٍ، فانكمش على نفسه وتمنى لو أن الأرض تبتلعه.

وسمعتُ مرة في أثناء الفتنة التي قامت في دمشق على أثر أزمة «نقطة الحليب»[17] بعض المتظاهرين يهتفون «نريد الانتداب مع الحجاب» فهالني الأمر، وأسرعت إلى صبري العسلي[18] والحاج أديب خير[19] وغيرهما من الإخوان لاستعجالهم على تدارك الأمر، وكان شكري القوتلي[20] مريضًا في ذلك الحين.

وكان كل انهيار من هذا النوع يبدو في البلاد، تعقبه انتفاضة قوية من الشعب تقلب كل شيء رأسًا على عقب، وتدفعه خطوات واسعة إلى الأمام، بفضل تلك النخبة الممتازة التي مهدت بدمائها وعرقها وجهودها طريق الاستقلال، وحفظت للأمة كيانها، وصانت أخلاقها، ورسخت في نفسها أسمى المبادئ، وأشرف الأخلاق.

تلك النخبة الممتازة التي تولت قيادة الأمة في أعظم مرحلة من مراحل تاريخها، كانت ممتازة في كل شيء، في إخلاصها وتضحيتها وبُعد نظرها وحُسن تدبيرها للأمور، وفي ترفعها عن المادة وتفانيها في سبيل الواجب الوطني، لم يكن فرق كبير بين كبيرها وصغيرها، غنيها وفقيرها، بل كان كل شيء مشاعًا بين أفرادها، يكتفون بالقليل، ويجودون بالكثير ويتسابقون إلى التضحية في كل ميدان. لم يكن بينهم تنافس، بل كانوا يلتفون حول من يتقدم الصفوف ويسيرون وراءه ويدفعونه إلى الأمام.

كانوا يعرفون أنفسهم معرفة تامة، ويبحثون دائمًا عن أفضلهم وأشجعهم ليسيروا وراءه. كانوا أفرادًا متفاهمين متجانسين، اندمج بعضهم ببعض، فعملوا كشخص واحد، وكانت العلاقات بينهم علاقات روحية قائمة على أساس الثقة والحب المتبادل والاشتراك الفعلي في الفكر والرأي. فما كان يفعله أحدهم في

القاهرة مثلًا يقره إخوانه في دمشق وبغداد والرياض والمهاجر، ويتعاونون على تنفيذه بكل اخلاص وحزم. إذا اجتمعوا ألّفوا حزبًا قويًا منظمًا، وإذا شردوا كانوا حزبًا أعم وأقوى.

اندمجت أشخاصهم بمبادئهم، وتجسدت هذه المبادئ بأشخاصهم وأحزابهم، فامتزجت بها حتى أصبح من المستحيل التفريق بينها، وقد كانوا جميعًا من طينة واحدة يمثلون فكرة واحدة، ويسيرون إلى هدف واحد، ويعملون كشخص واحد.

لم يذهب عمل من أعمالهم سدى، ولم تَضِع قطرة من الدماء أو الدموع جزافًا، بل كانت تتجمع بعضها فوق بعض، وتتجمد كالصخرة، ثم تلقى في أساس هذا الصرح العظيم، صرح العروبة الشامخ.

كانوا يُعدون بالألوف، وكانت تلك الألوف مختلة منهم، ولا يصدق هذا القول على القوتلي وهنانو[21] والعظمة[22] والجابري[23] فقط، بل تعداهم إلى من هم أقل شهرة منهم، سواء في ذلك رجال الفكر، أو رجال السيف.

هؤلاء جميعًا يرجع إليهم الفضل في الخطوات التي خطتها القضية العربية في الأربعين سنة الماضية، ولا أريد أن أسميهم الآن فهم كثيرون، يمثلون جيلين أو أكثر من الناس. وقد تساووا في الجهاد والكفاح، وتساووا في البذل والتضحية، وتسابقوا إلى الموت في ميدان القتال، وأسبقهم إليه هو الأفضل بطبيعة الحال والأجدر بالتقدير والثناء.

يرجع إليهم فضل التضحية والاستشهاد، وفضل خلق المبادئ والأفكار وتنسيقها، ودعوة الناس إلى اعتناقها، وخلق الوعي القومي وتعميمه، وإثارة حماسة الشبيبة وتغذيتها في الصدور، وتمجيد أعمال البطولة والدفاع عن القضايا الوطنية، في الداخل بالالتجاء إلى القوة على اختلاف أشكالها، وفي الخارج بالدعاية المنظمة لها وإجادة عرضها على الرأي العام.

وهكذا بدأت القضية العربية تأخذ مكانها بين الأحداث العالمية، واستطاع العرب أن يحققوا أرباحًا متوالية بما لجأوا إليه من وسائل متنوعة للكفاح.

لجأوا إلى المظاهرات والاغتيالات والاضطرابات والثورات، كما لجأوا إلى الدعاية والمفاوضات، وكانوا أحيانًا كثيرة يتوسلون بهذه الوسائل جميعًا في آن واحد، فيتقدمون خطوة ثم يتوقفون، إلى أن أدركوا بالتجربة أن الطريقة الوحيدة التي تؤدي رأسًا إلى الحرية الكاملة، هي القوة وحدها لا طريق غيرها، قوة السلاح وقوة السياسة، وكلتاهما يحتاج إلى صداقة دول قوية تؤيدنا وتشد أزرنا.

وإذا كان ما دفعناه ثمنًا لصداقات كنا ننشدها قد ضاع، كما ضاعت تلك الصداقات نفسها، فما ذلك إلا لأننا كنا ضعفاء، في عالم لا يحترم غير القوة، وقد حاولنا معالجة هذا الضعف بجمع كلمتنا وتوحيد صفوفنا، وتنسيق خططنا ونبذ سياسة الخوف في علاقاتنا مع الدول الكبرى. ولكننا لم نوفق في ذلك التوفيق كله، لوجود المستعمرين بيننا وسيطرتهم على بعض زعمائنا وحكوماتنا.

ولم يكن التخلص من هذه السيطرة سهلًا، فإن المحتلين، وقد عجزوا عن وضع جندي من جنودهم إلى جانب كل مواطن، استعاضوا عن هذا الجندي بشبح شرطي أقاموه في قلب كل رجل وامرأة من سكان

البلاد التي يحتلونها فكانت هيبة هذا الشبح معادلة لهيبة الجندي المسلح، وكان لا بد من التخلص من هذه الهيبة ليمكن التخلص من سيطرة الأجانب وتحكمهم[24].

وهذا ما بدأ به أحرار العرب منذ عهد الترك قبل مشانق جمال وبعدها، فلما جاء الإنجليز والفرنسيون كانت سياسة الخوف قد زالت من جميع البلاد العربية، وحلّت محلها سياسة الجرأة في الحق على الأفراد والحكومات من وطنيين وأجانب.

ومرت سنوات طويلة والعالم العربي في كفاح مستمر مع الاستعمار، كفاح في مصر، وكفاح في الريف[25]، كفاح في سوريا وفلسطين والعراق. أرواح تُزهق، ودماء تُراق، ومدن تُدمّر على رؤوس أصحابها، ومظالم تقع على الأبرياء في كل مكان، وفظائع تقشعر لها الأبدان.

وقد أدى هذا الكفاح الطويل إلى إبراز الوحدة القائمة منذ عهد بعيد بين الشعوب العربية جميعًا.

قال لي أحد رجال السياسة البولنديين في سنة 1927 إن القضية العربية ستكون قضية النصف الثاني من هذا القرن.

وقال لي سياسي إنجليزي بعد ذلك، لو وحّدتم آراءكم لوجدتمونا أكبر مؤيديكم. فقلت إن الأمة العربية متحدة في آرائها وآمالها وأمانيها أكثر من أية أمة أخرى، حتى الأمة الإنجليزية نفسها، فإنك تسمع في لندن آراء مختلفة بشأن إنجلترا وسياستها وأهدافها. أما الأمة العربية فلو زرت أقطارها كلها قاصيها ودانيها لسمعتَ كلامًا واحدًا من كل من تلقاه في طريقك من سكانها، كبيرًا كان أو صغيرًا، غنيًا أو فقيرًا، عالمًا أو جاهلًا. مطالبهم جميعًا واحدة، وآمالهم واحدة وطريقة تعبيرهم عن هذه الآمال واحدة، وهذه وحدة لا تعرفها أمة أخرى، ولا تحلم بها.

أما النتائج الضئيلة التي أسفرت عن هذا الكفاح فيعزو البعض أسبابها إلى الأخطاء التي اقترفناها في سياستنا، وفي مقدمتها اشتراكنا مع الحلفاء في الحرب العالمية الأولى، وهذا ما أريد أن أنفيه نفيًا باتًّا، فقد اقترفنا أخطاء كبيرة، ولكن ليس بينها أبدًا قيامنا بالثورة على الترك دفاعًا عن كياننا القومي. فلولا تلك الثورة لما وجدنا الآن عربًا في سورية والعراق وفلسطين، بل كان الترك يحلّون محلهم في هذه الأقطار الثلاثة ليشردوهم في أنحاء الأناضول المختلفة ويندمجوا بسكانه.

نعم، كانت هناك أخطاء، لأن كل من يعمل معرّض للخطأ، أما الذي لا يعمل فلا يخطئ أبدًا، والعرب كانوا مكرهين على أن يعملوا لأن خطر الفناء كان يهددهم على الدوام.

والحقيقة التي يجب أن تُقال هي أن ما فعله العرب في النصف الأول من هذا القرن، كان معجزة قومية كبرى، قاموا بها وهم محرومون من جميع أسباب القوة، محاطون بالأعداء والطامعين، لا صديق لهم ولا معين، تواجههم أحداث أقوى منهم، وتسيطر عليهم عوامل ومؤثرات داخلية وخارجية لا طاقة لهم بها ولا حيلة لهم فيها.

وليس النصر الذي نسير في طريقه الآن سوى نتيجة التجارب التي نشأت عن تلك الأخطاء، فالذين اقترفوها في أثناء كفاح الأمة الطويل يستحقون كل ثناء وتقدير.

قال لينكولن إن الأمة الجديرة بالحياة هي التي تعرف مَن هي، وأين هي، وماذا تريد، ثم تجد السبيل إلى تحقيق ما تريد. وكانت هذه الحقائق الأربعة موضوع درس دقيق في المنتدى الأدبي منذ نشأته، ثم في جميع الأحزاب والهيئات التي أُلِفت بعده.

ولم يكن من الصعب على أولئك المفكرين الذين وضعوا أساس النهضة العربية الحديثة أن يعرفوا مَن هي الأمة التي أخذوا على عاتقهم النهوض بها، وأن يحددوا خصائصها تحديدًا دقيقًا، ويتبيّنوا الصفات العظيمة التي تؤهلها لحياة المجد والخلود، ويحاولوا استغلال تلك الصفات إلى أبعد حد ممكن.

كما أنه كان من السهل عليهم أن يروا الأحوال المؤلمة المحيطة بها، ويعلموا أنها واقفة في مهب العواصف يحيط بها الأعداء والطامعون من كل جانب، وهي بلا صديق ولا معين.

وكذلك عرفوا ماذا تريد الأمة العربية، وحددوا تحديدًا دقيقًا مستوحين حاجاتها الحيوية، ومقتضيات التاريخ، وحقائق الحياة، ولكنهم وقفوا حائرين في اختيار الوسائل المؤدية إلى تحقيق هذه الأماني.

لقد بحثوا عن هذه الوسائل، وهي السلاح والمال والأصدقاء المخلصين ولم يوفَقوا، وكان فشلهم في ذلك من دواعي اليأس عند غيرهم، أما عندهم فكان حافزًا على مضاعفة الجهود والتضحيات. فلما انتهت الحرب العالمية الأولى بما انتهت إليه أقبلوا على الشام بالمئات محاولين جعلها مركزًا قويًا للإشعاع العربي، وقاعدةً لاستئناف الكفاح والمضي به إلى الأمام. وقد قامت سوريا بهذه المهمة على أحسن ما تستطيع، وأخذت تظهر بمظهر القوة التي يصدر عنها الإشعاع العربي، إلى كل الجهات. ولكن هذه الحالة لم تدم طويلًا لسوء الحظ، وبعد لأن المستعمرين الأقوياء أبوا عليها ذلك، فكان من أمرهم معها مما يعرفه القرّاء.

ولما سقطت سوريا في أيدي الفرنسيين سنة 1920، وجّه العرب أنظارهم شطر العراق الذين أطلقوا عليه اسم «بيامونتي العرب»[26]، وعقدوا على مساعدته الأدبية والمادية أمالهم في تنفيذ الخطط التي وضعوها لتحقيق استقلالهم ووحدتهم، فأصبحت بغداد كما كانت دمشق، محطًا لرحالهم وملتقى لزعمائهم ومفكريهم.

ووُضعت في بغداد في تلك الفترة خطط، ونفذت قرارات ونوقشت برامج، قد نشير إلى بعضها في هذه المذكرات، وكانت كلها ترمي إلى استرداد استقلال سوريا وإنقاذ فلسطين، وتأمين حرية البلاد العربية ووحدتها بالاستناد إلى العراق وقواها الأدبية والمادية والحربية حين الحاجة. ولا يمكن أن ينسى عربي ما فعلته العراق من أجل العروبة ولا التضحيات الأدبية والمادية التي بذلتها في سبيلها، كما أن التاريخ سيذكر بكل فخر ما كان لكفاح سوريا ضد الاستعمار من تأثير في نفوس المستعمرين. وكانت جميع الجهود التي بُذلت في هذه الفترة ترمي إلى غرض واحد هو أن يتمكن العرب من إيجاد مركز قوي للإشعاع العربي يجذب الأمة إليه ويساعد على تنمية قواها وتوثيق عرى التضامن بين شعوبها ويهيئ لها الجو الصالح لظهور النبي أو الزعيم الذي يحق لكل أمة حية أن تنتظره حين نصل إلى الحالة التي وصلت الأمة العربية إليها.

وهكذا اتجهت الأنظار إلى العراق بعد سقوط سوريا في أيدي الفرنسيين. وقام العراق بهذه المهمة خير قيام في أول الأمر، ولكنه توقف في وسط الطريق لشدة الضغط الواقع عليه وضعف عزائم المسؤولين فيه وخصوصًا بعد وفاة فيصل الأول[27] وياسين الهاشمي[28].

شعر المفكرون العرب بهذه الحالة فأدركتهم الحيرة وبدأت عوامل اليأس تتسرب إلى نفوسهم. نظروا إلى ما حولهم فرأوا كل شيء يتصدع وينهار. ورأوا سوريا التي عقدوا عليها آمالهم تنهار في يوم واحد. رأوا العراق يتراجع من وسط الطريق بعد أن سار فيه شوطًا بعيدًا. نظروا إلى الجزيرة العربية فرأوا فيها رجلًا من أفذاذ رجال التاريخ تُغل يده عن العمل، إمكانياته ضئيلة محدودة. أما مصر فكانت بعيدة عنهم وقد أقام الاستعمار عقبات لا تُذلل في طريقهم إليها. فكروا في كل بلد عربي، بل في كل زعيم وكل أيد [يدٍ] وكل رجل يصلح للقيادة، ولكن تفكيرهم هذا كان يزيدهم حيرة واضطرابًا وقنوطًا، حتى أن فريقًا منهم انتابه اليأس فأخذ يفكر في إلقاء السلاح. ولكن قوة الايمان في نفوس الأكثرية الساحقة من أولئك الرجال سَمَتْ

بهم إلى سماء البطولة، وحوّلت ضعفهم إلى عزيمة، وجعلت الصعب أمامهم سهلًا، فحفّزتهم إلى وثبة هائلة من وثبات التاريخ.

فبعد اجتماعات كثيرة متوالية، ومناقشات صريحة استقر الرأي في النهاية على ما كان قد تقرر في اجتماعات مماثلة عقدت في المنتدى الأدبي في اسطنبول في العقد الثاني في هذا القرن[29]، أن الأمة العربية في حالتها الحاضرة لا يمكن أن تسترد مكانتها في التاريخ إذا ظلت مصر بعيدة عنها، لأن مصر أكثر الأقطار العربية سكانًا وأعظمها ثروة وأشدها رقيًا وحضارة، وهي واقعة في قلب البلاد العربية تملك إمكانيات وكفاءات ليستا [ليست] لغيرها، فضلًا عن أن شعبها يتحلى بصفات كثيرة تؤهله للقيام بدور عظيم في تاريخ العرب الحديث.

وبعد هذه السنوات الطويلة أدرك هؤلاء الرجال بالتجربة أن الآراء التي أبدوها في أيام الشباب كانت صحيحة. وأن العودة إليها هي السبيل الوحيد لإدراك النتائج التي وضعوها نصب أعينهم. فقالوا إذًا، صحّ أن لا عروبة من دون مصر. وقد أثبتت التجارب صحته، فمن الواجب على كل عربي مصريًا كان أو غير مصري أن ينصرف بكل قواه إلى تعميم الفكرة العربية وترسيخها في نفوس المصريين بدعاية قوية منظمة تعتمد على الروح الطيبة التي يمتاز بها الشعب المصري، وعلى مقتضيات القومية والتاريخ ووحدة اللغة والمصالح والأماني والآمال.

وبدا أحرار العرب يسيرون في هذا الاتجاه منذ سقوط سوريا سنة 1920، وكان نجاحهم يزداد مع الزمن رغم الاستعمار وما أقامه أمامهم من عقبات لا تُذلل. فبعد أن كان المصريون يجهلون كل شيء عن البلاد العربية الأخرى ولا يعنون بأمرها أكثر من عنايتهم بأي بلد في بلاد العالم، أخذوا يعنون بشؤونها ويزدادون اهتمامًا بها يومًا فيومًا.

ففي الثورة العربية الأولى سنة 1916، كان فريق كبير من المصريين يستنكر هذه الثورة ويتهم القائمين بها بالخيانة العظمى. ولما سقطت دمشق في أيدي الفرنسيين سنة 1920، اكتفت الصحف المصرية في أول الأمر بنشر البرقية التالية:

«داماسكوس»[30]: سقطت داماسكوس في يد الفرنسيين».

ثم قامت ثورة سوريا الكبرى سنة 1925 التي سيطر الثوار فيها على ثلاثة أرباع البلاد وأكثر من نصف دمشق مدة سنتين، فأيقظت في مصر شعور العطف على أولئك الرجال الذين كانوا يضحون بأرواحهم في سبيل استقلال بلادهم، وشعور الإعجاب بمظاهر البطولة التي كانت تصل إليهم أنباؤها كل يوم. ومع ذلك ظل الناس يجهلون الحقائق عن سوريا وأسباب ثورتها لأنهم كانوا يجهلون كل شيء عنها ولا يبدون اهتمامًا بما يجري فيها حتى أن أحد كبار الأدباء المصريين سألني مرة: «هل في سوريا مسلمون؟». وكان اهتمام مصر بجاراتها العربية يزداد باضطراد [باطراد] مع الزمن. فالثورة العربية الأولى قوبلت فيها بالاستنكار، وثورة العراق سنة 1920 مرت من دون أن يعرف الشعب المصري شيئًا عنها، ومثلها الثورات التي توالت في سوريا وفلسطين، وكانت كل ثورة تقع تحدث أثرًا أعظم من الثورة التي سبقتها ولو كانت أقل شأنًا منها. حتى أصبحنا اليوم وأقل حادث يقع في أي بلد عربي يهز العالم العربي كله في أدناه إلى أقصاه. ذلك لأن مصر

قلب البلاد العربية ودماغها المفكر عرفت مكانتها وأدركت حقيقتها العربية بدافع من الوعي القومي الذي عمّ البلاد العربية قاطبة بفضل الدعايات المنظمة التي قام بها مفكرو العرب في مصر بنوع خاص.

وكان التطور الذي طرأ على مصر عظيمًا جدًا يرجع الفضل فيه إلى وعي الشعب المصري الذي استجاب بسرعة إلى الدعاية العربية وإلى المساعي التي بذلتها الشعوب العربية الأخرى للتقرب منه والجماعات التي كرست نفسها لهذه المهمة. ومن بين الجمعيات التي كان لها أثر في تنمية الوعي العربي، اللجنة التنفيذية «للمؤتمر السوري الفلسطيني»[31]، وكان اهتمامها منصبًا على القضيتين السورية والفلسطينية، وجمعية «الشبان المسلمين»[32] التي كان نشاطها قاصرًا على التربية الرياضية والخلقية والثقافية، و«جمعية الاتحاد العربي» التي ضمّت لفيفًا من الساسة مختلفي الأهداف، ثم جمعية «الوحدة العربية»[33] التي تبنت مبادئ الرعيل الأول من رجال الأمة العربية وأراء مفكريها والتي نادت بأن «لا عروبة بدون مصر» التي يجب أن تتولى قيادة العرب.

وأن هذه الفترة، وهي الحلقة المفقودة من تاريخنا الحديث، يجب – بعد هذه الحركة التحررية المباركة التي قامت في الوطن العربي – أن تُعاد كتابتها بأيدي من عاصر نشوءها وساير تطورها وذاق حلوها ومرها، لا أن تُترك لخيال الأجانب يشرحون حقائقها ويزوّرون وقائعها بما يتفق ومصالحهم الاستعمارية.

وإذا كان القليل من أبناء هذا الجيل يرى أن بعض الأسماء التي وردت في هذه المذكرات قد لاقت وجه ربها قبل أن تؤدي الرسالة أو قد أخطأت في مساعيها أو خلت عن الطريق فجاء عملها بما لا يتفق والآراء السياسية الحديثة والمبادئ الحزبية التي يعتنقونها الآن، فليس معنى هذا أن ندفن هذا التاريخ من أجل شخص معين أو رأي معروف. بل العكس هو الصحيح، فتاريخ كل أمة من الأمم يقوم على الحسانات [الحسنات و] أضدادها، فأيام حلوة وليال مرة، والأمة التي لا تعيش على هامش الحياة، هي الأمة التي تعرف حقيقة تاريخها فتقتدي بالحسنات وتعتبر بالأخطاء والمصائب التي حلّت بها حتى تنير لها الطريق فتصل في النهاية إلى شاطئ الحرية والاستقلال.

لقد اتسمت هذه المذكرات بالصراحة، ولا أجامل فيها أي شخص وإنما أسرد فيها كل ما دار حولي وما سمعته من أحداث تستلزم التسجيل. ومن الشخصيات التي ورد ذكرها في هذه المذكرات من عمل حتى النهاية لصالح القومية العربية ومنهم من انحرف عن هذه السياسة، ولكن هذا لم يمنعني من إبداء الرأي في أعماله إبان هذه الفترة التي عشت معه فيها وأن هذا التسجيل للتاريخ، والتاريخ لا يرحم، والشعوب تعطي الجزاء لكل من عمل لها أو عليها[34].

---

(12) جان دو لا فونتين (1621-1695): كاتب فرنسي اشتهر بالقصص التي يرويها على ألسنة الحيوانات. (المؤلف)

(13) أبصرت هذه النملة ذات يوم عشر ثيران تجر عربة مملوءة بالحجارة إلى أعلى الجبل، فأشفقت عليها ووضعت كتفيها تحت إحدى عجلات العربة وجعلت تشد إلى أن وصلت العربة إلى قمة الجبل، وكان العرق يتصبب من الثيران والرجال الذين كانوا يلهبون ظهورها بالسياط، ومن النملة أيضًا. (المؤلف)

(14) أحمد جمال باشا (1873-1922): أحد قادة جمعية الاتحاد والترقي التي انقلبت على السلطان عبد الحميد الثاني في عام 1908. تولى العديد من المناصب، كان آخرها منصب قيادة الجيش الرابع العثماني، وحاكمًا على سوريا. لقّب

بالسفاح لإعدامه أحرار العرب في عام 1916. اغتيل في تبليس، جورجيا.

(15) المنتدى الأدبي: أسسه الطلبة العرب في عاصمة الدولة العثمانية اسطنبول في عام 1909، وكان من مؤسسيه عبد الكريم الخليل وجلال الدين البخاري وثابت عبدالنور وعارف العارف وشكري القوتلي وسيف الدين الخطيب.

(16) تعرف بالثورة العربية الكبرى التي اطلقها الشريف حسين بن علي في 10 حزيران/يونيو 1916.

(17) جمعية خيرية أنشأتها سيدات دمشق. ولما أرادت أن تقيم حفلتها السنوية عرضت عليها السلطات الفرنسية نادي الضباط لهذا الغرض، فثارت ثائرة الأهالي لذلك. وقامت فتنة اضطر سعد الله الحارس إلى قمعها بالقوة. (المؤلف)

(18) صبري العسلي (1903-1976): سياسي شارك في الثورة السورية (1925)، تولى أمانة عصبة العمل القومي، وكان أحد أعضاء الكتلة الوطنية. تولى مناصب وزارية بعد الاستقلال، وأصبح رئيسًا للحكومة ثلاث مرات.

(19) أديب خير: وجيه دمشقي (صاحب المكتبة العمومية)، شارك في الثورة السورية وبادر إلى جمع المال لشراء السلاح ومساعدة عائلات الشهداء. وكان عضوًا في جمعية إغاثة منكوبي الثورة.

(20) شكري القوتلي (1891-1967): أحد زعماء الكتلة الوطنية السورية، شارك في الثورة السورية (1925)، وحكم عليه بالإعدام. تولى رئاسة الحكومة في سوريا عدّة مرات، وتولى رئاسة الجمهورية في عام 1943، وأُعيد انتخابه رئيسًا لسورية في عام 1954. في عهده تمت الوحدة بين مصر وسورية في عام 1958.

(21) إبراهيم هنانو (1869-1935): زعيم سوري، قاد المجاهدين ضد الاحتلال الفرنسي في منطقتي إدلب وحلب في عام 1919، وأصبح زعيمًا للكتلة الوطنية في عام 1932.

(22) يوسف العظمة (1884-1920): ظابط سوري، تولى وزارة الحربية في الحكومة العربية في دمشق. استشهد في معركة ميسلون في 24 تموز/يوليو 1920، في مواجهة القوات الفرنسية بقيادة الجنرال غورو.

(23) سعد الله الجابري (1891-1948): بدأ حياته النضالية مع إبراهيم هنانو في حلب. عضو الكتلة الوطنية السورية، تسلّم منصبّي رئاسة الحكومة ورئاسة مجلس الشعب.

(24) قرأت مقالةً لموظف إنكليزي كبير في الهند قال فيها: «جاءتني الخادمة ذات يوم بالقهوة وحيتني بقولها: «اخرج من بلادنا»، وعقبها الخادم فكرر العبارة نفسها. وخرجت لأسمع هذه العبارة من كل هندي أصادفه، وكان ذلك اليوم أول يوم شعرت فيه بأن الهند ضاعت من يدنا». (المؤلف)

(25) إشارة إلى ثورة الريف في المغرب ضد الاستعمار الفرنسي بقيادة عبد الكريم الخطابي (1920-1926).

(26) بيامونتي (piedmont): اقليم في شمال إيطاليا، أدى أبناؤه دورًا بارزًا في الوحدة الايطالية، وأصبحت تورينو عاصمة الإقليم أول عاصمة لإيطاليا الموحدة في عام 1861.

(27) فيصل بن الحسين (1883-1933): قائد قوات الثورة العربية الكبرى، دخل على رأس قواته إلى دمشق في مطلع تشرين الأول/أكتوبر 1918، وأسس أول حكومة عربية. وفي 8 آذار/مارس 1920، أعلن المؤتمر السوري العام استقلال سوريا وتوج فيصلًا ملكًا. غادر سوريا بعد معركة ميسلون. أصبح ملكًا على العراق في 23 آب/أغسطس 1921، وتوفي خلال رحلة علاج في بيرن بسويسرا في عام 1933.

(28) ياسين الهاشمي (1884-1936): ولد في بغداد ودرس في الكلية العسكرية في اسطنبول. شارك في حروب الدولة العثمانية في البلقان والنمسا وفلسطين. كان عضوًا في جمعية العهد السريّة بقيادة عزيز علي المصري. عيّنه

الأمير فيصل رئيسًا لأركان حرب حاكم سوريا. شغل مناصب حكومية عدة في العراق، بما فيها رئاسة الحكومة. انتهت حكومته بالانقلاب الذي قام به بكر صدقي في عام 1936.

(29) القرن العشرون.

(30) Damascus: دمشق بالإنكليزية.

(31) المؤتمر السوري الفلسطيني: تأسس في عام 1921 عندما تنادت الأحزاب السورية، إثر الاحتلال الفرنسي، إلى عمل مشترك تحت اسم المؤتمر السوري الفلسطيني، الذي عقد أول اجتماع له في جنيف في أيلول/سبتمبر 1921، تزامنًا مع اجتماع عصبة الأمم للمطالبة باستقلال سوريا ولبنان وفلسطين. ضمت اللجنة التنفيذية: ميشيل لطف الله ومحمد رشيد رضا وشكيب أرسلان ونجيب شقير وغيرهم.

(32) جمعية الشبان المسلمين: تأسست في مصر في عام 1927.

(33) جمعية الوحدة العربية: تأسست في مصر من سوريين ومصريين.

(34) وردت في النص الأصلي الجملة التالية: لم تكن هذه هي كل المقدمة التي كان الفقيد يريدها لكتابه، لكنه انتقل إلى جوار ربه قبل أن يكملها، فتركنا الصفحات الأربع التالية والتي كانت معدّة لنهاية هذه المقدمة، تحية منّا وذكرى للفقيد العزيز. (الناشر)

الفصل الأول
في عهد الطفولة

كيف عرفت القضية العربية؟

كنت في الثامنة أو التاسعة من عمري، أتلقى الدروس في مدرسة عينطورا[35] للآباء العازاريين [اللعازاريين] في لبنان، وكان من بين مدرسي اللغة العربية في تلك المدرسة كاهن فاضل اسمه الأب نعمة الله طربيه من بلدتي[36] ومن أقربائي وأصدقاء والدي، وقد أوصاه بي خيرًا، فتولى رعايتي والعناية بمختلف شؤوني.

وفي صباح ذات يوم، وصلتْ إلى المدرسة عربة فخمة تقلّ تلميذًا جديدًا برفقة والده. وقد طلب الوالد أن يقابل أستاذًا يعرف اللغة العربية. فذهب الأب نعمة الله طربيه لاستقباله، وأمضى معه نحو نصف ساعة، ثم عاد ممسكًا بيد التلميذ الجديد وقال لي: «هذا التلميذ من أسرة كريمة ووالده «متصرف» فاتخذه صديقًا لك وستجد فيه أدبًا وخُلقًا قد لا تجدهما في الآخرين». وكان المتصرف – ومنصبه في السلطنة العثمانية يعادل منصب المحافظ الآن – في نظر اللبنانيين أعظم شأنًا من السلطان نفسه، لأنهم لم يكونوا يعرفون غيره في جبلهم المتمتع حينئذ بامتيازات واسعة، تكفل له الاستقلال الداخلي التام تحت السيادة العثمانية وحماية الدول العظمى[37]. وكانت هذه السيادة تتجلى في رفع العلم العثماني على دور الحكومة، وسد العجز الذي يصيب الميزانية اللبنانية، وإصدار فرمان بتعيين المتصرف الذي يقع عليه اختيار الدول الضامنة لامتيازات لبنان، على أن يكون هذا المتصرف من المسيحيين العثمانيين غير اللبنانيين[38].

وهكذا كان يأتي المتصرف إلى لبنان ليتولى إدارته باسم الدولة العثمانية، وهو غير مرتبط بها إلا بتلك الروابط الإسمية الواهية، التي لا تلبث أن تتلاشى أمام نفوذ ممثلي الدول ودسائسهم المكشوفة، وتدخلهم المستمر في مختلف الشؤون اللبنانية.

وكانوا يفعلون ذلك بحجة المحافظة على مصالح الطوائف، بعد أن اقتسموها وجعلوا كلًا منها أداة في يد واحد منهم. فكان المسلمون بطبيعة الحال، من نصيب الدولة العثمانية في هذا التقسيم، والموارنة من نصيب فرنسا، والدروز والبروتستان من نصيب إنجلترا، والأرثوذكس من نصيب روسيا. وكان لكل من النمسا وألمانيا وإيطاليا شأن في إدارة البلاد، ولكنه شأن ثانوي بالنسبة إلى الدول التي تقدم ذكرها.

وكانت براعة متصرف لبنان تنحصر في المحافظة على التوازن بين مطالب الطوائف المختلفة، وفي اكتساب عطف الباب العالي وقناصل الدول معًا، لتأمين بقائه في منصبه أو عودته إليه.

ولم يكن والد التلميذ رياض متصرفًا[39] في لبنان المستقل، بل في إحدى متصرفيات الدولة التي يتصل صاحبها مباشرة بوالي الولاية، وهذا يتلقى الأوامر رأسًا من وزارة الداخلية في اسطنبول. ولا أعتقد أن الأب نعمة الله كان يجهل الفرق بين متصرف لبنان والمتصرفين الآخرين، ولكنه تأثر لأول مرة بهذا اللقب الضخم. فدفعه عطفه إلى محاولة لرفع مكانتي بجعلي صديقًا لابن «المتصرف». ولعله فعل ذلك أيضًا لتأمين

مستقبلي بوساطة هذه الصداقة. فهو على كل حال يستحق شكري لشعوره الطيب نحوي، ولما عقب ذلك من حوادث غيرت مجرى حياتي.

ورأيت في شخص التلميذ رياض ما حبّبه إلى قلبي، فصرت ألازمه في أوقات اللعب وأفضل التحدث إليه، على التحدث إلى غيره من زملائي. وأقبل هو أيضًا عليّ، لا لما رآه من مزايا على ما أظن، بل لأنه لم يجد صديقًا سواي، بعد أن عرف الطلبة جميعًا أنه مسلم. ورأى ناظر المدرسة – وهو قس فرنسي ترك الرهبنة فيما بعد – أني ألازم هذا التلميذ المسلم في أثناء اللعب، وأفضّله على رفاقي الآخرين. فهاله الأمر ولم يستطع عليه صبرًا، وانتهز أول فرصة لإصلاحي وتقويم اعوجاجي، ففاجأني ذات يوم بقوله:

– أنت يا فتى! لماذا لا تلعب؟

وكنت في تلك اللحظة أتبارى في الوثب مع رياض، والعرق يتصبب من جبيني، فأخذت المنديل من جيبي أمسح به وجهي وأنا أقول:

– كيف لا ألعب... ألا ترى؟ انظر كيف يتصبب العرق مني؟

فقال: «مع من تلعب؟»

– مع الصلح.

– لماذا لا تلعب مع غيره؟

– ألعب معه ومع غيره، والآن كنت ألعب معه.

فأمسك بشعر رأسي وشده وهمس في أذني قائلًا:

– كيف تفعل هذا وأنت مسيحي؟

– وهل في ذلك ضرر؟ وما هو؟

– أنت لا تعرف على ما يظهر... اقترب..

ودنوت منه، فقال بصوت خافت كمن يفشي سرًا:

– ألا تعرف أن الصلح هذا مسلم؟

لم أكن أعرف ماذا تعني كلمة «مسلم» وهل هي اسم رجل أو اسم مكان أو غير ذلك، لعدم وجود مسلمين في المنطقة التي عشت فيها في لبنان. وكنت أجهل تمامًا أن هناك دينًا اسمه الإسلام، وأن المسلم هو المؤمن بهذا الدين، لأن الأديان التي كنت أسمع بها حينئذ هي التي تدين بها الطوائف اللبنانية المختلفة التي تقيم حول بلدتي، أي الموارنة والروم الأرثوذكس والروم الكاثوليك والدروز والبروتستانت. فقلت، وقد أخذتني الدهشة كل مأخذ:

– ما معنى مسلم يا أبتِ؟

– ألم تذهب قط إلى بيروت يا بني؟

– ذهبتُ إليها مرة برفقة والدي.

– المسلم في بيروت هو الذي يطعن المسيحي بالخنجر من الخلف.

– «المسلم» إذن هو القاتل. والصلح مسلم. فلماذا قبلتموه في المدرسة؟

سمع الناظر مني هذا السؤال فلم يُجبني عليه، بل هز كتفيه، كمن ليس له في الأمر حيلة، ثم تظاهر بالانشغال عني مع غيري وتركني في حيرتي وقلقي.

وقد وقع كلامه وقع الصاعقة في نفسي، لأني اقتنعت لأول وهلة بصحته، وشعرت بشيء من الغبطة يملأ فؤادي، لأنه نبهني إلى الخطر المحدق بي! وعلمني كيف أكون حذرًا في المستقبل، فلا أذهب ضحية طعنة من خنجر رياض الصلح. وفكرت أن أقطع في الحال كل صلة لي بهذا المسلم، وبدأت أحاول ذلك فعلًا، ولكن إقباله عليّ، كلما كنا نخرج من الدرس، وكبريائي واعتدادي بنفسي وقوتي، شأن كل جبلي مثلي، كل ذلك منعني من أن أقاطعه دفعة واحدة، مخافة من أن اتهم بالجبن أو الضعف أو قلة الوفاء، فجعلت أقلل اللعب معه بالتدريج، ولا أبدأ هذا اللعب إلا بعد أن أضمه إلي، وأبحث خلسة في جيوبه وتحت حزامه عن الخنجر الذي أعّد لاغتيالي. وكنت لا أقترب منه، ولا أسير إلى جانبه، إلا بعد أن أتخذ الاحتياطات اللازمة للمحافظة على حياتي، بأن أجعل كتفي دائمًا وراء كتفه لكي لا يستطيع أن يغدر بي ويطعنني في ظهري.

ولاحظ ذلك الأب نعمة الله طربيه، فدعاني إليه وسألني قائلًا:

– لماذا لم تعد تلعب مع الصلح كعادتك؟

- أنت لا تعلم يا أبتِ... لا تعلم.

ودهش لهذا الجواب الذي فوجئ به، فسألني:

- لا أعلم ماذا؟ قل

- لا أستطيع أن أقول... لا أستطيع.

- يجب أن تقول لي كل شيء، لأن هذا التلميذ أمانة في عنقي، أمام الله وأمام ضميري، وأمام والده، فقل لي كل شيء ولا تخف.

- لا أعرف.

- يجب أن تعرف.

- صدقني يا أبتِ... لا أستطيع.

- آمرك بأن تقول. قل ولن يطلع أحد على ما ستقوله. وهذا سيكون سرًا من أسرار الاعتراف.

- لا أعرف.

ورفعني عن الأرض بيديه الاثنتين وقال بغضب:

- قل وإلا ضربت بك الأرض وحطمتك.

- ولكنك أنت تعرف يا أبتِ.

- قل، ما هو الذي أعرفه؟

– ألا تعرف أن الصلح «مسلم»؟

– وإذا كان مسلمًا؟

– ربما كان معه خنجر يغتالني به كما يفعل المسلمون في بيروت.

– من قال لك هذا؟

– الأب الناظر.

واصفر وجه الأب نعمة الله وجحظت عيناه، وبدت عليه علامات الغضب والاشمئزاز، ولكنه تركني ومضى دون أن يفوه بكلمة... وقلت في نفسي لو كان رياض الصلح مسلمًا لما أوصاني الخوري نعمة الله به خيرًا، ولا رأيت منه ما رأيت الآن من مظاهر الغضب. ولكن لماذا لم يكذّب صراحة ما نقلته إليه فيزيل هواجسي ويعيد إلي طمأنينتي؟ لعله ذهب للبحث والاستقصاء، وسيعود إلي بالخبر اليقين.

على أن الخوري نعمة الله تناسى هذا الحادث بتاتًا من ذلك الحين، وأهمل التحدث معي عنه، ولم يعد يذكر رياضًا أمامي، ولا يحثني على توثيق عرى الصداقة معه. ولو كان هذا الكاهن الفاضل قد قاطع رياض وجافاه - كما أراد مني أن أفعل - لثبت عندي أنه «مسلم» وأن في اللعب معه خطرًا على حياتي. ولكني رأيته يزداد اهتمامًا بهذا المسلم الذي حذرته منه، ويبالغ في مجاملته، ويكثر من التحدث إليه ويُعنى به، وهو القاتل المجرم، أكثر من عنايته بي أنا صديقه وقريبه وابن بلدته.

هذا المظهر الغريب في سلوك الأب نعمة الله زادني حيرة وارتباكًا. فهل رياض الصلح هذا مسلم يقتل الناس اغتيالًا بخسة وجبن؟ أم هو تلميذ مهذب حسن الخلق طيب القلب كريم النفس كما قيل لي عنه وكما عرفته؟

ودامت هذه الحيرة خمسة أشهر أو أكثر، كنت في خلالها ألازم رياضًا وأمضي وقت اللعب كله معه في غياب الناظر الفرنسي، وابتعد عنه وألعب مع غيره حينما يحضر هذا الناظر مخافة أن يراني فيعاقبني أو يضع لي في قائمة السلوك (نقطًا سوداء)، على أنني كنت دائمًا على استعداد لاتقاء خنجر رياض الصلح إذا صحّ أنه سيحاول اغتيالي.

أنا عربي

وفي ذات يوم خرجنا إلى التنزه في غابة مجاورة للمدرسة. ولم يكن الناظر الفرنسي حينئذ معنا، وكنت سائرًا كعادتي إلى جانب رياض وكتفي دائمًا وراء كتفه مبالغة مني في الحذر، وقد عقدت النية على أن أحلّ معه نهائيًا هذا اللغز بكل صراحة وشجاعة. وأذكر أنه كان حينئذ يحدثني عن الشمس وكيف أنها محمولة على قرن ثور، وماذا يحصل حينما ينزل بها الثور إلى البحر للاستحمام، وكان هو في واد وأنا في واد. وقد قاطعته بلهجة جافة قائلًا:

- لقد حان الوقت لأن أعرف ماذا أنت، فقل لي الحقيقة مهما تكن. قل ماذا أنت يا صلح؟

فأجابني على سؤالي هذا بكل ما في الطفولة من سذاجة قائلًا:

- أنا عربي ألا تعرف ذلك؟ وأنت ماذا أنت؟

ماذا أنا!! سؤال لم يخطر لي قط ببال، ولم يوجه إليّ مثله في حياتي إنه عربي، أما أنا، فماذا أنا؟ فرنسي؟ لا. فأنا أجهل اللغة الفرنسية، وأمقت أساتذتي الفرنسيين. إنجليزي؟ لا. فقد رُبيت على كره الإنجليز. تركي؟ لا. فقد رضعت كره الترك مع اللبن. اذن ماذا أنا؟ ألماني؟ إيطالي؟ أمريكي؟ صيني؟

مرت هذه الأسئلة في ذهني كلمح البصر فأحيت في نفسي بعض ذكريات الطفولة، وألقت عليها شعاعًا من نور اهتديت به إلى المعنى الحقيقي لما سمعته مرارًا من والدي عن أصلنا العربي وقدوم أجدادنا من العراق. فقلت في سري مع أرخميدس[40]: «لقد وجدتها «. ثم التفت إلى محدثي وقلت بلهجة مشبعة بالثقة والإيمان والحزم:

– وأنا أيضًا عربي مثلك يا صلح.

هكذا وُضع الحجر الأول في بناء حياتي السياسية بتوجيه طفل مثلي، أصبح فيما بعد علمًا من أعلام الأمة العربية، هو المغفور له السيد رياض الصلح.

هذه الحقيقة ومعناها

وأنا أيضًا عربي. هذا ما قلته لرياض الصلح من دون أن أدرك حقيقة معناه، ولم يكن هو أشد إدراكًا مني لهذه الحقيقة، كما أعتقد، لأننا كنا حينئذٍ في عمر ننقل فيه كل ما نسمعه من حقائق وخرافات قبل أن نفهمه، أو نستوضح الغامض منه. وقصة الثور الذي يحمل الشمس على قرنيه دليل على ما كنا عليه من سذاجة في تلك الفترة من أيام الطفولة.

على أني في ذلك الحين بدأت أفكر جديًا في الموضوع وأسأل نفسي بإلحاح: لماذا قلت إني عربي؟ وهل كان عليّ أن أقول غير ذلك؟ وإذا لم أكن عربيًا فماذا أنا؟

ولم يكن الرد على هذه الأسئلة سهلًا على من كان مثلي يجهل التاريخ جهلًا تامًا، ولم يسمع في حياته شيئًا عن القومية أو الوطنية في محيطه ولا في المدرسة، ولم يعرف عن العرب غير أنهم أولئك البدو الرحل الذين يصطافون مع مواشيهم في عيون العلق «باللقلوق» على مقربة من بلدتي، ويعتمدون في معيشتهم على بيع الألبان والسرقة، وكنت أعرف أنه اشتهر من العرب رجلان كنت أظنهما من المعاصرين، أحدهما الرسول الكريم - ولا أريد أن أذكر الآن كيف كانوا يصورونه لي في المدرسة - والثاني هارون الرشيد الذي كنت أعتقد أنه شيخ من البدو الرحل حصل بالصدفة أو بالسرقة على ساعة جميلة أهداها إلى شرلمان تقديرًا منه لذلك الإمبراطور العظيم![41].

وشق عليّ كثيرًا أن أكون من هؤلاء البدو. وكم تمنيت لو كنت يونانيًا أو رومانيًا من أولئك الذين دوخوا الممالك ورفعوا لواء الحضارة في العالم. ولكن الأماني شيء والحقيقة شيء آخر. وقد قال لي والدي إننا عرب، وهو أعرف مني بذلك، فلم تبق لي حيلة في الموضوع.

... إذن قلت لرياض الحقيقة، ولو كانت عليّ، لأني كنت أمقت الكذب والخداع وأجد في ذلك لذة. قلت له الحقيقة التي سمعتها من أهلي ثم عرفتها من التاريخ فيما بعد، فإن أجدادنا نزحوا من العراق قبل

خمسة قرون أو ستة واستوطنوا حلب حيث ظهر منهم أدباء وشعراء معروفون، ثم رحلوا إلى دمشق واشتركوا في ثورة على الوالي، اضطروا بعد فشلها إلى الفرار من ظلمه والالتجاء إلى أمنع قرية في أعالي جبل لبنان. فإذا كان أجدادي عربًا فكيف لا أكون عربيًا مثلهم؟ وهل من كرامة الإنسان أن ينكر أصله؟

لم أكن أجد أي فخر في الانتساب إلى العرب بل العكس هو الصحيح عندي، كنت أرى فيه حطة لي! فهذا ما تعلمته في المدرسة، ومع ذلك دست غروري واعترفت بالحقيقة التي كانت مرّة عليّ، بدافع من كبريائي واعتزازي بنفسي.

على أن ثقتي بصحة ما كنت أسمعه في المدرسة، بدأت تضعف منذ عرفت أن تحديد المسلم بأنه «الرجل الذي يطعن المسيحي بالخنجر في ظهره» غير صحيح. وأن الإسلام دين لا صفة لقطاع الطرق! فجعلت أفكر وأسأل وأبحث. وكانت الحقائق تنكشف أمامي بالتدريج، وكنت أسير في طريقها بخطوات متوالية تزداد اتساعًا كلما اتسعت مداركي وتقدم بي العلم والعمر.

فلما بدأت أدرس التاريخ المقدس والتاريخ القديم، وقرأت ما فيهما من أخبار الحروب، خيّل إليّ في أول الأمر أن البشر، وهم جميعًا من أبناء آدم وحواء لا يمكن أن يتخاصموا، وإذا تخاصموا فلا يُعقل أن تتحول الخصومة بينهم إلى مثل المذابح الهائلة التي كنت أطالع أخبارها، فلا بد والحالة هذه من أن تكون تلك الحروب قد وقعت بين البشر وأعدائهم من الجن.

وقد وجدت في التاريخ المقدس ما أيّد هذا الاعتقاد، فإن الله جلّ جلاله كان يرسل ملائكته لمحاربة الأعداء، ويأمر الشمس بأن تقف عن السير ريثما يتم الإجهاز عليهم، وينفخ في الأبواق قوة كافية لهدم أسوار أريحا[42]. وهو لا يفعل ذلك بطبيعة الحال لو كان الفريقان المتحاربان من بني الإنسان، أي من بنيه الذين خلقهم جميعًا على صورته ومثاله.

الحروب ونشوء القوميات

على أن هذا الاعتقاد ما لبث أن زال، ولكنه ترك في نفسي وعقلي أثرًا لا أزال أعانيه حتى الآن. وقد أوصلني البحث عن أسباب تلك الحروب بعد ذلك إلى تكوين فكرة عن نشوء القوميات. فالناس جميعًا - كما قيل لي- من أبناء رجل واحد. ولكنهم تكاثروا مع الزمن فانقسموا إلى أسر نمت فأصبحت قبائل، وازداد عدد هذه القبائل، فأصبحت شعوبًا وأممًا - أي مجموعات كبيرة ينتسب كل منها إلى جد واحد، ويجري فيها دم واحد، وتتكلم بلغة واحدة، وتعيش في بقعة من الأرض واحدة، متضامنة متآزرة بحكم العاطفة والمصلحة والدفاع عن النفس وتأمين أسباب المعيشة والطمأنينة ووحدة الآمال والآلام والأخلاق والتقاليد والعادات المشتركة بين جميع أفرادها والمنتمين إليها.

والأمة العربية هي إحدى المجموعات التي أُلفت على هذا الشكل، في عالم يحاول القوي فيه دائمًا أن يبتلع الضعيف، بدافع الجشع أو الأنانية، فتوالت الحروب من أجل ذلك وكان الغرض الأول منها التوسع والإثراء أو السيطرة والمجد.

والوطن – كما تصورته حينئذ – هو بقعة محدودة من الأرض تعيش فيها الأمة أو الشعب، أي المجموعة المتجانسة من البشر التي وحّد بينها الدم والمصلحة والتاريخ واللغة والآمال والتقاليد. وكان الفرق بين الشعب والأمة في نظري أن الشعب يعيش في وطن مستقل موحد، في حين أن الأمة تعيش محرومة من نعمة الوحدة في أوطان قد تكون مستقلة وقد لا تكون.

وكانت كلمة الوطن تهزني وتثير في نفسي أشّد عواطف الحماسة. ولا غرو، ففطرة الرجل معجونة بحب الوطن، كما قال أحد الفلاسفة، ثم يزداد هذا الحب على مرّ الأيام كلما ازداد الانسان علمًا بما للوطن من فضل عظيم عليه.

ولله درّ شوقي[43] حين قال:

وطني لو شغلتُ بالخلد عنه

نازعتني إليه في الخلد نفسي

وقد ذهب إلى أبعد من ذلك بقوله في الوطن:

أدير إليكَ قبل البيتِ وجهي إذا فهت الشهادة والمثابا

ولو أني دعيتُ لكنـتَ ديني عليه أقابل الحتم المجابا[44]

والحقيقة أننا مدينون للوطن بكل شيء، بوجودنا وحياتنا وأسباب معيشتنا، وسعادتنا وفكرنا وكل ما ننعم به من لذة ونتمتع به من هناء، بالهواء الذي ينعشنا والماء الذي يروينا والطعام الذي يغذينا. هو مجدنا الماضي وعزنا الحاضر وأملنا في المستقبل. هو أمنا جميعًا ونحن له أبناء قبل أن نكون لأمهاتنا لأنه فوق كل شيء، ولأنه أجمل وأسمى من كل شيء. فيه مهدنا وفيه لحدنا، وبينهما مباهج الحياة كلها. فيه رفات أجدادنا ومفاخر أمتنا وكل معاني الحب والقوة والكرامة والمجد. فأي اسم كاسمه يجمع كل هذه المعاني السامية في حياتنا الخاصة وحياتنا العائلية وحياتنا الاجتماعية، ويصور لنا كل ما يحيط بنا، ويفرح قلوبنا ويبهج أنظارنا من إنسان وحيوان ونبات في أرض هي لنا، وقد كانت لأجدادنا، وسماء تظلنا [تظللنا]، وقد ظللت أباءنا قبلنا، وسهول وجبال ترويها أنهارنا وينابيعنا، ونعيش فيها مع أبناء جنسنا في رغد وطمأنينة وهناء.

وإخواننا ومواطنونا في هذا الوطن العربي العزيز هم جميع الذين يقيمون فيه معنا ويتكلمون لغة أمتنا ويعتزون بعزتها ويتأدبون بأدبها ويفكرون بتفكيرها ويشاطرونها آمالها وآلامها ولا يحجمون عن التضحية في سبيلها.

شهران في طرابلس

وكان من حسن حظي بعد خروجي من المدرسة أن جاء بي والدي إلى طرابلس للاستراحة والاستجمام

في فصل الربيع. وكان قصده من ذلك أن أدرس مبادئ الفقه الإسلامي على يد بعض علمائه، تمهيدًا لإرسالي إلى باريس في أول السنة التالية، لدراسة الحقوق في جامعتها. كان الدستور العثماني[45] قد أعلن حينئذ فصممت على أن أكمل دروسي في اسطنبول لا في باريس، وأيّد رأيي هذا سليم عمون، وعارضه البطريرك وبعض الأساقفة من أصدقاء أبي وقد استشارهم في الموضوع.

وجئت إلى طرابلس، وكان لوالدي أصدقاء كثيرون فيها، وقد تعرفت عند أحدهم، وهو كامل البحيري[46]، بشيخ جليل اسمه الشيخ محمد العسال[47]، على ما أذكر، قيل لي إنه من علماء الكيمياء فاستغربت ذلك كثيرًا، وكأن ذلك الشيخ الوقور قد لاحظ ذلك مني، فدعاني بكل أدب وتواضع إلى داره حيث يجتمع بعض الطلبة لسماع دروسه المجانية.

ودهشت لأول درس حضرته. فقد كنت أظن أني أعلم علماء الكيمياء. ولكني أيقنت في أثناء الدرس بأني من أجهل الناس بها، ويظهر أن هذا الشيخ الفاضل لم يكن يهمه أن يعلمني الكيمياء، بل فكر في أن يلقي عليّ دروسًا في القومية والوطنية، فاختارني ثالث اثنين من تلامذته الكثيرين أصدقاء له، وصرنا نجتمع كل يوم في قهوة التل[48]، فيستهل حديثه معنا بدرس في الكيمياء، إيهامًا للناس، ثم يخفض صوته ويدعونا إلى الاقتراب منه، ليحدثنا عن العرب ومكانتهم في التاريخ، وكيف فتحوا العالم بعدلهم وقوتهم وسمو أخلاقهم، وكيف رفعوا ألوية الحضارة والعلم في ربوعه المختلفة، ثم عن الحالة المؤسفة التي بلغوا إليها في العصور الأخيرة، وعن الأخطار التي تهدد كيانهم الآن لضعفهم وجهلهم وتخاذلهم.

وكنت أحاول جهدي إخفاء جهلي بتاريخ العرب، وكان هو يتظاهر بالإعجاب بسعة معلوماتي، وعلو كعبي في التاريخ، ويقول لي إني في غير حاجة إلى استماع دروسه التي يلقيها على زملائي لا عليّ. ولكنه مع ذلك كان يأتيني كل يوم بكتاب جديد في تاريخ العرب ويحثني على قراءته، ثم يضيف إلى ما فيه آراءه وتعليقاته القيّمة، موضحًا أن أهم مقومات الأمة هي العاطفة واللغة والتاريخ ووحدة المصالح والتقاليد، وأنه ما من أمة في العالم لم يمتزج دمها بدم غريب، أو لم يدخلها قوم غير أهلها، ممن أتقنوا لغتها واعتزوا بعزتها ودافعوا عنها دفاع أبنائها فأصبحوا منها ولها.

مفخرة الأمم

وقد سمعت ثلاثين درسًا من دروس هذا الشيخ الجليل، واطلعت على عدة كتب أوصاني بقراءتها، ثم عدت إلى بلدتي وأنا مؤمن بعروبتي إيماني بوجودي، وموقن بأن الأمة العربية هي مفخرة الأمم، وأنها بلغت من العزة والمجد والعلم والحضارة ما لم تبلغه أمة غيرها سواء في عهد الكلدانيين والفينيقيين والمصريين الذين خرجوا من الجزيرة في موجات متوالية فاحتلوا البلاد المجاورة وأنشأوا فيها حضارات خالدة بآثارها الأدبية والعلمية والفنية، أو بعد ظهور الإسلام، حينما تجلت عظمتها العلمية والخلقية بأجلّ مظاهرها، فاستولت على أكثر من نصف العالم القديم في أقل من مائة سنة، وملأته عدلًا وحضارة ومجدًا. لقد أضافت إلى مفاخرها في الجاهلية أيام الفراعنة وسبأ وبابل ونينوى وصور وصيدا وقرطجنة، مفخرتها الكبرى بعد الإسلام، فوثبت من حالة الجهل المطبق والانحطاط الأدبي والخلقي التي كانت فيها وثبة واحدة إلى ذروة

المجد، على يد يتيم أمي فقير، لا حول له ولا قوة، اختمرت في ذهنه أعظم فكرة، فتوسل إلى تحقيقها بأضعف الوسائل وأوهاها، وأحرز أعظم النتائج في أقصر الأوقات بصدق عزيمته وسمو خلقه والروح العالية التي بثها في قومه.

نعم... إن بعض الأمم وفقت إلى بعض ما وفق إليه العرب من نجاح في الفتوحات، سواء في عهد الإسكندر أو في عهد قيصر وتيمورلنك. ولكن تلك الفتوحات زالت كل آثارها بزوال الفاتحين. أما العرب فقد فتحوا القلوب مع الممالك، وسيطروا على العقول قبل الأجسام، وكانوا أعدل الفاتحين وأشدهم تسامحًا وأبعدهم نظرًا، أوجدوا نظامًا خالدًا للحكم، وأقاموا عليه بناء إمبراطوريتهم الواسعة التي دامت في أوج مجدها أكثر من سبعة قرون، على أسس متينة من العدل والعلم وكرم الأخلاق، فلم يتركوا مكرمةً إلا كانوا أصحابها المجلين، ولا علمًا إلا توسعوا فيه وزادوا عليه الشيء الكثير من نتائج بحثهم وتفكيرهم، ولا فنًا إلا بلغوا في اتقانه حدود الكمال. أخذوا الفلسفة عن اليونان فصبغوها بصبغتهم وزادوا عليها من ثمار عقولهم ما ليس بعده من مزيد، وأقبلوا على الطب والجراحة والصيدلة، فكانت لهم فيها اليد الطولى، وكانت أبحاثهم واكتشافاتهم أساسًا لنهضة العلوم الطبيعية في هذا العصر. وقد اخترعوا الجبر ونهضوا بالكيمياء وسائر العلوم الرياضية والزراعية والهندسية أعظم نهضة عرفت حتى عصر النهضة الأوروبية الحديثة. ويرجع إليهم الفضل الأكبر في علم الفلك، وما بلغ إليه من مكانة في هذا العصر، بما وصلوا إليه من اكتشافات واختراعات قربت ما بين الأرض والسماء، وساعدت على توسيع إدراك العقل البشري لعجائب هذا الكون اللانهائي.

أما الأدب فكان لهم فيه القدح المعلى. وليس لأمة من الأمم أدب يضاهيه في فروعه المختلفة، رغم ما أصابه من انحطاط في القرون التي تلت انهيار الحكم العربي.

وقد ظهر تفوقهم في فنون الحرب والسياسية والإدارة بما أحرزوه من انتصارات واستولوا عليه من ممالك، في مائة سنة أو أقل، من حدود الصين شرقًا إلى المحيط الأطلسي غربًا، ومن المحيط الهندي وأواسط أفريقية جنوبًا إلى أواسط آسيا وأبواب اسطنبول وشمال إيطاليا وأسبانيا وأواسط فرنسا شمالًا.

فما من أمة والحالة هذه تستطيع أن تفاخر الأمة العربية بأعمالها أو أخلاقها أو رجالها، وهل في العالم مثل عمر في عدله، ومعاوية في دهائه، والرشيد في جلاله وعظمته، والمأمون في حبه للعلم، وابن رشد في فلسفته، وخالد في قيادته، والمتنبي في شعره والجاحظ في نثره، وقس[49] في فصاحته؟ وهل بين رجال الأمم الأخرى من استطاع أن يضع مئات المؤلفات في مختلف العلوم والفنون في الأدب والفلسفة والطب والفقه والكيمياء والتاريخ وعلم النبات والحيوان وعلم الفلك كابن سينا وغيره؟ وأين يمكن أن نجد ما نجده في العرب من كرم وشجاعة وإباء وحماية للضعيف والجار، وصراحة في القول وجرأة في الحق ونفرة من الكذب والرياء؟

كنت أخجل بعروبتي بعد أن أعلنتها لرياض الصلح، ولكني أصبحت فخورًا بها منذ عرفت ما عرفته عنها ووجدت الأدلة القاطعة على صحته.

وكانت العواطف الوطنية تنمو في نفسي على نسبة نمو عواطفي القومية. ويرجع الفضل إلى ذلك الشيخ الطرابلسي الفاضل الذي عرفني بعباقرة العرب، وإلى النواب العرب الذين رافقتهم في رحلتي الأولى إلى اسطنبول، وفي مقدمتهم عبد الحميد الزهراوي[50]. وقد كانوا جميعًا يعاملونني كابن لهم، ثم إلى عزيز علي المصري[51] مؤسس الحركة العربية وزعيمها في اسطنبول، وإلى أصدقائي ورفاقي من شبان العرب في المنتدى الأدبي وفي كلية الحقوق.

تعليق على حادثة

وقبل أن أنتهي من هذا الفصل يقتضيني الانصاف أن أقول كلمة موجزة في التعليق على حادثتي مع رياض الصلح في عينطورا. فأنا أعترف بما لهذه المدرسة الشهيرة من الفضل العلمي على لبنان، وأعلن أنها بثت في تلاميذها الأخلاق الطيبة والفضائل النفسية إلى جانب المعلومات التي كنت أسمعها من أساتذتها عن فرنسا وتاريخها ورجالها، وعما قامت به من أعمال باهرة في الحرب طلبًا للمجد، وما قدمته من خدمات للعلم والحضارة في سبيل الانسانية.

أما ما قاله الأب الناظر عن علاقتي برياض الصلح[52] فكان شيئًا مألوفًا في جميع المدارس العثمانية والأجنبية في ذلك العهد، ولم تكن مدارس الحكومة العثمانية التي جعلت مبدأ «فرّق تسد» أساسًا لسياستها أقل تعصبًا من المدارس الأجنبية التي تعمل كل منها لمصلحة الدولة التي تنتمي إليها، تمهيدًا لاستعمار البلاد. فكان الذين يدرسون في مدارس الدولة، ومعظمهم من المسلمين، يلقنون فيها كره أبناء الطوائف الأخرى واحتقارهم إلى أبعد من الحد الذي أريد بي أن أبلغ إليه في كره رياض الصلح. وكان الذين يدرسون في المدارس الأجنبية من فرنسية وإنجليزية وأمريكية ومعظمهم من المسيحيين يلقنون فيها كره المسلمين والخوف منهم، وذلك تنفيذًا لسياسة مرسومة في عواصم الدول المسيطرة على البلاد العربية حينئذ، والدول الطامعة فيها.

ولذلك كنت منذ صباي أحاول جهدي إيجاد نوع من الصداقة أو التعارف على الأقل بين من كنت اتصل بهم من المسلمين وغير المسلمين، على أمل أن يزيل هذا التعارف من نفوسهم ما علق بها من أدران تلك الدعايات الشنيعة المغرضة.

وأذكر بهذه المناسبة أن خير دعاية للمسلمين في شمال لبنان كان الفضل فيها للفرنسيين أنفسهم، يوم أبعدوا سعد الله الجابري وبعض زعماء سوريا إلى دوما[53] ثم إلى حصرون[54]، فإن سكان هاتين البلدتين كانوا يبتعدون عنهم، ويتجنبون التحدث إليهم في أول الأمر، ثم ما لبثت هذه الوحشة أن زالت بالتدريج، فجعلوا يزورونهم ويكرمونهم إلى أن عرفوهم فأحبوهم حبًا جمًا، وبدأوا ينشرون مزاياهم ويشيدون بها قائلين في سرّهم وجهرهم: هؤلاء مسلمون، ولكنهم ليسوا كالمسلمين، فلو كثر عدد أمثالهم لأصبح الشرق العربي على أحسن حال.

والظاهر أن هذا القول عن سعد الله الجابري وأصحابه كان أكبر مشجع على محاولة التعرف بغيرهم، فوجدوا بين المسلمين كثيرين أمثالهم. كما وجد المسلمون أصدقاء كثيرين بين النصارى فتصادقوا وأصبحوا الدعامتين العظيمتين للوطنية والوحدة القومية.

التعصب دخيل على العرب

وقد أشرت إلى هذه الحوادث ليعلم أبناء هذا الجيل والأجيال المقبلة، أن التعصب الديني لم يعرفه العرب

في وقت ما. وأنه كان دخيلًا عليهم، بدليل ما عرف عنهم من التسامح وسعة الصدر وحرية الفكر والقول في جميع أدوار حياتهم. فقد وقف ثمانون شاعرًا وخطيبًا على قبر المعري[55] الذي اتهم بالكفر والزندقة في عصره. ولو توفي المعري **في هذا العصر، لما لاقى في أيامنا هذه بعض ما لاقاه من التكريم في تلك الأيام الخالية.**

ثم إن قصة الأخطل[56] مع الخليفة يوم حرم عليه الإكثار من الخمر مشهورة، كقصة المأمون[57] يوم قال بخلق القرآن، إلى غير ذلك مما يدل دلالة قاطعة على مبلغ احترامهم لحرية القول والفكر والاعتقاد، ولو خالف معتقدهم. فقد كان الدين عندهم لله وحده لا شأن لأحد غيره فيه. ولولا ذلك لما رأينا النصارى العرب يحاربون أبناء دينهم الروم إلى جانب إخوانهم المسلمين ويساعدونهم على فتح سوريا والعراق ويشاطرونهم فخر انتصاراتهم.

فالقول بأن التعصب الديني أصيل عند العرب هو في الحقيقة أعظم خرافة في التاريخ، رسخت في بعض العقول بتأثير الدعاية المنظمة التي قام بها أعداء الأمة العربية بلا انقطاع في مختلف العصور، انتقامًا منها أو كرهًا لها أو تمهيدًا لمصالح خاصة لهم في بلادها، غير مبالين بالحقائق، وضاربين بالمنطق والعقل والتاريخ عرض الحائط. وإلا فكيف يمكن أن يتصور عاقل أن الألوف والملايين من غير المسلمين استطاعوا أن يعيشوا بأمن وسلام قرونًا عديدة إلى جانب المسلمين لو كان التعصب الديني شديدًا في النفوس إلى الحد الذي وصفه لنا المغرضون من المؤرخين؟ وكيف مرت تلك القرون كلها ولم تقع اضطهادات أو مذابح كالتي سجلها تاريخ الغرب في عهد محاكم التفتيش وخصوصًا ضد العلماء وأصحاب الرأي الناضج والفكر الحر من مختلف الطوائف المسيحية.

من أين جاء؟

فالحقيقة التي يعترف بها الآن كل منصف، هي أن هذا التعصب الذميم أدخل على الأمة العربية وعلى الإسلام نفسه بأيدي الأجانب لأغراض خاصة. فقد بدأ الفرس بإثارته منذ أوائل عهد الدولة الأموية، انتقامًا لإمبراطوريتهم التي أزالها العرب من خريطة العالم. ثم جاءت بعض الشعوب التي اعتنقت الإسلام، كالترك والجركس وغيرهم، فشجعت النعرات الدينية والطائفية على اختلافها، كما شجعت الغش والرشوة والكذب والرياء بغية إضعاف العرب، للحلول محلهم في الحكم، بإفساد أخلاقهم وإخراجهم من عاداتهم وتقاليدهم في التسامح وسعة الصدر واحترام الحرية على أنواعها، والكرم والشجاعة وإغاثة الملهوف، وإكرام الضيف والجار.

وأخيرًا جاءت الحروب الصليبية، فحفرت هوة سحيقة بين الشرق والغرب، انتهزها المغرضون من الكُتّاب والمؤرخين الإفرنج فرصة سانحة لتشويه سمعة العرب والإسلام بأكاذيب ومفتريات صادفت هوى في بعض النفوس، فأخذت تنتشر وترسخ حتى أصبحت عقيدة العالم الغربي كله.

على أنه في خلال القرنين الماضيين ظهر عدد من المؤرخين تحرروا من قيود التعصب، فكشفوا النقاب عن

تاريخ العرب، وأظهروا للعالم ما فيه من عظمة وجلال وجمال، فكان لهم أثر عظيم في تنوير الرأي العام.

ولما ضعفت السلطة العثمانية وبدأت المطامع تحوم حولها، استأنف الطامعون نشاطهم في الدعاية ضد العرب عن طريق التعصب الديني أيضًا. فجعلوا يرسلون البعثات بأسماء مختلفة إلى البلاد العربية، ويُنشؤن فيها المدارس ومعاهد العلم لإثارة الأحقاد الطائفية وتمزيق وحدة الأمة، تمهيدًا للاستيلاء على بلادها، وسارت الدولة العثمانية على هذا الطريق أيضًا لاستبقاء عطف المسلمين عليها بواسطة الدعاية الدينية، وتسهيل مهمتها في حكم البلاد، بإثارة الخلاف والشقاق بين العناصر المختلفة فيها.

وهكذا كانت المدارس التي أُنشئت للتعليم في البلاد العربية من أوائل القرن التاسع عشر إلى الآن، مراكز دعاية منظمة للتعصب الديني والكره المتبادل بين أصحاب المذاهب المختلفة، وتمزيق الأمة العربية إلى طوائف عديدة متباغضة يريد كل منها القضاء على الآخر ويتمنى لو استطاع أن يمتص دمه أو يدفنه حيًا. ولا ريب في أن الأجيال التي نشأت في مدارس من هذا النوع، على جهل مطبق بالمبادئ الوطنية والقومية وحقائق التاريخ، ووجهت هذا التوجيه الذميم المشبع بروح البغض والشر والأنانية والرياء يمكنها أن تجد، فيما تقدمت الإشارة إليه، بعض العذر عما كانت فيه من انحطاط خلقي وفكري. فإصلاح هذه الحالة يبقى مستحيلًا ما دامت هذه المدارس سائرة على مثل الخطة التي وصفناها، من دون أن يكون هناك رقيب عليها أو موجِّه لها أو ضابط لحركاتها وسكناتها.

نعم إن الحكومات العربية المستقلة بدأت أخيرًا تفرض إشرافها على المدارس الأجنبية وتضع برامج معقولة للمدارس الوطنية والحكومية. ولكن هذه التدابير لا تكفي وحدها لإزالة السموم المتراكمة في جسم الأمة العربية منذ قرون عديدة. بل لا بد من تدابير أخرى تُتخذ في داخل المدارس بتوحيد برامج التعليم وتشديد المراقبة، وفي الخارج بنشر المبادئ القومية وتنمية العلاقات الاجتماعية بين مختلف الطوائف والضرب بيد من حديد على كل من يحاول الاصطياد في هذا الماء العكر عن جهل منه أو بدافع من عمال الأجانب الذين بلغ منهم القلق على مصير الاستعمار حد اليأس، وأصبحوا لا يرون وسيلة للمحافظة عليه غير إثارة النعرات الدينية لتمزيق وحدة الأمة. وقد وجدت الأديان جميعًا للتوفيق لا للتفريق ولخير الوطن لا لشره. فالدين لله والوطن للجميع. ودين الأكثرية من سكان البلاد العربية هو أشد الأديان وأكثرها عناية بخير المجتمع لو عرفه أصحابه.

---

(35) مدرسة عينطورا (عينطورة): أنشأها الآباء العازاريون في بلدة عينطورة في قضاء المتن في عام 1834.

(36) بلدة تنورين في قضاء البترون- لبنان.

(37) هي فرنسا وإنكلترا وروسيا والنمسا وإيطاليا وألمانيا. (المؤلف)

(38) إشارة إلى متصرفية جبل لبنان التي أنشئت في عام 1861، والتي تمتعت باستقلال إداري يرأسه مُتصرف عثماني مسيحي غير لبناني.

(39) إشارة إلى رضا الصلح (1860-1935)، ولد في مدينة صيدا في لبنان، وهو من عائلة برز منها إداريون وقضاة. انتخب عضوًا في مجلس المبعوثان في عام 1909، وعيّن متصرفًا في عدد من نواحي الدولة العثمانية. أصبح وزيرًا للداخلية في حكومة دمشق بقيادة الأمير فيصل. هو والد السياسي اللبناني رياض الصلح.

(40) أرخميدس: عالم وفيلسوف يوناني، عاش في القرن الثالث قبل الميلاد. اشتهر بعبارة (أوريكا، أوريكا) بمعنى «وجدتها» بعد اكتشافه قانون طفو الأجسام في الماء.

(41) إشارة إلى الساعة المائية المصنوعة من النحاس، التي كان ارتفاعها يبلغ أربعة أمتار، والتي أهداها الخليفة هارون الرشيد إلى شارلمان ملك الغرب «الإمبراطورية الرومانية المقدسة» في مطلع القرن التاسع الميلادي.

(42) أبواق أريحا: رواية توراتية تُفيد أن بني إسرائيل بقيادة يشوع بن نون دكّوا أسوار مدينة أريحا (فلسطين) بقوة نفخ الأبواق.

(43) أحمد شوقي (1868-1932): شاعر مصري، لقب بأمير الشعراء، قصائده ضُمّت في ديوان **الشوقيات** في أربعة أجزاء.

(44) البيت أي الكعبة، وفِهتُ أي نطقتُ، ودُعيتُ أي دُعيتُ إلى الإسلام.

(45) الدستور العثماني: إشارة إلى الانقلاب الدستوري في 8 تموز/يوليو 1908 الذي أعاد العمل بالدستور الذي سبق أن أعلن في عام 1876، وبقي معلّقًا طوال فترة حكم السلطان عبد الحميد الثاني.

(46) كامل البحيري (1856-1920): وجيه من طرابلس- لبنان، ناشر أول صحيفة في المدينة باسم **طرابلس الشام** في عام 1893.

(47) محمد العسال: من علماء طرابلس، محدث، غادر موطنه وجال في آسيا وصولًا إلى قازاخستان وزار بخارى حيث ضريح المحدث البخاري.

(48) قهوة التل: مقهى أنشئ في أواسط القرن التاسع عشر، وما يزال قائمًا حتى الآن.

(49) هو قس بن ساعدة الإيادي الذي يُعد أبلغ العرب وأفصحهم.

(50) عبد الحميد الزهراوي (1956-1916): كاتب وسياسي سوري، انتخب بعد إعلان الدستور نائبًا عن حماة في مجلس المبعوثان. شارك في المؤتمر العربي الأول في باريس. أعدمه جمال باشا مع قافلة شهداء 6 أيار/مايو 1916. له: **رسائل الفقه والتصوف.**

(51) عزيز علي المصري (1880-1965): أحد رواد العروبة، تخرج ضابطًا في كلية الأركان العسكرية في اسطنبول، وانتسب إلى جمعية الاتحاد والترقي، وشارك في الانقلاب الدستوري في عام 1908. برز كضابط ميداني وشارك في العديد من حروب الدولة العثمانية. أسس جمعية «العهد» السرّية في عام 1913 التي ضمّت الضباط العرب في الجيش العثماني. حُكم عليه بالإعدام وأطلق سراحه في عام 1914 بعد وساطات دولية. انضم فترة وجيزة إلى الشريف حسين في عام 1916، وشارك في الحياة السياسية المصرية حتى وفاته.

(52) رياض الصلح (1849-1951): سياسي لبناني وأحد قادة الاستقلال. مارس النشاط السياسي مبكرًا، فكان عضوًا في جمعية «العربية الفتاة». شارك في المؤتمر السوري الفلسطيني في جنيف. شغل منصب رئيس حكومة الاستقلال في عام 1943، واغتاله في عمان بالأردن أعضاء في الحزب السوري القومي الاجتماعي.

(53) دوما: بلدة في قضاء البترون- لبنان.

(54) حصرون: بلدة في قضاء بشري- لبنان.

(55) أبو العلاء المعري (973-1057م): شاعر عربي كانت له نزعة فلسفية في شعره، كان أعمى واشتهر بتشاؤمه.

(56) الأخطل (640-710م): شاعر عربي من قبيلة تغلب، كان مسيحيًا، ومدح خلفاء بني أمية.

(57) المأمون (786-833م): الخليفة العباسي السابع، عرف عهده ازدهار العلوم وترجمة الفلسفة عن اليونانية، تبنّى مذهب المعتزلة القائل بخلق القرآن.

الفصل الثاني
في العاصمة العثمانية

بين باريس واسطنبول

لم يعد رياض الصلح إلى المدرسة في السنة التالية على ما أذكر. فزال بذلك الخطر الذي كان يخشاه الناظر عليّ منه. واضطررت إلى مصادقة الذين أوصاني بمصادقتهم فلم يملأ أحد منهم عيني ولا قلبي.

وزرت بيروت بعد ذلك مرارًا بصحبة والدي في أثناء العطلات المدرسية. وكان لوالدي أصدقاء كثيرون من المسلمين، فلم ألحظ قط أنه كان يخشى خناجرهم. وقد صرت أتساءل عن السبب الذي حمل الناظر الفرنسي على إثارة مخاوفي من رياض، فلم أتوصل إلى معرفته حينئذ، ولكنه تكشف لي مع الزمن.

وكان والدي يفكر في إرسالي إلى باريس لدرس الحقوق فيها، فلم أرتح لهذه الفكرة لا لسبب سوى شعوري بأني غير فرنسي، وخصوصًا بعد أن أعلن الدستور العثماني وانتشرت الروح الوطنية في البلاد. وقد وجّهتُ نظري إلى اسطنبول منذ ذلك الحين.

وأراد والدي – وكان مصممًا على إرسالي إلى باريس – أن أدرس مبادئ الفقه الإسلامي في طرابلس، فذهبت إليها وتعلمت فيها مبادئ اللغة التركية، كما تلقيت بعض الدروس في الفقه على يد الأستاذ الشيخ عبد اللطيف الغلاييني[58]، وكان من كبار المحامين، وسمعت دروس الشيخ العسال في القومية والكيمياء.

وانتهى فصل الربيع وعدت إلى والدي أشد رغبة في السفر إلى اسطنبول مني في أي وقت آخر. وبعد مناقشات طويلة وافق رحمه الله على رأيي وحقق رغبتي.

السفر إلى العاصمة العثمانية

ركبت الباخرة التي كانت تقل نواب سوريا في «مجلس المبعوثان»[59] إلى عاصمة السلطنة العثمانية. وكان السيد عبد الحميد الزهراوي أول من عرفته منهم. فقد اتفق أن كان جلوسه على [إلى] المائدة في جواري، وراقه أن يتحدث إليّ. فسألني عن سبب سفري إلى إسطنبول، ولم يكتم دهشته لأني فضلتها على باريس. وكان وجهه يطفح سرورًا وأنا أذكر له السبب وقد قلت:

إن الدستور ساوى بعد اليوم بين جميع أفراد الأمة، وجعل العثمانيين جميعًا شعبًا واحدًا لا فرق بين عربيهم وتركيهم، مسلميهم ومسيحييهم؛ فالبلاد أصبحت لنا جميعًا كما أن فرنسا هي لجميع الفرنسيين وإنجلترا لجميع الإنجليز. فإذا كان إتمام دروسي في باريس يفيدني من الوجهة العلمية، فإن تخرجي في مدارس الدولة يفيدني من الوجهتين العلمية والوطنية، فيعزز فيّ حب الوطن ويحبب إليّ الواجب الوطني، ويوحّد بيني وبين زملائي الطلبة بالعواطف والمبادئ وحب التضحية في سبيل الواجب. فالإنسان لا قيمة له إلا بقدر ما يكون لوطنه من العظمة والمجد. وما من واجب على الفرد أعظم من خدمة الوطن والتفاني في

سبيله. ونحن الآن في عصر جديد يقضي علينا أن نؤلف أمة جديدة من مختلف العناصر العثمانية بتوحيد الثقافة وتقويم المبادئ والأخلاق.

والظاهر أن حديثي راقه فشملني بعطفه من تلك الساعة، وقدمني إلى جميع أصدقائه وكانت له أياد بيضاء مدة إقامتي في اسطنبول.

وتمت رحلتنا على أحسن حال، ووصلنا إلى عاصمة السلطنة العثمانية في صباح اليوم الذي افتُتح فيه «مجلس المبعوثان» وقد أقبل مركب بخاري نحو الباخرة، وكانت لا تزال في عرض البحر، فنقل النواب منها بسرعة ليتمكنوا من حضور جلسة الافتتاح، وقد تركني الزهراوي على وعد منه بالاجتماع بي في اسطنبول.

ورست بنا الباخرة حوالى الساعة التاسعة، فنزلت منها إلى فندق كروكر. وكانت الطريق غاصة بالجند استعدادًا لمرور السلطان عبد الحميد[60] من قصر يلدز إلى دار البرلمان في جوار جامع أيا صوفيا. وقد استأجرت غرفة مطلة على الشارع العام وجلست أنتظر مرور الموكب السلطاني، لأرى ذلك الرجل الذي كان اسمه يلقى الرعب في النفوس.

عبد الحميد والدستور

وصل الموكب فهتفت الجماهير «بادشاهم جوق ياشا»، أي سلطاني يعيش كثيرًا [أو ليطل الله عمره] وكان السلطان جالسًا في صدر عربة مكشوفة ممتقع اللون، يحدق ببصره إلى الأمام، لا يميل بوجهه يمينًا ولا يسارًا، ويده على قبضة سيفه، وأمامه جلس الصدر الأعظم. وذهب الموكب السلطاني ثم عاد وأنا لا أزال جالسًا في الشرفة، أتأمل ذلك الاحتفال العظيم الذي لم يسبق لي أن شاهدت مثله، وأفكر في هذا السلطان الدموي الذي ظل أكثر من ثلث قرن الحاكم المطلق في بلاد جمعت بين القارات الثلاث، وكان في نظر الملايين من البشر «ظل الله في أرضه وخليفة رسوله»، وقد أصبح الآن بفضل فئة من المواطنين المجاهدين ملكًا دستوريًا يأتمر بأمر الأمة ويسير على إرادتها. ولكن سؤالًا واحدًا دار بذهني حينئذ وهو: «هل يستطيع هذا المستبد العاتي أن يأتلف مع الدستور؟».

وبعد أشهر قليلة جاءني الرد على هذا السؤال وكان كما يأتي: في ليلة 31 مارس [آذار 1909] قامت فتنة دبرها السلطان عبد الحميد لإلغاء الدستور وإعادة الحكم المطلق. فقد وزع مبالغ طائلة من المال على جنود الحامية لإثارتهم على الضباط المثقفين. وثار هؤلاء الجنود في ثكناتهم وقتلوا ضباطهم ثم خرجوا إلى المدينة وأعملوا فيها السلب والنهب، واقتحم بعضهم البرلمان وحطموا مقاعده واعتدوا على من وجدوه من النواب، وقتلوا أحدهم وهو الأمير محمد أرسلان[61]، فسادت الفوضى العاصمة وعمها الذعر والرعب.

وكنت حينئذ أقطن في حي بك أوغلي، وهو حي السفارات، على مقربة من مقهى «توكتليان» حيث كان يجتمع رجال السياسة من عرب وغيرهم، ولم يكن لهم حديث غير حديث هذه الفتنة، وقد عرفت منهم أن الاتحاديين وأحرار البلاد، قرروا استرداد اسطنبول وإعادة الدستور بالقوة، وأن جيشًا كبيرًا بقيادة محمود شوكت[62] باشا البغدادي زحف من سلانيك إلى العاصمة وجعل مقره بلدة سان استِفانو على بعد بضعة عشر كيلومترًا من اسطنبول، وخفف ذلك من حماسة الجنود الثائرين وحمل السلطان على التفكير في عاقبة الأمر. وكان عبد الحميد جبانًا، كما هو معروف، ولم يكن حوله قواد ولا رجال سياسة أو إدارة. فلم يستطع أن يسيطر على الموقف مع أن عدد جنود الحامية التي أيّدته كان يربو على 70 ألفًا، وقد اكتفى بأن أنذر

بإطلاق المدافع من قصر يلدز على حي «بك أوغلي» حيث السفارات ومعظم الأجانب، إذا حاول جيش سلانيك مهاجمة العاصمة.

وبقي جيش التحرير بضعة أيام في بلدة سان استفانو يتأهب للعمل، وقد انتقل مجلس النواب إليها واستأنف اجتماعه في ظل هذا الجيش، وأخذت صحف اسطنبول تتحدث عن المفاوضات بين السلطان ومحمود شوكت باشا وتقول إنها سائرة نحو الاتفاق.

ودفعتني الرغبة في الاستطلاع، ذات يوم، إلى زيارة سان استِفانو فذهبت إليها، وقصدت رأسًا المقهى الذي اتخذه البرلمان مقرًا لانعقاده، وكان عبارة عن مقهى كبير على البحر حوله حديقة واسعة تحيط بها أسوار عالية من جهة البلدة، ودخلت المقهى قبل انعقاد الجلسة وجلست مع عبد الحميد الزهراوي وأسعد الشقيري[63]، إلى أن طلبتْ الرياسة من غير النواب والشيوخ أن يبرحوا القاعة فخرجت، وجلست في الحديقة، وقد أغلقت أبوابها تحت حراسة الجند، مع نحو 30 شخصًا من صحافيين وضباط.

ولم يمض على ذلك نصف ساعة حتى رأينا أبواب القاعة التي اجتمع فيها البرلمان تُفتح فجأة، ويخرج منها النواب والشيوخ في حالة ذعر شديد، وهرع بعضهم إلى أبواب الحديقة يحاولون فتحها أو تحطيمها. وقبل أن أعرف سبب هذا الذعر وصل أحد أركان حرب محمود شوكت باشا مسرعًا وقال:

– جئت لأبشركم بأن الأسطول العثماني الذي ترونه الآن مقبلًا علينا قد خرج عن طاعة السلطان وانضم إلى المجلس.

وهدأ روع النواب وعادوا إلى القاعة واستأنفوا اجتماعهم وقام الجنود بواجبهم في إعادة النظام، وإبعاد الناس عن الأبواب والنوافذ حتى لا يُسمع شيء مما يدور في الجلسة.

الجلسة الخطيرة

ودامت هذه الجلسة ثلاث ساعات، وقد شعرت بخطورتها، فلم أشأ الخروج قبل أن نرى بعض النواب بعد نهايتها. ولما قاربت الساعة الثالثة مساء فُتحت الأبواب وبدأ النواب يخرجون، وكانت ملامح السرور بادية على وجوه فريق منهم، ومظاهر القلق والاضطراب على وجوه الفريق الآخر، فلحقت بالأستاذ الزهراوي وسرت معه في الطريق، ولما ابتعدنا قليلًا قلت له هامسًا:

– متى يكون الخلع يا أستاذ؟

فالتفت نحوي بغضب وقال:

– ماذا تقول؟ هل أنت مجنون؟

– لم أقل شيئًا غير ما سمعت من بعض زملائك

– هذا غير صحيح، فإياك أن تردّده

– أنا عائد الآن إلى اسطنبول فهل توصيني بشيء؟

– عد إلى اسطنبول حالًا، والزم غرفتك، واقضِ هذين اليومين في القراءة. لقد كنت أود أن أبقيك هنا ولكن ليس في البلدة كلها غرفة خالية.

قلت:

– لقد فهمت.

– إياك أن تفهم شيئًا لم أقله، فالاتفاق أوشك أن يتم مع جلالة مولانا السلطان أيّده الله وعليك أن تحفظ لسانك وأن لا تفوه بأية كلمة مما توهمته.

احتلال اسطنبول وخلع السلطان

عدتُ إلى اسطنبول وعملتُ بما أوصاني به الزهراوي، وكنت أطالع الصحف يوميًا. فكانت تتحدث دائمًا عن التفاهم بين السلطان وشوكت باشا، وعطف السلطان على الثورة وعلى الأحرار. وحرت في الأمر وخشيت أن يكون ما تقوله الصحف صحيحًا. ومنعني الخوف من أن أسأل أحدًا أو أبحث مع أحد في الموضوع. ودامت هذه الحيرة ثلاثة أيام، وفي ليلة اليوم الرابع أصابني أرق فخرجت إلى شرفة غرفتي، وكانت الساعة الرابعة صباحًا، وأجلت طرفي في شوارع الحي فوجدته على عادته في مثل تلك الساعة هادئًا لا حركة فيه.

وشعرت بعد قليل ببائع الجرائد يترك لي صحف الصباح، فنزلت من غرفتي وأخذتها، وبدأت أتصفحها وأنا صاعد درج السلم. وقد لفت نظري عنوان كبير في جريدة **لاتوركي** عن الصلح الذي تم بين جلالة السلطان وشوكت باشا.

وما كدت أصل إلى غرفتي حتى سمعت دوي الرصاص وقصف المدافع، فخرجت إلى الشرفة لأرى ماذا جرى، وإذا بالجند يملأون الشوارع على مدى النظر، فأدركت حينئذ أن جيش الأحرار دخل المدينة، وأن القتال دائر بينه وبين حاميتها. ولم أطق صبرًا على البقاء في الغرفة، فما أن طلعت الشمس حتى تركتها وذهبت إلى مقهى «توكتليان» حيث يجتمع عادة بعض معارفي وأصدقائي.

واستمر دوي الرصاص وقصف المدافع إلى الساعة الحادية عشرة، ثم انقطع. فخرجنا من المقهى واتجهنا إلى أقرب ثكنة دار فيها القتال وهي ثكنة «تقسيم». وما كدنا نقترب منها حتى استؤنف ضرب المدافع فأمرنا الجنود الذين يحرسون الشارع بالعودة.

وقد عرفنا منهم أن ثكنة تقسيم التي رفعت علم التسليم خداعًا، استأنفت القتال بعد أن وصل جنود الحرية إلى وسط ساحة التقسيم التي أمامها ففتكت بهم فتكًا ذريعًا.

وعدت إلى مقهى «توكتليان» وجلست أنتظر النتيجة، ولم تمض نصف ساعة حتى هدأت الحال ثانية، واستولى جيش الحرية على الثكنة نهائيًا، وكان قد تم الاستيلاء على جميع ثكنات العاصمة قبل الساعة الحادية

عشرة، وسيطر على المدينة سيطرة تامة، وضُرب نطاق الحصار حول قصر يلدز، وقطع عنه الماء والكهرباء. ولذلك لم نلبث أن رأينا قواد جيش الحرية يصلون إلى المقهى الواحد تلو الآخر. وكان نيازي[64] أول القادمين ثم وصل أنور[65]. وجاء بعده عزيز علي المصري، وجلس على مقربة منا لتناول الطعام.

واجتمع البرلمان في المساء وانتدب ثلاثة من أعضائه لإبلاغ السلطان عبد الحميد قرار الخلع. وبعد ظهر ذلك اليوم شاهدت مع الجالسين في مقهى «توكتليان» عشرات من عربات السراي تقل مئات الغانيات من قصر يلدز إلى جهة لم نعرفها حينئذ، وكانت مظاهر الحيرة بادية في ابتسامتهن ونظراتهن وحركاتهن، وكن كأنهن في جهل تام بكل ما جرى، أما السلطان فلم نره ولعله نقل في الليل.

وهكذا انتهت فتنة 31 مارس [آذار] وخلع السلطان عبد الحميد في بضع ساعات وحل محله السلطان محمد الخامس[66] الذي قضى سجينًا في أحد قصور اسطنبول أكثر من ثلاثين سنة لا يعرف عن أمور العالم شيئًا ولا يكترث بشيء غير ما أحيط به من أسباب التسلية واللهو والنسيان.

أما كيف تم كل هذا فقد سمعت تفاصيله من ضابط عربي اشترك في القتال، قال: وضع الجنرال محمود شوكت باشا وأركان حربه خطة الزحف على اسطنبول بدقة تامة. فعهد إلى أنور بمحاصرة قصر يلدز ومنع السلطان من تنفيذ تهديده بضرب حي بك أوغلي، وعهد إلى مختار بك باحتلال ثكنة تقسيم، وقد قتل هذا القائد في المعركة. وكانت مهمة عزيز علي احتلال محطة اسطنبول (السركجي) والاستيلاء على كوبري غلطة والثكنات القائمة على جانبيه والمنتشرة على طول الطريق إلى قصر دولمة بغجة. وقد وُفِّق عزيز إلى احتلال المحطة والكوبري والثكنات المجاورة له من دون أن يطلق رصاصة أو تُراق قطرة دم. وظل يتنقل من ثكنة إلى ثكنة ويأسر ضباطها وهم في أسرّتهم، إلى أن بلغ الثكنة الواقعة على مقربة من قصر دولمة بغجة. وكان القتال قد بدأ في جهات تقسيم وفي شمال المدينة، فتنبهت حامية الثكنة وبادرت إلى المقاومة، فاضطر عزيز إلى احتلالها بالقوة. وقد أتم المهام التي نيطت به كلها ثم سار لمعاونة أنور في شمال المدينة، واشترك بعد ذلك في الاستيلاء على ثكنة تقسيم التي كان الدفاع عنها شديدًا.

هكذا انتهت فتنة 31 مارس [آذار] التي اشترك في قمعها جنود من العرب والترك. وكان الصفاء بينهم تامًا، وكان كبارهم أعضاء في جمعية واحدة، هي جمعية «الاتحاد والترقي»[67].

أمنية فتى

وكنت في تلك الأثناء قد تعرفت بالأستاذ أنطون فارس الذي جاء إلى اسطنبول من مرسيليا موفدًا من بعض الأحزاب في لبنان لعرض مطالبها على الباب العالي. وقد أخبرني أنه زار سلانيك وتعرف برجال الثورة فيها.

وشعرت بغبطة عظيمة لهذا الرجل الذي ساعده الحظ، فاجتمع بهؤلاء الأبطال الذين كانوا في نظري فوق طبقة البشر. وقد قلت له: «ما أسعد حظك فإن رؤية واحد منهم ولو عن بعد، تساوي الحياة كلها في نظري».

وذات يوم دعاني الأستاذ فارس للذهاب معه إلى نادي حزب «الاتحاد والترقي» قائلًا إنه سيجتمع هناك بأنور بك، فسرت معه مغتبطًا بأني سأرى الرجل الذي كان ذكره يملأ سمعي وبصري.

وما كان أشد دهشتي ونحن جالسان في إحدى قاعات الانتظار حين أقبل علينا ضابط في مقتبل العمر جميل الطلعة باسم الثغر أشبه بفتاة منه برجل حرب وطعان. فهمس صاحبي في أذني قائلًا: «هذا أنور»، ثم أسرع نحوه مسلمًا باحترام. ووقفت أنا في مكاني أحدق في القادم تحديق حب وإعجاب وإجلال كأنما أحاول أن أطبع صورته في ذهني أو على لوح صدري.

وأدرك أنور ما يخامر فؤادي من عواطف نحوه، فاقترب مني وربت على خدي مدللًا.

هكذا عرفت أنور، وتلك كانت عواطفي نحوه في المقابلة الأولى، وأخذت هذه العواطف تتضاءل مع الزمن، ليس لأني كنت أزداد خبرة في الحياة فحسب، بل لأن كثيرين من الرجال لا يعرفون لسوء حظهم، أن يحتفظوا بالمكانة التي يصلون إليها في نفوس الشعوب. فالعظمة الحقيقية ليست نتيجة عمل عظيم قد يتم اتفاقًا، وإنما هي مظهر مستمر من مظاهر الأخلاق السامية والرجولة الكاملة والإيمان الصادق والقلب الكبير.

بوادر الخلاف بين العرب والترك

وبدأت الحالة تتحرج بين العرب والترك منذ وصل إلى اسطنبول بعض زعماء تركستان، كأحمد أغايف[68] ويوسف أقشورا[69]، لبثّ الدعوة التركية واقناع جمعية الاتحاد والترقي بأن الدول لا تقوم في هذا العصر إلا على أساس القومية، وأن تركيا يجب عليها تتريك العناصر غير التركية، والاتجاه بنظرها نحو تركستان لتؤلف دولة تركية عظيمة تعيد إليها مجد جنكيز خان.

وبدأ النفور بين العرب والترك من ذلك الحين، وكانت جمعية الاتحاد والترقي هي المسيطرة حينئذ على السياسة العثمانية، فأخذ العرب يخرجون منها.

وقد أدرك مفكروهم حينئذ أن سلامتهم في الكيان التركي أصبحت في خطر، وخصوصًا بعد ضياع طرابلس الغرب والبلقان من أيدي الترك وكثرة الأطماع الأجنبية في البلاد العربية، ولا سيما سورية وفلسطين والعراق، فجعلوا يفكرون في ما يجب عمله لدرء هذه الأخطار عن بلادهم.

المنتدى الأدبي

وقد أنشئ المنتدى الأدبي حينئذ وكان الغرض منه إيجاد رابطة ثقافية بين الطلبة العرب. ولكنه بدأ يتحول إلى مركز سياسي منذ تبدلت سياسة جمعية الاتحاد والترقي مع العرب. ولم يَخْفِ ذلك على الترك، فلجأوا إلى سياسة المجاملة خصوصًا بعد أن أصبح عبد الكريم الخليل[70] معتمدًا للشبيبة العربية. فقد ظنوا أنه أصبح في إمكانهم السيطرة عليها بالتردد على ناديها وإبداء العطف على معتمدها والقائمين بأمرها. لذلك

كثر ترددهم على المنتدى الأدبي، فكان يزوره دائمًا أنور وطلعت[71] وفتحي[72] ومدحت شكري[73] وغيرهم، لإلقاء الخطب والمحاضرات فيه، أو الاشتراك في حفلاته الأدبية والدينية..

في هذا المنتدى عرفت معظم الرجال الذين قامت النهضة العربية على جماجم بعضهم وأكتاف البعض الآخر، رحم الله من استشهد منهم وحفظ للأمة من أبقاه لها القدر.

عرفت فيه سليم الجزائري[74] وتوفيق البساط[75] وجلال البخاري[76] وعبد الكريم الخليل، ورفيق رزق سلوم[77] وعارف الشهابي[78] وسيف الدين الخطيب[79] ورشدي الشمعة[80] وشكري العسلي[81] وعبد الوهاب الإنكليزي[82] وغيرهم من شهداء العرب شبانًا وشيبًا. كما عرفت عزيز علي وشكري القوتلي والأمير عادل أرسلان[83] وجعفر العسكري[84] وسعيد حيدر[85] ونجيب شقير[86] وثابت عبد النور[87] وعبد الله الدملوجي[88] وكثيرين من آل الشهابي والصلح والعظم ومردم الذين كانوا ولا يزالون رافعين لواء النهضة العربية.

وفي أوائل عهد المنتدى الأدبي ظهر في البلاد العربية عدة أحزاب سياسية، وكان (...)[89] الإدارة السياسية وكثرة المطامع الأجنبية في البلاد العثمانية، مما هدد الدولة بالدمار والخراب. فقد اتضح جليًا بعد حوادث البوسنة والهرسك والحرب الطرابلسية، ثم حرب البلقان، أن الخطر على الدولة أعظم مما كان يخشاه الترك، وأن الدولة التي عجزت عن الدفاع عن الروملي[90] مثلًا يُخشى أن تعجز عن المحافظة على البلاد العربية عامة، إذا هاجمتها دولة قوية، وليس فيها حصون ولا سلاح. وكان ذلك منبهًا لكثيرين من رجال العرب إلى المطالبة بجعل إدارة الدولة على أساس اللامركزية، اعتقادًا منهم بأن ذلك يكون أدعى لعمران كل قطر من أقطار السلطنة واستعداده للدفاع عن نفسه.

وكان بين الأحزاب والجمعيات العلنية التي ظهرت في البلاد العثمانية حزب اللامركزية في مصر برياسة رفيق بك العظم[91]، وجمعية الإصلاح البيروتية[92]، وقد ضمت نخبة من أعيان سورية ولبنان، وجمعية البصرة الإصلاحية ورئيسها السيد طالب النقيب[93]. واتفقت هذه الجمعيات على المطالبة بالإدارة اللامركزية في السلطنة العثمانية المؤلفة من عناصر مختلفة الأجناس والأديان واللغات والعادات.

أما المنتدى الأدبي الذي كان أقوى عامل في بث فكرة الوطنية في نفوس العرب فقد تدرّج في خطته بإزاء الترك، وفقًا للتبدل الذي كان يطرأ على سياستهم. فبعد أن كان رائده بث الدعوة لوحدة عثمانية على أساس اللامركزية، رأى من مبالغة الاتحاديين في التعصب العنصري أن يندفع في بث الدعوة إلى الانفصال عن الترك وإعلان الاستقلال العربي.

وكان حزب العهد الذي أنشأه عزيز علي أقوى هذه الأحزاب، فقد انضم إليه معظم الضباط العرب، وكانوا يعدون بالألوف، وأحسنوا تنظيمه وعنوا عناية عظيمة باختيار رجاله وجعلوه حزبًا سريًا في خدمة العرب.

وكان عزيز من أركان جمعية «الاتحاد والترقي»، بل كان ساعدها الأقوى. وقد اعترفت الجمعية بخدماته العظيمة وأحلته محله من الاحترام والإكرام، ولكنه انفصل عنها بعد أن اتبعت سياسة تتريك العناصر، وبالغت بها إلى حد لا تؤمَن عاقبته. وقد نصح عزيز لأصدقائه من رجالها بأن يعدلوا عن هذه السياسة ويمهدوا سبيل النهضة لجميع العناصر العثمانية، ولا سيما العرب. وقد عقد مرة في منزله اجتماعًا كبيرًا حضره كثيرون من عظماء الترك وزعماء الاتحاد والترقي للبحث في تأمين الوحدة العثمانية، وعرض على المجتمعين مشروعًا استحسنوه جميعًا، ما عدا أحمد أغايف الذي كانت معارضته سببًا في إحباط المشروع وإلقاء بذور الخلاف بين عزيز وجمعية الاتحاد والترقي، وبالتالي بين الفكرتين العربية والتركية.

وقد كان مشروع عزيز قائمًا على تقوية السلطنة العثمانية بتقوية كل عنصر من عناصرها، وتوثيق عرى الاتحاد بينها. فلما رأى أن جمعية الاتحاد والترقي القابضة على زمام الحكم تنهج سياسة عنصرية متطرفة لا يمكن أن يرتضيها العرب ولا العناصر الأخرى، وأن الاتفاق معها على هذه السياسة مستحيل، وأنها ستجر

البلاد إلى هاوية الخراب، ولا سيما البلاد العربية التي كانت هدفًا لأطماع الطامعين، أيقن أنه لم يبق ثمة أمل بالنجاة إلا بتقوية الروح العربية وتعزيزها. فعمد إلى تأليف حزب عسكري سري هو حزب «العهد» وأنشأ له مركزًا في اسطنبول، ونظم وسائل الاتصال بين أعضائه، كما أن بعض أحرار العرب نظموا جمعية «الفتاة»(94) وكانت سرّية أيضًا.

من هو عزيز علي؟

وعزيز علي هو أبو الفكرة العربية وحامل لوائها. فمن حق التاريخ عليّ أن أقول كلمة عنه، وقد عرفته ورافقته مدة طويلة واستطعت أن أقدّر فضله على الأمة العربية ورجالها، وعليّ أنا بنوع خاص، لأنه هو الذي غرس فيّ الشعور الوطني ورباني على فهم الواجب والقيام به.

كان عزيز قدوة لجميع عارفيه في كل شيء، لم يذكر أحد أنه رآه يشرب الخمر أو يلعب الميسر أو يندفع وراء الملذات، أو يكذب على أحد أو يخلّ بوعد أو يتملق كبيرًا. وكان يوزع دخل أملاكه في مصر على المحتاجين من الضباط والطلبة في اسطنبول، ويبذل كل جهوده لترقية أخلاقهم ومكافحة عيوبهم بكل رفق وكياسة، وينشر حوله الأخلاق الفاضلة ويعلم أصدقاءه آداب السلوك وحسن الذوق، بمثله الصالح أولًا ثم بالقول والفعل.

وكانت علاقته بشبان المنتدى الأدبي علاقة المعلم بتلامذته أو الأب ببنيه، يبث فيهم الفكرة العربية والروح الوطنية والأخلاق الكريمة الفاضلة، ويعلمهم تاريخ العرب في مختلف أدواره موضحًا ما في كل منها من مفاخر، سواء في العلوم والفنون والآداب أو في السياسة والإدارة والحرب، وسائر مظاهر الحضارة من اكتشافات واختراعات. وحرص إلى جانب ذلك على تنمية حسن الذوق في أولئك الشبان وتعليمهم آداب السلوك في المجتمعات الراقية. وكان يفعل ذلك كله بمنتهى الكياسة. وقد زرته مرة في غرفته وكانت ربطة رقبتي لا تتفق مع لون ملابسي، ففتح خزانة ملابسه، ودعاني إلى اختيار الربطة الملائمة لي. وكان يمزج الجد بالهزل، فيتحدث عن الألوان وما يتلاءم منها وما يتنافر، وعن الملابس التي اعتاد الناس أن يرتدوها في المناسبات الرسمية وشبه الرسمية، وعن الموضوعات التي يحسن أو لا يحسن طرحها على بساط البحث في أمثال تلك المناسبات والاجتماعات، وأني أعلن هنا بكل صراحة أن ما يتوهمه فيَّ بعض أصدقائي من المزايا الخلقية أو الاجتماعية، إنما هو مستمد من عزيز علي المصري أستاذي في الوطنية كما هو أستاذي في الأخلاق والآداب الخلقية والاجتماعية.

وقد يتساءل الكثيرون من أبناء هذا الجيل: هل عزيز علي في سن الشيخوخة هو غيره في سن الشباب؟ فأجيبهم بلا تردد: نعم. لقد أصبح شخصًا آخر مختلفًا عن الأول اختلافًا عظيمًا. فإن ما عرفناه من عزيز الشاب من الحكمة وسداد الرأي وبعد النظر وسعة الصدر وقوة الإيمان وصدق العزيمة والصبر على المكاره، امتزج في سن الشيخوخة بشيء من العصبية وضيق الصدر والإكثار من الكلام والشك في الناس جميعًا والنقد الذي كثيرًا ما يكون مصدره العاطفة وحدها.

والحقيقة التي يجب أن يعرفها الجميع إنصافًا لهذا الرجل الكبير هي أن المصائب التي حلّت به لو حلّت بجبل لحطمته تحطيمًا. فإن إخوانه وأصدقاءه الذين أحاطهم طول حياته بكل عطفه وعنايته، وأنفق عليهم ثروته، جحدوا فضله وأنكروا جميله وقابلوا حسناته بالسيئات، وأقرباءه الذين أحبهم وعقد آماله عليهم انقلبوا عليه وجاهروه العداء الصريح، فاغتصبوا أملاكه أثناء محنته حتى كاد يموت جوعًا في منفاه. والأمة التي ضحى في سبيلها بكل شيء، قلبت له ظهر المجن وألقته في زاوية الأهمال، فبقي وحيدًا طريدًا في هذا الكون الواسع، لا صديق له، ولا مؤنس ولا معين. في حين أن أصدقاءه انقلبوا عليه وتحولوا إلى أعداء وفي مقدمتهم بعض الذين خلقهم من العدم ومهد لهم طريق الثروة والعزة، وبذل ماله وجهوده في سبيلهم. ثم إن الإنجليز الذين نقموا عليه حاولوا إذلاله والانتقام منه بكل وسيلة ممكنة، فظل يتنقل بين السجن والمنفى ومناصب الحكومة سنوات طويلة لم يذق فيها مرة طعم السكينة والهدوء، ولم ينعم براحة البال، بل كان دائمًا في حالة قلق على مستقبل الأمة وخيبة أمل في رجالها وقادة أمورها، وجهد مستمر ضائع لإصلاح أحوالها وإيقاظها من سباتها. وهكذا أحرق هذا الرجل نفسه لينير الطريق أمام مواطنيه وتعب ليريح غيره، وشقي طول حياته ليسعد أمته وبلاده. وخيل إلى الناس مرة أن مصر أوشكت أن تقدره وتنتفع بكفاءته، لما اختير مديرًا لمدرسة البوليس والإدارة بعد معارضة الإنجليز في تسليمه منصبًا كبيرًا في الجيش، ثم لما عيّن رئيسًا لأركان الحرب في سنة 1939. ولكن صراحته في الحق ونقمة الإنجليز عليه حالا دون ذلك، فأُبعد عن الجيش وسُجن بعد سقوط وزارة علي ماهر[95] واعتقاله، وكان لا يخرج من السجن حتى يعود إليه، وخصوصًا بعد أن اتهم بالرغبة في الفرار، على أثر وقوع الحرب بين العراق وإنجلترا وسقوط الطائرة التي كانت تقله من مصر على مقربة من القاهرة.

وقد قلت له مرة يوم تولى رياسة أركان حرب الجيش المصري: لقد كنا نعقد آمالًا كبيرة على كثيرين من إخواننا وأنت في مقدمتهم. فخيبوا جميعًا هذه الأمال، إلا أنت، لأن الأحوال لم تساعدك على العمل ولم تمكن الأمة من أن تجربك. ولكنك اليوم توليت أهم منصب في أعظم جيش عربي، في عهد وزارة[96] تجلك وتقدرك قدرك، لأن جميع أعضائها من أصدقائك وعارفي فضلك، وفي بلد يحبك وخصوصًا شبيبته المثقفة، لا فرق في ذلك بين الضباط والجنود والمدنيين، وفي عهد ملك شاب هو تلميذك، يكن لك الاحترام كله، وقد اقترن نسيبة لك هي كريمة ابن شقيقتك. فلا يستطيع أحد إذا فشلت في مهمتك، لا سمح الله، أن يجد لك أي عذر بعد أن بلغت هذه المكانة في نفوس الشعب والجيش والحكومة والبلاط معًا.

فأطرق قليلًا ثم قال: لا يمكن العمل مع هذا الملك، وليس ثمة أمل في إصلاح شيء ما دام الإنجليز في البلاد. فالملك أفسده محيطه، ولم يعد صالحًا لشيء. والإنجليز الذين يضمرون لنا الشر كله، مسيطرون الآن علينا سيطرة تامة، ولا همّ لهم إلا إضعاف أخلاقنا وإفساد أمورنا. وهم يكرهونني كره الموت، وينصبون لي الشراك تلو الشراك محاولين التخلص مني والقضاء عليّ.

قلت: إن علاقتك بالإنجليز الآن علاقة عسكرية فنية صرف، لا يمكن أن تكون سببًا في ازدياد نفورهم منك. فإذا وقفت منهم عند هذا الحد، فلا يمكنهم الاستغناء عنك لأنهم يعرفونك ولا ينكرون أنك خير جندي في الأمة العربية. أما الملك الذي صحبته في إنجلترا مدة طويلة قبل أن يتبوأ العرش وعلمته أن يحترمك، ولقنته ما استطعت من المبادئ الطيبة والأخلاق الكريمة، فهو من صنع يدك، ولا عذر لك إذا

عجزت عن إرشاده والسير به في الطريق السوي.

وبعد حديث طويل تناول حوادث تلك الأيام قال أنه سيحاول تحقيق ما رجوت تحقيقه منه برغم ما يراه من العقبات التي يقيمها المقربون من الملك في طريق كل مخلص. ثم أبلغ المحافظة تليفونيًا بناء على رجائي، أن في داره بعين شمس خادمة ألمانية يجب أن تعامل وفاقًا لأحكام القانون الذي صدر في أوائل الحرب.

وقد امتاز عزيز بقوة شخصيته، وكانت حياته كلها سلسلة من المغامرات العسكرية والوطنية، فقد اشترك بعد تخرجه من المدرسة الحربية في حرب العصابات البلغارية وأبلى فيها بلاءً حسنًا، واستطاع أن يجعل من هذه العصابات أنصارًا لفكرة الحرية، بحسن معاملته لرجالها الذين كانوا يقعون في الأسر، ومنع جنوده من الاعتداء على النساء والأطفال في القرى البلغارية، خلافًا لما كان يفعل غيره من الضباط. وهكذا لم يمض وقت طويل حتى أصبحت العصابات البلغارية على علاقة حسنة بأحرار العثمانيين، وأصبح ساندانسكي الزعيم الشهير للعصابات البلغارية من أخلص أصدقاء عزيز، ومثله الدكتور منيلاوس الزعيم اليوناني المعروف.

ونُقل عزيز إلى جهات اسكوب فعرف كيف يعزز سيطرة الاتحاديين ويبسط نفوذهم فيها حتى استطاع أن يعلن الدستور هناك قبل أن يعلنه أنور ونيازي في منطقتهما ببضع عشرة ساعة. وكانت المنطقة التي تولاها هي الملجأ الأمين للأحرار. فإن أنور ونيازي بعد أن أرسلا برقية التهديد إلى السلطان عبد الحميد، وعلما بتجريد قوات كبيرة لمحاربتهما، لجآ إلى المنطقة التي فيها عزيز علي واجتمعا به وتداولا معه مليًا فيما ينبغي عمله، فقر رأيهم في النهاية على أن وصول القائد الذي أرسله عبد الحميد حيًا إلى سلانيك يكفي وحده للقضاء عليهم وقمع حركتهم الدستورية، ولذلك قتل القائد فعلًا عند نزوله من القطار في محطة سلانيك.

ولما شبت نار الثورة في اليمن وغلبت الجنود العثمانية في معركة جيزان حيث فقدت أكثر من 28 ألف مقاتل، وانقطعت عنها المؤونة والذخيرة بسبب الحرب الطرابلسية، رأى عزيز أن يعقد الصلح مع الإمام يحيى[97]. وقد وُفق إلى صلح ظل العرب والدولة العثمانية يجنون ثماره حتى آواخر الحرب العظمى الأولى. ثم دفعته وطنيته الصادقة إلى طرابلس الغرب حيث تمكن على قلة جنوده ونفاد المال من يده من وقف الإيطاليين على الساحل زمنًا طويلًا. وقد شهد له أعداؤه بالتفوق في ميادين القتال، وكتبت المجلات العسكرية الألمانية تقول إن معركة 16 يونيو سنة 1913 التي انتصر فيها على الإيطاليين هي، من وجهة الفن العسكري، كمعركة «كان» التي انتصر فيها هنيبال على الرومانيين، لا يزال رجال الحرب يتخذونها نموذجًا لحسن القيادة.

هذه نبذة عن عزيز علي دفعتني مكانته في نفس كل عربي إلى تسجيلها، ولم أخرج بذلك عن دائرة بحثي لأني تحدثت عن رجل يعود إليه الفضل الأكبر في إحياء الفكرة العربية وخلق القضية العربية التي كتبت على هامشها هذه المذكرات.

كيف بدأت حياتي الصحفية

بعد وصولي إلى اسطنبول صدرت بعض الصحف العربية فيها، وفي مقدمتها جريدة **صوت الحق** لصاحبها جورج حرفوش[98]، وقد تولى رئاسة تحريرها الأستاذ إبراهيم سليم النجار[99]. وكثيرًا ما كنت أتردد على هذه الجريدة للتعرف بأدباء العرب الذين يزورونها. وقد كلفني رئيس التحرير مرة أن أترجم له كلمة عن إحدى الصحف الفرنسية، ففعلت، وما كاد يطلع على هذه الترجمة حتى قدمها للحاضرين، وكان بينهم معروف الرصافي[100]، فلما قرأها ربت على كتفي ثم قال: أكثر من القراءة يا بني وتمرن على الكتابة، فقد تصبح كاتبًا. وكانت هذه هي أول كلمة تشجيع سمعتها، كما كانت الكلمة التي ترجمتها أول كلمة نشرت لي في الصحف، ثم كتبت مقالًا سياسيًا عن حالة لبنان في جريدة **لاتوركي** ترجمته لي جريدة **الأخبار** المصرية لصاحبها الشيخ يوسف الخازن[101]. وكتبت له مقدمة توهم القراء بأني من كبار رجال السياسة. ومنذ ذلك الحين بدأت حياتي الصحفية، خصوصًا وأن الأستاذ إبراهيم النجار الذي كان مراسلًا **للمقطم** في اسطنبول رشحني لأن أشغل مكانه بعد أن أصبح مراسلًا **للأهرام**. وتم ذلك بالفعل فسررت له سرورًا عظيمًا وجعلت هدفي الأول من عملي الصحفي خدمة الفكرة العربية.

وأراد القدير أن أكون على مقربة من الباب العالي ساعة وقوع الاعتداء على الخديوي عباس الثاني[102]، فأرسلت بذلك برقية مستعجلة إلى **المقطم**، أبلغها إلى المقامات العليا في مصر قبل أن تعرف الحادثة في اسطنبول نفسها. وقد كتبت إليّ الجريدة تشكرني على هذا السبق العظيم، كما أرسلت إليّ مبلغًا من المال لأوافيها بأخبار العاصمة العثمانية برقيًا كلما دعت الحاجة.

سنموت معًا

وقد حدث حينما قابلت الدكتور نمر[103] والدكتور صروف[104] بعد مجيئه إلى مصر، أن قلت لهما: إنني لا أزال مدينًا لكما بنحو 15 جنيهًا. فقال الدكتور صروف: وهل لديك هذا المبلغ؟. فقلت: لا. قال: أبقه إذن معك الآن. وهنا قال الدكتور نمر: غريب أن لا يكون معك ثلاثون ألف جنيه وأنت مراسل **المقطم**. ولكنك طفل لا تعرف مصلحتك. إن المقالة التي كتبتها عن استرداد أدرنة، زادت عدد قراء **المقطم** زيادة كبيرة، ولو أنك اتبعت تعليماتي ووقفت في مناوأة الاتحاديين عند حد لكنت اليوم على أحسن حال.

ووقع هذا الكلام في نفسي وقع الصاعقة فقلت: «إن أدرنة يا دكتور لم يستردها الاتحاديون بل استردتها الدولة العثمانية، فما كتبت عنها إنما كتبته بدافع وطني، دون أن أفكر في أي شيء آخر. ثم أني لو علمت برأيك لجئت إلى مصر ولدي في بنوك اسطنبول مبلغ الثلاثين ألف جنيه الذي ذكرته، ولكنني لم أكن لأستطيع المجيء به بسبب إعلان الموراتوريوم[105] كما تعلم». وهكذا كنت أحضر إلى هنا معدمًا كما جئت الآن. وفي هذه الحال ما كنت أجد في مصر صديقًا كريمًا ثريًا يقول لي: «إذا متنا من الجوع فسنموت معًا». ودهش الدكتور نمر من هذا الكلام وسألني بلهفة: «من هو هذا الرجل؟». قلت: «عزيز علي المصري».

ذكرت ما تقدم لأنتقل منه إلى حادثة هامة اعترضت حياتي في اسطنبول، وهي معرفتي بالصهيونية، فقد تعرفت ذات يوم بالأستاذ جلال نوري رئيس تحرير جريدة **الجون ترك** الفرنسية، ولما رآني أتقن هذه اللغة

طلب إلي أن أتولى تحرير صفحة الشؤون العربية في جريدته مرة في الأسبوع، فوافقت على ذلك. ولم أكن أعرف في ذلك الحين أن هذه الجريدة أُنشئت بأموال اليهود، وأن اسم جلال نوري وضع على رأسها للتغطية والتمويه. ولو أني عرفت ذلك لما تغير موقفي، لأن مسألة فلسطين لم تكن حينئذ ذات شأن في نظري، كما أنني كنت أجهل أغراض الصهيونية وأهدافها.

الصلح بين تركيا وبلغاريا

وكان بين زملائي في جريدة **الجون ترك** شاب يهودي اسمه سافير ولد في فلسطين. وقد سبق لي أن رأيته مرارًا في المنتدى الأدبي وفي كلية الحقوق، فتعارفنا وتصادقنا. وفي خلال ذلك أعلنت الحرب البلقانية الثانية، ورأت بلغاريا نفسها مضطرة إلى عقد الصلح مع الدولة العثمانية فأرسلت وفدًا إلى اسطنبول برئاسة الجنرال سافوف. وبدأت المفاوضات بين هذا الوفد والمندوبين الذين اختارتهم الحكومة العثمانية، وفي جملتهم سليمان البستاني[106]. ولكن هذه المفاوضات لم تلبث أن قُطعت. وكان البلغاريون شديدي الرغبة في أن تكلل بالنجاح للانصراف إلى محاربة الدول البلقانية. ولذلك لم يغادر وفدهم اسطنبول بعد قطع المفاوضات مع الحكومة العثمانية بل انتقل إلى السفارة الروسية في البوسفور، وأقام فيها يرقب الحوادث عن كثب.

وقد قرأنا هذه الأنباء في الصحف، وجاءني سافير مقترحًا عليّ أن نذهب معًا لمقابلة الوفد البلغاري والاطلاع منه على حقيقة الموقف. فأشرت عليه بأن يذهب وحده وأن يأتيني بخلاصة حديثه مع أعضاء الوفد لأبرق بالمهم منها إلى **المقطم**.

ولما وصل سافير إلى دار السفارة الروسية طلب مقابلة أحد أعضاء الوفد البلغاري، وما كان أشد دهشته، لما رأى الجنرال سافوف[107] رئيس الوفد نفسه يسرع إليه ويرحب به. وظل يتحدث معه حديث مجاملة وود إلى أن عرف أنه غير تركي وغير مسلم أيضًا، حينئذٍ سأله:

– من أي بلد أنت؟

– من سورية.

– بطبيعة الحال أنت مسيحي؟

وأدرك سافير أن وراء هذا السؤال غرضًا مهمًا فقال:

– نعم أنا مسيحي.

– هل تعرف سليمان البستاني وزير الزراعة؟

– إنه من أعز أصدقاء والدي وبيننا صلة نسب.

وفكر الجنرال سافوف قليلًا ثم قال:

- أرجو منك إذن أن تهيئ لي مقابلة سريعة معه. فإذا وافق فأرسل إلي البرقية التالية: «صحتي في تحسن»، وسأذهب أنا للاجتماع به شخصيًا.

وعاد سافير إليّ وأخبرني بما جرى فأنكرت عليه عمله، ولمته على تورطه بوعد يصعب تنفيذه بين وزير عثماني وأحد أعداء دولته. ولكنه ألح في الرجاء، فذهبت إلى البستاني في صحبة صديقه الدكتور أمين معلوف[108] وعرضت الأمر عليه، فرفض في أول الأمر ثم وافق بعد مناقشة طويلة على أن يأتي المندوب البلغاري إلى فندق كروكر ويتناول طعام العشاء فيه. ثم يخرج من قاعة الطعام في وقت خروجه هو منها، فيلتقيان حينئذ في الممر، ويتبادلان التحية، ثم يدخلان قاعة الاستقبال التي كانت في الطابق الأول.

ونفذت الخطة على النحو المتقدم ذكره. واجتمع الاثنان في قاعة الاستقبال، ثم انتقلا إلى غرفة البستاني حيث مكثا مدة طويلة. وفي اليوم التالي نشرت الصحف نبأ استئناف المفاوضات بين الحكومة العثمانية وبلغاريا. وذكرت أسماء المندوبين العثمانيين، ولم يكن بينهم سليمان البستاني الذي كان عضوًا في وفد المفاوضات السابقة، ولم تستغرق هذه المفاوضات زمنًا طويلًا لأن البلغاريين كانوا في لهفة شديدة على عقد الصلح.

وطلب سافير إلى الوفد البلغاري أن يهدي إليه القلم الذي أمضيت به شروط الصلح، فأجيب إلى طلبه. وقد ألصقت على القلم ورقة كتب عليها ما يأتي: «بهذا القلم وقعت معاهدة الصلح بين تركيا وبلغاريا». ثم وقع أعضاء الوفد البلغاري جميعًا تحت هذه العبارة.

وقد سافر سافير بعد ذلك إلى صوفيا فاستقبل فيها استقبالًا عظيمًا ونزل ضيفًا على الحكومة، وأخذت الصحف في التحدث عنه والمبالغة في مدحه، فخشي حينئذٍ أن يعود إلى اسطنبول وذهب إلى فيينا لإتمام دروسه فيها.

كيف عرفت الصهيونية

وفي ذات يوم دخل مدير جريدة **الجون ترك** – وهو يهودي – مكتبي على غير انتظار، وحياني تحية أثارت دهشتي، وأخذ في الثناء عليّ، والتحدث عن كفاءتي ومواهبي، ثم قال إن مكافأتي بسيطة بالنسبة إلى أهمية ما أكتبه. ولذلك رأى أن يرفعها إلى 15 جنيهًا من 3 جنيهات. فقلت له: ولكني لا أستطيع وأنا طالب أن أكرس للجريدة أكثر من ثلاث ساعات في الأسبوع. فأجاب بأن هذه المبلغ ضئيل جدًا بالنسبة إلى الفوائد التي تجنيها الجريدة مني. وقد اشتدت دهشتي لما علمت أن رئيس التحرير نفسه يتقاضى مرتبًا قدره خمسة عشر جنيهًا.

وحول المدير الحديث إلى ناحية أخرى فقال:

- أحمل إليك تحية صديق كبير من مواطنيك يريد الاجتماع بك في فندق كروكر حينما تشاء.

- ومن يكون هذا الصديق؟

- أحد كبار رجال السياسة والمال واسمه الدكتور جاكبسون.

- لم إسمع بهذا الاسم قبل الآن.

-أنه رئيس اللجنة التنفيذية ومدير بنك أنجلو بالستين. وقد عرفه بك زميلنا القديم المسيو سافير.

وذهبت إلى عزيز علي ونجيب شقير وأخبرتهما بما حدث وسألتهما رأيهما فيه. فأشارا عليّ بمقابلة هذا الرجل. واجتمعت به في اليوم التالي، فأخذ يسألني عما أعرفه عن رجال العرب. ثم تطور الحديث إلى قضية فلسطين وما يمكن عمله للتوفيق بين العرب واليهود، وهما أبناء عمومة، ثم أخذ يعدد الفوائد التي يمكن أن يجنيها كل فريق من الآخر.

وانتهى الدكتور جاكبسون من كلامه وأنا صامت، وأستأنفه بعد دقيقة فقال إنه يريد التعرف على رجال العرب عن طريقي، ثم خص عزيز علي بالذكر. وتكلمت مع عزيز في الموضوع وتلقيت تعليماته، وأرسلت إلى رفيق العظم رئيس الجمعية اللامركزية بمصر أطلعه على خبر الدكتور جاكبسون، فأرسل إلي رسالة إضافية بيّن فيها وجهة نظره وملاحظاته على ما دونته في رسالتي إليه.

وكان الدكتور جاكبسون قد عرض عدة اقتراحات أذكر منها ما يأتي:

أولًا– إن العرب واليهود من جنس واحد، ولكل منهما مزايا متممة للآخر. فعند اليهود علم ومال ونفوذ، وعند العرب بلاد واسعة وقوى هائلة وكنوز أدبية ومادية لا تنضب، فالتوفيق بينهما يكون لخيرهما وخير الشرق كله.

ثانيًا– يستقبل العرب اليهود في البلاد العربية كإخوان لهم على أن يتجنس اليهود بالجنسية العثمانية، وأن لا تكون فلسطين خاصة بهم.

ثالثًا– في مقابل ذلك يتعهد اليهود بوضع قواهم الأدبية والمادية في خدمة القضية العربية ويؤازرون الأحزاب العربية، ويضعون تحت تصرفها ثلاثة ملايين من الجنيهات.

رابعًا– يعقد مؤتمر عربي يهودي في مصر أثناء عودة نواب سورية والعراق من اسطنبول إلى بلادهم.

وطلب الدكتور مني أن أقدمه إلى بعض نواب فلسطين فقلت له: ليس ثمة نواب فلسطينيون، بل هناك نواب عرب فقط، فابتسم ابتسامة صفراء وأمّن على قولي.

واستعرضت في ذهني أسماء النواب العرب لأختار أحدهم وأعرفه بالدكتور جاكبسون، وتذكرت أن لي زميلًا في الدراسة كان يحدثني كثيرًا عن علم أخيه النائب وكفاءته، فذهبت معه إليه وقلت له إني أريد أن أعرفه بسياسي أجنبي كبير. ففكر مليًا ثم قال إنه سيذهب إلى البوسفور للاستراحة هذا الأسبوع. وإنه في الأسبوع القادم منهمك بأمور خطيرة، أما الأسبوع الثالث فكله مواعيد لأصحاب أعمال. ثم قال: «فإذا مررت علي في الأسبوع الرابع فقد أستطيع أن أحدد موعدًا لهذا الأسبوع». ولم يكن لي أن أناقشه، فقمت مستأذنًا بالخروج، وسألني حينئذ عن اسم هذا السياسي الأجنبي الكبير فقلت له اسمه الدكتور جاكبسون. وما إن سمع هذا الاسم حتى انتفض قائلًا:

– أليس هو مدير بنك «الأنجلو بالستين»؟

فأجبته بأنني لا أعلم، ولم يمهلني النائب ريثما اتفق مع الدكتور جاكبسون على موعد يأتي هو فيه لزيارته، بل صمم على الذهاب إليه فورًا.

وحاولت أن أثنيه عن عزمه ولكنه أكد أن الدكتور صديقه وليس بينهما مواعيد، ثم تناول طربوشه وهرول ورائي لمقابلة الزعيم الصهيوني.

ولم يكن الدكتور ينتظرنا ولكنه سر بقدومنا. وقد بدأ صديقي الحديث معه بقوله: إن مسألة فلسطين بسيطة لا تحتاج إلا إلى مبلغ ستة الآف جنيه، توزع على بعض أفراد من العرب، ثم أعقب ذلك بأنه يكفل حل المسألة بهذه الطريقة السهلة.

وسمعت هذا الكلام فطار صوابي، ولجأت إلى شجاعتي وقحتي للخروج من هذا المأزق فالتفت إلى الدكتور جاكبسون وقلت:

– معذرة يا حضرة الدكتور لأني لم أعرّف صديقي بك معرفة كافية. فظن أنك من صنائع الاتحاديين، ولم يشأ أن يكون صريحًا معك مخافة أن يبلغهم حديثه فينتقموا منه. ثم انطلقت في الكلام فلم أترك لصديقي النائب أي مجال لإتمام المساومة التي بدأها أمامي.

وكان علي أن أمحو من ذهن الدكتور ما علق به من كلام النائب، فسعيت إلى عقد اجتماع بفندق توكتليان دعي إليه الدكتور جاكبسون ونواب العرب وبعض رجال الجمعية الإصلاحية ببيروت وكانوا عائدين حينئذ من باريس. فقر قرارهم على أن يعقد مؤتمر في القاهرة يحضره نواب سورية وفلسطين والعراق والحجاز مع بعض زعماء اليهود للنظر في الاقتراحات المتقدم ذكرها وذلك في أثناء عودة النواب العرب إلى بلادهم.

ولما اشتدت الحالة الأوروبية على أثر مقتل ولي عهد النمسا اجتمع بي الدكتور جاكبسون للمرة الأخيرة وقال لي: لم يبق فائدة من مباحثاتنا لأن الحرب، وقد أصبح لا مفر منها، ستقلب كل شيء رأسًا على عقب. ولنعتبر كل ما جرى بيننا الآن كأنه لم يكن.

على أن هذه المقترحات عرض اليهود مثلها، إن يكن أقل منها، على الأمير فيصل في أثناء مؤتمر فرساي، ثم عرضوا شيئًا بمعناها في آواخر عام 1920، بواسطة سافير نفسه، الذي أرسله الدكتور وايزمان[109] إلى دمشق، وكنت من جملة الذين اجتمعوا به فيها. وسيأتي ذكر هذا فيما بعد.

---

(58) عبد اللطيف الغلاييني (1854-1933م): عالم ديني، ولد في طرابلس بلبنان، ودرس الحقوق في اسطنبول. مارس التعليم ومهنة المحاماة.

(59) مجلس المبعوثان: اسم مجلس النواب العثماني. انتخب أعضاؤه أول مرة في عام 1877 بعد إعلان السلطان عبد الحميد الثاني الدستور في عام 1876، وانتخب نوابه ثاني مرة في عام 1909، إثر الانقلاب الدستوري في عام 1908.

(60) السلطان عبد الحميد الثاني (1842-1918): استمرت سلطنته ثلاثًا وثلاثين سنة (1876-1909)، وعرف عهده تقلص أراضي الدولة التي خاضت العديد من الحروب، واشتهر باستبداده ومعاداته للاصلاحيين، إلا أن سنوات حكمه شهدت ازدهارًا للعمران وانتشارًا للتعليم، كما برزت في زمنه الحركات القومية الأرمنية واليونانية والعربية. وكان من دعاة الجامعة الاسلامية.

(61) محمد أرسلان (1873-1909): تلقى علومه في بيروت، وتخرج في المكتب السلطاني في اسطنبول، سياسي وإداري. انتخب إلى مجلس المبعوثان وأصبح عضوًا في اللجنة الخارجية. اغتيل خطأ عند خروجه من مجلس المبعوثان.

(62) محمود شوكت (1856-1913): شركسي مولود في بغداد، خريج المدرسة العسكرية في اسطنبول، شغل مناصب عديدة منها: والي كوسوفو، وقائد القوات العثمانية في سلانيك، ووزير حربية، وصدر أعظم (رئيس وزراء). اغتِيل في عام 1913. له مؤلفات وترجمات.

(63) أسعد الشقيري (1860-1940): سياسي فلسطيني، درس في الأزهر وأصبح قاضيًا ومفتيًا للجيش الثالث العثماني. انتخب في مجلس المبعوثان في عامي 1909 و1913. كان من أنصار الفكرة الاسلامية، وهو والد أحمد الشقيري أول رئيس لمنظمة التحرير الفلسطينية.

(64) أحمد نيازي باشا (1873-1813): ضابط عثماني من أصل ألباني، عضو في جمعية الاتحاد والترقي، اعتبر أحد أبطال الانقلاب الدستوري للدور الذي لعبه في سالونيك حين أعلنت الثورة على السلطان.

(65) إسماعيل أنور باشا (1881-1822): ضابط عثماني تخرج في الكلية الحربية. كان عضوًا في جمعية الاتحاد والترقي، وشارك في الانقلاب الدستوري. خاض العديد من حروب الدولة العثمانية بما في ذلك الحرب ضد الإيطاليين في ليبيا. أصبح وزيرًا للحربية خلال الحرب العالمية الأولى. قُتل في بخارى (أوزبكستان) خلال الحرب ضد البلاشفة الروس.

(66) السلطان محمد الخامس (محمد رشاد) (1844-1918): نصّب سلطانًا بعد خلع شقيقه السلطان عبد الحميد الثاني في عام 1909.)

(67) الاتحاد والترقي: جمعية سريّة أسسها طلاب كلية الطب في عام 1889، وورثت جمعية «تركيا الفتاة». ضمّت خلايا من الجيش تمكنت من القيام بانقلاب عام 1908 الذي حمل الجمعية إلى السلطة لتنفرد بالحكم بعد انقلاب عام 1913، من خلال الثلاثي طلعت وأنور وجمال.

(68) أحمد أغايف (1869-1932): من أصل أذربيجاني، كان من أوائل دعاة القومية التركية الاثنية واللغوية، داعيًا إلى ربط شعوب تركيا وتركمستان وأوزبكستان وكازاخستان وأذربيجان وقرغيزستان. له العديد من المؤلفات أبرزها: **حقوق المرأة في الإسلام.**

(69) يوسف أقشورا (1876-1935): من أبرز دعاة الطورانية، مناهض للجامعة الاسلامية.

(70) عبد الكريم الخليل (1884-1916): درس الحقوق في اسطنبول، وكان من أبرز دعاة القومية العربية ومن مؤسسي المنتدى العربي، وأبرز الناطقين باسم العرب في اسطنبول. أعدم مع قافلة الشهداء في عام 1916.

(71) محمد طلعت باشا (1874-1921): تخرج في المدرسة الرشدية العسكرية، وعمل مأمور بريد حتى أصبح رئيس بريد سالونيك. انتسب في سن مبكرة إلى جمعية سريّة معارضة، وأصبح لاحقًا من أبرز قادة جمعية «الاتحاد والترقي». تسلم مناصب وزارية بعد عام 1908 أبرزها وزير الداخلية، وبهذه الصفة كان له الدور الأول في مذابح الأرمن وتهجيرهم. وتسلم رئاسة الوزارة في عام 1917، قبل فراره بعد هزيمة تركيا. اغتاله ناشط أرمني في برلين.

(72) علي فتحي أوكيار (1880-1943): ضابط تركي وسياسي، عضو في جمعية «الاتحاد والترقي»، تسلم رئاسة الحكومة في عام 1924.

(73) مدحت شكري (1872-1956): أحد قادة جمعية «الاتحاد والترقي». انتدبته قيادة الجمعية لحضور المؤتمر العربي الأول في باريس.

(74) سليم الجزائري (1879-1916): درس في المدرسة الحربية في اسطنبول، كما درس الهندسة. عُيّن استاذًا في الكلية الحربية. له مؤلفات بالرياضيات. أعدم في عام 1916.

(75) توفيق البساط (1888-1916): ولد في صيدا، ودرس في اسطنبول. عضو جمعية «نشر العلم» التي ترأسها أحمد عارف الزين. أعدم مع قافلة الشهداء في بيروت.

(76) جلال البخاري (1890-1916): ولد في حمص، ودرس الحقوق في اسطنبول، وكان عضوًا في المنتدى الأدبي. أعدم في بيروت في عام 1916.

(77) رفيق رزق سلوم (1891-1916): ولد في دمشق، ودرس اللاهوت في مدرسة البلمند (شمال لبنان)، ثم التحق بالجامعة الأميركية في بيروت. عمل بالصحافة، له: **حياة البلاد في علم الاقتصاد**. أعدم في دمشق.

(78) عارف الشهابي (1889-1916): من مؤسسي جمعية «النهضة العربية»، وعضو المنتدى الأدبي في اسطنبول. ترجم رواية **فتح الأندلس** عن التركية. أعدم في عام 1916.

(79) سيف الدين الخطيب (1868-1916): ولد في دمشق في أسرة علمية، وهو من مؤسسي المنتدى الأدبي في اسطنبول. أعدم في عام 1916.

(80) رشدي الشمعة (1865-1916): درس الحقوق في اسطنبول، نائب دمشق في مجلس المبعوثان، أعدم في دمشق.

(81) شكري العسلي (1868-1916): خريج المدرسة الملكية في اسطنبول، ونائب في مجلس المبعوثان. كان من أوائل الذين نبهوا إلى الخطر الصهيوني. عُرف بمقالاته في **المقتبس**. له مؤلفات أدبية. أعدم في عام 1916.

(82) عبد الوهاب الإنكليزي (1878-1916): من مواليد دمشق، ومن طلاب مكتب عنبر الاعدادية. زميل شكري العسلي في المدرسة الملكية في إسطنبول. تسلّم العديد من المناصب الادارية. أعدم في ساحة المرجة في دمشق.

(83) عادل أرسلان (1887-1954): ولد في الشويفات، ودرس الحقوق في اسطنبول. تسلّم منصبًا إداريًا في الحكومة العربية في دمشق. شارك في الثورة السورية. تسلّم عدّة وزارات في سورية بعد الاستقلال. منها وزارة الخارجية.

(84) جعفر العسكري (1886-1936): درس في الكلية العسكرية في اسطنبول وتابع دورة أركان في برلين. شارك في جيش الثورة العربية. عاد إلى العراق وأصبح وزيرًا للدفاع. تسلّم رئاسة مجلس النواب مرتين. قُتل في إثر انقلاب بكر صدقي في عام 1936.

(85) سعيد حيدر: خريج مدرسة الحقوق في اسطنبول، عضو جمعية «العربية الفتاة»، وعضو اللجنة التي وضعت دستور المملكة السورية. عُرف بصلابة مواقفه.

(86) نجيب شقير: من أعضاء المنتدى الأدبي وجمعية «العربية الفتاة». عضو المؤتمر السوري الفلسطيني عن حزب الاستقلال العربي.

(87) ثابت عبد النور: من مواليد الموصل، ضابط التحق بالأمير فيصل في دمشق. انتخب نائبًا عن الموصل في البرلمان العراقي، وتسلّم عدة مناصب إدارية.

(88) عبدالله الدملوجي (1890-1971): عراقي من الموصل، طبيب وسياسي، تسلّم منصب وزير الخارجية مرات عدّة.

(89) فراغ في الأصل.

(90) تركيا الأوروبية ومكدونية. (المؤلف)

(91) رفيق العظم (1865-1925): ولد في دمشق، ولجأ إلى القاهرة هربًا من التضييق، وانضم إلى حلقة الإمام محمد عبده. من مؤسسي حزب اللامركزية. له مؤلفات عدة منها: **أشهر مشاهير الاسلام** و**الجامعة الاسلامية في أوروبا** و**البيان في أسباب التمدن والعمران**.

(92) جمعية بيروت الاصلاحية: تأسست في عام 1913، ومن أبرز أعضائها كامل أحمد الصلح وسليم سلام وأحمد مختار بيهم وبترو طراد. شاركت في المؤتمر العربي الأول الذي انعقد في باريس في عام 1923.

(93) طالب النقيب (1871-1929): سياسي عراقي، كان من المرشحين لعرش العراق. قبل اختيار الأمير فيصل بن الحسين. تسلّم منصب وزير الداخلية في أول حكومة في العهد الملكي.

(94) جمعية العربية الفتاة: اسسها في باريس بعض الطلاب العرب في حوالى عام 1911، وانتقل نشاطها إلى سوريا ولبنان وفلسطين. ضمّت نخبة من الشباب العرب الذي كان له دوره في إطلاق الثورة العربية الكبرى، بعد انضمام الأمير فيصل إليها. وكان من أبرز أعضائها المؤسسين عوني عبد الهادي ورفيق التميمي وجميل مردم بك ومحمد رستم حيدر وتوفيق السويدي.

(95) علي ماهر (1881-1960): سياسي مصري، تسلّم منصب رئاسة الحكومة مرات عدّة - آخرها بعد ثورة الضباط الأحرار في عام 1952.

(96) وزارة علي ماهر وكان فيها عبد الرحمن عزام ومحمود فهمي النقراشي. (المؤلف)

(97) الإمام يحيى حميد الدين (1869-1948): مؤسس المملكة المتوكلية اليمنية. حكم من عام 1904 إلى عام 1948، وفرض العزلة على البلاد.

(98) جورج حرفوش: صحافي لبناني أصدر **صوت الحق** باللغتين العربية والفرنسية، وأصدر في بيروت **جورنال دو بيروت** بالفرنسية في عام 1913.

(99) إبراهيم سليم النجار (1882-1957): صحافي وشاعر لبناني، أصدر في عام 1907 جريدة **الكلمة الحرة**. عمل في صحافة مصر ثم في بعض صحف المهجر (أميركا). وكان آخر نشاطه إصداره جريدة **اللواء**.

(100) معروف الرصافي (1875-1945): شاعر عراقي، انتخب نائبًا إلى مجلس المبعوثان. أصدر جريدة **الأمل** في بغداد في عام 1923، وانتخب عضوًا في مجمع اللغة العربية بدمشق. له العديد من المؤلفات في التاريخ والأدب،

واشتهر بقصائده وله ديوانان شعريان علاوة على كتاب «الشخصية المحمدية» الذي ظل حبيسًا طوال نحو 40 عامًا في الأدراج.

(101) يوسف الخازن (1871-1947): كاتب وسياسي لبناني، درس الحقوق في الجامعة اليسوعية، وأصدر في القاهرة جريدة **الأخبار**. كتب في أغلب صحف مصر. سافر إلى فرنسا بعد نشوب الحرب الأولى. انتخب نائبًا في البرلمان اللبناني.

(102) عباس حلمي الثاني (1874-1944): خديوي مصر من عام 1892 إلى عام 1914، انتهج سياسة إصلاحية معادية للاحتلال. خلعه الإنكليز ونصبوا حسين كامل سلطانًا على مصر، وفرضوا على البلاد الحماية.

(103) فارس نمر (1856-1951): كاتب لبناني هاجر إلى مصر وأصدر مجلة **المقطم** مع يعقوب صروف. انتخب عضوًا في مجمع اللغة العربية في القاهرة.

(104) يعقوب صروف (1852-1927): درس في الكلية السورية البروتستانتية (الجامعة الأميركية في بيروت). أنشأ **المقتطف** في بيروت في عام 1876 قبل أن ينقلها إلى القاهرة في عام 1888. كتب العديد من المقالات العلمية وترجم كتبًا إلى العربية.

(105) الموراتوريوم (Moratorium): مصطلح قانوني بمعنى تأجيل الالتزام أو السداد.

(106) سليمان البستاني (1856-1925): شاعر وأديب وسياسي لبناني. درس في المدرسة الوطنية التي أسسها بطرس البستاني. كان ملمًا بالعديد من اللغات القديمة والحديثة، وكان له ولع بالعلوم. اشتهر بترجمة **الألياذة** إلى العربية. عمل وزيرًا في الحكومة العثمانية في عام 1913. يُنظر: سليمان البستاني، **الدولة العثمانية قبل الدستور وبعده**، تقديم وتحقيق خالد زيادة (الدوحة/بيروت: المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، 2019).

(107) الجنرال سافوف: اشتهر في الحرب البلغارية - العثمانية، أدى دورًا في إصلاح الجيش البلغاري وعُرف بحزمه ومعرفته بخطط الحرب.

(108) أمين معلوف (1886-1943): طبيب، درس في الجامعة الأميركية في بيروت. عمل بعد الحرب العالمية أستاذًا جامعيًا في دمشق، كما عمل في تأسيس الطبابة العسكرية في الجيش العراقي. انتخب عضوًا في المجمع العلمي العربي بدمشق.

(109) حاييم وايزمان (1874-1952): ولد في روسيا وهاجر إلى بريطانيا. رئيس المنظمة الصهيونية العالمية، وأول رئيس للكيان الاسرائيلي في عام 1949.

الفصل الثالث
قبل الحرب الأولى

آراء متضاربة في السياسة العربية

في أثناء ذلك ظهر بين المشتغلين في السياسة باسطنبول رأيان متناقضان أحدهما يقول بوجوب السعي إلى إنقاذ العرب بالاستناد إلى فكرة الجامعة الإسلامية، والثاني يرى أن القومية هي الأساس الذي يجب أن تقوم عليه الدول منذ الآن، وأن الجهود كلها يجب أن توجه إلى خدمة الفكرة العربية مجردة عن كل شيء.

وكان القائلون بالرأي الأول بضعة أشخاص يتزعمهم بعض المشايخ، وكانت حجتهم في ذلك أن الجامعة الإسلامية قوة كبيرة، إذا استند العرب إليها علا شأنهم وعظم نفوذهم، فيضطر الترك إلى مراعاة جانبهم والنزول على إرادتهم بدليل أن الترك أنفسهم يتخذون الفكرة الإسلامية أساسًا لسياستهم وسلاحًا لهم في وجه الغرب.

أما الغالبية العظمى، وفي مقدمتها الضباط والشيوخ والنواب والمفكرون من شبان العرب فقد أجمعوا على أن لا حياة للأمم في هذا العصر إلا على أساس القومية، وأن العمل لفكرة الجامعة الاسلامية إنما هو هدم لفكرة الاستقلال عن تركيا الاسلامية، وهي الفكرة التي كانت قد اختمرت في عقولهم بعد أن قطعوا كل أمل في إصلاح ما فسد من أمن الترك.

وقد كنت أنا من جملة المؤيدين للرأي الأول، القائل بالفكرة الإسلامية، لاعتقادي بأن هذه الفكرة قوة عظيمة للعرب إذا أحسنوا استخدامها.

وفي اجتماع من اجتماعاتنا في المنتدى الأدبي، دار حديث بيني وبين توفيق البساط وعبد الكريم الخليل وجلال البخاري حول هذا الموضوع حملني على العدول عن رأيي بعد أن تبيّنت وجوه الضعف فيه. فكان مما قاله لي توفيق البساط: «إذا كنا نريد الجامعة الإسلامية فلماذا نحاول بث الفكرة العربية؟».

وقال عبد الكريم الخليل: «إن فكرة الجامعة الإسلامية تؤدي إلى الوهن أكثر منها إلى القوة، لأنها تنفر الغرب، بينما لا تستطيع أن تمد الشرق بقوة».

وقال جلال البخاري: «كيف يمكننا أن نوفق بين اعتناقنا للفكرة الإسلامية وقيامنا ضد دولة الخلافة؟».

والواقع أن هذا القول كله قد تحقق في أثناء الحرب العظمى حينما رأينا معظم المسلمين يهبون لمحاربة دولة الخلافة، رغم إعلانها الجهاد الذي خيّب آمالها. والذي أعرفه عن ثقة ويمكنني إعلانه الآن على رؤوس الأشهاد أنه لم يكن بين أصدقائي الذين قامت النهضة العربية على أكتافهم أو على جماجمهم، سواء في سورية أو العراق أو فلسطين أو لبنان أو غيرها، من يفكر في اتخاذ الفكرة الإسلامية أساسًا للوحدة والاستقلال. بل أنهم جميعًا كانوا يعملون على تعزيز الروح القومية البحتة وإحياء مجد العرب على أساس هذه الروح.

وما قلته عن الفكرة الإسلامية أقوله عن الفكرة الشرقية، فلم يكن في بلدان الشرق العربي من يراها كفيلة بإحياء مجده أو مجد العرب. فإن ما حققه الترك بعد ذلك من أن الاستقلال لا يقوم إلا على أساس القومية، وما وضعوه من الخطط بعد انتصارهم في الأناضول، كان مفكرو العرب يقولون به منذ عام 1913.

العرب على ضفتي قناة السويس

ومما يؤسف له أن العرب التابعين للسلطنة العثمانية لم يكونوا على تفاهم تام مع العرب الذين وقعوا تحت نير الاستعمار الأجنبي. فمصر مثلًا كانت تعاني من مظالم الإنجليز وغطرستهم ما أنساها مظالم الترك وجهلهم وفساد حكمهم وجعلها ترى فيهم إخوانًا منقذين، وخصوصًا بعد إعلان الدستور العثماني. في حين أن العرب الباقين تحت سيطرتهم كانوا ينظرون إليهم نظرهم إلى أعداء مخربين قساة ظالمين، ولم تكن تنقصهم الأدلة على ذلك. فقد ساد بلادهم الجهل والفقر والظلم وأُهدرت كراماتهم وانتهكت حرماتهم وديست حرياتهم وأُذلت أعناقهم وأُفسدت لغتهم وبارت أرضهم وأصبحوا هدفًا لكل قوي مستعمر ومطمعًا لكل طامع جشع.

من أجل ذلك كان العرب في شرقي قناة السويس مُجمعين على كره الترك ومحاولة التخلص منهم بينما إخوانهم غربي القناة عقدوا كل آمالهم في الخلاص من الأجانب على قوة تركيا ودهاء رجالها وقادة أمورها.

وهكذا كان العرب في اسطنبول فريقين متناحرين لكل منهما وجهة تختلف عن وجهة الآخر، وسعيٌ يناقض سعي الآخر، واختلاف في الرأي لا يقبل المناقشة ولا الجدال. وقد ذكرت شيئًا عن بعض رجال الفريق الأول، وعرفت زعماء الفريق الثاني وفي مقدمته محمد فريد[110] والشيخ عبد العزيز جاويش[111]. وعرفت فريدًا صدفة في مطعم بسيط كان يديره رجل إيطالي ويتقاضى جنيهًا فرنسيًا عن كل 20 وجبة طعام. وكانت الوجبة مؤلفة من ثلاثة أشكال ونبيذ وفاكهة. ولعل رخص هذا المطعم مع نظافته، وجودة طعامه، هو الذي أرشد محمد فريد إليه، ذلك الرجل الأبي الذي أضاع ثروته الطائلة في خدمة بلاده والذي استطاع أن يكيّف نفسه ويحمّلها ما لا طاقة لها به.

لقد كنا نجلس على مائدة واحدة، وهو الزعيم الخطير والثري الكبير، وأنا الطالب الصغير الفقير، نبحث في السياسة بحث نَدّين متساويين في العلم والإدراك والنفوذ. وكنت أناقشه بشدة وحزم وأندد بسياسة الاعتماد على الترك في إنقاذ مصر تنديدًا لم يسمعه من غيري. ولكنه كان يصغي إليّ بما عرف عنه من تواضع وتسامح. وكثيرًا ما كان يؤيد رأيي ويحبذ وجهة نظري، وأذكر الآن قوله لي في إيضاح سياسته: إن الدولة العثمانية لا تزال صاحبة السيادة على مصر، وفي هذه قوة سياسية للمصريين العاملين من أجل الاستقلال لا يصح أن يتجاهلوها. وإن الدستور لا يزال حديث العهد في تركيا، فلا غرو إذا وقعت منها بعض الأخطاء في تطبيقه. وإن كل شيء يمكن إصلاحه مع الزمن، إذا تولاه المخلصون الذين لا تعدم الدولة رجالًا منهم. وكان كثيرًا ما يوصيني بالصبر ويطلب أن يُعطى الترك الفرصة الكاملة لإصلاح أخطائهم وإقامة حكم ديمقراطي صحيح في البلاد تسوده الحرية والمساواة في ظل العدل والنظام.

أما الشيخ عبد العزيز جاويش فكان أشد اندفاعًا من صديقه في تأييد السياسة التركية والدفاع عنها، على اعتقاد منه بأن إساءاتها خير من حسنات غيرها، وأنها هي الضمان الوحيد للشرق الإسلامي، ولكنه بدأ يغير رأيه على ما أظن بعد أن رأى ضعفها وعجزها في حرب البلقان.

هذان هما الفريقان من العرب اللذان كانا في اسطنبول في ذلك الحين. وقد بلغ التنافر بينهما أشده، فكان كلٌّ من الفريقين يتهم الآخر بالخيانة ويبث الدعاية ضده ويحاول الإساءة إليه. ولذلك صعب التوفيق أو التقريب بينهما وخصوصًا بعد الموقف الذي وقفه فريق من المصريين في أثناء محاكمة عزيز علي. فقد شهد بعضهم ضده شهادات لم تكن كلها لوجه الله.

على أن الاستعمار وحّد بعد ذلك بين الشعوب الإسلامية، بل بين الشعوب الشرقية جميعًا، بل بين الشعوب الضعيفة المهضومة الحقوق، وحّدها في الآلام والآمال والمبادئ والأغراض وحدة تجعل التعاون بينها حقيقة واقعة وتؤدي إلى تكتل قوي لمصلحة العدل والحضارة والسلم. وهذا ما وضعت أسسه في مؤتمر باندونج[112].

كيف عرفت الملك فيصل بن الحسين

ولم تكن لي معرفة شخصية بالشريف فيصل (المرحوم فيصل الأول ملك العراق) في اسطنبول لكنني كنت أراه كما أرى غيره من نواب الحجاز في مجلس «المبعوثان» إلى أن وقعت حادثة غيّرت من رأيي في هذا الرجل الكبير.

في أوائل سنة 1913 وصل إلى اسطنبول شيخ من مشايخ عسير وأقام فيها بضعة أسابيع لا يعيره أحد اهتمامه ولا يخطر على بال أحد أن يقيم له وزنًا.

ورأى أنور ذات يوم أن الاستعانة بهذا الشيخ قد تعود بشيء من الفائدة، فدعاه إليه وأكرمه ونقله إلى فندق توكتليان، وعيّن له ياورًا وسكرتيرين ووضع تحت تصرفه سيارة فخمة، مما دعا بعض الأفاقين إلى الإقبال عليه، فأصبح له بعد ذلك معارف كثيرون كان في جملتهم شاب على صلة ببعض السفارات.

ومضى أسبوع والشيخ على هذا الحال حتى تبين لأنور أن لا فائدة تُرجى منه، فنزع عنه النعمة التي أسبغها عليه سبعة أيام كاملة، واسترد منه السيارة والياور والسكرتيرين، وأعاده إلى الفندق الصغير الذي كان يُقيم فيه في حي السركجي. ولكن حب العظمة كان قد تملك الشيخ فشقّ عليه أن يهوي من عليائه، وتصور أنه قد صار شيئًا عظيمًا، وأن في إمكانه المتاجرة بعسير وبيعها لإيطاليا. وعلى هذه النية اتفق مع الشاب الذي كان على صلة ببعض السفارات الأجنبية، على الذهاب إلى سفارة إيطاليا وعرض عسير عليها في مقابل بضعة ملايين من الفرنكات.

ومن عادة رجال السياسة ألا يرفضوا طلبًا مهما يكن سخيفًا أو يدعو إلى السخرية. فأجابه السفير بقوله: «إننا الآن أصدقاء لتركيا فلا يمكنني أن أبحث معك هذا الموضوع. على أنك تستطيع أن تسافر إذا شئت إلى روما وتعرض على حكومتها اقتراحك».

ثم سأله السفير: هل يوجد كثيرون على رأيك هذا؟.

- نعم يوجد كثيرون.

- ومن الأشراف أيضًا؟

- بلا أدنى شك.

- ومن تعرف منهم؟

- أعرفهم جميعًا وفي مقدمتهم الشريف فيصل.

- إذا جئتني بكلمة منه في هذا الموضوع سهل العمل كثيرًا.

وانصرف الشيخ بعد أن وعد السفير بذلك.

وفي اليوم التالي ذهب صاحبنا إلى مجلس «المبعوثان» وهو يرتدي الردنجوت وطلب مقابلة الشريف. وكان فيصل قد رآه من النافذة بهذا الزي فقال للحاجب: «قل له إنني مشغول». ولكن الشيخ ألحّ في طلبه وكتب إلى الشريف ورقة يلتمس فيها المقابلة لأمر خطير. ورد فيصل الورقة بعد أن كتب عليها ما يأتي:

«أخي..أَليست ملابس أجدادنا أليق بنا وأحفظ لكرامتنا وأدعى إلى احترام الناس لنا. فبالله عليك اخلع عنك هذه الملابس التي لا تحسن ارتداءها».

وظل الشيخ محتفظًا بهذه الورقة مدة طويلة كإقرار من الشريف فيصل وأسرته ببيع العسير. وقد أطلعني - وقد اجتمعت به في مصر في أثناء الحرب - على هذا «الإقرار»! وكان ذلك في اليوم الذي كنت أنتظر فيه قيام الثورة في الحجاز. فما أن قرأته حتى أغرقت في الضحك. وسألته عن قصة هذا «الإقرار» العجيب وما يتضمنه من معاني التقريع والسخرية. فأجابني قائلًا: «إن ذلك كان مسلك فيصل وحده. أما بقية الأشراف الذين عرفناهم في اسطنبول فكانوا يختلفون عنه بمعاملتهم للشيخ صاحب فكرة بيع العسير».

ومن ذلك الحين عظم مقام فيصل في نظري، وكنت قبل ذلك أفضل عليه كثيرين من زملائه.

اعتقال عزيز علي المصري ومحاكمته

ولنعد الآن إلى سير العلاقات بين العرب والترك، فإن الاتحاديين لما شعروا بقوة الفكرة العربية بين ضباط العرب وانتشارها على أيديهم وأيدي شباب المنتدى الأدبي عمدوا إلى اتخاذ التدابير اللازمة لقتلها. ورأوا أن ذلك لا يتم لهم إلا بالقضاء على عزيز علي، لأنه رأس الحركة المفكرة وقلبها وساعدها. وكان عزيز حينئذ قد قدم استقالته من الجيش بكتاب مؤرخ في 20 يناير [كانون الثاني] سنة 1914 أي عقب تولي أنور وزارة الحربية. وهذا نص الكتاب:

«**إلى وزارة الحربية الجليلة...**

لقد تركت الجيش العثماني، ابتداءً من هذا التاريخ، ولكن حياتي العسكرية الماضية لا تزال تربطني به برباط متين. فإذا نشبت حرب أو احتاج الوطن إلى أبنائه، فعلى وزارة الحربية الجليلة أن تطلبني من الكومسارية العثمانية بمصر محل إقامتي، على أن تعين لي القوة التي أتولى قيادتها».

وقبل أن يتلقى جوابًا على استقالته بالرفض أو بالقبول، بعث إليه أنور طالبًا مقابلته في وزارة الحربية في صباح اليوم الذي يختاره.

ولما علم الضباط العرب بهذه الدعوة ظنوا أنها مؤامرة ضد عزيز، فأشاروا عليه بعدم الذهاب لأنه استعفى من الجيش، ولم يعد مقيّدًا بأوامر الوزارة، أما هو فأبى مطاوعتهم وقال: إني لا أزال ضابطًا ما دام أن استقالتي لم تُقبل.

وفي صباح اليوم الذي ذهب فيه عزيز علي إلى وزارة الحربية توجه نحو 300 ضابط من ضباط العرب إليها ورابطوا في مختلف أنحائها على غير علم منه، وقصدهم الدفاع عنه إذا اقتضت الحالة. ولكن مقابلة أنور باشا له كانت ودية أتى فيها كل منهما على ذكر صداقته الماضية للآخر وعرض ما يؤاخذه عليه. وقد حاول أنور أن يقنع عزيز باسترداد استقالته، ولكنه ظل مصرًا عليها، كما أن أنور ظل مصرًا على رفض قبولها.

واتصل خبر اجتماع الضباط العرب في وزارة الحربية أثناء وجود عزيز فيها بالدكتور ابراهيم ثابت، وكان يحب عزيزًا حبًا جمًا، فأخذ يردد هذا النبأ في كل مكان ويبالغ فيه ويقول إن عزيزًا يستطيع أن يقلب الحكومة العثمانية حينما يشاء، لأن الجيش كله معه، وسمع بذلك طلعت وجمال وأنور فازدادوا شعورًا بخطر عزيز عليهم وقرروا التخلص منه والقضاء على الفكرة العربية بالقضاء عليه.

وأول ما بدأ به الاتحاديون لتحقيق هذه الغاية إبعاد الضباط العرب من اسطنبول، فأرسلوا أكثر من 300 ضابط منهم إلى الأناضول وتراقية وشبه جزيرة غاليوبلي ومثل هذا العدد إلى سوريا والعراق بعدما رفعوا رتبهم العسكرية إِرضاء لهم.

بقي أمامهم عزيز. ففي يوم الاثنين 9 فبراير [شباط] سنة 1914، بينما كان خارجًا من فندق توكتليان دنا منه ثلاثة من رجال البوليس الملكي وطلبوا إليه أن يصحبهم إلى مركز البوليس باسطنبول.

وما كاد هذا الخبر ينتشر في العاصمة حتى قام له العرب وقعدوا وذهبت وفود كثيرة منهم إلى مركز البوليس مستعلمين، فقابلهم المدير بكل اهتمام، وأفهمهم أن عزيز غير معتقل، وإنما هم يبحثون معه بعض الشؤون العسكرية التي قد يستغرق بحثها النهار بطوله.

وذهب الزهراوي إلى منزل طلعت باشا ليقف منه على الحقيقة، فقيل له إنه غير موجود في المنزل.

ولما لم يفرج عن عزيز في المساء قصد أحد الضباط العرب، وأذكر أنه جميل المدفعي[113] إلى المرحوم الزهراوي في فندق كروكر وطلب إليه معرفة السبب في اعتقال عزيز علي. ومما قال له: «أبلغ الحكومة أيها الأستاذ أن دماءنا نحن العرب يجب أن تحفظ للدفاع عن الوطن. ولا تضطرنا إلى إحراقها في سبيل الأفراد».

وفي 10 فبراير [شباط] عقد مندوبو الأحزاب العربية وزعماؤها ومفكروها اجتماعًا كبيرًا بحثوا فيه الأسباب التي أدت إلى اعتقال عزيز علي، والوسائل التي يجب التوسل بها لإنقاذه.

وذهب وفد منهم فقابل جمال باشا وطلعت بك وغيرهما، فسمع الوفد جوابًا واحدًا من الجميع هو أن عزيز أخوهم وحبيبهم، وأن وزارة الحربية لا تبغي منه سوى استجلاء بعض المعلومات العسكرية التي تتعلق بشؤون الدفاع الوطني، وأن الحكومة قررت تعيينه واليًا على البصرة.

ووضع عزيز في غرفة فخمة بوزارة الحربية وسمح بزيارته النهار بطوله. وكانت غرفته والغرفة التي أمامها غاصتين دائمًا بالضباط وغير الضباط من أصدقائه. وقد اتصل بهم أن عزيزًا سيحاكم وتلصق به تهم ملفقة استعان الاتحاديون على إثباتها ببعض من كانوا في طرابلس الغرب، وأن غرضهم الحقيقي هو التخلص منه، فقامت قيامة العرب حينئذ في كل مكان وانهالت الاحتجاجات على الباب العالي من كل صوب، وأبدى الشريف حسين امتعاضه، وأنذر السيد طالب النقيب بأنه سينقض على الحكومة في جهات البصرة بالتعاون مع ابن السعود[114]. وقامت في مصر حركة قوية للمطالبة بالإفراج عن عزيز. فرأى الاتحاديون تجاه ذلك كله أن الاستمرار في محاكمته سيثير مشاكل هم في غنى عنها.

التفكير في اغتياله

وحدث يومًا أني كنت في فندق كروكر مع نجيب شقير والدكتور سعد الخادم، وقد جاء مع شقيقه عزيز إلى اسطنبول للعناية به، وإذا بالدكتور إبراهيم ثابت مقبل علينا بوجه طلق يخبرنا بأنه آت من زيارة السجين، وأنه رآه على أحسن حال من الصحة والسرور. وبعد أن مكث معنا نحو نصف ساعة هم بالانصراف فسأله الدكتور سعد: هل عزيز في حاجة إلى شيء؟ فذكر الدكتور أن عزيزًا أعطاه رسالة وأوصاه بأن يسلمها إلى يوسف ذو الفقار ليشتري له العلاج المذكور فيها ويبعث به إليه.

وما أن وقع نظر الدكتور على ما سُطِّر في الورقة حتى امتقع لونه وتولاه الاضطراب ثم ناولنا إياها فقرأنا فيها ما خلاصته:

«زارني اليوم صديق من كبار الاتحاديين وأسر إلي أنه قر القرار على اغتيالي الليلة، وسلمني مسدسًا لأدافع به عن نفسي».

وفي الحال ذهب كل منا إلى جهة للاجتماع بأصدقائه واتخاذ التدابير اللازمة لمواجهة الحالة. وقد اجتمعت أنا بسليم الجزائري وغيره فعهدوا إليّ أن أكتب إلى السفارات الأجنبية والجنرال فون ساندرس[115] المفتش الألماني في الجيش العثماني أن في النية اغتيال عزيز في تلك الليلة والإدعاء بأنه انتحر. كما عهدوا إلى البعض بمحاولة تهريب عزيز من السجن، ووضعوا سيارة تحت تصرفهم لهذا الغرض، وقد أرسلوا رسولًا إلى بخارست للإبراق إلى الشريف حسين وطالب النقيب بالأمر. وذهبت أنا إلى غرفتي لتحرير الرسائل التي كُلفت بكتابتها، وقابلت فائز الخوري صدفة في الطريق، وكنت اعتمد عليه، فأوضحت له الحالة وطلبت إليه أن يعاونني في الكتابة، وإننا لكذلك، وإذا بالباب يفتح فجأة ويدخل علينا الأمير عادل أرسلان، فلما أطلعناه على ما نحن فيه أقبل على مساعدتنا. ولكن فائز رأى الاكتفاء بقلمي وقلم الأمير عادل، وأخذ الرسائل التي كتبها هو وأحرقها كلها. وأخذت أنا الرسائل التي كتبتها والتي كتبها الأمير عادل وألقيتها في البريد.

وفي تلك الليلة نفسها ذهب سفير إنجلترا بعد اجتماعه بالدكتور سعد الخادم ويوسف ذو الفقار إلى الباب العالي وقابل الصدر الأعظم مقابلة طويلة بشأن عزيز.

وفي تلك الليلة أيضًا أقيمت حفلة عشاء ساهرة في سفارة فرنسا، وكان خبر عزيز قد تداولته الألسن، وانتهى إلى مسمع السيدات وفي جملتهن كريمة السفير. فلما أقبل جمال وأراد أن يسلم عليها أبت أن تبسط له يدها للتحية قائلة:

- أنا لا أمد يدي إلى يد قاتل.

فقطب جمال جبينه واتجه نحو الباب قاصدًا الخروج، ولكنه التقى بأنور باشا داخلًا فتبادلا بعض كلمات ثم عادا معًا.

ولا أستطيع أن أبت في صحة الخبر الذي نقله الضابط الاتحادي إلى عزيز بشأن اغتياله، ولكني أعلم أنه لو كان صحيحًا لاضطر الترك إلى العدول عن تنفيذه، بعدما رأوا أن جميع المقامات الرسمية في اسطنبول قد اهتزت له، وأنه أثار ثائرة العرب في كل مكان.

وزرت عزيزًا في السجن عقب هذه الحادثة وأخبرته بما جرى. ولما ذكرت له خبر الكتب التي أرسلت إلى السفراء وإلى المفتش الألماني للجيش العثماني أغرورقت عيناه بالدموع وقال:

- كنت أفضل ألف مرة أن أُقتل على أن يُدعى الأجانب إلى التدخل لمصلحتي.

ثم قال: قد لا أعيش طويلًا بعد الآن، وإذا كان يشق عليّ أن أموت فذلك لأني لم أوفق إلى الخدمة التي أريدها.

ألمانيا وموقفها من العرب

وفي أثناء هذا الحديث دخل علينا ضابط ألماني عرفني به عزيز، فإذا هو من الضباط الذين كانوا معه في طرابلس الغرب، وله عليه أياد بيضاء. وقد خرجت مع هذا الضابط بدعوة منه إلى الشاي حيث عرّفني بأحد كبار الصحافيين الألمان ورجا منه أن يكون دائمًا على اتصال بي. ثم دعاني الصحافي إلى تناول الشاي في داره في اليوم التالي فتحدثنا طويلًا في الشؤون العربية. ومما قاله لي في صددها:

«أتظن حقيقة أن الإنجليز يريدون انقاذ عزيز علي؟ إنهم يتمنون أن ينصب له الترك مشنقة ترى من مصر، لتبقى حاجزًا بين مصر وتركيا إلى الأبد. وأما الألمان وهؤلاء من مصلحتهم تقوية الدولة، فيهمهم إرشادها إلى مواطن الضعف فيها، ومنعها من الوقوع في خطأ لا يمكن تلافيه». فقلت: «نحن لا يهمنا مات عزيز أو عاش. فإن عندنا ألف عزيز يخلفونه. ولكن الذي يؤلمنا هو أن تكون معاملة الاتحاديين له نذيرًا بقطع كل علاقة بين العرب والترك. وأنا لا أعرف هل إنجلترا تريد حقيقةً إنقاذ عزيز أم لا، ولكني أعلم أن ألمانيا وحدها تستطيع ذلك، لعلاقتها الوثيقة بالحكومة العثمانية، ولذلك لا يسعها أن تتنصل من تبعات المستقبل إذا وقع ما نخشاه». فقال لي:

«إن الألمان مهتمون كل الاهتمام بهذه المسألة وهم يرقبون القضية العربية عن كثب ثم جاءني بجرائد ومجلات ألمانية كثيرة طافحة بالمقالات الطويلة عن عزيز علي في معرض الدفاع عنه. وأردف قائلًا: لو أن سفيرنا هنا الآن لاستطاع أن يفعل شيئًا، ولكنه سيعود قريبًا، وسأكلمه في هذا الموضوع. والآن: هل تريد أن تقابل القائم بأعمال السفارة؟

فأجبته: إذا كان ثمة فائدة تُرجى من هذه المقابلة.

قال: لنذهب غدًا معًا.

وفي أثناء حديثي مع هذا الصحافي أتاني بدليل آخر على شدة اهتمامه بالقضية العربية، فعرض عليّ كراسات مخطوطة كثيرة ورسومًا وخرائط مفصلة لبلاد العرب. وجعل يلقي عليّ أسئلة دقيقة تتعلق بكل قطر من أقطارها لا يمكن أن يلمّ بتفاصيلها إلا من تخصص لدرسها والإحاطة بفروعها، فصرت أجيبه أجوبه مبهمة لكي لا يفهم أنه أعلم مني بحالة بلادي. وقد علمت من حديثه هذا أنه عارف بأحوال الجزيرة والعراق وسوريا معرفة تامة، ملمٌّ بنزعات زعمائها، واقفٌ على أحوال قبائلها، خبيرٌ بآراء مفكريها. ولو نشرت مجموعة تلك الكراسات لكانت أفضل ما يحسن الاسترشاد به إلى معرفة البلاد العربية من الوجهة الجغرافية والسياسية والاقتصادية والعسكرية. ولا عجب فإن هذا الصحافي، وقد كانت مهمته الظاهرة في اسطنبول مراسلة صحف برلين، كان في الحقيقة ضابطًا كبيرًا من ضباط أركان الحرب في الجيش الألماني كما اتضح لي فيما بعد. وقد قابلت القائم بأعمال السفارة الألمانية معه في اليوم التالي وأعدت عليه الحديث الذي دار بيني وبين الصحافي في اليوم السابق فكان مما أجابني به قوله:

– إن ألمانيا تدرك حرج الحال في هذه البلاد، ويهمها جدًا مصلحة الدولة العثمانية، وهي باذلة جهدها لمنع وقوع أي خطأ يؤدي إلى الإضرار بها، فكن على ثقة بأن عزيز علي لن يُمس بسوء، وأرجو أن تتأكد من أن ألمانيا هي الدولة الوحيدة التي تعمل لخير السلطنة العثمانية بإخلاص وبغير غرض ذاتي أو منفعة خاصة.

ورأيت صديقي الصحافي هذا لآخر مرة في 3 أغسطس [آب] سنة 1914، وأنا صاعد في النفق «التونيل» الموصل بين غلطه وبك أوغلي، وكان بملابس أميرالاي، فلم أنتبه له أولًا، ولكنه وضع يده على كتفي وحيّاني، فقلت له ضاحكًا بعد أن تبيّنته: «ما الفائدة من هذا اللباس وقد قُطعت عليكم الطريق إلى ألمانيا؟».

فأجابني بلهجة كلها جد وعزيمة قائلًا: ولكننا سنعمل شيئًا هنا.

ومن تلك الساعة لم يعد يُخامرني شك في أن تركيا ستخوض غمار الحرب إلى جانب ألمانيا.

تحت المراقبة..

وظلت مسألة عزيز المظهر الوحيد تقريبًا لنشاط الحركة الوطنية مدة سجنه بطولها. واتجهت إليها الأنظار وجعلت محكًا لسياسة الاتحاديين مع العرب، والخطة النهائية التي ينتهجها العرب بإزاء السلطنة العثمانية، بل كانت الشغل الشاغل لأهل اسطنبول خاصة والبلاد العربية عامة، وهذا ما أدى إلى حذر الترك وزيادة ارتيابهم. وكنت أنا بنوع خاص هدفًا لمراقبة شديدة لصلتي الوثيقة بكثير من الإخوان المشتبه فيهم من ضباط وغير ضباط.

من ذلك أني لاحظت يومًا من نافذة غرفتي أن ثلاثة من البوليس السرّي ينتظرونني على الباب، وكان

ذلك على أثر اجتماع عُقد في داري. فأسرعت وجمعت كل ما عندي من أوراق ودفنتها في حديقة صغيرة أمام باب منزلي حيث لا تزال إلى اليوم، ثم خرجت فتتبعوني واستقللت عربة ففعلوا مثلي، وكنت أعرف الحوذي، فأوصيته بأن يسير بأقصى سرعة ممكنة وألا يتوقف إذا ما رآني أقفز من العربة.

وبلغت إلى عطفة أمام فندق كروكر، فقفزت من العربة وهي سائرة وبدلًا من أن أدخل الفندق، وهو المكان الذي كنا نجتمع فيه أحيانًا، وإليه تتجه أنظار الشرطة طبعًا، دخلت النادي الفرنسي تجاهه.

وظل رجال البوليس مجدين في أثر العربة إلى أن تبينوها، بعد المنحنى، خالية فعادوا إلى الفندق حيث وجدوا نجيب شقير وسعد الخادم، فذكروا لهما اسمي المستعار، وهو الذي كنت أوقع به برقياتي ورسائلي وسألوهما هل يعرفان عنواني لتسليمي حوالة وردت علي من مصر، فأجابهم نجيب شقير بقوله:

– أعرف هذا الإسم وصاحبه سافر أمس على الباخرة الخديوية إلى مصر، فإذا وردت باسمه حوالات أو غيرها فمن السهل إيصالها إليه هناك.

وكنت أراقبهما من نافذة النادي، فلما رأيتهما خارجَين من الفندق جئت إليه، فوجدت صديقي في قلق وخوف جعلا الدكتور سعد الخادم يلح علي بالسفر في الباخرة الرومانية التي كانت على أهبة السفر من ميناء اسطنبول إلى مصر بعد نصف ساعة. وكان ذلك رأي نجيب شقير أيضًا. وكدت أقتنع برأيهما لولا أن سليم الجزائري الذي وصل حينئذ، اعترض عليه بقوله:

– أن الترك لا يجرأون [يجرؤون] على التمادي في أخطائهم. قال ذلك ووضع يده على مسدسه، وبرقت عيناه ببريق العزيمة. وتم الاتفاق على أن أتوارى حينًا عن النظر في دار أرسلوني إليها بأحد أحياء اسطنبول الوطنية.

الإفراج عن عزيز..

وبعد ذلك بيومين أو ثلاثة صدر العفو عن عزيز علي، وأُعلن أنه سيُطلق سراحه في المساء. فانطلقتُ حينئذ إلى وزارة الحربية، وهناك وجدت موكبًا مؤلفًا من نحو ستين عربة في انتظار خروجه من السجن. وفي الساعة الرابعة مساءً أُفرج عنه بشرط أن لا يمكث في اسطنبول سوى ليلة واحدة ثم يغادرها إلى حيث يشاء.

واجتمعنا معه تلك الليلة في مأدبة حضرها معظم أصدقائه، وفي اليوم التالي سافر عائدًا إلى مصر.

وخمدت الحركة بعد سفره، واشتد الخوف من أن ينتقم الاتحاديون من أصدقائه، واتجهت النية إلى الشروع في عمل جدي في البلاد العربية.

ونشطت الدعاية العربية نشاطًا عظيمًا بعد خروج عزيز علي من إسطنبول، وساد الاعتقاد بأن ساعة العمل الجدي قد أزفت، فقرر الإخوان مضاعفة الجهود لاستعجال هذه الساعة وتهيئة الجو لها. وجعلوا يقضون أيامهم ولياليهم في كتابة الرسائل وتوزيع القصائد الحماسية وتبادل الآراء والمعلومات. وقد فتح خليل حمادي باشا – الوزير المصري الذي كانت الحكومة العثمانية قد استعارته لإصلاح وزارة الأوقاف

العثمانية – باب داره على مصراعيه لشبان المنتدى العربي [الأدبي]، فاتخذوا منها ناديًا سريًا لهم، وقاموا يجتمعون فيها ليلًا ونهارًا لهذا الغرض. واذكر مرة أني نقلت ووزعت في يوم واحد أكثر من مائة نسخة من قصيدة الرصافي التي جاء فيها:

سنطلب هذا الحق بالسيف والقتال وشيب وشـــبان علـى ضـمر بلــق

بكل ابـن حرب كلمـا شد هــزها بعزم من السـيف المهـند مشــــتق

من العرب مطبوع الطباع على العلى بديع معاني الحسن في الخُلق والخَلق

أما القصيدة التي نظمها شوقي بعد اعتقال عزيز علي المصري وأشار فيها إلى نكبة مكدونية وإلى الظلم الذي نزل ببطل برقة، فقد تلاها علينا حمادي باشا نفسه، وكلف كلًا منّا، وكنا نحو 15 شخصًا، أن ننقل الأبيات الخمسة التي خاطب بها الشاعر السلطان العثماني محمد الخامس على عدة نسخ لتوزع على العرب في اسطنبول، وهذه الأبيات هي:

بالله بالإســلام بالجرح الـذي ما انفك في جنب الهلال يسيلُ

هلاّ حللت عن السجين وثاقَه إن الوثـاق على الأسـودِ ثقيلُ

أَيقـول واشٍ أو يردد شــامتٌ صنديـد برقة موثــق مكـبولُ

هو من سـيوفك أغمدوه لريبة ما كان يغمد سيفك المسـلولُ

فاذكر أميـر المؤمنـين بـلاءه واسـتبقه إن السـيوف قليـلُ

وقد ترجم الأستاذ فهمي المدرس[116] هذه الأبيات إلى اللغة التركية ورفعها إلى السلطان محمد رشاد السيد إحسان الجابري[117] الذي كان الأمين الثالث في البلاط السلطاني. فلما قرأها السلطان أغرورقت عيناه بالدموع وقال بصوت متهدج: «واي أوغلم واي» أي «ما أشد ألمي يا بني».

---

(110) محمد فريد (1868-1919): سياسي وكاتب مصري، أصبح رئيسًا للحزب الوطني بعد وفاة مؤسسه مصطفى كامل. كان من دعاة الاستقلال والدستور، اعتُقل ونُفي وتوفي في برلين. له: **تاريخ الدولة العليّة العثمانية**.

(111) عبد العزيز جاويش (1876-1929): تربوي وكاتب مصري، درس في دار العلوم، وحصل على منحة لمتابعة التحصيل في بريطانيا. دعا إلى إصلاح تربوي، وتأثّر بالإمام محمد عبده. له: **الاسلام دين الفطرة والرحمة**.

(112) مؤتمر باندونغ: هو أول اجتماع لزعماء 29 دولة من آسيا وأفريقيا، عُقد في مدينة باندونغ في أندونيسيا في 24 نيسان/أبريل 1955. من أبرز الحاضرين: رئيس وزراء الهند جواهر لال نهرو، والرئيس اليوغوسلافي جوزيف تيتو، والرئيس المصري جمال عبد الناصر. وكان هذا الاجتماع بداية تأسيس حركة عدم الانحياز. نشير إلى أن المؤلف أسعد داغر صاغ هذه المذكرات في فترة لاحقة لعام 1955.

(113) جميل المدفعي (1890-1958): ولد في الموصل، وانتسب إلى الكلية العسكرية في اسطنبول، وانضم إلى جمعية «العهد» السريّة. فرّ من الجيش العثماني والتحق بقوات الثورة العربية بقيادة الأمير فيصل. شغل مناصب ادارية وحكومية في العهد الملكي في العراق. وتسلّم رئاسة الحكومة مرات عدّة.

(114) عبد العزيز آل سعود (1876-1953): مؤسس الدولة السعودية الثالثة (1902). خاض حروبًا كثيرة مع العائلات صاحبة النفوذ في الجزيرة العربية مدة عشرين عامًا لتوحيد الجزيرة العربية التي جعلها تحت حكمه، تم إعلان المملكة العربية السعودية عام 1932.

(115) فون ساندرس (1855-1929): رئيس البعثة العسكرية الألمانية في الجيش العثماني. أعاد تنظيم الجيش وخاض معارك الدردنيل وفلسطين.

(116) فهمي المدرس (1873-1944): ولد في بغداد، ودرس على فقهاء العراق، ثم التحق بدار الفنون مدرسًا الآداب الاسلامية. له مؤلفات عدة منها: **مقالات سياسية تاريخية واجتماعية** و**حكمة التشريع الاسلامي**.

(117) إحسان الجابري (1879-1980): درس في حلب ثم في اسطنبول. سُجن في عام 1902 لصلته بعبد الرحمن الكواكبي. خدم في الإدارة العثمانية. انضم إلى الحكومة العربية في دمشق، وخرج مع الملك فيصل بعد معركة ميسلون. انتخب نائبًا عن حلب. تولى رئاسة لجنة الخارجية في البرلمان السوري بعد الاستقلال. توفي في القاهرة.

الفصل الرابع
المؤتمر العربي الأول

المؤتمر العربي الأول

وبينما كانت هذه الحوادث تقع في اسطنبول اجتمع فريق من شبان العرب في باريس، وبعضهم ممن تخرجوا في مدارس اسطنبول وذهبوا لإتمام دروسهم في عاصمة الفرنسيين. وكان بينهم عبد الغني العريسي[118] ومحمد المحمصاني[119] وجميل مردم[120] وعوني عبد الهادي[121] وغيرهم، ففكروا في عقد مؤتمر عربي فيها، ودعوا إلى انتخاب لجنة لتنظيم هذا المؤتمر. وانتخبت اللجنة من السادة شكري غانم[122] وندرة مطران[123] وعبد الغني العريسي وعوني عبد الهادي وجميل مردم وشارل دباس[124] وجميل معلوف[125]. وتولى عبد الغني العريسي سكرتيريتها، فوجه باسمها إلى حزب اللامركزية بمصر وإلى الأحزاب العربية الأخرى في 4 أبريل [نيسان] سنة 1913 كتابًا جاء فيه ما يأتي:

«لقد جمعتم في برنامجكم الأماني التي ينشدها أبناء العرب لسعادتهم، لذلك وقفنا أنفسنا لخدمة غايتكم النبيلة، واعتبرناكم مصدرًا لما نتوقع أن نقوم به في هذه الديار بإزاء مناظرات الجرائد ومغامز الخطباء في الأندية السياسية بشأن البلاد العربية. وذلك ما حمل الجالية العربية على الاجتماع والبحث في التدابير الواجب اتخاذها لوقاية الوطن المحبوب وإصلاح أمور بلادنا على أساس اللامركزية.

وبعد مناقشات كثيرة رأينا أن نعقد مؤتمرًا للعرب، نظهر به للأجانب أن العرب يدرأون بكل قواهم عادية الاحتلال من أيه دولة كانت، ويحتفظون بكيانهم القومي، ونصارح الدولة العثمانية بوجوب تنفيذ الإصلاحات اللامركزية في بلاد العرب، وإليكم المطالب التي سيدور حولها بحث المؤتمر:

أولًا- الحياة الوطنية ومناهضة الاحتلال.

ثانيًا- حقوق العرب في السلطنة العثمانية.

ثالثًا- ضرورة الإصلاح على قاعدة اللامركزية.

رابعًا- المهاجرة من سورية وإليها.

وحسبنا الله أن يأخذ بأيديكم وأيدينا إلى ما فيه خير الأمة».

اجتماع المؤتمر

واجتمع المؤتمر في القاعة الكبرى للجمعية الجغرافية بسان جرمان بباريس من 18 يونيه [حزيران] سنة 1913 إلى 23 منه. وكان همّ المندوبين الأول أن يوضحوا أسباب اجتماعه، فقال السيد عبد الحميد الزهراوي في خطبة الافتتاح ما يأتي[126]:

«امتزج العرب والترك امتزاجًا عظيمًا في الماضي. وقد مضى على امتزاجهم هذا بضعة قرون، ولكن السياسة التي مزجتهم قبلًا هي السياسة التي تفرقهم الآن. ولم تترك من ذلك الإمتزاج القديم سوى رابطة بين بعض العرب وبعض الترك. ولا تزال هذه الرابطة ثمينة عند العثمانيين. ولكنها بالرغم مما لها من القيمة أصبحت بسبب السياسة التي يتبعها بعض غلاة الترك أكثر استهدافًا للخطر. فلما رأى العرب ما وصلت إليه حالة الدولة، وكانوا حريصين على البقية الباقية من تلك الرابطة الثمينة بينهم وبين الترك، تنبهوا إلى واجب عظيم هو وجوب اشتراك الفريقين في سياسة البلاد وتحمل تبعاتها. وقد اتضح الآن أن العرب لم يخسروا كثيرًا بتنصلهم من مسؤولية إضاعة البلاد، كما أن الأتراك لم ينتفعوا كثيرًا بسبب تحملهم وحدهم تلك المسؤولية».

وقال إسكندر عمون في الجلسة الثالثة التي عقدها المؤتمر:

«إن الأمة العثمانية بعد الحوادث الأخيرة أصبحت على شفا جرف هاو. وهي بين ذلك الماضي المؤلم والمستقبل المظلم تنظر إلى أمسها بعين الأسف، وترقب غدها بعاطفة الوجل. وهذا الموقف – موقف الخطر على الحياة – هو الباعث على اجتماعنا في هذا المكان».

وبسط السيد الزهراوي أسباب عقد المؤتمر في حديث له مع جريدة **الطان** كما يأتي:

«إن ما حدث في ولايات الدولة العثمانية بأوروبا من الحوادث الخطيرة قد دعانا إلى التفكير في الحالة الجديدة التي وصلنا إليها واتخاذ الوسائل اللازمة الضرورية لإتقاء نتائجها».

ولما سُئل الزهراوي عن أسباب عقد المؤتمر في باريس قال:

«إن الاضطهاد الذي لقيته الجمعية الإصلاحية في بيروت وسجن بعض أعضائها قد أظهر لنا ما هو نوع الحرية التي يمكن أن ينعم بها مؤتمر ينعقد في سورية. ثم رأينا من جهة أخرى، أن نُسمع أوربا مطالبنا، ونعلن رأينا فيما يمكن أن تطمح إليه بلادنا، وقد فضلنا باريس لأن الجالية العربية فيها أكثر عددًا منها في سائر العواصم».

قرارات المؤتمر

وانفرط عقد المؤتمر في باريس بعد أن وضع القرارات التالية:

أولًا: إن الإصلاحات الحقيقية واجبة وضرورية للمملكة العثمانية ويجب أن تنفذ بسرعة.

ثانيًا: من المهم أن يُكفل للعرب التمتع بحقوقهم السياسية، وذلك بأن يشتركوا في الإدارة المركزية للمملكة اشتراكًا فعليًا.

ثالثًا: يجب أن تنشأ في كل ولاية إدارة لامركزية تنظر في حاجاتها.

رابعًا: كانت ولاية بيروت قد قدمت مطالبها بلائحة خاصة أقرت في 31 ديسمبر [كانون الأول] سنة

1913، وهي قائمة على مبدأين هما توسيع سلطة المجالس العمومية وتعيين مستشارين أجانب، فالمؤتمر يطلب تنفيذ هذين المبدأين.

خامسًا: اللغة العربية يجب أن تكون معتبرة في مجلس النواب العثماني، ويجب أن يقرر المجلس أن اللغة العربية هي لغة رسمية في الولايات العربية.

سادسًا: تكون الخدمة العسكرية محلية في الولايات العربية إلا في الأحوال الاستثنائية.

سابعًا: يتمنى المؤتمر من الحكومة السنية أن تكفل لحكومة لبنان الوسائل المالية اللازمة.

ثامنًا: يُبدي المؤتمر عطفه على مطالب الأرمن العثمانيين القائمة على أساس اللامركزية.

تاسعًا: تبليغ هذه القرارات إلى الحكومة العثمانية والحكومات المتحابة معها.

ويقدم المؤتمر للحكومة الفرنسية شكرًا جزيلًا لترحابها بضيوفها.

وأُلحقت بهذه القرارات المادتان التاليتان:

أولًا: إذا لم تنفذ القرارات التي أقرها هذا المؤتمر والأعضاء المنتمون إلى لجان الإصلاح العربية فإنهم يمتنعون عن قبول أي منصب في الحكومة العثمانية.

ثانيًا: ستكون هذه القرارات برنامجًا سياسيًا للعرب العثمانيين، ولا يمكن أن يساعد أي مرشح للانتخابات إلا إذا تعهد بتأييدها والعمل على تنفيذها.

ومما لا ريب فيه أن نقطة الضعف في هذا المؤتمر كانت الجمعية الإصلاحية في بيروت، فقد اندس فيها فريق من عملاء الفرنسيين وصنائعهم. فتمكنوا من إفساد غايتها وتشويه سمعة بعض رجالها في نظر شعبهم وفي نظر الترك أيضًا.

الحكومة العثمانية والمؤتمر

وكانت الحكومة الاتحادية قد حاولت منع عقد المؤتمر بمختلف الوسائل، ولكنها لم توفق. فأوفدت مدحت شكري سكرتير جمعية الاتحاد والترقي إلى باريس لمفاوضة المؤتمر العربي فيما يطلبه من إصلاح للبلاد. وقد اتفق معه على عدة مسائل لم تقر الحكومة سوى قسم منها. وأصدرت في أوائل أغسطس [آب] سنة 1913 القرار الرسمي الآتي تعريبه:

«إنه بالنظر إلى الضروريات واختلاف الأمزجة في الولايات العثمانية وإلى وجوب ترقية البلاد وإسعاد أهلها وزيادة رفاهيتهم، تقرر بعد الإتكال على الله ومفاوضة الولايات:

«أن يُعهد في إدارة الأوقاف الموقوفة على عمل الخير المحلي بحسب شروط الواقف إلى مجالس الجماعات في الولايات وذلك بموجب قانون جديد ينشر قريبًا».

«أن تكون الخدمة العسكرية في زمن السلم في دائرة التفتيش، إلا إذا رأت الحكومة لسبب ما حشد قسم من الجنود في جهة أخرى، وترسل العساكر على الطريقة النسبية إلى الولايات البعيدة كاليمن والحجاز وعسير ونجد».

«أن يكون التدريس باللغة العربية في جميع مدارس الولايات التي تتكلم أكثرية سكانها هذه اللغة وذلك لتوفير أسباب المدنية التي تحتاج إليها في الحال وفي الاستقبال. ولما كانت هناك فائدة أساسية من التدريس باللغة العربية في جميع المكاتب، فيجب مباشرة ذلك الآن في المكاتب الرشدية والإعدادية وتوفير أسباب التدريس العالي بلغة الأكثرية أيضًا بشرط أن يبقى التدريس باللغة التركية كما كان في المكاتب الإعدادية في حواضر الولايات وذلك لتعميم اللسان الرسمي.

«أن يُعين الموظفون من الواقفين على اللغة العربية علاوة على اللغة الرسمية، وأن يُنظر حين تعيينهم إلى هذا الشرط. وتعيّن الحكومة المركزية الموظفين الذين يقتضي لتعيينهم إرادة سنية. أما الموظفون الثانويون فيُعيّنون بمقتضى القانون الجديد.

وقد أُبلغ هذا القرار إلى وزارات الحربية والمعارف والأوقاف للعمل به. وكان قد تقرر استقدام مفتشين من الأجانب لكل ولاية من الولايات على قدر الحاجة المحلية ولذلك جاء في قانون الولايات الجديد أن المصاريف المحلية ولا سيما عجز ميزانية المعارف والنافعة (الأشغال) تُضاف إلى ميزانية الولاية، وعلى الولاية أن لا تخرج عن دائرة الصلاحية الممنوحة لها في قانون الولايات إلخ».

«انتهى»

هذه هي الإصلاحات التي منحتها الحكومة الاتحادية للعرب وقَبِل العرب بها حسمًا للخلاف. وليس الغموض الظاهر في قرار الوزارة ناشئًا عن ركاكة الترجمة بل هو في الأصل التركي نفسه. وقد كان هذا الغموض مقصودًا في الأصل بدليل ما جاء في ذلك القرار بشأن التعليم. فقد ورد فيه أن التدريس يكون باللغة العربية في الولايات التي يتكلم سكانها هذه اللغة. ثم حُصر التدريس باللغة العربية في المكاتب الرشدية والإعدادية فقط. ثم اشترط بقاء التدريس باللغة التركية كما كان لأجل تعميمها. فهل يُفهم شيء من هذه القرارات المتناقضة؟ وهل يُعرف منها بأية لغة تدرس المكاتب الإعدادية في بيروت ودمشق وبغداد وخصوصًا أنه لم يكن في البلاد العربية مكاتب إعدادية إلا في حواضر الولايات؟

ولم يرد ما يستحق الذكر في ذلك القرار بشأن الموظفين إلا شرط وقوفهم على اللغة العربية. ولكن هذا الشرط لا معنى له ولا فائدة منه لأن الحكومة كانت تجد أناسًا لا يعرفون اللغة العربية وتقول إنهم واقفون على أسرارها وتعيّنهم في البلاد العربية لتضلعهم في لغة سكانها. وقد قالت **طنين** في هذا الشأن في عددها الصادر في 3 أغسطس [آب] سنة 1913: «يجب أن لا نفتش الآن على موظفين واقفين على كنه اللغة العربية وقوفًا تامًا، بل أن ننظر في الأقدمية والإستقامة والعفة قبل الوقوف على اللغة». أما مسألة جعل الخدمة العسكرية إجبارية في دائرة التفتيش في داخل الولايات فكانت مرضية للعرب. ولكن الاتحاديين أكرهوا السلطان على رفضها ورفض ما يتعلق بالأوقاف أيضًا، فلم يبق من تلك القرارات بعد ذلك إلا ما ورد ذكره

في قانون الولايات.

تحسن العلاقات بين العرب والترك

ومع ذلك كان لهذا القرار وقع حسن في بعض الأندية العربية وخصوصًا بعدما أذاعت المصادر الرسمية أن جمعية الاتحاد والترقي وعدت بإجابة العرب إلى جميع مطالبهم. وأنها لم تشأ أن تعلن هذا الوعد في الصحف لئلا تطمع سائر العناصر العثمانية بمثله وتحذو حذو العرب معها.

وفي الساعة الثانية بعد ظهر الثلاثاء 5 أغسطس [آب] سنة 1913، قصد وفد من أبناء العرب الباب العالي ليشكر للحكومة، وعودها ويطالبها بالتعجيل في البر بها، وقد أُلف ذلك الوفد بعد عناء شديد – لأن فريقًا من أبناء العرب كان غير مرتاح إلى تأليفه – من الشريف [علي] حيدر[127] ونجليه الشريف محيي الدين والشريف مجيد، ومحيي الدين باشا الجزائري[128] وإبراهيم صوصة والمونسينيور شريم وشكري الأيوبي[129] وشكري الحسيني[130] وبديع المؤيد[131] ونجيب شقير ومعروف الرصافي والشيخ عبد العزيز جاويش وسامي العظم والدكتور حسين حيدر وعبد الكريم الخليل. فقدمهم الشريف حيدر إلى الصدر الأعظم واحدًا واحدًا. وألقى فخامته خطبة طويلة أعرب فيها عن ارتياحه إلى إزالة سوء التفاهم بين العرب والترك، وقال إن غاية وزارته إسعاد العنصر العربي الكريم، أخلص العناصر العثمانية للخلافة العظمى. وألقى الشيخ عبد العزيز جاويش خطبة باللغة العربية شكر فيها هذه العواطف، وقال إن لا قوة في المستقبل تقدر أن تفرق بين العرب والترك. ثم تقدم عبد الكريم الخليل وألقى الخطبة التالية باسم الشبيبة قال:

«يا صاحب الفخامة، أتشرف بالمثول بين يديكم بالأصالة عن نفسي وبالنيابة عن الشبيبة العربية للقيام بواجبين من أهم واجبات الإخلاص. فالواجب الأول هو تهنئة الحكومة العثمانية باسترجاع أدرنة من يد العدو، وشكر الجيش العثماني المظفر على هذا النصر الباهر. أما الواجب الثاني فهو شكر فخامتكم وسائر أركان الوزارة الكرام على تقديرها الإصلاح في البلاد العربية حق قدره، وعلى وعودها بإعطاء الحقوق المدنية والسياسية للأمة العربية وإشراكها في أمور الحكومة. فالشبيبة العربية تشكر لكم هذا العمل العظيم الذي تعده فاتحة سعادة ورفاهية لهذا الملك المحبوب. فلتطمئن فخامتكم وهيئة الوكلاء الكرام إلى أن الأمة العربية التي تقدر هذه القرارات حق قدرها تسعى جهد طاقتها وتبذل جميع مساعيها لرقي هذا الوطن المشترك وسعادته ونجاحه. ولهذا أرجو من صميم الفؤاد تنفيذ قرارات الإصلاح بأقرب ما يمكن. ولكني أتجرأ على أن أشرك شكري بذكر بعض ما تتمناه الأمة العربية مستميحًا العفو من لدن فخامتكم».

إن بقاء الإدارة العرفية في بيروت منذ سنتين يدعو إلى الأسف، وإننا نلتمس رفعها ونرجو رفع المنع عن الصحف المصرية والسماح بصدور الجرائد المحلية المعطلة، لأننا لا نشك في إخلاصها لهذا الملك، وذلك رغبة في تعميم الشكر وانتقاله من قلوب الناس إلى أعمدة الصحف التي تستطيع بإيفاء وظيفتها الوطنية أن تسهل مهمة الحكومة كثيرًا.

«وهناك مسألة ثانية وهي مسألة بيع الأراضي المدورة – الجفتلك – في البلاد العربية ولا سيما فلسطين.

لأن دخول الأجانب إليها وحرمان أهاليها من مواردها مما لا ترضونه فخامتكم، فالتمس من حنان الحكومة السنية اتخاذ قرر قطعي موافق في هذا الشأن».

مأدبة الشبيبة العربية لزعماء الاتحاديين

وفي مساء ذلك اليوم أولمت الشبيبة العربية وليمة شائقة في فندق توكتليان لخمسة وأربعين مدعوًا من عظماء الترك والعرب منهم طلعت بك وجمال باشا وأنور باشا وخليل بك وسليمان أفندي البستاني والشريف جعفر والشريف حيدر والشريف محيي الدين والشريف مجيد وغيرهم. وقبل توزيع الحلوى نهض عبد الكريم الخليل وشكر للمدعوين إجابتهم دعوة الشبيبة العربية، وأعرب عن سروره بإزالة سوء التفاهم بين العرب والترك، وطلب مساعدة الحاضرين من أركان الوزارة وجمعية الاتحاد والترقي على التعجيل في تنفيذ قرار الإصلاح.

وتكلم طلعت بك فقال إنه هو وجمعيته وزملاؤه الوزراء، يخدمون العرب بإخلاص من زمن بعيد. واستشهد على ذلك بالشريف حيدر، وأنكر وجود سوء التفاهم، ونسب كل مساعيه الاصلاحية إلى جمعيته. ثم طلب من فتحي بك سكرتير جمعية الاتحاد والترقي في ذلك الحين – وسفير الدولة في صوفيا بعد ذلك – أن يتكلم باسم الجمعية. فوقف فتحي بك وشكر للشبيبة العربية بالأصالة عن نفسه وبالنيابة عن الاتحاديين تكرمها بدعوتهم إلى العشاء. وأعرب عن رغبة الجمعية في الإصلاح، وعن عزمها على إنجاز ما وعدت به. وتلاه بابان زاده إسماعيل حقي وزير المعارف حينئذ فحث العناصر على الائتلاف والاتحاد.

وخطب المرحوم سليمان البستاني وزير الزراعة والمعارف في ذلك الحين فاستهل خطبته بهذا البيت:

وإذا تألّفت القلوب على الهوى فالناس تضرب في حديد بارد

ثم تكلم بالنيابة عن الحكومة التي هو عضو فيها، وصرح بأنها عزمت على إجراء الإصلاح الحقيقي عزمًا أكيدًا، وأنها ستُنيل العرب أمورًا لا يفكرون فيها الآن، لأنها تعرف ما هو الواجب وتريد إصلاح الحال.

وفد الإصلاح في اسطنبول

وعلى أثر ذلك أبرق عبد الكريم الخليل إلى باريس يدعو أعضاء المؤتمر العربي إلى الحضور لمراقبة تنفيذ الإصلاح، فأوفد المؤتمر ثلاثة من أعضائه هم سليم سلام والشيخ أحمد طبارة ومختار بيهم، فوصلوا إلى الآستانة في الساعة الأولى بعد ظهر الجمعة 15 أغسطس [آب] سنة 1913 واستُقبِلوا فيها بحفاوة عظيمة.

وقد زاروا المنتدى الأدبي واستراحوا هنيهة فيه ثم اجتمعوا بمعتمدي الجمعيات العربية وبسطوا المهمة التي جاءوا من أجلها. فقالوا إنها إيضاح المبهم في الاتفاق الذي أعلنته الحكومة، ومفاوضتها في تعيين بعض زعماء الأحزاب العربية في مناصب الدولة، وحملها على الاعتراف رسميًا بالاتفاق السرّي الذي عقد بين

جمعية الاتحاد والترقي والمؤتمر العربي.

وجعل وفد مؤتمر باريس يفاوض رجال الحكومة وأهل الحل والعقد منذ اليوم التالي ليوم وصوله. وفي 23 أغسطس [آب] حظي أعضاؤه بمقابلة السلطان محمد رشاد فأعربوا له عن تعلق العرب بالعرش العثماني، ورجوا منه أن يأمر الحكومة بتنفيذ الإصلاح على جناح السرعة لأنه هو الطريق الوحيد لترقية البلاد وإنماء ثروتها وإسعاد سكانها، فشكرهم ووعدهم خيرًا.

وفي 27 أغسطس [آب] زار أعضاء الوفد ولي العهد فقابلهم بعطف وحفاوة عظيمين، وخطب سليم سلام بالتركية مُعربًا عن تعلّق العرب بسموّه لما يسمعونه عن محبته لهم.

ثم عقبه عبد الكريم الخليل فتكلم بالمعنى نفسه. وخطب أحمد طبارة بالعربية فاستهل كلامه بهذه العبارة:

«أخاطب سموكم بلسان عربي مبين، لسان القرآن الكريم والنبي العربي العظيم القائل: من أحب العرب فبحبي أحبه». وقال: «إن ما سمعه عن حب سموه للعرب تحققه هو الآن بنفسه، وتمنى لو يزور سموه سورية». فشكر سموه للوفد هذه العواطف شكرًا جزيلًا ووعد بأن يبذل قصارى جهده لإصلاح الحال في البلاد العربية.

وأولمت جمعية الاتحاد والترقي في مساء يوم الأربعاء 17 أغسطس [آب] وليمة شائقة للشبيبة العربية دعت إليها وفد الإصلاح وجميع الوزراء العثمانيين وبعض عظماء الترك والعرب في الآستانة. ولما فرغوا من الطعام وقف فتحي بك فتكلم باسم جمعية الاتحاد والترقي قائلًا ما ترجمته:

«في اجتماع مضى كهذا الاجتماع تبودلت عواطف السرور بالاتفاق الذي تم بين العرب والترك، فأعيد الآن ما أبديته من السرور في ذلك الاجتماع أمام أعضاء وفد المؤتمر العربي المؤلف من سليم أفندي سلام والشيخ أحمد طبارة ومختار بك بيهم. وأشكر لهم مساعيهم الحميدة وغيرتهم الصادقة. وأرجو أن يكون هذا الاتفاق مقدمة عهد سعيد للأمة والدولة».

ورد عيه عبد الكريم الخليل بكلمة طيبة، ثم تلاه الشيخ أحمد طبارة فتكلم باسم وفد المؤتمر وقال: «يقول حكماء العرب في أمثالهم: صديقك من صَدَقَك لا من صدّقك. وهي لعمري حكمة بالغة يجدر بكل عاقل أن يضعها نصب عينيه وأن يجعلها نبراسًا يستضيء به في حياته الاجتماعية. فإن دولتنا العلية أيدها الله، باتت في أشد الحاجة إلى رجال يصدقونها في أقوالهم وأعمالهم لا أن يصدّقوها في كل شيء نافعًا كان أو ضارًا، وحسبنا ما تجرعناه من مرارة هذه السياسة الخرقاء قبل الدستور وبعده.

«أنا إن رأيت الخطر محدقًا بصديق تهمني حياته فالمروءة تقضي علي أن أنبهه إليه وأن أسعى لإنقاذه منه. أما إنكاري للخطر وأنا أراه، فلا يلتئم مع الصداقة والمروءة في شيء. فنحن نعتقد أن العرب والترك إخوان لا غنى لأحدهما عن الآخر، وأن حياة هذا الملك تتوقف عليهما، فمن مصلحتهما ومصلحة الدولة أيضًا أن لا يكون بينهما سوء تفاهم على الإطلاق. فإنكار سوء التفاهم مع وجوده مضر بهما معًا، ومُنكره غير محب لهما. وأساس نجاح الملك هو الثقة بين الأمة والحكومة. فعلى قدر هذه الثقة يكون حظ الملك من التقدم

والنجاح. وأساس الثقة هو عدم الاستئثار بشيء وإعطاء كل ذي حق حقه. على هذه القاعدة الأساسية بنينا طلبنا للإصلاح حفظًا لهذا الملك بعدما رأينا العيون شاخصة إليه والأطماع حائمة حوله. فكنا في طلبنا هذا أكثر حبًا له من الذين يقولون إن الوقت غير مناسب للإصلاح، مع أن الإصلاح ليس له وقت معين، بل كلما اشتد المرض على المريض كان استقدام الطبيب له ألزم وتناول العلاج له أحوج وأكفل.

«لقد صرخنا بملء أفواهنا ونصرخ الآن وفي كل زمان أننا نشأنا تحت ظل الهلال العثماني ونريد أن نعيش تحت ظله ونموت تحت ظله، وأعني «بنحن» العرب، وأعني بالعرب كل ناطق بالضاد لا فرق في ذلك بين المسلم وغير المسلم. لا نرضى عن دولتنا العلية بديلًا، وإننا نفديها بأرواحنا وأموالنا ونطلب لها الحياة السعيدة والعيشة الراضية لنعيش وإياها في سعادة وهناء ورخاء على قاعدة الاشتراك في الحكم وتبادل الحقوق».

ثم قال: «ويتساءل فريق من الناس، أيها السادة قائلين: أَتُظهِرُ الحكومة هذه الاصلاحات من حيز الوعود إلى عالم الوجود؟ فالذي أراه أنه ليس من مصلحة الدولة البر بالوعد فقط، بل أن تسبق أعمالها أقوالها من الآن، وأن تعتمد على الله وعلى نفسها وعلى الأمة في إنجاح الوطن، فتصبح الأمة العثمانية على اختلاف مذاهبها يدًا واحدة في إنهاض الوطن وإسعاده. ولنا في عظيم استعداد أبنائنا خير كفيل للنجاح في أقرب آن».

الحكومة تقلب للعرب ظهر المجن

ولكن الحكومة الاتحادية التي تظاهرت بالاتفاق مع العرب، كانت في الباطن ناقمة على هذا الاتفاق وعازمة على عدم تنفيذه. فقد استدعت بعض صنائعها السوريين إلى الآستانة وكلفتهم مقاومة أحرار العرب والمجاهرة بأن البلاد العربية في غنى عن كل إصلاح. وقد صرح أحدهم لمحرر **تصوير أفكار** بأن العرب يأسفون جدًا لانخداع الحكومة ومسالمتها لشبيبة عربية ليست على شيء من الوطنية، غايتها تسليم البلاد إلى الأجانب والقضاء على الدولة والإسلام والمسلمين.

وقال آخر إن الحكومة وضعت يدها بيد شبان مارقين خائنين لا يُعبأ بهم ولا يُحسب لهم حساب.

وكانوا جميعًا يسعون إلى إقناع الرأي العام التركي بأن الأمة العربية كافة في قبضة يدهم. وقد أجمعوا على مطالبة الحكومة بإبقاء الحال على ما كانت عليه حتى قالوا إن بقاء اللغة التركية لغة رسمية في البلاد العربية في مصلحة العرب أنفسهم، لأنهم إذا كتبوا «الاستدعاءات» «العرضحالات» بالعربية وأرسلوها إلى الآستانة طالت مدة إقامتها فيها، وقد تظل السنين الطوال فيكون العرب الخاسرين.

خيبة أمل العرب

وقد اتضح لوفد مؤتمر باريس بعد وصول صنائع الاتحاديين إلى الآستانة أن الحكومة لا تنوي تنفيذ

الإصلاح، وأنها لا تقصد إلّا المطل [المماطلة] والتسويف، ولا سيما أن الإرادة السنية صدرت بالموافقة على قرار مجلس الوزراء في شأن الإصلاح بشكل لم يكن يتوقعه الإصلاحيون، فجاءت مبتورة في أماكن عديدة، وقضت بجعل تعليم اللغة التركية إجباريًا في البلاد العربية حتى في المكاتب الرشدية، فضلًا عن المكاتب الإعدادية فقرر أعضاء الوفد مغادرة العاصمة، وأرسلوا التقرير التالي إلى مندوبي الجمعيات العربية في الآستانة يوم سفرهم منها وهو:

« جئنا الآستانة لتحقيق وعود الإصلاح وطلب تنفيذها في أقرب آن. وقد سمعنا من جلالة السلطان وسمو ولي العهد وفخامة الصدر الأعظم وحضرة وزير الداخلية وسائر رجال الحكومة وجمعية الاتحاد والترقي وعودًا صريحة قاطعة لا نستطيع أن نُظهر ارتيابنا فيها. وأكد لنا فخامة الصدر الأعظم وحضرة وزير الداخلية غير مرة أن تنفيذ الإصلاح واقع لا محالة في القريب العاجل، وأن الدولة العلية لا تقف بالإصلاح عند هذا الحد بل تؤيده وتعززه كلما سنحت لها الفرص وساعدتها الأحوال. فرأينا من المصلحة أن نتظاهر بالرضى لأن السياسة تقضي علينا بذلك، وعزمنا على السفر إلى بلادنا لعرض المسألة برمتها على مسامع الأمة وإعدادها لقبول الإصلاح، إذا برّت الحكومة بوعودها، أو لاتخاذ التدابير اللازمة الفعالة للوصول إلى غايتنا الشريفة. وقد أفهمنا رجال الحكومة حقيقة الحال، وقلنا لهم إن هذه آخر مرة نرضى فيها بالوعود. فإن لم يبروا بها في أقرب آن كانوا هم وحدهم المسؤولين عن تفاقم الأمر وسوء العاقبة».

الزهرواي في اسطنبول

على أن عبد الكريم الخليل وبعض أنصاره من شبان العرب في الآستانة لم يقنطوا من رجال الحكومة الاتحادية ولم يفقدوا الثقة بهم، فواصلوا مفاوضتهم. وكانت نتيجة ذلك مجيء عبد الحميد الزهراوي إلى الآستانة. وقد وصل إليها في 28 أكتوبر [تشرين الأول] سنة 1913. وذهب من محطة السركجي توًا إلى المنتدى الأدبي باحتفال عظيم، ثم غادره بعد استراحة قصيرة إلى فندق كروكر في بك أوغلي حيث أقام.

وبعد مفاوضة دامت أسبوعًا كاملًا بينه وبين مدحت شكري سكرتير جمعية الاتحاد والترقي وبعض أعضاء الوزارة، أدرك أن الحكومة تنوي المطل والتسويف، فقرر السفر إلى مصر. وكان أصدقاؤه جميعًا، إلا عبد الكريم الخليل، يلحّون عليه بذلك، وقد زاره أحد الصحفيين في تلك الأثناء ودار بينهما الحديث التالي:

المحرر: لقد حان الوقت أيها الأستاذ لأن يعرف الرأي العام بعض ما جرى في شأن الإصلاح فماذا تقول؟

– لا أعلم أكثر منك ولا أعلم شيئًا جديدًا. فقد أتيت إلى الآستانة وفاوضت فريقًا من رجال الحل والعقد. ولكن ما الفائدة ونحن نريد أعمالًا لا أقوالًا، ولم يعد لي من الوقت متسع للإقامة في الآستانة، ويرى أصدقائي أن سفري منها أمر واجب، وفي كل يوم أتلقى كتبًا وبرقيات تستحثّني على استعجال سفري إلى مصر.

– ولكن سفرك الآن يُعد بمثابة قطع الرجاء من الحكومة.

– وهذا ما أخشاه، وما أفهمته للحكومة فلا عذر لها إذا تجاهلته في مستقبل الأيام.

– وما هو السبب في مماطلة الحكومة؟

– أظن أن السبب خلاف قام في جمعية الاتحاد والترقي. فإن فريقًا من أعضائها يؤيد مطالبنا ويروم معاملتنا بالحسنى. وفريق يرفض مطالبنا كل الرفض ويشير باستعمال الشدة معنا. ولا نعلم أي الفريقين ترجح كفته.

موقف عقلاء الترك

وقد وقع هذا التصريح أعظم وقع في اسطنبول، فجاهر كثيرون من خيرة الترك علمًا وفهمًا في الأندية وعلى صفحات الصحف بأنهم مدركون حرج الموقف. وقد أعربوا عن رجائهم بأن تُجيب الحكومة العرب إلى مطالبهم، وقالوا إن تمزيق اتفاق باريس أو المطل بتنفيذه جناية لا تغتفر.

وأنشأ الكاتب التركي الشهير علي كمال بك مقالة شائقة في جريدة **بيام** ألح فيها على الحكومة بوجوب إرضاء العرب وإشراكهم في الحكم. وهذا بعض ما قاله في مقالته:

«اتفقت الحكومة مع العرب وأعلنت اتفاقها هذا على رؤوس الأشهاد. فإذا كانت قد غيرت خطتها التقليدية ونبذت سياسة التسويف والوعد، فالواجب عليها أن تنجز وعدها وتبدأ بالإصلاح فعلًا».

«ومن يرغب في شيء لا تقف العقبات في وجهه ولا تحول دونه. وأما إذا أُرغم المرء على شيء وعمله مكرهًا فلا تكون النتيجة إلا الخذلان».

«إبدأوا بالإصلاح في كل قطر وصقع، ولا تقولوا إننا لم نستعد بعد، ولا أعددنا ما يلزم لكل ولاية أو قضاء في البلاد. فقولكم هذا يؤخذ حجة على ضعفكم وعلى أنكم لا تستطيعون عملًا ولا ترومون إصلاحًا. لا يغرنكم من الصحف الأجنبية لين ملامسها. ألا ترون بين تضاعيف سطورها صريرًا مفزعًا. لم يبق لنا وقت للتردد والجمود. فطبيعة العمران لا تقف جامدة. إن كل توانٍ اليوم نُحاسب عليه غدًا فاسمعوا وعوا».

هذا نموذج مما كان يقوله بعض كتاب الترك وينصحون الحكومة به، ولكن الاتحاديين غلبت عليهم النعرة العنصرية والرغبة في الاستئثار بالسلطة، فصمموا على رفض مطالب العرب، وعملوا على التفريق بينهم بتحقيق آمال بعضهم، واتباع سياسة اللين والخداع والمكر والتسويف مع زعمائهم وقادة الرأي فيهم.

ففي أواخر شهر ديسمبر [كانون الأول] سنة 1913، صدرت الصحف الاتحادية وفي مقدمتها جريدتا **طنين** و**تصوير أفكار** مزينة برسم السيد الزهراوي وإلى يمينه رمز الجيش العثماني وإلى يساره رمز للأسطول وتحته رسوم صغيرة لأنور وطلعت وجمال مع العبارة التالية بحروف كبيرة: «بمثل هؤلاء الأبطال يعتز الملك، وعلى مثل هذا الاتحاد تبني الدولة العثمانية مستقبلها العظيم».

وفي صباح الأحد 4 يناير [كانون الثاني] سنة 1914، صدرت الإرادة السنية بتعيين السادة، عبد الحميد

الزهراوي وعبد الرحمن اليوسف[132] ومحمد بيهم[133] ويوسف سرسق[134] ومحيي الدين النقيب وأحمد الكخيا، أعضاء في مجلس الشيوخ العثماني. ووقع هذا الخبر وقع الصاعقة في البلاد العربية، ولا سيما في نفوس الشبيبة التي رأت في قبول السيد الزهراوي هذا المنصب أكبر ضربة على الإصلاح الذي لم يكن نفذ منه شيء على الاطلاق. فأظهرت عدم ارتياحها إلى عمله، وتبرأت منه وألقت عليه وحده تبعة الحوادث التي كانت تتوقعها.

وقد أدرك في الحال عظم الخطأ الذي ارتكبه، فأبلغ الشبيبة أنه مستعد لتقديم استعفائه إذا أصرت على ذلك. وأنه لم يقبل هذا المنصب إلا لمساعدة الحكومة على تنفيذ مطالب العرب بالسرعة اللازمة. فأجابته الشبيبة قائلة إنها قطعت كل صلاتها السياسية به، وإن حزب اللامركزية هو المسؤول عن أعماله. فإذا شاء أن يقرر الاستعفاء فعليه أن يستشير ذلك الحزب الذي عُيّن باسمه عضوًا في مجلس الشيوخ.

موقف الشبيبة

ورأت الشبيبة من جهة أخرى أن عبد الكريم الخليل لم ينهج نهجًا يُلائم خطتها في مفاوضته مع الحكومة، فاستدعته لاستيضاحه عما جرى في أمر الإصلاح إلى ذلك التاريخ، وعن موقفه بإزاء الحكومة وجمعية الاتحاد والترقي وعدم ممانعته في قبول الزهراوي عضوية مجلس الشيوخ، فوافاها إلى دار المنتدى الأدبي في الموعد الذي ضربته له. وكان بانتظاره هناك ما يزيد على خمسمائة رجل من أعيان العرب وأدبائهم وشبانهم. ولما بدأ الاجتماع أعلن أنه لا يستطيع أن يبوح بأسرار سياسية تتعلق بالمسألة العربية أمام مئات من الناس. فقر القرار حينئذ على انتخاب لجنة من نجيب شقير صاحب جريدة **بيام** وسيف الدين الخطيب وجلال البخاري وصبحي حيدر، وانتخبت أنا معهم لنجتمع به في جلسة سرية ونقف منه على مجرى الأحوال السياسية ثم نعلن رأينا في موقفه منها.

وقد اجتمعنا بعبد الكريم الخليل في 7 يناير [كانون الثاني] سنة 1914، في جلسة سرية دامت من الساعة الثالثة بعد الظهر إلى بعد منتصف الليل. ومما قاله لنا إن قبول الزهراوي عضوية مجلس الشيوخ خير من رفضها، لأنه يفعل في المجلس ما لا يقدر على فعله في خارجه (وعصفور في اليد ولا عشرة على الشجرة)، وإن الاتفاق السري بين العرب وجمعية الاتحاد والترقي يحتوي على فوائد عظيمة للعرب لا سبيل إلى الحصول عليها إلا بالتدريج ومع الزمن، خوفًا من هياج العنصر التركي وسائر العناصر العثمانية في الحكومة. فمثل هذه الفوائد تستحق أن نقابلها بالصبر، وخصوصًا أن الاتحاديين وضعوا أيديهم في أيدينا، وأقاموا الأدلة على إخلاصهم وحسن نيتهم في معاملتنا... إلى أن قال: «ولا أنكر عليكم أن أهم الأسباب التي اضطرت الأستاذ الزهراوي إلى قبول عضوية مجلس الشيوخ وإظهار الاتحاد العربي التركي بهذا المظهر العملي هي عظم أطماع الأجانب في بلادنا العربية، ورغبتهم في انتهاز فرصة اختلافنا مع الترك لتحقيق آمالهم فيها. وهذا السبب وحده يكفي لتبرير عمل السيد الزهراوي في نظركم فضلًا عن ثقتنا التامة بإخلاص الاتحاديين لنا، وارتباطهم معنا بعهود رسمية من مصلحة جمعية الاتحاد والترقي أن تبرّ بها، إذا شاءت أن تظل الحكومة في قبضة يدها».

ولم تكن تصريحات عبد الكريم مقنعة لنا بالإجمال، ولكن رغبة أعضاء اللجنة في اجتناب كل ما يؤدي إلى اشتداد الأزمة بين العرب والترك، جعلتهم يصدرون القرار التالي الذي نشر في صحف الآستانة ومصر وبيروت وهذا نصه:

«اجتمعنا نحن الموقعين أسماءنا أدناه بمعتمد الشبيبة العربية عبد الكريم أفندي الخليل اجتماعًا طويلًا في جلسة خاصة. وبعد المفاوضة معه وجدنا مبادئ الإصلاحات العمومية الأولى حسنة على ما يظهر، ولكن أمر التنفيذ لم يصل إلى الدرجة المطلوبة، وليس فيه ما يوجب السرور. على أننا نرى أن الوقت الحاضر لا يساعد على إظهار الاستياء من سير الأحوال لأن ذلك يضر بالمصلحة العامة، فلا يجوز الآن سحب الثقة من عبد الكريم أفندي بل يجب انتخاب لجنة استشارية من أربعة أشخاص تشد أزره ويرجع هو إليها ويستشيرها في مفاوضاته استشارة خاصة. ولا صلة لهذه اللجنة بالحكومة وإنما صلتها بعبد الكريم أفندي الذي يبقى الرسول الوحيد بين الشبيبة والوزارة وجمعية الاتحاد والترقي».

الإمضاءات

وجعلت الحكومة بعد ذلك تتزلف إلينا وتعمل على إرضائنا وتجعل بعض أركانها يكثرون من التردد على المنتدى الأدبي والخطابة فيه. وكان آخر ما سمعناه من طلعت بك في هذا الصدد في خطبة ألقاها يوم احتفال المنتدى الأدبي بذكرى المولد النبوي الشريف قوله: «وإذا فر العرب منا فإننا نتمسك بهم ونلتزمهم ونضمهم إلى صدورنا ونصافحهم مصافحة الأخ لأخيه».

كان العرب في الآستانة من ضباط وشيوخ ونواب وشبان على رأي واحد من حيث المطالبة بحقوق العرب وتقوية العنصر العربي وتعزيز قوى الدولة ودرء الأخطار التي تهددها.

ولكن أصحاب هذا الرأي كانوا متفاوتين في التحمس له وللوسائل التي تُقترح لتنفيذه. فبعض شبان المنتدى الأدبي كانوا يرون أن السلطنة العثمانية ضائعة لا محالة، وأنه ينبغي للعرب أن ينقذوا أنفسهم بمحاولة كسب استقلالهم وانفصالهم انفصالًا تامًا عن الترك. وكان فريق آخر يكتفي باللامركزية ويجد فيها الدواء الشافي لضعف الأمة ومشاكلها العنصرية. أما عزيز علي وجماعته من رجال حزب العهد فقد كانوا يريدون نظامًا كنظام النمسا والمجر قبل الحرب. كما أن غيرهم كان يرى أن تعود الخلافة إلى العرب وتظل السلطنة للترك ليعلو شأن العنصرين معًا وتزداد وسائل التقريب بينهما.

وكان هناك رأي آخر، رأي الأمير شكيب أرسلان[135] وهو قريب من رأي الشيخ عبد العزيز جاويش وغيره من الوطنيين المصريين. فالأمير شكيب كان يقاوم حركة المنتدى وشبانه بكل شدة مؤيدًا في ذلك سياسة الاتحاديين، ولم يكن ينكر الآراء التي قامت عليها المبادئ الإصلاحية التي يطالب بها العرب، بل كان يرى في إصرار العرب على المطالبة بها من جهة، وتعنت الأتراك وترددهم في إقرارها من جهة أخرى، سببًا لانقسام قد يقضي على الدولة. ولا بدع بأن أية حركة تؤدي إلى تمزيق الدولة كان يمكن أن يعقبها استيلاء الأجانب على سورية وفلسطين والعراق وبعض أنحاء الجزيرة، وقد حضرت اجتماعًا له قال فيه لمعارضيه:

«لا أعتقد أن بينكم من هو عربي أكثر مني. إفتحوا عيونكم إلى ما يهدد البلاد العربية من خطر. إقرأوا

الجرائد الأجنبية. أنظروا إلى المعاهدات التي أعلنت وإلى الاتفاقات التي أذيع خبر عقدها ولم تُنشر ترون أنها كلها ترمي إلى تقسيم الدولة وذهاب الأقطار العربية للإنجليز والفرنسيين».

على أن هذا الأنذار وأمثاله لم يكن يلقى أي اهتمام من الشبيبة العربية في اسطنبول لسببين: أولهما مبالغة الترك في الاستهانة بكرامة الأمة العربية في كل مناسبة، والثاني الضعف الخلقي الذي بدأ يظهر في بعض العرب نتيجة لذلك.

فقد كان الترك يطلقون على الكلب الأسود اسم «عرب» وينكرون على العرب كل فضل، ويتحدثون حديثًا غير كريم عن عظمائهم حتى عن الخلفاء الراشدين أنفسهم. ولا تزال الخطب التي كان يلقيها عبيدالله في المساجد والمجتمعات ويقارن فيها بين عظماء العرب وعظماء الترك تدوي في الآذان إلى الآن.

يُقابل ذلك ما كان يبدو من الوهن في بعض النفوس العربية. فإن كثيرين من العرب ولا سيما في اسطنبول كانوا ينكرون عروبتهم أو على الأقل يفاخرون بأن دمًا تركيًا يجري في عروقهم من ناحية الأم أو الجدة أو غيرهما تزلفًا للترك وتقربًا منهم.

وكانت بطاقات الزيارة التي يتبادلونها في مختلف المناسبات مكتوبة على الطريقة التركية، فيذكر اسم الأب أو العائلة أولًا ثم يكتب الاسم الصغير بعد كلمة «زاده» ومعناها بالتركية «ابن» فمن كان اسمه أكرم سعدي أو مصطفى عابد مثلًا تقرأ هذا الاسم على بطاقة الزيارة هكذا: سعدي زاده أكرم وعابد زاده مصطفى.

ثم إن كثيرين من الضباط والموظفين نهجوا نهج الترك في التخلي عن أسماء آبائهم أو عائلاتهم مكتفين بذكر وظائفهم أو أسماء المدن أو القرى التي ينتسبون إليها. فكنت تسمع مثلًا أسماء «طرابلس متصرفي سعيد، وطوبجي فائق، وبغدادلي أحمد، ومصرلي علي، وشاملي محمود ...إلخ».

ولم يكن بين المتخرجين في مدارس الدولة في جميع أنحاء البلاد العربية من يعرف شيئًا عن تاريخ العرب أو من يحسن كتابة بطاقة أو رسالة باللغة العربية. فلولا بعض المدارس الوطنية وبعض الأدباء والمثقفين من العرب لما بقي في العراق وسورية أثر للغة العربية.

وقد رأى المثقفون من أحرار العرب أن استمرار هذه الحالة ولو مدة قصيرة كفيل بقتل الروح العربية في النفوس، وإحلال الروح التركية محلها وطغيانها في البلاد العربية طغيانًا تتعذر مقاومته فيما بعد لاستناده إلى الفكرة الدينية التي لم يكن من الممكن مقاومتها في ذلك الحين.

من أجل ذلك لم ير أحرار العرب بدًا من معالجة هذه الحالة الخطرة بتعزيز الروح القومية وترسيخها في النفوس والإشادة بمجد العرب ومفاخر الأمة العربية وأثرها العظيم في التاريخ. فأنشأوا المنتدى الأدبي لهذا الغرض، وكان عدد الذين انضموا إليه قليلًا في أول الأمر، ولكنه تضاعف مرارًا في وقت قصير لأن كل من كان يعرف أنه عربي ويرى امتهان الترك للعرب ويشعر بالكرامة القومية أقبل عليه بكل حماسة. ثم أخذت هذه الحماسة تزداد كلما سُمع في هذا المنتدى محاضرة أو حديث عن حضارة العرب أو تاريخهم المجيد ومآثرهم الخالدة في التاريخ، والحالة المؤسفة التي بلغوا إليها الآن، وكيف أن بلادهم أصبحت هدفًا

للمطامع الأجنبية لضعفها وعجز الدولة العثمانية عن إصلاحها والدفاع عنها.

ونشأ عن ذلك اعتقاد ساد شبان المنتدى والمترددين عليه من ضباط ومدنيين وهو أن الأمة العربية إذا ظلت مهملة كما هي الآن فقدت كيانها قريبًا وأصبحت لقمة سائغة للطامعين فيها. ولذلك استقر الرأي على القيام بدعاية واسعة النطاق تُبث في جميع الأقطار العربية بأقصى ما يمكن من الهمّة والنشاط وتقوم على الأسس التالية:

1 – الأمة العربية أمة واحدة عظيمة فقدت مجدها واستقلالها لتسلّط الأجانب عليها.

2 – البلاد العربية بلاد غنية يطمع بها الأقوياء ويعملون على استعمارها.

3 – الحكومة العثمانية التي ظهر ضعفها وعجزها في حربي طرابلس والبلقان لا تستطيع في حال ما أن تدافع عن البلاد العربية إذا هاجمها عدو قوي.

4 – لا سبيل لتعديل هذه الحالة إلا بتقوية العنصر العربي في الدولة العثمانية وجعله قادرًا على الدفاع عن كيانه.

ولم يكن شبان المنتدى الأدبي في أول الأمر يفكرون في الانسلاخ عن السلطنة العثمانية، بل كان غرضهم تقويتها بتقوية العرب الذين يؤلفون أكثرية سكانها، والقيام بالإصلاحات اللازمة لرفع شأنها ودرء الأخطار المحدقة بها بالتعاون التام بين العنصر التركي الحاكم والعناصر العثمانية الأخرى ولاسيما العرب. وكان هذا الرأي رأي عزيز علي وحزب العهد وجمعية العربية الفتاة وسائر الأحزاب والجمعيات السرية. أما حزب اللامركزية والجمعيات الإصلاحية في بيروت والبصرة فكانت مطالبها تنحصر في توسيع اختصاص الولايات على قاعدة اللامركزية، والاستعانة بخبراء من الأجانب يؤخذون من البلاد الأوروبية الصغيرة التي لا مطامع استعمارية لها، ويعهد إليهم في أعمال التنظيم والاصلاح.

ولكن هذه الآراء كانت تتبدل على نسبة التبدل الذي رافق السياسة التركية في السنوات التي سبقت الحرب العالمية الأولى. وأستطيع أن أجزم الآن بأنه لم يكن بين العرب يوم إعلان تلك الحرب من فكر في الانتقاض على الترك أو الإساءة إليهم، بل كان تفكيرهم كله منصبًا على محاولة منعهم من الإشتراك فيها والتعاون معهم على اجتناب ويلاتها ودرء أخطارها. وأعظم دليل مادي على ذلك، الموقف الودي الذي وقفه أحرار سورية كعبد الكريم الخليل وأصدقائه من جمال السفاح بعد وصولهم إلى سورية عقب اشتراك تركيا في الحرب.

وكان العرب موقنين بانتصار الحلفاء. وقد ساءهم جدًا ما فعله أنور وجمال وأصدقاؤهما لزج الدولة العثمانية في الحرب خلافًا لرأي المفكرين من الترك، ولآراء جميع العناصر العثمانية وخصوصًا العرب. ولكنهم صبروا على ذلك إلى أن نصب جمال باشا المشانق وملأ السجون والمعتقلات وبدأ بتهجير العرب إلى الأناضول، ومنع عنهم الغذاء حتى أمات مئات الألوف جوعًا وخصوصًا في لبنان، فكان ذلك إيذانًا بنشوب الثورة العربية الكبرى.

وكان كثيرون من أحرار العرب يتوقعون غدر جمال باشا بإخوانهم في سورية، ففي الوقت الذي كان هذا السفاح يُعد فيه عدته لنصب المشانق في دمشق وبيروت، كان فريق من هؤلاء الأحرار يتنقل من مدينة إلى أخرى في البلاد العربية أو يفر منها إلى مصر لتبادل الآراء استعدادًا للطوارئ.

---

(118) عبد الغني العريسي (1891-1916): كاتب وصحافي وسياسي، درس في بيروت ثم في باريس. أصدر في عام 1909 جريدة المفيد، عضو جمعية «العربية الفتاة». ساهم في انعقاد المؤتمر الأول في باريس. أعدم في ساحة البرج.

(119) محمد المحمصاني (1888-1915): درس في الكلية العثمانية في بيروت، ثم نال شهادة الحقوق من باريس. من مؤسسي جمعية «العربية الفتاة»، وعضو في المؤتمر العربي الأول في باريس. نبّه في كتاباته إلى الخطر الصهيوني. أعدم مع قافلة الشهداء في بيروت.

(120) جميل مردم (1894-1960): من مؤسسي جمعية «العربية الفتاة». شارك في الثورة السورية، وكان عضوًا في حزب الشعب. انتخب نائبًا عن دمشق في عام 1928، وتسلّم عدّة وزارات، كما أصبح رئيسًا للوزراء مرتين. توفي في القاهرة.

(121) عوني عبد الهادي (1882-1970): ولد في نابلس ودرس في اسطنبول ثم في باريس، وأصبح مرافقًا للأمير فيصل، ثم رئيسًا لديوان الأمير عبدالله في الأردن. شارك في تأسيس حزب الاستقلال العربي في فلسطين، وكان موفد اللجنة العربية إلى جنيف لشرح وجهة النظر الفلسطينية من التقسيم. مُنع من العودة إلى فلسطين لمشاركته في الثورة. عمل رئيسًا للإدارة القانونية في جامعة الدول العربية. توفي في القاهرة.

(122) شكري غانم: شقيق خليل غانم، نائب بيروت في مجلس المبعوثان. كاتب وصحافي عاش في باريس، له مسرحية بعنوان عنتر مُثلت على مسرح الأوديون في باريس. عضو لجنة المؤتمر العربي في عام 1913.

(123) ندرة مطران: سياسي لبناني، ولد في بعلبك سنة 1860، عضو المؤتمر العربي الأول في باريس.

(124) شارل دباس (1885-1835): درس في الجامعة اليسوعية ثم في باريس حيث أمضى سنوات الحرب الأولى. انتخب أول رئيس للجمهورية البنانية في عام 1926، وبقي في منصبه هذا حتى عام 1932.

(125) جميل معلوف: ولد في زحلة في سنة 1879، هاجر إلى نيويورك وأسس مع عمه يوسف نعمان المعلوف جريدة «الأيام» (1899). عاد إلى لبنان في سنة 1914، ثم غادر إلى باريس. انضم إلى جزب اللامركزية العثماني. سجنه جمال باشا، وتعرض للتعذيب الشديد الأمر الذي أدى به إلى نوع من الاضطراب العقلي. أطلق في عام 1917، واعتزل في منزله.

(126) رأيت أن أشير إلى مؤتمر باريس بشيء من التفصيل لأنه أول مؤتمر عقده العرب وأول مظهر لنهضتهم الحديثة. (المؤلف)

(127) الشريف علي حيدر الهاشمي: من سلالة الهاشميين أمراء مكة، وكان من عادة الدولة تقريب بعض الشرفاء للضغط على أمير مكة آنذاك حسين بن علي.

(128) محيي الدين باشا الجزائري: ابن عبد القادر الجزائري، ولد في الجزائر وتوفي في دمشق. كان مقربًا من السلاطين، منحه السلطان عبد الحميد الثاني لقب «ميرميران» أي «أمير الأمراء».

(129) شكري الأيوبي (1851-1922): ضابط سوري خدم في الجيش العثماني، كان معتقلًا عند خروج الجيش العثماني من دمشق، فأطلق من السجن والتحق بالحكومة العربية، وعيّن حاكمًا على بيروت، ونقل بعدها إلى حلب، واعتزل بعد معركة ميسلون. توفي في دمشق.

(130) شكري الحسيني: فلسطيني من مؤسسي جمعية «الاخاء العربي» في اسطنبول في عام 1908. تأثر بفكر الإصلاح الإسلامي.

(131) بديع مؤيد العظم (1870-1965): ولد في دمشق ودرس الحقوق في اسطنبول، وانتخب نائبًا عن دمشق في مجلس المبعوثان. تسلّم مناصب عدّة في الحكومة العربية، منها رئيس مجلس الشورى في عام 1919. كما تسلّم مناصب عدّة في فترة الانتداب.

(132) عبد الرحمن اليوسف: ولد في دمشق، انتسب إلى جمعية «الاتحاد والترقي»، ثم انتخب نائبًا عن دمشق في المؤتمر السوري زمن الحكومة العربية. كان عضوًا في الحكومة التي شكلها غورو بعد خروج الملك فيصل. قُتل في عام 1920 مع علاء الدين الدروبي في حوران حين ذهبا لتهدئة أهلها.

(133) محمد بيهم: من وجهاء مدينة بيروت. عضو مجلس المبعوثان.

(134) يوسف سرسق: من وجهاء الطائفة الأرثوذكسية في بيروت، مترجم في القنصلية الروسية في بيروت.

(135) شكيب أرسلان (1869-1946): كاتب وسياسي. كان على صلة بالمفكرين الإصلاحيين في زمنه، أمثال محمد عبده ورشيد رضا. وقف موقفًا حذرًا من الثورة العربية لعدم ثقته بوعود الحلفاء الذين يريدون تقويض الدولة العثمانية. مع ذلك، كان من دعاة الوحدة العربية. له العديد من المؤلفات أبرزها: **الحلل السندسية في الأخبار والآثار الأندلسية** و**السيد رشيد رضا أو إخاء أربعين سنة** و**لماذا تأخر المسلمون وتقدّم غيرهم**، وتعليقات على كتاب **حاضر العالم الاسلامي**.

الفصل الخامس
في مصر من سنة 1914 إلى سنة 1919

في مصر من سنة 1914 إلى سنة 1919

أُعلنت الحرب العظمى وأنا في اسطنبول كما تقدم. وكان شعوري منذ ساعة إعلانها أن تركيا ستخوض حتمًا غمارها، مع أن كل شيء كان يدل على عكس ذلك حتى تقارير سفارات الحلفاء نفسها التي كانت تؤكد أن تركيا ستبقى على الحياد طول مدة الحرب.

وقد عملت بوحي هذا الشعور فجعلت أفكر في الفرار من إسطنبول، وأتحيّن الفرص المناسبة لذلك، إلى أن أتيحت لي فرصة لا أدري ماذا كان مصيري لو لم أنتهزها.

وأبصرت ذات يوم باخرة رومانية راسية في ميناء اسطنبول فلجأت خلسة إليها قبل موعد سفرها بوقت قصير، ولم أخبر بذلك غير اثنين هما الأستاذان الزهراوي والزهاوي[136] شاعر العراق. فقد جاءا إلى الباخرة للاطمئنان عليّ. وقد قلت للزهراوي وأنا أودعه: «هلم بنا يا أستاذ إلى مصر. فقد أصبح بقاؤك هنا محفوفًا بالأخطار. وأصدقاؤك هناك ينتظرون قدومك بفارغ الصبر». فقال: «لا أرى ما يدعو إلى ذلك. فهذه الحرب لن تدوم أكثر من أسبوعين، ثم تعود الحالة إلى أحسن مما كانت من قبل». فقلت:

– وما هو السبب الذي يدفعك إلى هذا القول؟. فأجاب قائلًا:

– هو شعوري الذي قلما يخطئ.

هذه آخر كلمة سمعتها منه قبل عبارات الوداع المألوفة. ولما علمت في مصر بنبأ اعتقاله وإعدامه بكيت وندمت لأني لم أبذل كل جهدي لحمله على السفر معي. وقد كانت الباخرة التي أبحرت فيها من اسطنبول إحدى البواخر الرومانية الأخيرة التي اجتازت الدردنيل قبل اشتراك تركيا في الحرب.

وكان عزيز علي أول من سعيت إليه بعد وصولي إلى القاهرة. وقد قابلني بكل رعاية وعطف وقال لي كلمته الشهيرة: «إذا متنا من الجوع فسنموت معًا». ثم تعرفت برفيق العظم والسيد رشيد رضا[137] وسائر الإخوان الذين كانوا يعملون في حقل القضية العربية كالدكتور أمين المعلوف ومحب الدين الخطيب[138] وفؤاد الخطيب[139] وجميل الرافعي وغيرهم.

واهتم الإنجليز بي اهتمامًا عظيمًا لاعتقادهم بأني ملم بأحوال تركيا وعلى اتصال وثيق برجالات العرب في اسطنبول، فكان يأتيني نعوم شقير[140] بعربته في صباح كل يوم ويذهب بي للاجتماع بالجنرال كليتون[141] (الكبير) وغيره من الضباط الذين كانوا يعملون معه. وكنت أطلع عزيزًا على كل شيء، وكان حديثي مع الجنرال كليتون وأصحابه ينحصر فيما يأتي:

إن الاتحاديين عازمون على جر تركيا إلى الحرب في جانب الألمان، وأنه ليس أمام الإنجليز وحلفائهم في نظري سوى إحدى خطتين: الأولى تأييد الأحزاب العربية والتوسل بها إلى منع تركيا من دخول هذه

الحرب. وفي هذه الحالة يمكن إيجاد أكثرية في مجلس النواب تلتف حول النواب العرب وتُسقط وزارة الاتحاديين. والثانية اتفاقهم مع زعماء العرب على إعلان استقلال البلاد العربية والتصريح بأن لا غرض لهم ولا مطمع في أي قطر من أقطارها. وبذلك تكون البلاد العربية إلى جانبهم إذا خاضت تركيا غمار الحرب.

غير أن الإنجليز أبوا إلا أن يظلوا معتقدين بأن تركيا ستلزم الحياد إلى النهاية، وكان سفيرهم في اسطنبول على هذا الرأي، وكان يواصل تقاريره إلى وزارة الخارجية الإنجليزية مؤكدًا لها هذا الحياد. ولم يؤثر دخول البارجتين الألمانيتين مياه الدردنيل في تعديل رأي الإنجليز، بل ظلوا متمسكين به إلى أن وقعت حادثة البحر الأسود، وحينئذ أيقنوا أنهم كانوا مخطئين، فاستأنفوا المباحثات مع عزيز علي باهتمام ونشاط، كما استأنفوها مع غيره. وقد طلب منهم أن يعلنوا هم وحلفاؤهم رسميًا أن لا مطمع لهم في أي بلد من البلاد العربية، وأن يعترفوا لها بالوحدة والاستقلال التامين، ويتعهدوا بألا يُنزلوا جيوشًا إنجليزية في العراق ولا جيوشًا فرنسية في سورية. ولما سأله الجنرال كليتون عن الخطة التي ينوي انتهاجها لتحقيق هذا الاستقلال على أيدي العرب أنفسهم قال:

– لدي أملاك بمصر أرهنها على مبلغ استأجر به باخرة تقلني وبعض أصحابي إلى البصرة، وبعد شهر من وصولنا إليها نكون قد ألّفنا قوة نزحف بها إلى الشمال والغرب. فإذا وفقنا إلى ذلك وجب على الحلفاء أن يمدونا بالسلاح والذخيرة اللازمين، وإذا احتجنا إلى نجدات عسكرية وجب عليهم أن يمدونا بها على أن تكون فرنسية في العراق وإنجليزية في سورية.

في إدارة المطبوعات

وجاءني المرحوم الدكتور [يعقوب] صروف يومًا وقال لي: «لقد وجدنا لك وظيفة مهمة في إدارة المطبوعات سيكون لك من ورائها مستقبل عظيم».

فسرّني أن أحصل على هذه الوظيفة، بل كان من أعظم أماني أن أعمل في إدارة المطبوعات لاعتقادي بأن هذه الإدارة في مصر كأمثالها في سائر بلاد الله.

وذهبت فقابلت المدير يوسف خلاط وهذا قدمني لعبد الله صفير وبالغ في الحفاوة بي. والحق إني كنت موضع العناية والإكرام مدة إقامتي في هذه الإدارة، وهي لم تزد على ستة أيام. ذلك لأني في نهاية الأسبوع مررت صدفة بإدارة **المقطم** فرأيت المحررين مجتمعين حول مكتب كان يكتب عليه الأستاذ رشيد ثابت[142] ما يمليه الدكتور صروف. وحاولت الخروج ظنًا مني بأن في الأمر سرًا، ولكن الأستاذ خليل ثابت التفت إليّ وقال: «هذا تقرير من السفارة البريطانية في اسطنبول وردت منه نسخة على دار المندوب السامي، هي التي نحن نترجمها الآن للنشر». وحينئذ دنوت من المكتب بدافع من اهتمامي بالموضوع وأصغيت إلى ما كان يمليه الدكتور صروف من ترجمة التقرير على الأستاذ خليل ثابت. وما كان أشد دهشتي وسروري لما سمعت أسماء جميع أصحابي تتردد في هذا التقرير بشكل يبعث على الاعتقاد بأنه لم يبق رجال سواهم في تركيا، فأثلج ذلك صدري واغتبطت في سري لأنهم بلغوا من علو المكانة ما لفت إليهم نظر الإنجليز. وفي

اليوم التالي، ذهبت إلى إدارة المطبوعات كعادتي ومعي جريدة **المقطم** أقرأ فيها التقرير وأعيد قراءته مغتبطًا مسرورًا، فألفيت على مكتبي رسالة مقفلة عليها طابع بريد اسطنبول، ففضضتها وإذا فيها البيانات عينها التي نشرتها **المقطم**. وقد أدركت حينئذ أنهم فتحوا رسالتي ونقلوا عنها تلك البيانات، وأشاروا على **المقطم** بنشرها كأنها واردة عليهم. ولما لم يكن ثمة مراقبة تجيز فتح الرسائل في ذلك الحين، وكانت تركيا لم تدخل الحرب بعد، فقد ثارت ثائرة الغضب في نفسي ودخلت في الحال على خلاط بك وأنا في أشد حالات الاضطراب وقلت له بحدة:

– إذا كنتم غير مطمئنين إلي فلماذا اخترتموني لهذه الوظيفة؟ وإذا كنتم على اطمئنان مني فلماذا تفتحون كتبي بلا مسوغ؟.

فحاول أن يدفع قولي بالإنكار في بادئ الأمر، ولكني لما أظهرت له الكتاب الذي وصل إليّ وقابلته بالمنشور في جريدة **المقطم** ابتسم وقال: «إن صفير باشا يريد مقابلتك»، فقلت له: «وأنا أريد ذلك أيضًا».

ولما دخلت على صفير باشا استقبلني بحفاوة وأجلسني إلى جانبه وصرف إنجليزيًا من حضرته معتذرًا إليه. ثم أخذ يسألني عن صحتي وأحوالي وعن معلوماتي عن أهلي مبديًا لي عطف الوالد على ولده، ولكني قاطعته قائلًا:

– أشكر لسعادتك يا باشا هذا العطف، ولكني جئت لأسألك هل أنا موضع ريبة أم لا. فإذا كنت كذلك فهذه استقالتي، وإلا فلماذا تعاملونني معاملة غير قانونية وتفتحون رسائلي في حين أنه لا توجد مراقبة؟.

فقال: «إن لدي حديثًا خطيرًا أريد أن أسرّه إليك. فإن ما سمعه الإنجليز منك ومن أصحابك جدير بأن يقلب سياستهم رأسًا على عقب. ولذلك هم يريدون أن يتثبتوا مما يسمعونه».

فقلت: «وهل هذا التثبت يقوم على فتح رسائلي؟»

قال: «ألا تعلم أنت أن فوز الإنجليز في الحرب هو في مصلحتنا؟».

– وماذا يهم علمي بذلك؟

– إذا لم يفز الإنجليز قضي على المسيحية في الشرق. ولذلك يجب علينا أن نبذل جهدنا في سبيل فوزهم.

– وماذا يمكنني أن أعمل لهم غير الدعاء؟.

– يمكنك أنت أن تعمل كثيرًا.

– استغفر الله يا باشا، فأنا لا أستطيع إلا الدعاء.

– أعطنا الشيفرة، أي الرموز الاصطلاحية المتفق عليها بينك وبين اسطنبول، فهي كفيلة بإقناع الإنجليز بصحة أقوالك ووجوب تعديل خطتهم السياسية في الشرق.

– ومن قال لك إن لدي الشيفرة. وهذا كتابي أمامكم صريح وقد ترجمتموه.

– لا...لا... أنا أكلمك كصديق وأنصح لك بأن تطاوعني فيما أطلبه منك فيكون لك مستقبل عظيم.

– لا يوجد عندي شيفرة يا باشا، ولو وجدت لما سلمتك إياها لسببين: أولهما خوفي على كثيرين من أصحابي أن يتعرضوا لحبال المشانق في البلاد العثمانية. وثانيهما علمي بأني سأفقد احترامك وثقتك إذا فعلت ما تطلبه مني.

– تروَّ في الموضوع فربما غيرت فكرك. ثم إنك تعرف اللغة التركية طبعًا. فحبذا لو أكثرت من الاختلاط ببعض الأتراك هنا كالأميرالاي صادق وغيره، فربما تستطيع بذلك أن تعرف أفكارهم وتطلع على أعمالهم.

وكان قد طفح بي الكيل وما عدت أحتمل المزيد، فنهضت وعيناي مغرورقتان بدموع الغيظ وقلت:

– شكرًا لك يا باشا. ما كنت أعتقد أنك تحتقرني إلى هذا الحد. ولم أستطع أن أضيف شيئًا إلى هذه العبارة لأن صوتي كان قد اختنق في صدري. وقد خرجت رأسًا إلى حيث اجتمعت بعزيز علي ولم أعُد بعد ذلك إلى عملي.

ذلك كان آخر عهدي بوظيفة إدارة المطبوعات المصرية بعد أسبوع واحد من تعييني فيها.

وكان الإنجليز يتحدثون مع كل من كانوا يظنون أن له شأنًا في القضية العربية، ويعللونه بالآمال حتى إن أحد رجالات العرب خُدع مرة بوعودهم، فكلفني أن أطلب إلى أصدقائي في اسطنبول أن يمهدوا السبيل لمجيء الضباط العرب إلى مصر بأقصى سرعة، اعتقادًا منه بأنهم سيكونون نواة للجيش العربي الذي يُناط به أمر تحرير العرب واستقلالهم. فلم أفعل ذلك طبعًا لأني كنت قد بدأت أفهم مناورات الإنجليز، ولأني رأيت من جهة أخرى عزيز علي غير مطمئن إلى نتيجة مباحثاته معهم. وأخيرًا، دخلت تركيا الحرب فكان أول عمل قام به الجنرال كليتون أنه زار عزيزًا، وكنت حينئذ في منزله، وبادره بالكلام قائلًا:

- قد تبدل برنامجنا كله يا عزيز بك لأننا احتللنا الفاو.

وكان الإنجليز قد بدأوا حركاتهم العدائية ضد تركيا باحتلال الفاو على مقربة من البصرة خلافًا لما كان يدور عليه البحث مع عزيز علي.

فلما سمع عزيز هذا الكلام نهض عن كرسيه وأنهى حديثه معه بقوله:

- حسنًا تفعلون يا مستر كليتون. ولم يبق بيننا ما نتحدث به. فإلى الملتقى.

الحماية على مصر

وكانت أول صدمة قوية اهتزت لها أعصابي بعد دخول تركيا الحرب، إقدام الإنجليز على بسط حمايتهم على مصر، فقد كان بعضهم يحاول أن يوهمنا بأن إنجلترا لم تخض غمار الحرب إلا دفاعًا عن حرية الشعوب المظلومة، وأن انتصارها على أعدائها سيكون انتصارًا للحرية والاستقلال. ولا أزال أذكر تلك الساعة التي قرأت فيها إعلان الحماية، فقد شعرت بألم وخيبة أمل لم أشعر بمثلهما في حياتي. واشتدّ حقدي على الإنجليز،

وما يستعملونه من أساليب التمويه والخداع مع الشعوب الضعيفة. وخطر لي حينئذ أن أعود إلى تركيا فأكتب في صحفها ما كشفته من حقيقة نيات الإنجليز وما تأكدته من وجوب عدم الاعتماد عليهم في تحقيق الآمال التي كنا وما زلنا نسعى إليها، لأني توهمت أن إخواننا في اسطنبول وسورية والعراق قد يُخدعون برسل الحلفاء ووعودهم، فيقدمون على أعمال لا تقتصر نتيجتها على إضاعة البلاد بل يسجلها التاريخ جناية عليهم وعلينا جميعًا.

وأطلعت عزيزًا على رغبتي هذه فقال: سيشنقونك حين وصولك. قلت: إذا سمحوا لي بأن أقابل بعض أصدقائي وأكتب بعض مقالات عما رأيته هنا فليشنقوني بعد ذلك إذا شاءوا. ومع ذلك فلا بد من التمهيد لسفري بواسطة السفارات التركية في الخارج. وأرى في هذه الحال بأن تزودني بكتب إلى صديقك فتحي بك سفير تركيا في صوفيا.

فأجابني: أجل إن فتحي رجل شريف وهو صديق حميم لي فلن يدعك تدخل تركيا إذا وصلت إليه إلا بعد أن يكفل سلامتك بتعهدات رسمية قاطعة. قلت: إذن فلنبدأ هذه الخطة.

وفي اليوم التالي اجتمع بي عزيز بك وقال:

– يمكنك أن تعتمد علي في كل شي، وإذا كانت حالتك المالية سيئة فإن حالتي حسنة، وقد سبق أن قلت لك ذلك فكن مطمئنًا من هذا القبيل.

قلت:

– إذا كنت تعتقد أن مفاتحتي إياك باقتراحي أمس نشأت عن حاجة إلى المال فأنت مخطئ، وأنا أعرف كيف أجد لي عملًا هنا، وعلى كل حال فما دمت أنت بخير فأصدقاؤك جميعًا بخير. ولكنني أرى في عودتي إلى تركيا شيئًا من الفائدة قد تعادل الأخطار التي استهدف لها.

قال: ربما كان ذلك. ولكني أعتقد أن من الممكن أن يفتح أمامنا باب للعمل الوطني قد تفيد به، وأنت هنا، أكثر من الفائدة التي ترجوها من سفرك، خصوصًا أن هذه الحكومة الاتحادية الجاهلة قد لا تفهم قصدك وربما تعذّرعلى فتحي بك الحصول على ضمان كاف لسلامتك.

وحاولت السفر بعد ذلك فوجدت صعوبات كثيرة لم أكن أتوقعها اضطرتني إلى البقاء في مصر مدة الحرب بطولها.

وقد وقعت لي حوادث كثيرة في مصر أذكر ما يمكن ذكره منها الآن لما فيه من العبر والعظات.

وصل إلى القاهرة ذات يوم الدكتور رضا نور[143] بك أحد زعماء المعارضة في مجلس المبعوثان العثماني قادمًا من سويسرا مع زوجته، واستأجر عيادة في شارع عبد العزيز كان يكسب منها قوته بجهد كبير. وتوثقت بيننا عرى الصداقة. وكان هو قليل الاختلاط بالناس لا يجتمع إلا بي وببعض أصدقائه القليلين. وقد أخبرني مرة أن بعض الترك المقيمين في مصر يسعون به للإنجليز ويشوهون سمعته، وينصحون الناس بالابتعاد عنه بحجة أنه موضع شبهة وأنه تحت المراقبة.

والحقيقة أنه كان تحت مراقبة شديدة نشأت عن تقارير كثيرة كان يقدمها مواطنوه الترك، وظلت هذه المراقبة تقوى وتشتد إلى أن وقعت الحادثة الآتية:

دعاني الدكتور رضا نور تليفونيًا ذات يوم إلى مقابلته على عجل في عيادته، فأسرعت إليه ووجدته في انتظاري وهو ممتقع اللون شديد الاضطراب، ووجدت في الباب عددًا من رجال البوليس السري وقد قال لي:

– أنا ذاهب الآن إلى مركز القيادة بدعوة مستعجلة، وأعتقد بأني لن أعود. فأرجو منك أن تخبر بذلك رفيق العظم وبعض الأصدقاء وأن تقول لهم إني أضع زوجتي أمانة بين أيديهم. فطمأنته على قدر الإمكان وقلت له: إني أنتظر منه «تليفونًا» حتى الساعة الثالثة مساءً فإذا لم تعد عرفت أنك اعتقلت، وافترقنا على هذا الاتفاق.

ومضى ذلك النهار وأنا على أحرّ من الجمر. فدقت الساعة الثانية والثالثة دون أن أتلقى خبرًا منه. وهممت حينئذٍ بالخروج لأنفّذ ما أوصاني به، ولكني رأيته يدخل الباب بسرعة، وقد قال لي إنه عائد توًا من مركز القيادة ليطمئنني، وإنه كان مرتاحًا إلى تلك المقابلة وقد قص عليّ ما حدث فيها:

أُدخل رضا بك إلى قاعة كان فيها عدد من الضباط الإنجليز، وظل مدة دون أن يتظاهر أحد منهم بأنه رآه، وأخيرًا فاجأه كبيرهم بقوله:

– أنت الدكتور رضا نور؟

- نعم، أنا هو.

- كيف تستطيع أن تقابل ما تلقاه منا من العطف والرعاية بما تبثه من الدسائس ضدنا؟ فقد أبحنا لك الإقامة والعمل هنا مع أنك من رعايا أعدائنا. وكنا نظنك من خصوم الاتحاديين فإذا بك من عمالهم ودعاتهم.

- أما أني من عمال الاتحاديين فلا، وأنتم تعرفون حقيقة علاقتي بهم، وأنا لم أنكر مجاملتكم لي بل قابلتها دائمًا بالشكر.

- ولماذا إذن لا تكون معنا، وأنت تعلم أننا نحارب الاتحاديين، ولا نضمر شرًا للترك ولا غرض لنا سوى إنقاذ تركيا؟

- إن الغرض الذي تحاربون من أجله أنتم أدرى به، وأما أنكم تحاربون الاتحاديين وحدهم فلا، فإن الحرب بينكم وبين تركيا، وأنا وطني، وأنتم تقدرون الوطنية حق قدرها.

- إذن، صحيح أنك تعمل لإحداث فتنة ضدنا؟

- لو كنت أستطيع أن أفعل ذلك ولم أفعله لكنت خائنًا. ولكني غريب هنا لا أعرف لغة البلاد وليس لي فيها أصدقاء ولا علاقات. فلا يمكنني أن أفعل فيها شيئًا يضركم أو ينفعكم، ولذلك عاهدتكم على أن أنصرف للطب وما زلت عند عهدي. وإذا كانت الوشايات التي بلغت إليكم تدعو إلى الشك في صدق قولي فكل ما أرجوه ألا تعتقلوني وحدي فإن لي زوجة غريبة هنا لا تستطيع أن تعيش وحدها.

- إذا لم تكن من الاتحاديين وكنت وطنيًا حقيقيًا فيمكنك أن تخدم وطنك خدمة عظيمة، فإن جيوشنا نزلت في الدردنيل وهي تعد بمئات الألوف زاحفة إلى اسطنبول لقلب الاتحاديين وتوطيد دعائم السلطنة العثمانية. فإذا ذهبت أنت

والأميرالاي صادق بك من هنا إلى الدردنيل حيث يوافيكما البرنس صباح الدين، استطعتم بسهولة أن تشقوا الطريق أمام جيوشنا لإنقاذ بلادكم من طغمة الاتحاديين.

فوقف الدكتور لدى سماعه هذا الكلام وقال:

– كنت أظن أنكم أكثر احترامًا لي فما هذا الذي تكلفونني به؟ هل يمكن أن يقبله رجل وطني يحترم نفسه أرسلوني إلى مالطة فأكون شاكرًا.

– لم نقصد بذلك مسّ عواطفك، ولكننا اعتقدنا أنك تعرف غرضنا وحسن نيتنا وصداقتنا للترك. فتنضم إلى البرنس صباح الدين وصادق بك في مهمة الغرض منها إنقاذ تركيا من أيدي الاتحاديين وحقن دماء أبنائها.

– لديكم ثلاثمائة ألف جندي في الدردنيل. ومع ذلك لم تستطيعوا التقدم. فما الذي يستطيعه إذن البرنس صباح الدين وصادق بك؟ والآن أرجو منكم إما أن تثقوا بالعهد الذي قطعته لكم على نفسي فلا تعيروا ما تسمعونه من الوشايات ضدي أقل اهتمام، وإما أن تبعثوا بي إلى أحد المعتقلات أسوة برعايا الأعداء.

وقد تبدل موقف الضباط الإنجليز حينئذٍ تجاه الدكتور، فزاد احترامهم له وتغيرت لهجتهم معه. وختم كبيرهم الكلام بقوله:

– يمكنك أن تذهب مطمئنًا يا دكتور. فنحن نعتمد على شرفك ونثق بكلامك.

ذكرت هذه القصة للتدليل على ما يعرفه جميع الذين سبق لهم الاشتغال بالسياسة، وهو أن الوطني يحترم الوطني ولو كان خصمه. فهو قد يُسيء إليه ويكرهه ويتمنى له الموت ولكنه لا يستطيع أن يحتقره. أما الذين يعملون ضد وطنهم مع الأجنبي فيتمتعون بماله ويستغلون نفوذه وسلطانه فإنهم يكونون دائمًا موضع احتقاره. وقد رأيت في حياتي أدلة كثيرة على ذلك اكتفى منها بما يأتي:

جلست مرة مع موظف عربي كبير في حكومة السودان كان يتناول العشاء في «الباريزيانا» مع بعض أصدقائه، فدار الحديث حول الحرب ونتائجها، وقد رأيت منه حقدًا على الألمان تجاوز كل حد. فقلت له: إن حقدك على الترك وتمني اندحارهم أمر مفهوم لأنك تعرفهم وتعتقد أنهم أساؤوا إليك، فأنت تكرههم على حق أو على غير حق. وأما الألمان فلا علاقة لهم بذلك ولا مبرر لكرهك إياهم كل هذا الكره وأنت لا تعرفهم ولا تعرف شيئًا عنهم.

فانتفض وقال بحدة: ولكني أتقاضى في السودان راتبًا قدره 97 جنيهًا، فإذا أُخرج الإنجليز من مصر فماذا يحل بي؟

فقلت بلهجة احتقار تمازجها السخرية: وما أدراك أن الألمان لا يجعلون راتبك مائة جنيه بدلًا من 97 جنيهًا؟

وراقته هذه الحجة فخفف من حدته وهز كتفيه قائلًا: الحق معك.

ولا أدري كيف وصل هذا الحديث إلى الجنرال كليتون، فدعاني إليه في اليوم التالي، ولكنه لم يستقبلني الاستقبال الودي الذي تعودته منه. وقد تركني دون أن يوجه إلي الكلام ثم فاجأني بالسؤال التالي:

- أصحيح يا أستاذ أن الألمان يزيدون معاشات الموظفين إذا احتلوا هذه البلاد؟

- فأجبته قائلًا: «يسرني أن يكون بلغ إليك هذا الحديث لتعلم أن الذين يشتغلون معكم لا يعملون لغرض سام ولا لمبدأ وطني، وإنما يسعون وراء المال. فلو زاد عدوكم جنيهًا واحدًا على مرتب أحدهم لتحول معه ضدكم. وأمثال هؤلاء يكون شرهم أكثر من خيرهم. خصوصًا إذا أرادوا المبالغة في إظهار حبهم لكم كما يفعل كثيرون منهم الآن، فيسيئون إلى الأهالي ويضاعفون نقمتهم عليكم، وفي اعتقادي أن مصادقة أصحاب المبادئ والمثل العليا خير لكم وأبقى».

- قال: «وهل تعتقد أن انتصار الألمان خير لكم؟» فأجبته:

- كنا نعلق آمالًا كبيرة على صداقة إنجلترا وحلفائها للعرب، وعلى عظم المصالح التي تضطرهم للاتفاق معنا، فما دامت هذه الآمال قد ضاعت فسيان لدينا انتصار الألمان أو الإنجليز أو الفرنسيين أو غيرهم. فنحن أعداء لمن يعادينا وأصدقاء لمن يصادقنا.

– قال: «أنا أؤكد لك أن آمالكم لم تخب في إنجلترا وحلفائها فلا تكن متشائمًا. وأذكر أنه بعد هذا الحديث شيعني إلى الباب وقد شعرت بأن احترامه لي زاد وثقته بي تضاعفت. أما الموظف الذي وردت الإشاره إليه فقد أهمله الإنجليز وتخلوا عنه».

كانت علاقاتي بالدكتور رضا نور تزداد متانة من يوم إلى يوم، فبدأنا نتبادل الأفكار بصراحة وكان يشاركني في انتقاد الاتحاديين لسوء معاملتهم العرب ودخولهم الحرب، ويؤكد لي أن السلطنة العثمانية إذا خرجت من الحرب سليمة فلا بد لها من أن تتخذ النظام الفيدرالي أساسًا للعلاقات بين العرب والترك كما هي الحالة بين النمسا والمجر.

فقلت له: «إن الاتحاديين قد لا يخرجون من هذه الحرب إلا بعد قطع كل علاقة لهم بالعرب والقضاء على حياة كل عربي مفكر».

فقال: «أنا لا أصدق كل ما تنشره الصحف عن فظائعهم في سوريا، فإن الحمق مهما يبلغ بالمرء فلا يبلغ به حد الانتحار».

وبينما نحن في هذا الحديث مرّ بنا بائع صحف فاشترينا جريدة **المقطم**، وقرأنا فيها برقية من سويسرا تنبئ بصدور حكم الإعدام على عزيز علي وعليّ أنا وعلى كثيرين ممن لا يشك رضا نور بصدق وطنيتهم. فناولته الجريدة وقلت مبتسمًا: «وما رأيك في هذا؟»

فاغرورقت عيناه بالدموع غيظًا وقال: «هذه أغلاط فظيعة قد يعجز الزمن نفسه عن إصلاحها».

ثم انتقلنا إلى الحديث عن خيرِ أساسٍ يمكن أن تقوم عليه العلاقات المقبلة بين العرب والترك إذا خرجت السلطنة العثمانية سالمة من الحرب.

فقلت: «إن خيرَ أساسٍ أراه لهذه العلاقات هو أن يكون لنا نظام كنظام النمسا والمجر، وأن تظل السلطنة مع الترك وتنتقل الخلافة إلى العرب». فما سمع الدكتور رضا نور مني هذا الكلام حتى صاح قائلًا بحدة:

– هذا غير ممكن. هذا مستحيل. إن السلطنة بدون خلافة لا يمكنها أن تعيش، ونحن الترك أحوج إلى الخلافة منا إلى السلطنة.

وقد يستغرب القارئ إذا عرف أن الدكتور رضا نور هذا الذي نقلت حديثه هنا أصبح بعد ذلك بسنوات قليلة وزيرًا في الحكومة الكمالية، وكان هو صاحب الاقتراح القاضي بفصل الخلافة عن السلطنة ثم بإلغاء الخلافة.

ومن هذا يتضح لنا أنه ليس للسياسة مبدأ خاص أو خطة ثابتة، بل هي تتبدل بتبدل الأحوال. وليس عارًا على السياسي أن يجاري مقتضيات الحال وأن يستفيد من تجارب الأيام وأن يحول دفة برنامجه وفقًا لما توحي به إليه هذه التجارب. والترك الذين لم يستطيعوا أن يجنوا أقل فائدة من قوة الخلافة الأدبية ولا من الرأي الإسلامي العام في أثناء الحرب العظمى، أدركوا بالتجربة أن القوة الوحيدة التي يمكن أن تستند إليها الدولة هي الوطنية الصادقة القائمة على أساس القومية.

وعود الحلفاء للملك الحسين

أشرت فيما تقدم إلى أن الإنكليز كانوا يفاوضون معظم زعماء العرب ومفكريهم في وقت واحد، وكانت مفاوضاتهم مع شريف مكة قد بدأت عقب دخولهم الحرب العظمى في سنة 1914، ثم نشطت ابتداءً من شهر يوليو [تموز] سنة 1915، فتبودلت بين الشريف حسين[144] شريف مكة وأميرها والسير هنري مكماهون[145] ممثل بريطانيا في مصر مخاطبات عديدة أهمها خطاب مؤرخ في شهر يوليو [تموز] 1915 وفيه يطلب الشريف حسين اعتراف إنكلترا باستقلال العرب من مرسين وأطنه [أضنة] وأورفه وماردين والعمادية شمالًا، إلى حدود فارس وخليج البصرة شرقًا والمحيط الهندي جنوبًا – مع استثناء منطقة عدن – والبحر الأحمر والبحر المتوسط حتى مرسين غربًا، وذلك في مقابل مساعدة العرب لإنكلترا وحلفائها في الحرب العظمى. ثم خطاب مؤرخ في 20 أغسطس [آب] سنة 1915، قال فيه السير هنري مكماهون: إن شدة الحرب وانهماك رجال السياسة في مهامها الخطيرة يحولان دون البحث في مسألة الحدود.

وفي 9 سبتمبر [أيلول] رد الشريف حسين مصرًا على الاعتراف بالحدود التي عيّنها، شافعًا خطابه هذا بتصريح شفهي خلاصته أنه إذا أصر الفرنسيون على احتلال المناطق العربية غربي خط دمشق وحمص وحلب، فإنهم سيلقون مقاومة مسلحة من العرب.

وفي 25 أكتوبر [تشرين الأول] سنة 1915، أرسل السير مكماهون إلى الشريف حسين خطابًا باسم الحكومة البريطانية قال فيه: إن منطقتي مرسين وإسكندرونة والأراضي السورية الواقعة غربي خط دمشق – حمص – حلب لا يُمكن عدها عربية. ولذلك يجب إخراجها من التسوية المطلوبة الآن للحدود، ومع هذا الاستثناء تقبل بريطانيا العظمى بكل ارتياح الحدود التي يطلبها سيادة الشريف حسين، على أن لا يمس ذلك بعض الاتفاقيات المعقودة بينها وبين بعض زعماء العرب. وإن حكومة بريطانيا العظمى مستعدة للاعتراف باستقلال العرب ومساعدتهم على تحقيقه في داخل الحدود التي اقترحها شريف مكة مع

الاستثناءات التي طلبتها.

وقد تضمن هذا الخطاب بعض مواد تتعلق بالمصالح البريطانية في المناطق العربية المختلفة والمنافع الاقتصادية والسياسية التي يجب أن يعترف بها شريف مكة في العراق وقبول مستشارين إنكليز في البصرة وبغداد.

وأجاب الشريف حسين في 5 ديسمبر [كانون الأول] سنة 1915 قائلًا إنه يقبل استثناء مرسين وأطنه [أضنة]، لكنه يصر على إدخال المناطق الأخرى ضمن البلاد العربية المستقلة.

وفي أول يناير [كانون الثاني] سنة 1916 كتب الشريف حسين إلى السير هنري مكماهون يقول إنه بالنظر إلى رغبته في اجتناب كل ما يعكر صفو التحالف القائم بين إنكلترا وفرنسا، فهو لا يثير في أثناء الحرب مسألة لبنان بل يؤجلها إلى ما بعد الحرب.

ورد السير هنري مكماهون على هذا الخطاب في 30 أبريل [نيسان] قائلًا إن حكومته قد أخذت علمًا برغبة الشريف حسين هذه، وإن الصداقة بين إنكلترا وفرنسا ستستمر إلى ما بعد الحرب.

وعلى أثر ذلك أرسل السير هنري مكماهون إلى الشريف حسين برقية قال فيها: (لقد أُمرت بأن أبلغكم الموافقة على إمدادكم بكل ما طلبتموه من مال وسلاح).

المظالم والفظائع في سوريا

وكانت أنباء المظالم والفظائع التي أتاها جمال باشا في سوريا تتوالى بلا انقطاع، وقد اهتز لها العرب في كل مكان، وعقدوا النية على القيام بالثورة مهما يكن مصيرها. وكان جمال باشا قد أبعد القوات العربية من سوريا، ثم لجأ إلى سياسة الشدة والفتك والاضطهاد من نفي وتجويع وسجن وإعدام. وقد قررت جمعية الفتاة - التي تحولت فيما بعد إلى حزب الاستقلال - بعد أن اتفقت مع حزب العهد على دعوة العرب وجمعياتهم وأحزابهم وكل من نجا منهم من مذابح الاتحاديين إلى الالتفاف حول زعيم من زعمائهم البعيدين عن سيطرة الترك، وتأليف قوة كافية للوقوف في وجه الاتحاديين وإنقاذ الأمة وتأمين استقلالها. فوجهوا أنظارهم إلى الشريف حسين بن علي الذي ألفوه مدركًا لشعور الأمة العربية وعاملًا على تمهيد السبيل لإغاثتها، وألقوا عنده عصا الترحال.

وفي شهر أبريل [نيسان] سنة 1915، جاءني الأستاذ جميل الرافعي وكان موظفًا في وكالة السودان بمصر وقال لي:

- وصل في هذين اليومين شاب عربي قادمًا من اسطنبول على ما أظن، وقد أحاطه الإنكليز بكل عناية وأنزلوه ضيفًا على نعوم بك شقير وهو لا يفارقه، فيصحبه من المكتب إلى البيت ومن البيت إلى المكتب. وبذلك أصبح بعيدًا عن الناس فلم أتمكن من مخاطبته ولا معرفة من هو. فاذهب أنت بحجة زيارة نعوم بك في مكتبه فتراه جالسًا عنده لعلك تعرفه.

وذهبت في صباح اليوم التالي إلى مكتب نعوم شقير فوجدت عنده شابًا في مقتبل العمر يُطالع جريدة، وكأنه لم يشعر بدخولي فلم يرفع نظره عن الصحيفة، مع أن نعوم بك قد تقدم نحوي صائحًا بعبارات الترحيب كعادته.

ونظرت إلى هذا الشاب خلسة فرأيته يرنو إليّ، وتلاقى نظرانا فخيّل إلي أننا قد تفاهمنا وتعارفنا،

وتذكرت أنه سبق أن رأيته، ولكني لم أتذكر اسمه. وبعد أن جلست مدة أتكلم مع نعوم وأبادل ذلك الشاب النظر نهضت وقلت بصوت عال: «اسمح لي يا نعوم بك فأنا على موعد مع عزيز علي». قلت ذلك لأزيد الشاب معرفة بي، ثم صافحت نعوم بك بقصد الانصراف وإذا بالشاب الجالس قد نهض وتقدم نحوي مسلمًا ثم همس في أذني قائلًا: «أنا شريف الفاروقي[146] واسمي المستعار هو عمر أفندي، وقد أرسلني إخواننا في حزب العهد إلى هنا، فقل لعزيز بك إني أريد مقابلته».

وفهمت من شريف الفاروقي فيما بعد أن ياسين الهاشمي قد اتفق باسم حزب العهد مع جمعية [العربية] الفتاة فقرر الحزبان العمل معًا لحث الشريف حسين على الثورة وتأييده فيها لأنهم على علم بالمفاوضات الدائرة بينه وبين الإنكليز. ولما نقل ياسين الهاشمي إلى اسطنبول كان شريف الفاروقي معه ففكرا – كما روى لي – في وجوب الاتصال بمصر وأخذ الفاروقي ذلك على عاتقه.

وحدث أن التحق الفاروقي حينئذ بقوات الدردنيل وخاضت فصيلته غمار معركة حامية مع الإنكليز أسفرت عن كثير من القتلى والجرحى. فطلب مقابلة القائد الإنكليزي، وفاوضه في عقد هدنة لدفن الموتى. ثم قال له إنه عربي ويرغب في السفر إلى مصر، ورجا منه أن يبعث به إليها على ألا يُعد أسيرًا وأن يكون ضيفًا على الإنكليز في كل المدة التي يقضيها في القاهرة، وأن يسمح له حينما يشاء بالسفر إلى الحجاز وأن يبقى اسمه مكتومًا كل الكتمان. فوافق القائد الإنكليزي على شروطه وأرسله إلى مصر.

وفي أثناء إقامة الفاروقي بمصر، اتصل بالشريف حسين كتابة بواسطة الإنكليز وأخبره أنه قادم باسم إخوانه في تركيا ليعرض خدمته ومعلوماته عليه.

وفي الأسبوع الذي تقرر فيه إعلان الثورة في الحجاز، سافر شريف الفاروقي مع بعض أصحابه على إحدى البوارج الإنكليزية إلى ميناء جدة فوصل إليها في أوائل يوليو [تموز] سنة 1916 (9 شعبان سنة 1334)، واشتركت هذه البارجة في إطلاق القنابل على جدة.

---

(136) جميل صدقي الزهاوي (1863-1936): شاعر عراقي مشهور، ولد في بغداد، ودرس على علمائها. سافر إلى اسطنبول حيث عمل أستاذًا في دار الفنون. عيّن في مجلس الأعيان في بداية العهد الملكي بالعراق.

(137) رشيد رضا (1865-1935): ولد في القلمون بالقرب من مدينة طرابلس بلبنان، ودرس على علمائها وأبرزهم حسين الجسر ومحمود نشابة. هاجر إلى مصر وأنشأ مجلة **المنار** التي نشر فيها أعمال أستاذه محمد عبده.

شارك في الحوادث السياسية، فاتصل بالشريف حسين والأمير فيصل وانتخب فترة وجيزة رئيسًا للمؤتمر السوري، وكان عضوًا في الوفد السوري الفلسطيني إلى جنيف. تقرّب في سنواته الأخيرة من الوهابيين. له الكثير من الأعمال منها: **تفسير المنار** و**الوحي المحمدي** و**الخلافة** و**تاريخ الأستاذ الإمام محمد عبده**.

(138) محب الدين الخطيب (1886-1969): ولد في دمشق ودرس على علمائها، ودرس الحقوق في اسطنبول. ترأس جمعية «النهضة العربية». انضم إلى الشريف حسين، وترأس مجلة **القبلة**. دخل مع الأمير فيصل إلى دمشق وأصدر فيها جريدة **العاصمة**. استقر في مصر وأسس في القاهرة المطبعة السلفية وشارك في تأسيس جمعية «الشبان المسلمين».

(139) فؤاد الخطيب (1880-1957): ولد في شحيم بالقرب من بيروت. درس في الجامعة الأميركية في بيروت. التحق بمكة بعد إعلان الثورة العربية. له العديد من الأعمال الشعرية والكتابات غير المنشورة.

(140) نعوم شقير (1863-1922): عمل في الجيش الإنكليزي في السودان، ثم التحق بالجيش المصري، له العديد من المؤلفات أبرزها **تاريخ السودان**.

(141) الجنرال جيلبرت كليتون (1876-1929): ضابط إنكليزي خدم في السودان ثم في مصر، وكان مسؤولًا عن المخابرات، وصلة الوصل مع الثورة العربية في الحجاز.

(142) المرجح أنه خليل ثابت (1871-1964): عمل في السودان وأصدر صحيفة **الخرطوم**، انتقل إلى القاهرة حيث عمل في إدارة صحيفة **المقطم**.

(143) رضا نور: له مذكرات بعنوان **حياتي وذكرياتي**.

(144) الشريف حسين بن علي (1853-1931): أمير مكة، أعلن الثورة العربية ضد الأتراك في العاشر من حزيران/يونيو 1916. وهو والد الأمراء علي وعبدالله وفيصل وزيد.

(145) هنري مكماهون (1682-1949): ضابط إنكليزي، حاز لقب «سير». الممثل الأعلى لملك بريطانيا في مصر. اشتهر بمراسلاته مع الشريف حسين.

(146) شريف الفاروقي (1891-1920): ضابط في الجيش العثماني، لعب دورًا في نقل المراسلات بين الشريف حسين ومكماهون.

الفصل السادس
الثورة العربية الأولى

الأسباب المباشرة للثورة العربية

كانت الأسباب المباشرة لإعلان الثورة تعيين القائمقام وهيب بك المشهور بعدائه للعرب، واليًا على مكة لكبح جماح الشريف حسين والقضاء على نفوذه. وقد بدأ عمله في الحجاز بأن طلب إلى الشريف حسين أن يُعيد إليه مائة بندقية من طراز موزر كان قد سلّح بها حرسه الخاص. ولما رفض الشريف ذلك أرسل الوالي يطلب النجدة من اسطنبول. فلما وصلت [النجدة] إليه أمر بإعادة هذه البندقيات في الحال. ولكن الشريف شكاه إلى اسطنبول وطلب خروجه من الحجاز.

ودامت المناقشات مدة طويلة في هذا الموضوع، وأخذت الحالة تتفاقم بالتدريج وفي خلال ذلك أرسلت الحكومة العثمانية غالب باشا إلى الحجاز، وكان أول عمل قام به إبعاد الضباط العرب عنه استعدادًا لضرب الشريف ضربة قاضية. وقد هوجمت قوات غالب باشا مرتين قبل إعلان الثورة العربية في سنة 1916، إحداهما بين المدينة ومكة، والثانية بين مكة والطائف، وأصيب هو بجراح.

الحالة في سوريا قبل الثورة العربية

وفي تلك الأثناء كان طغيان جمال باشا في سوريا قد بلغ أشده، فاعتقل رجالات البلاد جماعات جماعات، وأقام محكمة عسكرية في عاليه لمحاكمتهم بتهمة إعداد ثورة ضد الترك لإعلان استقلال العرب. وقد وجه إلى بعضهم تهمة التآمر مع الأجانب والتمهيد لاستيلائهم على البلاد رغبة في تشويه سمعتهم [أي الترك] وتأليب الرأي العام ضدهم. ولكن هذه التهم لم يمكنه توجيهها إلا إلى اثنين أو ثلاثة منهم.

والغريب في أمر جمال باشا أنه بعد وصوله إلى سوريا أخذ في استمالة قادة الفكرة العربية إليه وفي مقدمتهم شبان المنتدى الأدبي. وكان عبد الكريم الخليل رئيس هذا المنتدى أحد المقربين منه. وقد فاتحه مرارًا في أمر الثورة على حكومة اسطنبول وإقامة دولة عربية مستقلة في سوريا والعراق، ولا يستبعد أن يكون قد استطاع خداع عبد الكريم بهذه الوسيلة ومعرفة آرائه، لأن هذه الرغبة التي أبداها جمال باشا سمعنا بها في مصر. فأثارت في نفسي مخاوف كثيرة ذكرتها لكل من السيد رشيد رضا ورفيق العظم، ولم تعاودني الطمأنينة إلا بعد أن تأكدت من شدة حذر إخواننا في سوريا وكرههم لجمال باشا ومعرفتهم بما يضمره لهم وللعرب من شر.

ومضت مدة طويلة وأنا أعتقد أن جمال باشا لم يفكر لحظة واحدة في الثورة على الترك ولم يفاتح أحدًا في ذلك، إلى أن سقطت الحكومة القيصرية ونشر الشيوعيون المذكرات السرية التي تبودلت بين روسيا وإنكلترا وفرنسا في هذا الموضوع الذي كانت الدول الثلاث ترى في تحقيقه أعظم خطوة في سبيل اقتسام البلاد العربية فيما بينها. وقد اقترحت روسيا حينئذ إرسال شخص أو وفد إلى مصر للاتصال سرًا بجمال باشا

والاتفاق معه على إضرام نار الثورة في سوريا. ولولا معارضة فرنسا لكان الاقتراح الروسي قد نفذ.

ويغلب على ظني أن جمال باشا إذا كان قد فاتح عبد الكريم الخليل أو غيره في موضوع استقلال سوريا، فإنه إنما فعل ذلك لاكتساب ثقة المواطنين واكتشاف أسرارهم والاطلاع على أنظمتهم توطئة للبطش بهم. ولذلك رأينا هذا الطاغية ينقلب على رجال الوطنية في لحظة واحدة. فبعد أن كان يستشيرهم وينفذ آراءهم واقتراحاتهم ويبالغ في مجاملتهم، كشّر لهم فجأة عن أنيابه وأمر باعتقالهم جملة في وقت واحد وأودعهم السجون وعاملهم فيها أسوأ معاملة.

ووصل الشريف فيصل بن الحسين إلى دمشق على أثر ذلك بحجة التفاهم مع جمال باشا على خطة الزحف إلى مصر ومعاونته في تنفيذها. وقد اتصل حينئذ بالوطنيين وعقد معهم اجتماعات سريّة كثيرة وضعوا فيها خطط الثورة التي وعد بإعلانها عقب عودته إلى الحجاز.

ولما نصب جمال باشا المشانق في دمشق وبيروت، كان الشريف فيصل في دمشق، فلم يسعه إلا القيام بآخر سعي لإنقاذ أحرار البلاد بحجة أن إعدامهم يُحدث تأثيرًا سيئًا قد يعرقل الزحف إلى مصر. ولكن رأى أن تدخله بدأ يثير بعض الشبهات في نفس الطاغية، فانتقل بلباقة إلى بحث خطة الهجوم على قناة السويس وما يلزم من مال وعتاد للاشتراك فيها.

وقد عاد من هذه الزيارة إلى الاجتماع بأصدقائه فأخبرهم بأن ما يضمره جمال باشا يفوق في فظاعته كل ما يتوقعونه، وبأنه لم يبق مناص من الإسراع في إعلان الثورة وأنه سيسافر في الحال إلى الحجاز للشروع في تنظيمها ويبلغهم عن الموعد الذي تبدأ فيه بتلغراف رمزي.

وغادر الشريف فيصل دمشق ومعه ما يلزم من المال والسلاح لتجهيز حملة من البدو على القنال. وقد وُدّع وداعًا كبيرًا اشتركت فيه السلطات المدنية والعسكرية، وكان من بين مودعيه كثيرون من أصدقائه الذين وضعوا معه خطط الثورة. وقد رأوا في الابتسامات التي كان يوزعها عليهم تجديدًا للعهد الذي قطعه على نفسه ومظهرًا لذلك الألم الذي كان يحز في صدره من جراء المصائب المحدقة بسوريا وأحرارها والطبقات المثقفة فيها.

ووصل فيصل إلى جهات المدينة المنورة وكانت الأنباء تتوالى عليه من دمشق منذرة باستفحال الشر. فأسرع في إعداد المعدات الأولية للثورة وأبرق إلى دمشق طالبًا إرسال الفرس الشقراء في الحال – وكان ذلك إيذانًا ببدء الثورة – فأخذ رجال سوريا وأحرارها يفرون منها زرافات ووحدانا طلبًا للنجاة من مظالم السفاح وسعيًا وراء الحرية والاستقلال.

وكان الشريف حسين قد أنهى مفاوضاته مع الإنكليز على ما تقدم، وقد اضطر إلى الإسراع في العمل مدفوعًا باعتبارات كثيرة أهمها اجتناب المجاعة التي كانت تهدد الحجاز بعد أن حوصر من البحر، والرغبة في إنقاذ البقية الباقية من أحرار العرب، ثم انتهاز فرصة انكسار الإنكليز في العراق للانضمام إليهم إعلانًا لثقته التامة بانتصارهم النهائي والعهود التي قطعوها له.

وقد تجلت في ثورة العرب كل مظاهر البسالة والتضحية والرجولة على الرغم مما تخللها من عيوب

البداوة وقلة الاستعداد وما صحبها من إحجام الحلفاء عن مدها بالذخيرة والسلاح وتسابقهم إلى اتخاذها ميدانًا للدسائس والمناورات السياسية لجعلها وسيلة لاستعمار البلاد التي وعدوا بمساعدتها على الوحدة والاستقلال.

وقد تعمد الإنكليز إثارة جميع العقبات في طريق الثورة فلم يكتفوا بالسياسة التي قرروا انتهاجها نحوها، وهي سياسة تموينها وإمدادها بأقل ما يمكن من السلاح لكي لا تموت، والحيلولة دون تقويتها وتنظيمها التنظيم الذي يمكنها من الوصول إلى البلاد المتحضرة كسوريا والعراق اللذين كانا محط أنظارهم وموضع مسامعهم، بل نظموا السلطات التي تتعاون معها تنظيمًا غريبًا لا يمكن أن يُرجى منه أي نجاح.

فالسياسة العربية كان يتولاها باسم حكومة لندن السير هنري مكماهون المندوب السامي في القاهرة بمساعدة المستر ستورس وكلاهما تابع لوزارة الخارجية البريطانية، وكان تموين الثورة العربية في يد الجنرال مكسويل[147] المقيم في القاهرة والتابع لوزارة الحربية البريطانية.

أما المعدات فكان يتولى أمرها السر ونجت[148] المقيم في الخرطوم والمنهمك حينئذ بثورة علي دينار بن سلطان دارفور.

وكانت القوات البحرية البريطانية المتصلة بالثورة العربية بقيادة الأميرال ديمبس المقيم في الإسماعيلية والتابع لحكومة الهند.

وإذا كان هذا النظام لم يسفر عن الفشل التام، فالفضل في ذلك يعود إلى صلابة الشريف حسين وعناده وكفاءة الشريف فيصل ومرونته من جهة، وإلى موقف الجنرال كليتون ونشاط الكولونيل لورانس[149] والكابتن جورج لويد[150].

وأعلنت الثورة العربية في مكة يوم 10 يونيو [حزيران] سنة 1916، كما تقدم. وكان الشريف حسين يُديرها من قصره الذي أصيب بعدة قنابل، إحداها وقعت في مكتبه فلم يغير مكانه.

واضطرت مدينة جدة وحاميتها إلى الاستسلام في 16 يونيو [حزيران] بعد أن هاجمها الشريف محسن بن منصور[151] من البر وبعض الوحدات البريطانية من البحر.

وتلتها الطائف وكان عدد الأسرى من رجال حاميتها ضباطًا وجنودًا 3500 مقاتل. ولما عجز الترك عن المقاومة في جنوبي الحجاز بدأوا ينسحبون شمالًا تحت ضغط القوات العربية وقد اتخذوا المدينة قاعدة لأعمالهم.

العرب وثورة الحسين

واتجهت أنظار العرب إلى هذه الثورة وأقبلوا على تأييدها بغية الاستفادة منها في خلق نواة جيش منظم يمكن الاستناد إليه في تحقيق استقلالهم والمحافظة عليه.

ولكنهم اصطدموا بعقبات كثيرة أهمها موقف الإنكليز. فقد كانت أعمالهم منذ بدء الثورة إلى ما بعد دخول دمشق سلسلة من المحاولات الرامية إلى منع العرب من إنشاء جيش منظم. وكانوا يتعمدون حرمان العرب من الأسلحة الحديثة حتى أنه لما سافر الفوج الأول من الضباط المتطوعين أبى ضابطا المدفعية اللذان كانا مع هذا الفوج وأحدهما راسم سردست[152] أن يتسلما البطاريات التي قدمها الإنكليز لهما لأنها غير صالحة للقتال، ورفضا الذهاب بها إلى الحجاز. وقد أحدث ذلك اضطرابًا في الأفكار كاد يؤدي إلى عرقلة حركة التطوع.

وكان حصول العرب على أسلحة صالحة من الإنكليز من أهم المشاكل التي حاول الشريف حسين وأنجاله ومعتمدوه وأنصاره حلها منذ بدء الثورة. فذهبت محاولتهم كلها سدى، وكانت نتيجتها الوحيدة إبعاد بعض الضباط من ميدان القتال والنقمة على البعض الآخر.

وتبدو الصعوبات التي اعترضت الثورة العربية من أول ظهورها في المخاطبات التي تبودلت بين مكة والقاهرة. فقد كان الشريف حسين وأنجاله وضباطه يواصلون طلب السلاح والذخيرة بلا انقطاع فيُقابَلون بالمطل والتسويف. وأخيرًا أخذ الإنكليز يجمعون الأسلحة، التي عندهم من قديمة وحديثة إنكليزية وتركية ويشحنونها إلى الحجاز. وكثيرًا ما كانوا يبعثون بقنابل لا تصلح للمدافع التي أمدوا بها الجيش العربي، وذلك لأنهم حددوا في برنامجهم مبلغ القوة التي يجب أن يصل إليها هذا الجيش. وحرصوا على أن لا يتعداها كي لا تكون خطرًا على مشروعاتهم الاستعمارية. ولم يكن في طاقة الشريف حسين بعد أن أعلن الثورة إلا أن يكتفي بالإلحاح فيما يطلبه منهم.

ويوجه كثير من الوطنيين اللوم إلى الشريف حسين ويلقون عليه كثيرًا من تبعات فشل الثورة وعدم تحقيق الآمال التي كانت معقودة على نجاحها. وهذا اللوم قد يكون له ما يبرره، فالشريف حسين أقدم على عمل عظيم لم يكن على استعداد له، وكتم نتيجة مفاوضاته مع الإنجليز عن كل إنسان حتى عن أنجاله، وانفرد برسم الخطة التي يجب أن ينتهجها العرب ظنًا منه بأن السياسة تمليها العاطفة وتثبتها الوعود، وتستمد قوتها من قوة الحق، وتكتفي بها، كما أنه استأثر بجميع الأعمال العسكرية، فتحمل بذلك تبعات لم يكن لشخص بمفرده أن يقوم بها.

ولكن من ينظر إلى كنه الأمور لا يسعه أن يقسو كثيرًا في حكمه على ذلك الشيخ الشجاع الجليل، لأن الثورة التي أعلنها على الترك لم يكن مخيرًا فيها بل كان مضطرًا إلى قبولها بعد أن فُرِضت على العرب فرضًا، وقد قابلوها بحماسة عظيمة في البلاد العثمانية جميعها، ورأوا فيها الوسيلة الوحيدة لإنقاذ الأمة من خطر الفناء، ولم يكونوا مبالغين في ذلك بعد أن اتضح لهم عزم الاتحاديين على الفتك بشبابهم وتشريد نسائهم وأطفالهم وإماتة بعض شعوبهم جوعًا وعريًا كما حدث في لبنان.

وكان من أهم مبررات تلك الثورة في نظر الشريف حسين، عزم الإنجليز على إعلان الحصار على الحجاز، ومنع كل اتصال به من البحر لإماتته جوعًا.

عزيز يتولى قيادة الجيش العربي

وأدرك مفكرو العرب الأخطار التي يمكن أن تنجم عن هذه الحال. ولكن الموقف العسكري والسياسي في تلك الأثناء كان يغل أيديهم عن كل عمل. ومع ذلك فكروا في معالجة الأمور بالاستناد إلى الشريف فيصل وإخوانه وتأليف جيش منظم يمكنه أن يصلح ما تفسده السياسة. واتجهت الأنظار حينئذ إلى عزيز علي. فدُعي للسفر إلى الحجاز والعمل مع الضباط الذين سبقوه إليه على وضع نواة صالحة لهذا الجيش. فوافق عزيز على السفر لدرس الحالة لا للاشتراك في الثورة أو تولي قيادتها. وأبى إلا أن يكون سفره على نفقته الخاصة، فباع بعض أملاكه في مصر وسافر إلى مكة. ولكن الذين لم تكن لهم مصلحة في تقوية الجيش العربي أقاموا في طريقه عقبات لا تُذلل. فبقي شهرًا كاملًا في مكة قبل أن يتمكن من التفاهم مع الشريف حسين أو الاجتماع به اجتماعًا طويلًا. فساء الأمر الوطنيين الذين كانوا في مكة، ورجوا من الشريف بإلحاح أن يسلم عزيزًا قيادة الجيش أو يتركه يعود إلى مصر. ولم يكن الحسين أقل رغبة من سواه في تعزيز الجيش والاستفادة من عزيز، ولكن أحوالًا قاهرة اضطرته إلى التردد. فلما جاء الوطنيون بذلك الإلحاح خرج عن تردده وولى عزيزًا قيادة الجيش ضاربًا بما كان لديه من الاعتبارات عرض الحائط.

ووفِّق عزيز في المدة القصيرة التي قضاها في الحجاز إلى جميع كلمة الضباط حوله، ووضع أساس صالح لنظام جيش قوي. فأثار بذلك بعض المخاوف، وبدأت الدسائس تُدس حوله إلى أن جاء لَتفقد الجيش في جهات رابغ وكان جميع ضباطه تقريبًا من حزب العهد. فدعاهم إليه وسمع شكاويهم ولا سيما ما يتعلق منها بحالة التسلح والعقبات التي تقام في طريق تعزيز الجيش. وقد اتفقوا على ان يجعلوا غرضهم الأساسي من أعمالهم تأليف جيش منظم قوي يكفل لهم ما لا تكفله العهود والوعود.

وعُقد حينئذٍ اجتماع كبير في رابغ حضره جميع ضباط الجيش، فبسط لهم عزيز الموقف بصراحته المعهودة، وقال لهم: «إننا لا نحارب رغبة في الحرب ولا كرهًا بالترك أو حبًا بالإنكليز، بل نحارب من أجل تحرير بلادنا وتأمين استقلالها. فهل تعتقدون أننا نستطيع تحقيق هذه الأمنية بالقوات التي لدينا الآن؟ هل تقبلون أن تدخلوا سوريا بهذا الجيش الذي لا قوة له ولا نظام فيه؟ وكيف يقابلنا سكانها إذا نحن جئناهم للسلب والنهب والتدمير والتخريب؟ فقبل التفكير في الزحف إلى الشمال يجب علينا على الأقل أن نعمل على إيجاد جيش منظم يمكن الاعتماد عليه في حفظ الأمن والنظام في البلاد العربية التي نحتلها».

الإنجليز يتخلصون من عزيز

وتطوع أحد الضباط الذين حضروا هذا الاجتماع – ويظن عزيز أنه نوري السعيد[153] – بنقل حديث عزيز هذا مشوهًا إلى الإنكليز، فاشتدت نقمتهم عليه وقرروا التخلص منه بأي شكل كان.

وأصيب عزيز حينئذٍ بإنحراف بسيط في صحته فجاء أحد كبار الضباط الإنكليز لزيارته في مخيمه وتحدث معه طويلًا في موضوعات شتى، ثم خرج إلى سرداق الشريف فيصل حيث نسي أو تناسى دفتر يومياته. وقد عزا فيه إلى عزيز آراء غريبة كان من مصلحة الراغبين في عدم تقوية الجيش والعاملين على خنقه في المهد أن يعرفها الحسين ويعتقد بصدورها عن قائد جيشه.

وكان في مخيم الشريف فيصل حينئذٍ نحو عشرين من أعوانه لم تقع أنظارهم على يوميات الضابط الإنكليزي حتى أكبوا على مطالعتها لإطلاع الشريف على ما جاء فيها.

وقد روى فيصل هذه الحادثة أمامي بعد أن صار ملكًا على سورية، فقال إن جهله باللغة الإنجليزية حينئذٍ حمله على تسليمها إلى الذين يجيدون هذه اللغة فقرأوا فيها ما خلاصته:

«زرت الآن عزيز علي وهو مريض وتحدثت معه طويلًا عن الثورة العربية وأهدافها ونتائجها، ومما قاله لي إنه لا يرجو خيرًا من الأشراف ولا من هذه الثورة ما داموا مسيطرين عليها. ولذلك قرر الانسحاب منها والعودة إلى مصر. ولما سألته عما يمكن عمله لإصلاح الحالة، قال إنه يستطيع طرد الترك من سوريا في أسابيع قليلة إذا تخلت إنجلترا عن الأشراف وحل هو وأصدقاؤه محلهم في إدارة الثورة».

وأضاف الملك فيصل إلى ذلك بقوله: «لو كنت أعرف الإنجليزية لما اطلع غيري على مذكرات هذا الضابط الإنكليزي. ولو لم يطلع عليها عشرون شخصًا من أصدقائي لما أخبرت والدي بها لعلمي بأنها كانت دسيسة يُقصد منها إخراج عزيز من الثورة أو إيجاد الخلاف في الجيش. وفي اعتقادي أن إبعاد عزيز علي من الحجاز نشأ عن سلسلة من الدسائس كانت هذه واحدة منها».

وبعد مضي خمسة أيام على هذا الحادث تلقى عزيز أمرًا من الشريف حسين بوجوب السفر إلى مصر لاختيار الأسلحة التي يراها لازمة للجيش. فسر بذلك سرورًا عظيمًا وأسرع إلى مصر في أول باخرة صادفها.

وعرف الدكتور [فارس] نمر أن عزيزًا قادم إلى مصر وأنه في طريقه إليها، وقد أخبرني أن الإنكليز معجبون به إعجابًا شديدًا وأنهم يرون فيه قائدًا من أكفأ قواد الميدان الغربي... إلخ ... إلخ. ثم قال لي إنه فخور به ويريد أن يقابله حين وصوله.

وسرني بطبيعة الحال أن أسمع مثل هذا الثناء العظيم على رجل أحبه. وقد نقلته إليه في اجتماعي الأول به عقب وصوله فأطرق قليلًا ثم قال:

– الإنجليز لا يبالغون في الثناء على رجل إلا إذا كانوا عازمين على ضربه.

وقد أصاب فيما قاله لأنه بعد بضعة أيام تلقى أمرًا بأن لا يعود إلى الحجاز، ثم أمرًا آخر بوجوب الخروج من مصر، وقد خيّر بين السفر إلى سويسرا أو إلى إسبانيا فاختار إسبانيا لسببين: الأول رغبته في زيارة الآثار العربية فيها، والثاني اعتقاده بأنه لو اختار سويسرا لكان قد اعتُقل في مالطة.

في الجيش العربي

وبعد خروج عزيز من الحجاز أصبح كثيرون من أصدقائه الضباط موضع الشبهة فاضطر علي جودة[154] إلى الرجوع لمصر وتبعه بعض الضباط. وكادت الحالة تضطرب لولا ما أبداه الشريف فيصل وأصدقاؤه من الحكمة والدراية.

وبدأ الضباط يفضلون الالتحاق بجيش الشريف فيصل على الانضمام إلى الجيوش العربية الأخرى التي يقودها إخوته لعدّة أسباب أهمها قوته ونشاطه وتقدمه السريع إلى سورية وتوالي الانتصارات التي كان يحرزها.

على أن الدسائس بدأت تدب في قلب هذا الجيش على أيدي أشخاص أرادوا أن يصطادوا في الماء العكر، فظهرت مسألة سوري وعراقي، وكثرت الانتقادات على إدارة الشريف فيصل للثورة. ثم بدأت أشراك المفاسد تنصب بين الحسين ونجله بدعوى أن الشريف فيصلًا ينوي فصل سورية عن الحجاز وتمزيق الوحدة العربية تحقيقًا لأغراضه الخاصة وإشباعًا لمطامعه.

وفي ذات يوم بينما كان الترك يهاجمون في جهات معان وقبائل العرب في هياج لتأخر وصول المال، والجيش في ارتباك بسبب دعايات الجهلة وتقولات صنائع الأجانب، وإذا ببرقية ترد على فيصل من أبيه وفيها العبارة التالية:

«إلى هذا الحد تصل بك القحة يا فيصل؟»

واتضح بعد ذلك أن الباعث على هذه البرقية هو أنه اتصلت بالملك حسين وشايات تنبئ بأن الدعاية لفيصل قد تجاوزت البحار وبلغت إلى أمريكا.

ولم يفقه الأمير فيصل بادئ ذي بدء معنى لتلك البرقية. ولكنه لم يستطع السكوت عنها فأبرق إلى والده قائلًا: «إني في حاجة إلى الراحة فأرجو أن تأمر أحد أخوتي بأن يحل محلي في القيادة وأن تسمح لي بالعودة إلى مكة».

ومضى يومان دون أن يتلقى ردًا على رسالته، فاتبعها ببرقية أخرى قال فيها إنه سيطلب من أخيه عبد الله أن يتولى قيادة الجيش مكانه ثم يسافر إلى مكة إذا لم يتلق أمرًا صريحًا بذلك من جلالته.

وحينئذٍ تلقى الرد في الحال من الملك حسين وفيه: «لن تعود إلى مكة يا فيصل قبل أن تدخل الشام. التفاصيل في البريد».

ولو لم يبدِ الملك حسين تلك الحكمة والدراية ويحتّم على ولده فيصل البقاء في قيادة الجيش لكانت تقطعت أوصال الثورة بلا ريب لأن حالة القبائل كانت خطرة. وقد ساد الاضطراب صفوف الجيش وقلّ المال وبدأت الآمال تتضاءل والعزائم تضعف.

ووردت التفاصيل في البريد فإذا فيها كتب مرسلة من مصر وغيرها إلى الملك حسين تتضمن الشكوى من فيصل واتهامه بأنه يعبث بمبادئ الثورة جريًا وراء مصلحته وطمعًا منه بتولي حكم سوريا ضاربًا بالوحدة العربية عرض الحائط وغير حاسب لأبيه فيها حسابًا.

وفي هذه الكتب تفاصيل حوادث عديدة بعضها حقيقي مفسر تفسيرًا مغلوطًا، وبعضها مختلق، وكلها يثير حفيظة الأب على ابنه. ولكن حكمة الملك حسين وتقديره حقيقة الموقف تغلبا على غضبه فأرسل البرقية التي يمكن القول بأنها أنقذت الثورة حينئذٍ.

تصريح بلفور

وتمادى الإنجليز في إيذاء العرب ووضع الألغام في أساس نهضتهم القومية. فبعد أن أقاموا العقبات الكثيرة في سبيل تسلحهم وتجهيز جيوشهم عقدوا اتفاق سايكس – بيكو[155] الذي اقتسموا فيه بلادهم، ثم أعقبوه في 2 نوفمبر [تشرين الثاني] سنة 1917، باتفاق سري مع الصهيونية عرف فيما بعد باسم «تصريح بلفور»[156] الذي يقضي بجعل فلسطين وطنًا قوميًا لليهود. وهذا نصه:

«تستحسن حكومة جلالة ملك بريطانيا العظمى فكرة إنشاء وطن قومي لليهود، وستبذل ما في وسعها لتحقيق هذه الفكرة مع العلم بأنها سوف لا تدع سبيلًا إلى أي عمل يمس حقوق الجاليات التي تقطن فلسطين من غير اليهود، سواء من الوجهة السياسية أو من الوجهة الدينية ولا أن يمس حقوق اليهود ومركزهم السياسي في البلاد الأخرى».

وفي تلك الأثناء أرسل الترك إلى شريف مكة كتابًا أظهروا فيه استعدادهم للتفاهم مع العرب والاعتراف باستقلالهم. فأبرق إلى الحكومة البريطانية بفحوى هذا الكتاب وتلقى من وزير خارجيتها البرقية التالية ردًا عليه وهي:

«إن حكومة جلالة ملك بريطانيا العظمى بالاتحاد مع حلفائها تؤكد مرة أخرى اعترافها باستقلال العرب».

وتوالت تصريحات الحلفاء وبيانات رجال سياستهم وقرارات برلماناتهم منذ ذلك الحين معلنة العزم على إنالة الشعوب العربية حريتها واستقلالها والتنصل من كل رغبة صريحة أو مضمرة في الفتح والاستعمار. وقد خُدع العرب بذلك اعتقادًا منهم بشرف الحلفاء. ثم جاء الرئيس ولسن[157] بمبادئه الأربعة عشر فرقصوا لها طربًا، وعدّوا مبادرة الدول إلى قبولها فاتحة عصر جديد يسوده السلم والحرية. ولكن كل هذه الآمال انقلبت إلى عكسها بما أبدته الدول الظافرة بعد ذلك من الأثرة والجشع والاستخفاف بالشعوب الضعيفة وحقوقها.

الموقف في مصر

وقد اتخذ الحلفاء مصر في تلك الأثناء مركزًا لسياستهم الاستعمارية في الشرق، فأرسلوا إليها طائفة من أمهر رجالهم وأكثرهم خبرة في الشؤون الشرقية.

وأما العرب فلم يكونوا على اتفاق فيما بينهم في مصر حتى أن الوطنيين منهم كانوا مختلفين في كثير من الشؤون الأساسية. والسبب الأصلي في هذا الخلاف كان اختلاف المبادئ التي كان يحملها الشباب القادمون من اسطنبول ورجال حزب العهد والأفكار التي كانت سائدة بين الوطنيين في داخل سورية، فإن الفريق الأول كان أكثر تشددًا من الفريق الثاني فيما يتعلق بالاستقلال التام والوحدة العربية الكاملة وخصوصًا أن بعض الوطنيين في سوريا أصبحوا بعد الذي عانوه من الظلم والاضطهاد يفكرون قبل كل شيء في إنقاذ بلادهم من أيدي الترك بأية طريقة كانت حتى إن كثيرين منهم رغبوا في ضمها إلى مصر إذا لم يكن في

الإمكان غير ذلك خلافًا لرجال جمعية الفتاة وحزب العهد والمنتدى الأدبي الذين لم يكونوا يريدون عن الاستقلال التام والوحدة الشاملة بديلًا.

وهذا الخلاف في الرأي بين الوطنيين إذا أضيف إليه ميل قلة من السوريين حينئذٍ إلى الأجانب إما لمصالح خاصة أو للاعتقاد بعجز البلاد عن حكم نفسها بنفسها، وتبرع أناس منهم لبث الدعوة الفرنسية أو الإنكليزية بمقابل أو بلا مقابل، يظهر لنا حقيقة موقف العرب في مصر سنة 1916.

على أن هذه الحالة بدأت تتبدل مع الأيام. فالذين كانوا يعملون لمصالحهم الخاصة ولم تتحقق لهم هذه المصالح انقلبوا على الأجانب، والذين كانوا يثقون بحسن نية الحلفاء واتضحت لهم حقيقة نيتهم أدركوا أنهم كانوا على خطأ فرجعوا عنه. وقد ساعد سلوك الجنود الإنجليز ولا سيما الأستراليين منهم على ازدياد كره العامة من السوريين للاحتلال الأجنبي، كما ساعدت معاملة الفرنسيين للمتطوعين السوريين على تنفير اللبنانيين من الاحتلال الفرنسي.

وأذكر على ذلك مثالًا واحدًا يدل على مبلغ التحول الذي طرأ على أفكار السوريين واللبنانيين.

كان يجتمع إليّ في (السبلندد بار) رجل لبناني شديد التعصب للحلفاء يرى عيوبهم مزايا وسيئاتهم حسنات، وكان يضايقني في أبحاثه، خصوصًا وأن الحالة السياسية لم تكن تمكنني من الإفاضة في البحث معه بحرية. وفي ذات مساء بينما هو ذاهب إلى داره التقى به جندي أسترالي فأراد أن يمرن عضلاته فيه فلطمه لطمة خلعت له فكّه الأسفل واضطرته إلى البقاء تحت المعالجة نحو ثلاثة أشهر، ولكنه تعزى عن الألم الذي قاساه بما أمله من مكافأة حسنة تجعله في مصاف الأغنياء بالنظر إلى ما كان يعتقده من كرم الإنكليز فضلًا عن سابق صداقته وخدماته لهم، وبعد أن غاب عني ثلاثة أشهر رأيته مرة في إدارة **المقطم** يطلب مقابلة الدكتور [فارس] نمر. وكان لا يزال عاصبًا رأسه فسألته عن السبب فأخبرني بما جرى وبأنه جاء يرجو وساطة الدكتور نمر للحصول على تعويض مادي كبير خصوصًا وأن لديه شهادات عديدة من الأطباء وفواتير بأثمان أدوية وغير ذلك من وسائل المعالجة تبلغ الألوف من الجنيهات.

ومضى شهر ثم رأيته في مطعم فجاء وجلس معي وكانت حرب الدردنيل على أشدها، فكان لي بذلك وغيره ما يشغلني عنه، فاقتصرت على سؤاله عن صحته من باب المجاملة، ولكنه انفجر غضبًا على الإنكليز وحلفائهم وقال من صميم قلبه:

«أحمد ربي على أن أبناء وطني في الدردنيل ينتقمون لي الآن».

فضحكت وقلت: متى عرفت أن في الدردنيل أبناء وطن لك؟

هذا الانقلاب الذي حدث في عقلية صاحبنا حدث مثله لمعظم السوريين واللبنانيين بحيث لم تكد تنتهي الحرب حتى أصبح الذين يعتقدون بصداقة فرنسا أو إنكلترا يعدون على أصابع اليدين.

وأصبحت مصر في أثناء الحرب العظمى ملجأ لكثير من أحرار العرب وطريقًا لضباطهم والعاملين منهم في الحجاز وغيره. وقد عرفت جميع الذين كانوا فيها أو مروا بها من رجالات العرب فلم أجد بينهم كثيرين أفضل من الذين عرفتهم في اسطنبول، إذ لم يكن لي من الوسائل واتساع الوقت ما أستطيع به معرفة مزاياهم، كما تهيأ لي اختيار من عاشرتهم زمنًا طويلًا في عاصمة السلطنة العثمانية، حينما بدأت الفكرة العربية تظهر وتنمو فيها. ولعل خير من عرفتهم من هؤلاء في مصر هم: النقراشي[(158)] والباسل[(159)] ومنصور فهمي[(160)] وحسين هيكل[(161)] وتوفيق دياب[(162)] ورفيق العظم ورشيد رضا وخالد الحكيم[(163)] والدكتور

شميل[164] وعلي جودت وإسماعيل نامق[165] والدكتور عبد الرحمن الشهبندر[166] وشريف الفاروقي وأنطون الجميل وإسكندر عمون[167] وفخري البارودي[168] وجميل الرافعي ومحب الدين الخطيب وبعض رجال الاتحاد اللبناني.

عيوب وأغلاط

وفي هذا العهد – عهد الثورة – تجلت عيوب كثيرة ووقعت أغلاط خطيرة. فما كان يمتاز به الرجال الأولون الذين عرفتهم في اسطنبول من حب التضحية وإنكار الذات وجدته ضعيفًا في بعض أصدقائي الجدد. ورأيت ضباطًا لا يقدمون على الاشتراك في الثورة إلا بشروط معظمها مادي. ثم إن الخلاف في الرأي الذي صحب هذا العهد كان شديدًا في مصر، كما كان شديدًا في الحجاز وغيرها. ولم يكن العمل موحدًا حينئذٍ بل كان كل من القادمين والذاهبين يفاوض الإنجليز أو بالأحرى يقبل أن يفاوضه الإنجليز على حدة. وينفرد في مخاطبة رجالهم محاولًا أن يكون هو ذلك الزعيم الذي يجب أن يشرف على إدارة القضية العربية.

ثم إن الشريف حسينًا لما أعلن عن ثورته كان ينوي الاستعانة بجميع الرجال المعروفين، ولكن قليلين منهم قبلوا أن يضحوا براحتهم للإقامة في الحجاز إجابة لدعوته. ولما قرر إرسال وفد إلى أمريكا برئاسة إسكندر عمون بناء على اقتراح نجله الشريف فيصل جعل بعض المشتغلين في القضية الوطنية يهولون عليه بكتبهم قائلين إن فيصلًا يريد أن يستقل عنه وأن يستخدم الوفد لبث الدعوة لشخصه في أوروبا وأمريكا.

وهكذا تعذرت الاستفادة من الأحوال التي أحاطت بموقف الثورة في تلك الأثناء لعدة أسباب منها أن المشتغلين في القضية لم يكونوا متفقين في النزعات ولا في وجهات النظر، وأنه لم تكن لهم خطة معينة، ولا يربطهم نظام، ومنها ترددهم في مشاركة الشريف حسين والذهاب إليه ومساعدته في حمل الأعباء التي كانت أثقل من أن يستطيع حملها وحده، وتركه ينفرد في مواجهة تبعات هي فوق طاقته.

ثم إن الإنجليز لما رأوا في العرب هذا الضعف الناشئ عن الأسباب المتقدم ذكرها وما شاكلها أحجموا عن مساعدتهم بالسلاح والذخيرة المساعدة المطلوبة من حليف مخلص صادق، واكتفوا بأن بعثوا إليهم منها ما يكفي لحفظ كيان قواتهم المحاربة، دون أن يمكنوهم من تقوية أنفسهم وتعزيز جيشهم النظامي. فبينما كان ينتظر أن تنتهي الثورة، وللعرب جيش منظم قوي يُقام له وزن في السياسة، ولديهم مقادير متوفرة بعدها، انتهت تلك الثورة كما ابتدأت بأعمال عصابات، وحركات غير منظمة ونواة جيش قليل العدد يعتمد في تموينه وتسليحه على الحلفاء الذين لم يكونوا ليمدوه بأكثر من الكفاف.

فالثورة التي تبدأ كما ابتدأت الثورة العربية، ولا تُدار الإدارة الحازمة المقتضاة في مثل ذلك العهد، ثم تنتهي بلا جيش قوي ولا سلاح مدّخر ولا أموال متوفرة ولا نظام ثابت، لم يكن ينتظر منها أن تؤدي إلى نتيجة تُكرِه الحلفاء على تحقيق الوعود المقطوعة للعرب في شخص الشريف حسين.

ولما قامت الحكومة العربية في سوريا برئاسة الشريف فيصل تعذر عليها الانتفاع بحماسة الشعب

السوري في تنظيم قوات الدفاع التنظيم الكافي لصيانة الاستقلال وتوطيد أركانه. وقد نشأ هذا العجز عن أسباب كثيرة تقع تبعاتها على عواتق جميع الذين اشتركوا قليلًا أو كثيرًا في إدارة شؤون الأمة في ذلك العهد، كل منهم على نسبة مركزه ومكانته في البلاد.

بعض مظاهر البطولة

على أن الثورة العربية التي قام بها الحسين، وكان فيصل أبرز قوادها، كانت مظهرًا عظيمًا لكثير من مفاخر العرب في الشجاعة والتضحية والصبر على الشدائد والاستهانة بالموت في سبيل مجد الأوطان.

فقد أقبل العرب من كل مكان على الاشتراك فيها بدافع الوطنية وحب الحرية والاستقلال. وكان في مقدمة الذين انضموا إليها نخبة من أحرار سوريا والعراق وفلسطين، فروا من ظلم الترك وقتل كثيرون منهم في أثناء الفرار. ثم الضباط والجنود العرب الذين كانوا في الأسر. فلما سمعوا بقيام الثورة وعرفوا أغراضها أسرعوا إلى الالتحاق بها لا فرارًا من الأسر بل رغبة في التحرر من رق الاستعمار.

ولم ينقطع سيل المتطوعين من العرب عن هذه الثورة منذ إعلانها إلى أن أنتهت بانهيار تركيا واستيلاء الحلفاء عليها.

وقد أبدى العرب في خلال هذه الفترة كل ما تبديه أمة عظيمة ثائرة تريد الحياة من الشجاعة والتضحية وإنكار الذات برغم ما أحاط بهم من عوامل الضعف وأسباب الفشل ومعاول الهدم والتخريب والإفساد.

فبعد سقوط جدة والطائف ومكة في أيدي العرب مع أكثر من 12 ألف أسير، استأنف الشريف فيصل الزحف إلى الشمال، فطرد الترك من السواحل حتى رابغ وجعل يتقدم منها بخطوات سريعة في اتجاه المدينة المنورة. وكان الترك قد احتاطوا للأمر فجردوا قوات كبيرة كروا بها على القوات العربية كرة شديدة ناجحة كادت تقضي عليها. وقد طلب بعضهم حينئذٍ إلى الشريف حسين أن يدعو الإنكليز إلى إمداد قوات فيصل بوحدات من الجنود المسلمين، ولكنه رفض ذلك بإباء وأبلغ نجله فيصل أنه ينتظر منه أن ينتصر أو يموت.

وتمكن فيصل من صد الترك ومطاردتهم إلى قرب المدينة التي كانت قوات الشريف عبد الله (ملك الأردن فيما بعد)[169] ترابط حولها. ثم استأنف زحفه إلى ينبع فاستولى عليها وتقدم منها إلى الوجه ثم إلى العقبة التي احتلها بمساعدة عودة أبو تايه[170].

وكانت قواته في خلال ذلك تهاجم الخط الحديدي في شمالي المدينة حتى معان بلا انقطاع وقد دمرته تدميرًا يكاد يكون تامًا، ومنعت كل اتصال بين قوات الترك في سوريا وقواتعهم المحاصرة في المدينة.

وغنم العرب في زحفهم هذا قطارين من المواد الغذائية، وتمكنوا من نسف مقادير كبيرة من الذخيرة والاستيلاء على خمسة مدافع جبلية وأربعة رشاشات وألف بندقية، وأسر 550 ضابطًا وجنديًا، وتخريب جميع محطات السكة الحديدية وأسر عمالها وموظفيها مع عدد من حاميات المخافر التركية الكبيرة والصغيرة وقوافل عسكرية مختلفة كثيرة.

أما أعمال البطولة التي أبداها العرب ولا سيما الضباط وشيوخ القبائل في هذه الفترة من التاريخ فتجل عن الوصف. لقد كانوا يسيرون إلى الموت سيرهم إلى حفلات العرض، ويتسابقون إلى التضحية تسابق الجياع إلى الطعام، وكانوا مضرب المثل في الشجاعة والتضحية. وكان كل منهم يفتدي أخاه بحياته. وما تركه مولود وراسم وإسماعيل نامق وعودة أبو تايه وغيرهم من ذكريات في تلك البقاع جدير بأن يتناقله الأبناء عن الآباء جيلًا بعد جيل وأن يسجله تاريخ النهضة العربية بحروف من نور.

ولا يسعني في هذا المقام إلا الإشادة بشجاعة الحسين وصلابته، ودهاء الشريف فيصل ومرونته وبسالة الشريف زيد[171] وصدق وطنيته. كما أنني لا أرى من الحق والصواب إلقاء تبعات الفشل الذي أصاب الثورة العربية في نهايتها على عاتق الحسين وحده، فهي في الحقيقة تقع على معظم رجالات العرب البارزين في ذلك الحين. نعم إن الحسين استأثر بالسياسة العربية ولم يشرك معه أحدًا فيها حتى أنجاله أنفسهم. ولكنه فعل ذلك على ما قدمت بعد أن دعا إليه رجالات العرب المعروفين حينئذ للتشاور معهم في مختلف الشؤون التي سبقت اتفاق سايكس – بيكو، فقد طلب إلى أشخاص معينين من ساسة العرب الاجتماع في مكة فترددوا في إجابة طلبه واكتفى بعضهم بالإبراق إليه بالإيجاب، ولكن بعد انتهاء كل شيء. فكان ذلك حافزًا له على الرغبة في الاستغناء عنهم بدافع من ذهنيته، وما عُرف عنه من العناد والاعتزاز بالنفس.

العلاقات بين الحسين وزعماء العرب

ولم تقتصر أصابع الأجانب على اللعب بالجيش فقط، بل امتدت إلى رجال السياسة أيضًا. ففي أثناء مفاوضات «سايكس– بيكو» في جدة كانت التقارير ترسل إليهما مفصلة عن حالة الملك حسين النفسية وعن الوسائل التي يجمل بهما التوسل بها لحمله على قبول المشروع الفرنسي الإنكليزي.

ولم يكن الوطنيون العرب في مصر يجهلون ما لسفر السير مارك سايكس والمسيو بيكو إلى الحجاز من الأهمية، ولذلك رجوا من الشريف فيصل أن يشترك في المفاوضات التي ستدور بينهما وبين والده، فلما تعذر عليه ذلك أبرقوا إلى الشريف حسين قائلين: إن رفيق بك العظم مستعد للسفر إذا طالت مدة إقامة السيد مارك سايكس والمسيو بيكو في جدة، فأجابهم قائلًا إن مدة إقامتهما لا تتجاوز ثلاثة أيام، وإنه لا يتسنى لرفيق بك ولا لغيره الوصول قبل مبارحتهما الحجاز. ومهما يكن السبب في عدم اشتراك أحد من رجالات العرب، في مفاوضات سايكس – بيكو، فإن هذه المفاوضات كانت شرًا على العرب لأن الغرض منها كان تقسيم البلاد العربية بين إنجلترا وفرنسا، التقسيم المعروف.

وما ذكرته في هذا الموضوع ينطبق على علاقات الشريف حسين بزعماء العرب خصوصًا بابن سعود، فقد كانت كلها تقوم على أسس خاطئة أدت إلى النتائج الخطيرة التي نعرفها الآن. فابن السعود الذي كان من أكبر أصدقاء الإنجليز في ذلك الحين رأى أن يلزم خطة الحياد في الحرب العالمية بعدما مد الحسين يده إليهم تاركًا له باب العمل مفتوحًا على مصراعيه. وقد اعترف له [ابن سعود] بزعامة الأمة العربية ولم يقم أية عقبة في سبيله، وكان يسميه «الوالد» في خطاباته إليه. وقد قبل زعامته وعاهده على أن يسير وراءه ويسترشد بآرائه ويكون على الدوام سلاحًا في يده وطلب إليه أن يعده واحدًا من أبنائه وأن يعتمد عليه اعتماده على كل

منهم.

ورد الشريف حسين على هذا العرض الكريم ردًا أدى إلى القطيعة بين الزعيمين العربيين الكبيرين إذ قال له إن كل شيء يجب أن يعود إلى ما كان عليه فترجع إمارة ابن الرشيد بالحدود التي كانت عليها ويلزم كل أمير في الجزيرة حده.

ويظهر أن الملك حسين استرد أو أراد أن يسترد كتابه هذا محاولًا بذلك إصلاح ذات البين بسعي بعض رجاله ولا سيما الشريف فيصل والشريف زيد. ولكنه لم يوفق إلى ذلك، وسارت الأمور على غير ما يتمناه المخلصون.

وأذكر بهذه المناسبة أن الشريف زيد كان قد اتفق معي على وضع كتاب عن النهضة العربية، وأنفق بضعة الآف من الجنيهات على جمع الوثائق والمستندات اللازمة لهذا الكتاب. وقد طالبته في زيارة له لمصر بالشروع في وضعه وإرسال جميع المستندات إليّ توطئة لذلك، فأجاب بقوله:

«هذه المستندات موجودة في خمسة صناديق، بعضها في قبرص وبعضها في عمان وبغداد، وسأرسلها إليك في أول فرصة. أما الكتاب فلا يمكنني الشروع به في حياة والدي».

فقلت: وهل يمكن أن يكون فيه ما يسيء إلى جلالته؟

قال: قد يغضبه ما لا بد من ذكره عن علاقاته بابن السعود.

وكان ذلك قبيل وفاة الحسين بسنة أو أكثر.

وقد أشرت إلى هذا الحديث لأوضح للأمة العربية حقيقة هذا الأمير الكبير، وما كان يتحلى به من مزايا الصدق والصراحة والوطنية الخالصة والشجاعة النادرة وبُعد النظر في عواقب الأمور ومعرفة الناس واختيار أفضلهم أصدقاء له.

أما كيف أهملت هذه الصفات الكريمة أو تعذر الانتفاع بها، وكيف خابت الآمال التي كان يعقدها الوطنيون العرب جميعًا على الأمير زيد، فذلك ما يُسأل عنه أصدقاؤه من إخواننا العراقيين الذين غمرهم بفضله وعطفه أثناء الثورة العربية وفي الفترة التي تلتها إلى أن تبوأ أخوه الملك فيصل عرش سوريا ثم عرش العراق. كما يُسأل عنه أفراد أسرته جميعًا للموقف الذي وقفوه منه لأسباب شخصية بحتة لا تبررها المصلحة ولا المنطق. فقد نقموا عليه لزواجه، واستنكروا موافقته على زواج شقيقته من أحد رجالات العراق. وكان أخوه الملك علي يخشى أن ينافسه على عرش سوريا، وكان أخوه الملك عبدالله يظنه غنيًا، وقد غضب عليه مرة لأنه رفض أن يمده بخمسة عشر ألف جنيه لمساعدة ثورة ابن رفادة[172]، ولم يكن أحد منهم راضيًا على حب العراقيين له وتمسكهم به وعطف رجال الأمة العربية عليه.

وقد زرته مرة في بغداد فطلب إلي أن لا أزوره مرة أخرى في داره، وأن أدعوه إلى منزل راسم سردست حينما أرغب في مقابلته. ثم رجا مني أن أخرج من باب الخدم لكي لا يراني أحد. وكان معي في هذه الزيارة محمود صبحي الدفتري[173] ورشيد الخوجة[174] وثابت عبد النور على ما أذكر.

وقد أعود إلى التحدث عن هذا الأمير مرة أخرى، إذا اتسع لي المجال لاعتقادي بأن المزايا التي كانت بارزة فيه جديرة بالذكر والتبجيل.

---

(147) جون ماكسويل (1859-1929): كان قائد القوات العسكرية في مصر، التي صدّت الهجوم العثماني على قناة السويس.

(148) فرانسيس وينجت (1861-1953): ضابط ودبلوماسي بريطاني، كان حاكمًا للسودان ثم المندوب السامي لمصر (1917-1919).

(149) توماس إدوارد لورنس (1888-1953): ضابط بريطاني ارتبط اسمه بالثورة العربية فعُرف باسم لورنس العرب. له **أعمدة الحكمة السبعة** عن تجربته في الثورة العربية.

(150) جورج لويد: ضابط بريطاني، أدى دورًا في معارك الثورة العربية، خدم لاحقًا في العراق وحاز لقب «لورد».

(151) محسن بن منصور: شارك في الثورة العربية، أصبح لاحقًا وزير دفاع المملكة الأردنية الهاشمية.

(152) راسم سردست: ضابط سوري، خريج المدرسة الحربيةُ في اسطنبول، قائد المدفعية في جيش الثورة العربية.

(153) نوري السعيد (1888-1958): ضابط عراقي، خدم في الجيش العثماني، انضم إلى الثورة العربية، وكان إلى جانب الملك فيصل في تأسيس الدولة العراقية. تسلم رئاسة الوزراء 14 مرة. قُتِل بعد ثورة الضباط في 14 تموز/يوليو1958 وسُحلت جثته.

(154) علي جودة الأيوبي (1886-1969): ضابط عراقي شارك في الثورة العربية ثم عاد إلى العراق حيث تسلم مناصب حكومية، ورئاسة الحكومة ثلاث مرات.

(155) سايكس - بيكو (1916): اتفاق بين فرنسا وبريطانيا وروسيا على تقاسم النفوذ في المشرق بعد نهاية الحرب العالمية الأولى، سمي باسم الدبلوماسي الفرنسي جورج بيكو والضابط الإنكليزي مارك سايكس.

(156) تصريح بلفور (1917): نسبة إلى الرسالة التي بعث بها وزير خارجية بريطانيا آرثر جيمس بلفور إلى اللورد روتشيلد، يضمّنها تأييد بلاده إقامة وطن قومي يهودي في فلسطين.

(157) توماس وودرو ويلسون (1856-1924): الرئيس الأميركي (1913-1921). أصدر المبادئ من أجل السلام من 14 نقطة، شجع على إنشاء عصبة الأمم، ونال جائزة نوبل للسلام في عام 1919.

(158) محمود فهمي النقراشي (1888-1948): درس الحقوق في مصر. ثم في بريطانيا. هو أحد أعضاء حزب الوفد، شارك في ثورة 1919، تسلم عدة وزارات وأصبح رئيسًا للوزراء مرتين. اغتيل في 28 كانون الأول/ديسمبر 1948، وأتهم التنظيم الخاص لجماعة الإخوان المسلمين باغتياله، وكان قد أصدر سابقًا قرارًا بحلّ الجماعة.

(159) حمد الباسل (1871-1940): أحد قادة ثورة 1919 في مصر، نُفي مع سعد زغلول إلى مالطا وسيشيل.

(160) منصور فهمي (1886-1959): درس الحقوق في مصر، ثم حصل على الدكتوراه من جامعة السوربون في باريس على أطروحة بعنوان «أحوال المرأة في الاسلام»، مُنع بسببها من التدريس في الجامعة المصرية مدة عام.

(161) محمد حسين هيكل (1888-1956): كاتب مصري وسياسي، درس الحقوق في مصر، وحصل على الدكتوراه من جامعة السوربون. أحد أعضاء اللجنة التي صاغت الدستور المصري في عام 1923، وتسلّم وزارة المعارف. كان حزبيًا ناشطًا في حزب «الأحرار الدستوريين»، يُعرف بإنتاجه الأدبي، وهو صاحب رواية **زينب** التي اعتبرت من أوائل الروايات العربية.

(162) توفيق دياب (1886-1963): كاتب صحفي مصري، أصدر صحيفة **الجهاد** في عام 1931.

(163) خالد الحكيم (1878-1944): درس الهندسة العسكرية في اسطنبول، وعمل في خط الحجاز الحديدي. قاتل ضد الإيطاليين في ليبيا. شارك في الثورة العربية. عمل مستشارًا للملك عبد العزيز.

(164) شبلي شميل (1850-1917): تخرج من الكلية السورية البروتستانتية (الجامعة الأميركية في بيروت)، درس الطب في باريس واستقر في مصر. أصدر مجلة **الشفاء** في عام 1886، ترجم نظرية داروين إلى العربية. أبرز مؤلفاته **فلسفة النشوء والارتقاء**.

(165) إسماعيل نامق: ضابط عراقي، شغل منصب رئيس أركان الجيش العراقي، عيّن وزيرًا للدفاع (1944-1946).

(166) عبد الرحمن الشهبندر (1879-1940): دمشقي، درس الطب في الجامعة الأميركية في بيروت. كتب في سن مبكرة رسالة بعنوان **الفقه والتصوف**. بدأ نشاطه السياسي والوطني بعد الانقلاب الدستوري. فرّ من سوريا واستقر في مصر خلال الحرب العالمية الأولى، وعاد إلى سوريا بعد دخول القوات العربية، وأصبح وزيرًا للخارجية في الحكومة العربية. لعب دورًا رئيسيًا في الثورة السورية الكبرى في عام 1925 وترأس حزب الشعب. اغتيل في عام 1940. له العديد من المؤلفات، وصدر له عن المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات كتاب **القضايا الاجتماعية الكبرى في العالم العربي** في عام 2019.

(167) إسكندر عمون (1857-1920): محام، هو أحد اللبنانيين الذين برزوا في مصر حيث ترأس جمعية «الاتحاد اللبناني». أصبح وزيرًا للعدل في الحكومة العربية بدمشق، له مؤلفات عدة أبرزها **المسألة اللبنانية**.

(168) فخري البارودي (1887-1966): سياسي سوري، شغل منصب نائب في البرلمان لسنوات عديدة.

(169) عبدالله بن الحسين (1882-1951): الابن الثاني لشريف مكة حسين بن علي. مؤسس إمارة شرق الأردن في عام 1921 (المملكة الهاشمية الأردنية). اغتيل في عام 1951.

(170) عودة أبو تايه (1874-1924): من قبيلة الحويطات التي قاتلت إلى جانب قوات الثورة العربية. شارك في معارك عديدة أبرزها معركة العقبة، عُرف بشجاعته وكرمه.

(171) زيد بن الحسين (1898-1970): أصغر أبناء الشريف حسين. ناب عن الأمير فيصل في دمشق خلال زياراته إلى أوروبا. شغل عدة مناصب وزارية في العراق، عاش في المنفى بين فرنسا وبريطانيا بعد قيام الحكم الجمهوري.

(172) حامد ابن رفادة: قاد انتفاضة مسلحة ضد حكم عبد العزيز آل سعود في عام 1932 بدعم من إمارة شرق الأردن.

(173) محمود صبحي الدفتري (1889-1979): سياسي عراقي، خريج الدفعة الأولى من مدرسة الحقوق في بغداد في عام 1912، تسلّم مناصب وزارية عدّة في العهد الملكي.

(174) رشيد الخوجة (1884-1962): سياسي عراقي، درس في المدرسة الحربية في اسطنبول وشارك في حرب القفقاس. انتقل إلى دمشق خلال عهد الحكومة العربية، ثم إلى العراق وتسلّم أول مهامه في العهد الملكي. شغل منصب وزير الدفاع في عام 1932، ورئيس مجلس النواب مرتين.

الفصل السابع
في سوريا سنة 1919-1920

كيف سافرت إلى دمشق؟

احتل الجيش العربي دمشق وأُلفت فيها حكومة وطنية برئاسة الأمير فيصل، وكان لي في هذا الجيش وفي الحكومة التي ألفها كثيرون من الأصدقاء. ففكر بعضهم في دعوتي إلى دمشق واستحصلوا لي على ترخيص بدخول سوريا لأن السفر كان محظورًا إلا على الذين تدعوهم الحكومة أو تأذن لهم بدخول بلادها. وخوطبت السلطات الإنجليزية مرارًا في موضوع سفري كما خوطبت بوجوب تسهيل السفر لكثيرين غيري وفي مقدمتهم فوزي البكري الذي كان وكيلًا للأمير فيصل في القاهرة. ولم ترفض السلطة هذا الطلب ولكنها توسلت بجميع الوسائل الممكنة للحيلولة دون تحقيقه، فكنت كلما راجعتها مع فوزي البكري[175] في هذا الشأن أسمع منها جوابًا واحدًا وهو أن حكومة دمشق لم تبلغها موافقتها على سفرنا، مع أن الرسائل كانت تتوالى عليه وعليّ من البلاط الأميري ورجال الحكومة والأصدقاء معربة عن حيرة الجميع من تأخرنا في مصر.

وطالت هذه الحالة حتى ضقنا ذرعًا بها، وأعيتنا الحيلة في الخروج منها. وفي ذات يوم ذهبت كعادتي إلى «سافواي [سافوي] أوتيل» مقر القيادة البريطانية، لأسأل هل جاءنا طلب من دمشق أم لا؟ وكنت مضطربًا منشغل البال. فبدلًا من أن أذهب إلى المكتب الذي تعودت الذهاب إليه لمثل هذا السؤال، ذهبت إلى مكتب يشبهه في موقعه ولكنه في دور آخر. وما كان أشد دهشتي لما أبصرت بدلًا من الضابط سيدة جالسة إلى مكتب وأمامها سجل ضخم فارتبكت ثم استعدت رباطة جأشي وقلت:

- أنا يا سيدتي رجل غريب من سوريا وقد انقطعت هنا بلا عمل، فسعى أهلي لدى حكومة دمشق في أمر عودتي وأبلغوني أنها رخصت لي بالسفر. ولا أدري أين أسأل عن هذا الترخيص. فألتمس منك مساعدتي.

قالت: ما اسمك؟ قلت: فلان. ففتحت السجل الذي أمامها وقلبت عدة صفحات ثم قالت: وأين كنت حتى الآن؟ فقد طلبت مرارًا بإلحاح في تاريخ كذا وكذا وكذا...

قلت: كنت متغيبًا عن القاهرة، وبما أني الآن مضطر إلى تعجيل سفري فأرجو منك أن ترشديني إلى ما يجب عمله.

- اذهب إلى المكتب رقم كذا في الدور التحتاني تجد فيه البيانات والمعلومات التي تطلبها.

- إذا تفضلت بكتابة كلمة تدل على أنه رخص لي في السفر سهلت مهمتي مع الضابط المختص وكنت شاكرًا.

- لا حاجة إلى ذلك، فاسمك عنده وهو مستعد لتسفيرك.

- اسمحي لي أن أسألك عن صديق لي يرغب في السفر مثلي اسمه فوزي البكري فهل جاءه طلب من حكومة دمشق؟

ونظرت في السجل ثم قالت مستغربة.

- أين هو صديقك هذا؟ فهو مطلوب بإلحاح أيضًا.

- وشكرتها ثم نزلت مسرعًا إلى المكتب الذي أرشدتني إليه، وكان المكتب الذي تعودت أن أذهب إليه للاستعلام منه مرة أو مرتين في كل أسبوع ولم أدخل غيره في هذه المرة إلا خطأ لتشابه الغرف في الأدوار المختلفة، وقد قلت للضابط بعد السلام:

– جئت لأشكر مساعدتك لي على تسهيل سفري إلى سوريا، فقد أخبرتني السيدة في المكتب رقم كذا أني مطلوب إلى دمشق أنا وفوزي بك البكري، فماذا تأمر بشأن سفرنا؟

فأطرق قليلًا ثم قال:

- في اليوم الذي تختاره من هذا الأسبوع، وإذا كنت تريد السفر مع فوزي بك فعد إلي معه غدًا.

وفي اليوم التالي زرته بصحبة فوزي البكري فأحسن استقباله وبالغ في مجاملته ثم سأله:

- متى تريد السفر؟

- اليوم إذا شئت، فقد أعددت له العدة منذ مدة وأنا في انتظاره على أحر من الجمر.

- استعد مع صديقك للسفر بعد غد وسأتخذ التدابير اللازمة لراحتكما.

قطارات لا تليق بنا

ودخل فوزي بك معه في حديث آخر ثم استأذنا بالانصراف فشيّعنا إلى الباب وقبل أن نصافحه مودعين قال:

- لقد فكرت الآن أن سكة الحديد سكة عسكرية غير مريحة، ولا تليق لأن تسافرا بها، وسنستحضر قريبًا قُطُرًا خاصة. فمن رأيي انتظار وصولها. أليس كذلك يا فوزي بك؟

- إذا كنت تصرّ يا سيدي على أن ننتظر فلا سبيل لنا سوى الانتظار، ولكن مسألة راحتنا ثانوية في نظرنا الآن وأنت تبالغ كثيرًا في العناية بها. فلك منا الشكر العظيم.

- الانتظار لن يطول ويهمني راحتكما وكرامتكما وخصوصًا أن معك يا فوزي بك سيدات وأطفالًا.

وهكذا مُنعنا من السفر بهذه الحجة الإنجليزية اللطيفة، حجة تأمين راحتنا والمحافظة على كرامتنا كأننا كنا على أتم راحة في ظل الاحتلال الإنجليزي، وكأن في السفر بقُطُر عسكرية طالما سافر فيها القواد العظماء ما لا يتفق وكرامة أمثالنا.

ولا أعرف حتى الآن السبب الحقيقي الذي حمل السلطة الإنجليزية على الحيلولة دون سفرنا إلى الشام، ولكني أعتقد أن بعض كتب كانت مرسلة من فوزي بك ومني إلى الأمير فيصل وقعت في يدها ووجدت فيها ما جعلها تفضل بقاءنا بعيدين عن سوريا. فإني كنت أُوافي الأمير فيصل كل أسبوع بأنباء الحوادث السياسية والعسكرية التي تقع في أوروبا وأرسلها في بريد خاص بواسطة فوزي بك البكري من مصر. وقد علمت أن بعض رسائلي وقع بيد السلطة الإنكليزية

لأنه لم يصل إلى المرسل إليه وكان فيه بعض ملاحظات عن سياسة إنجلترا وحلفائها لم ترق مكتب الاستعلامات البريطاني، فكان من أمره معنا ما كان.

حيلة مكنتنا من السفر

وبقينا في انتظار وصول القُطُر الفخمة التي تليق بنا عدة أسابيع. وكان من المحتمل أن نظل في انتظارها إلى الآن لو لم تقع الحادثة التالية:

وصل إلى القاهرة في تلك الأثناء الفريق جعفر العسكري وشقيقه تحسين[176] وبعض الضباط ومعهم مذكرة وقّعها زعماء العراقيين الموجودين في سوريا احتجاجًا على أعمال الإنجليز في العراق لتقديمها إلى ممثلي الدول في مصر، ورأينا في هذه المذكرة ضعفًا، فاتفقت وصديقي ثابت عبد النور على وجوب تعديلها وعدلناها، ثم ذهبت مع ناجي الأصيل[177] على ما أذكر إلى مفوضيات الدول في مصر وقدمناها لها.

وكان أصدقائي العراقيون قد قرروا إصدار جريدة في دمشق باسم **العقاب** أتولى أنا تحريرها، وقد أعدّوا العدّة لها وبقوا منتظرين حضوري. ولما علم جعفر سبب تأخري قال لن أذهب من هنا إلا معك. وكانت قد وقعت في منطقة معان اضطرابات أقلقت بال الإنجليز فاتفقوا مع حكومة دمشق على تعيين جعفر العسكري حاكمًا لتلك المنطقة. وكانوا يرون فيه الرجل الكفء لإصلاح الموقف، ويلحون عليه بوجوب السفر في الحال.

وانتهز جعفر هذه الفرصة وقال عني إن فلانًا يفيدني جدًا في مهمتي وقد عينته سكرتيرًا لي ويجب أن استصحبه معي. فوافق الإنجليز مضطرين وحددوا موعد السفر، ولكنهم قالوا بعد أن وصلنا إلى القطار إنه لا يوجد مكان لي فيه وإني سأسافر في القطار التالي. فلما سمع جعفر ذلك قال إنه يهمه جدًا أن يستصحبني معه لمساعدته في منصبه الجديد في منطقة معان، وإن شقيقه تحسين بك والضباط الآخرين سيتأخرون إذا أنا سافرت مكانهم. وهكذا أوجد الإنجليز أمام أمر واقع. فسافرت حينئذ أنا وفوزي البكري وجعفر وشقيقه ومن كان معهم من الضباط في قطار عسكري لم يكن فيه غيرنا سوى عدد قليل من الضباط البريطانيين، وهو القطار الذي قيل إنه لا يليق بأن يستقله أمثالنا وأنه لا يوجد لي مكان فيه.

ولما وصلنا إلى القنطرة اقترب ضابط بريطاني من جعفر وأبلغه أنه مكلّف بتسهيل نقله إلى الضفة الشرقية، فرفض جعفر أن يتركنا وفضل السير معنا مشيًا على الأقدام على الجسر (الكوبري) الذي كان قائمًا حينئذٍ فوق القناة. ولم نجد في الضفة الشرقية حمّالين ولا عمالًا يمكن الانتفاع بهم في نقل ما كان معنا من الأمتعة إلى قطار فلسطين. وكانت هذه الأمتعة كثيرة لأن عائلتي نوري السعيد وفوزي البكري كانتا مسافرتين معنا، وقد أخذتا ما استطاعتا أخذه من الطنافس والصناديق وغيرها، فاضطررنا إلى نقل كل ذلك على أكتافنا في تلك الليلة المظلمة الباردة بعد أن أعددنا مكانًا في الصحراء لاستراحة السيدات والأطفال. وكان جعفر يحمل على كتفه أثقل الصناديق ويترك لنا الخفيف منها، وقد فكر كما فكرنا بأن الإنجليز لم يقصدوا بهذا العمل مجاملتنا.

ووصلنا إلى دمشق بعد ظهر اليوم التالي فكان استقبال فوزي بك وجعفر باشا ورفقائهما حافلًا حتى

خيّل إلي أن دمشق كلها اجتمعت في المحطة لتحية القادمين.

في دمشق

وكان الأمير فيصل غائبًا في أوروبا يوم وصولي إلى دمشق وقد أناب شقيقه الأمير زيد عنه في مدة غيابه. فذهبت في اليوم التالي لمقابلته مع ثابت عبد النور، واكتشفت فيه في هذا الاجتماع الأول الصفات السامية التي حبّبته إليّ فيما بعد كما حبّبته إلى جميع الذين حظوا بصداقته من الوطنيين.

وفي ليلة وصولي تعرفت بياسين الهاشمي رئيس هيئة أركان الحرب حينئذٍ، والرجل الذي كانت تعقد عليه الآمال الكبيرة، فأدركت منذ اللحظة الأولى أنه الجدير بأن تعقد عليه مثل تلك الآمال. ثم اجتمعت بأصدقائي الذين كنت أعرفهم في اسطنمبول كشكري القوتلي وسامي العظم وسعيد حيدر، وتعرفت على التوالي برجال العرب الذين كانت دمشق حينئذٍ غاصة بهم أمثال أحمد مريود[178] وعزت دروزة[179] وإبراهيم هنانو وسعد الله الجابري ومعين الماضي[180] وعبد القادر المظفر[181] وبهجت الشهابي[182] ومصطفى الشهابي[183] وخير الدين الزركلي[184] وتوفيق الناطور[185] وفؤاد سليم[186] وغيرهم من أركان حزب الاستقلال الذي كان حينئذ مسيطرًا على الحالة في سوريا.

لجنة كراين

وبعد مدة وصلت لجنة كراين[187] إلى سورية لاستفتائها في أمر الدولة التي تختارها لمعاونتها على النهوض اجتماعيًا واقتصاديًا من الحالة التي أوصلتها إليها الحرب، وفاقًا لمبادئ الرئيس ولسن.

فقد رُوي أن بعض الشعوب التي خرجت من الحرب ضعيفة منهوكة القوى يتعذر عليها السير وحدها في طريق الاستقلال بالسرعة التي تتطلبها الحضارة وطبيعة العمران، كما رُوي أنه لا بد للأمم الغنية القوية من التضحية بأقصى ما تستطيع تضحية خالصة لوجه الله معها وأن تقبل هذه الدولة التضحية المطلوبة منها عن طيب خاطر.

ولم يكن الرئيس ولسن، وهو يضع هذه المبادئ، يعرف حيل السياسة ودسائسها وأكاذيبها. فالدول التي أقرت مبادئه الأربعة عشر وأطلقت عليها اسم «إنجيل ولسن» لما كانت في حاجة إليه تنكرت له بعد النصر، وبذلت قصارى جهدها لتحويل الرأي الأمريكي عنه، ثم قلبت له ظهر المجن، وأخذت في تحطيمه وهدم كل ما بناه، إلى أن قضت عليه وجعلت انجيله قصاصة من الورق.

وقد رأى العالم في لجنة كراين أول دليل مادي على إفلاس مبادئ ولسن وفوز الاستعمار عليها فوزًا حاسمًا، ذلك لأنه كان من المقرر أن تكون هذه اللجنة دولية، أي أن تشترك فيها إنجلترا وفرنسا مع الولايات المتحدة. فلما طالبتهما حكومة واشنطن بذلك أعلنتا عدم موافقتهما على مهمة هذه اللجنة وعدم تقيدهما بقراراتها. واضطر الرئيس ولسن حينئذ إلى الاكتفاء بلجنة كراين التي كان جميع أعضائها من الأمريكيين، على أمل أن يتمكن في المستقبل من تحقيق العهود التي قطعها على نفسه للعالم أجمع، وتذليل جميع العقبات التي يقيمها الاستعمار في طريقه.

وجاءت لجنة كراين فزارت سورية وفلسطين ولبنان وسمعت جميع الآراء واختلطت بجميع طبقات

الشعب وعرفت حقيقة أمانيه ثم وضعت تقريرًا مسهبًا ضمنته كل ما رأت وسمعت.

ولعبت السياسة البريطانية لعبتها في تلك الأثناء، حينما رأت أن سوريا كلها مجمعة على المطالبة بالاستقلال التام الناجز، ورفض كل مساعدة تأتيها من أية جهة كانت. فقد اقنعت الملك فيصل وبعض المسؤولين حينئذ عن إدارة البلاد بأن أمريكا سترفض المساعدة التي تطلبها سوريا منها، لأنها عازمة على أن لا تحيد قيد أنملة عن مبدأ «مونرو»[188] وأن إنجلترا لا تستطيع أن تأخذ هذه المساعدة على عاتقها لأنها تسيء بذلك إلى فرنسا إساءة عظيمة، وهي حليفتها وفي حاجة ماسة إلى صداقتها. ولذلك يحسن بالسوريين أن لا يرفضوا المساعدة الأمريكية والبريطانية لأن هذا الرفض قد يضطر الدول إلى إكراه سوريا على قبول المساعدة الفرنسية التي لا تريدها.

وأثار هذا الاقتراح خلافًا في الرأي العام وعارضته الأحزاب والهيئات الوطنية معارضة شديدة، فعقد حزب الاستقلال اجتماعات عديدة خاصة حضرها الملك فيصل نفسه، كما حضر اجتماعات كثيرة لهذا الحزب كان يشترك فيها الألوف من الوطنيين. مع ذلك لم تضعف المعارضة بالرغم من الاعتقاد السائد حينئذٍ بصداقة الإنجليز وحسن نيتهم، وبأن قبول الاقتراح المتقدم منهم قد يرضيهم ويضاعف تأييدهم لقضايانا ضد السياسة الفرنسية، ولا يعود علينا بأي ضرر خصوصًا وأن إنجلترا لا تستطيع أن تقبل منا ما رفضناه على حليفتها فرنسا من دون أن يصاب التحالف بينهما بتصدع خطير.

وأخيرًا وافقت أكثرية حزب الاستقلال بعد مناقشات طويلة على أن لا تقتصر مذكرتها إلى لجنة الاستفتاء وأحاديثها معها على المطالبة بالاستقلال التام، وأن تتضمن الإشارة إلى ما قد تحتاج إليه سوريا من مساعدات اقتصادية تقبلها من أمريكا، وإذا تعذر عليها ذلك فمن إنجلترا، بشرط أن لا يكون فيها أي مساس بسيادة البلاد واستقلالها، وهي ترفض كل مساعدة تأتي من فرنسا رفضًا باتًا.

وقد أقرت الهيئة الادارية لحزب الاستقلال هذه المبادئ بعد أن أفضى إليها الملك فيصل بأسرار كثيرة عن الوعود التي نالها من إنجلترا والعهود التي قطعتها على نفسها لتأييد استقلال سوريا ومساعدتها على تأمين الوحدة العربية.

وهكذا تضمن التقرير الذي حملته لجنة كراين إلى الرئيس ولسن أن سوريا مجمعة على طلب الاستقلال التام اجماعًا تامًا، وأن المساعدات المادية التي قد تحتاج إليها ستطلبها من أمريكا دون سواها، ويمكنها أن تقبل هذه المساعدات من إنجلترا في حالة تعذر الحصول عليها من أمريكا بشرط أن لا يكون فيها أي مساس باستقلال البلاد وسيادتها. وهي ترفض رفضًا باتًا كل مساعدة تأتيها من فرنسا.

وقد كنت من الذين اجتمعوا بهذه اللجنة مع ممثلي حزب الاستقلال، ودام الاجتماع نحو ساعة تناول الحديث فيها كل هذه الشؤون. وقد أوضح الحزب أن سوريا كانت عازمة على رفض كل مساعدة أجنبية لأنها تعدها وسيلة للاستعمار. ولكن ثقتها بالمبادئ السامية التي وضعها الرئيس ولسن ووافق العالم كله عليها حملتها على أن تلجأ إليه وإلى حكومته في كل ما تراه ضروريًا لنهضتها وتحسين أحوالها الاقتصادية والاجتماعية ورفع شعبها إلى المستوى اللائق به.

وكان المتحدثان عن حزب الاستقلال في هذا الاجتماع الدكتور سعيد طليع[189] بالإنجليزية والأستاذ توفيق الناطور بالفرنسية.

هذه قصة لجنة كراين في سوريا. فقد كانت أول مظهر من مظاهر الخداع الذي ذهب الرئيس ولسن ضحيته، وأعظم دليل على كذب السياسة وتفنن رجالها في الغش والرياء واستدراج الأبرياء من أصحاب الشرف والنية الحسنة إلى الشراك التي ينصبونها أمامهم في طريق الخير.

وقد قال لي الدكتور أمين معلوف يوم وصول الرئيس ولسن إلى باريس واستقباله فيها استقبال الفاتحين: تصور أن هذا الرجل المخلص الطيب القلب سيجلس إلى مائدة الصلح مع لويد جورج[190] وكليمنصو[191] المشهورين بالدهاء السياسي وسعة الحيلة والتفنن في ابتكار أساليب الخداع والاقناع. فمثله معهما مثل الدكتور صروف إذا جلس إلى مائدة القمار مع داود عمون[192] ونسيم صيبعة[193] المعروفين بمقدرتهما على اللعب وخبرتهما الطويلة بطرقه ووسائله.

وقد أحسن الدكتور معلوف في ما قاله. وجاءت النتيجة مصداقًا لما كان يتوقعه وحملني على توقعه معه.

الرأي العام وتطوره في سوريا

بعد مضي يوم واحد وصولي إلى دمشق، عقد حزب الاستقلال العربي اجتماعًا عامًا لانتخاب لجنته الإدارية وكنت من جملة الذين فازوا في هذا الانتخاب.

ثم قرر الحزب القيام بمظاهرة كبرى احتجاجًا على تصريحات أحد الوزراء الفرنسيين بشأن سوريا، وضرب موعدًا لهذه المظاهرة بعد يومين على ما أذكر.

وفي اليوم المعين سارت الألوف وعشرات الألوف في شوارع دمشق حتى غصّت بهم وبمن انضم إليهم من سكان القرى الذين جاءوا خصيصًا إلى العاصمة لهذه الغاية. وكانت مظاهرة عظيمة خرج فيها المتظاهرون مسلحين جريًا على عادتهم في ذلك الحين. وصادف أن سرت فيها إلى جانب سعدالله الجابري. وقد لفت نظري أمران لم أتردد في إبداء ملاحظاتي عليهما لصديقي الكبير وهما الرصاص الذي كان يطلقه المتظاهرون في الفضاء والأناشيد التي كانوا ينشدونها. فقد أضاعوا سدى أكثر من ثلاثين ألف رصاصة في ذلك اليوم وكان نشيدهم الوحيد: «دين محمد دين السيف».

وقد قال لي صديقي ردًا على ملاحظاتي: «إن هذا الشعب بعيد بفطرته عن التعصب سريع التطور محب للنهضة شديد الوطنية ذكي مقدام. فما تراه وتسمعه الآن إنما هو من تأثير العادة التي كثيرًا ما تدفع إلى العمل بلا تفكير. وسترى كيف يصبح هذا الشعب بعد قليل إذا عرفنا أن نقوم بواجبنا في تدريبه وتثقيفه من الوجهتين السياسية والاجتماعية».

وكان رأي صديقي في محله. فلم أنتظر طويلًا لأرى الدليل على صحته، لأن حزب الاستقلال قرر قبل مضي شهر واحد على المظاهرة الأولى القيام بمظاهرة أخرى أعظم شأنًا منها، دعا إلى الاشتراك فيها سكان قرى الغوطة. ولكنه كان في خلال هذا الشهر قد عرف أن ينظم الشعب، فتدفقت الجماهير من جميع الأحياء قاصدة إلى شارع النصر، يتقدم سكان كل حي الضباط القدماء ووراءهم الشبان والكهول في صفوف منظمة كأنهم جنود في حفلة عرض. وصادف أن سرت في هذه المظاهرة أيضًا إلى جانب أصدقاء بينهم الصديق

الذي كنت معه في أثناء المظاهرة الأولى. وما كان أشد دهشتي لما رأيت هذه الألوف من المتظاهرين يسيرون في شوارع دمشق بنظام عسكري تتقدمهم الأعلام وهم ينشدون أنشودة: «أنت سوريا بلادي» وغيرها من الأناشيد الوطنية، ولم يطلق أحد منهم رصاصة واحدة من بندقية أو مسدس.

ووصل المتظاهرون بهذا النظام البديع إلى ميدان الشهداء «ساحة المرجة»، حيث خطب بعض الخطباء على مسمع من رجال الحكومة الذين أطلوا عليهم من شرفات السراي. ثم وضع الزعماء قرارًا قدموه إلى الحاكم العام وعادوا وهم يهتفون للحرية والاستقلال.

وهكذا كفى شهر واحد لإحلال النظام في أعمال الشعب محل تلك الفوضى، وحمله على الإقلاع عن عاداته القديمة من إطلاق الرصاص لغير ما سبب والتغني بعبارات لا يُفهم معناها، فأصبح الشعب بعد هذا الشهر يعرف أنه يحتاج إلى الرصاص في الدفاع عن استقلاله، ويفهم لماذا يقوم بمظاهراته، ويدرك معنى الوطنية على حقيقته، وينشد الأناشيد الحماسية، ويسير بنظام عسكري في الشوارع.

دمشق كعبة العرب

وهذا الانقلاب الذي شاهدته في طبقات الشعب المختلفة قبل أن يمضي شهر واحد على وصولي إلى دمشق، شاهدت ما هو أعظم منه في الدلالة على عظمة الشعب السوري وصدق وطنيته وعظم استعداده للنهضة والارتقاء في الأشهر الطويلة التي قضيتها بعد ذلك في عاصمة سوريا.

ولا غروَ، فقد ضمت دمشق في تلك الأشهر الخالدة من تاريخ سوريا رجالات الأمة العربية وخيرة شبانها ومفكريها من جميع الأقطار، وأصبحت كعبة لكل وطني عربي، فتوطنها من زعماء العراق ياسين الهاشمي، وجعفر العسكري، ومولود مخلص[194] وجميل المدفعي وعلي جودت الأيوبي ورشيد الخوجة وإبراهيم كمال وناجي السويدي[195] وتوفيق السويدي[196] وطه الهاشمي وثابت عبد النور وإسماعيل نامق وتحسين علي وتحسين العسكري وكثيرون من الضباط والمفكرين الذين بنوا بسواعدهم استقلال العراق.

واجتمع فيها من زعماء سورية الداخلية أمثال هاشم الأتاسي[197] وإبراهيم هنانو وسعد الله الجابري وصبحي بركات[198] ومظهر رسلان[199] وإحسان الجابري وأحمد مريود والأمير فاعور[200] والأميران بهجت ومصطفى الشهابي وبعض عظماء آل الأطرش وزعماء جبل الدروز وحوران والبادية وكثيرون من المفكرين والأدباء علاوة على رجالات دمشق وشبانها المثقفين الذين شتتتهم الحرب وعادوا إليها من تركيا ومصر وسائر الأقطار.

واستوطنها من رجالات سورية الغربية ولبنان رضا الصلح والأمير عادل أرسلان ورياض الصلح ورشيد طليع[201] والدكتور سعيد طليع وتوفيق الناطور وسعيد حيدر وفؤاد سليم وسعيد عمون ورشيد الحسامي[202] وكثيرون من آل بيهم وعظماء الدنادشة ومعظم زعماء بلاد العلويين وجبل عامل وبيروت وطرابلس.

وأقام فيها من رجالات سوريا الجنوبية أمثال الحاج أمين الحسيني[203] وعوني عبد الهادي وعزت دروزة ومعين الماضي والشيخ عبد القادر المظفر وأحمد حلمي وصبحي خضرا[204] وكثيرون من كبراء آل الحسيني والتميمي وغيرهم.

وعاد إليها من مصر الشيخ كامل القصاب[205] والدكتور عبد الرحمن شهبندر وخالد الحكيم، وقد ظلت أبواب سوريا مقفلة في وجوههم بضعة أشهر بعد إعلان الحكم العربي فيها، ثم تبعهم إليها إسكندر عمون فبعض الشبان الذين اشتركوا في الثورة العربية فضموا جهودهم إلى جهود رجالات دمشق وشبانها أمثال شكري القوتلي ونبيه العظمة[206] وخير الدين الزركلي وفخري البارودي.

وأقبل عليها من اسطنبول وأوروبا يوسف العظمة شهيد ميسلون ونجيب شقير وساطع الحصري وجميل مردم وكثيرون من الضباط والمفكرين السوريين والعراقيين الذين كانوا في تركيا، فليس بغريب والحالة هذه أن تصبح دمشق التي كانت تعد بين المدن المتأخرة في العلم والحضارة والثقافة السياسية نبراسًا تستضيء به الأمة العربية في نهضتها الحديثة، لأن وجود أمثال هؤلاء الرجال البارزين الذين ذكرنا أسماء بعضهم، كان كفيلًا بإحداث مثل هذا الانقلاب العظيم، لا في دمشق وحدها بل في سوريا كلها أيضًا، ولا سيما أن زعماء الأمة العربية وكبار مفكريها وخيرة شبانها الذين لم يسعدهم الحظ بالإقامة في دمشق كعبد الحميد كرامي[207] وسلطان الأطرش[208] ويوسف السويدي[209] والشبيبي[210] والرصافي وبيهم والتميمي[211]، كانوا يكثرون من التردد عليها وقضاء أيام وأسابيع فيها، لمساعدة إخوانهم في مهمة تنظيم الأمة وتوطيد أركان الاستقلال ومفاوضاتهم في الخطة التي يجب انتهاجها لتحقيق هذا الاستقلال ونشر لوائه في جميع الأقطار العربية. فكانت فنادق دمشق غاصة على الدوام بضيوف عظماء من خيرة الوطنيين في العراق وفلسطين ولبنان ومختلف أنحاء البلاد العربية.

ويعود معظم الفضل في توجيه أنظار الأمة العربية إلى دمشق إلى نشاط رجالات سوريا ومساعي حزب الاستقلال العربي وبُعد نظر الأمير فيصل والصفات النادرة التي تحلى بها شقيقه الأمير زيد وجمعت حوله قلوب الوطنيين في مختلف الأقطار.

حزب الاستقلال العربي

وكانت دمشق في حياتها الاستقلالية دماغ الأمة العربية وقلبها النابض ويدها العاملة ومصدر النور الذي تستضيء به في طريقها إلى الحرية والحياة.

اجتمع فيها رجالات الأمة العربية وكانوا على رأي واحد يعملون كرجل واحد في سبيل غاية واحدة، فلم يمضِ وقت طويل حتى تبدلت دمشق بل سوريا كلها من حال إلى حال. وكان النادي العربي فيها كما المنتدى الأدبي في اسطنبول مركز الحركة والنشاط ومدرسة التربية الوطنية السياسية يجتمع فيه الشبان لسماع الخطب وتبادل الآراء، ويقصد اليه الزعماء لنشر مبادئهم وتعاليمهم.

وكان حزب الاستقلال العربي هو الحزب المسيطر على البلاد. وكانت له لجنتان إحداهما سرية «جمعية

العربية الفتاة» والثانية علنية وتسترشد بآراء الأولى، وكان يضم بين أعضائه جميع رجالات العرب كالأمير فيصل والأمير زيد ويس الهاشمي والشيخ كامل القصاب وشكري القوتلي وإبراهيم هنانو والأمير عادل أرسلان وخير الدين الزركلي ورفيق التميمي وعزت دروزة وعوني عبد الهادي والسيد أمين الحسيني ونبيه العظمة وأحمد مريود وسعيد حيدر ومعين الماضي وجميل مردم وخالد الحكيم وبعض الأمراء الشهابيين وآل البكري وغيرهم. وانضم إليه رضا الركابي والدكتور عبد الرحمن شهبندر ويوسف العظمة ومعظم الزعماء والقواد والضباط السوريين والعراقيين حتى بلغ عدد الذين انضموا اليه والذين خاطبت هيئته الادارية لجنة المستر كراين الأمريكية باسمهم 75 ألفًا. فلم يكن يُقرَّر عملٌ أو تؤلف وزارة أو توضع خطة في أول الأمر إلا بالاتفاق معه.

وقد ساعد وجود هذا الحزب المنظم على نشر المبادئ الوطنية وتنظيم الأعمال السياسية وتنمية الروح القومية وإيجاد النهضة الفكرية والاجتماعية التي نرى الآن آثارها في سورية.

اللجنة الوطنية

ولا ننسى ما كان «للجنة الوطنية» من الفضل في نهضة دمشق وتقوية الروح الوطنية فيها. فقد كانت هذه اللجنة مظهرًا من مظاهر حزب الاستقلال، ولكنها استطاعت أن تدخل إلى قلب الشعب في دمشق وأن تسيطر عليه.

ويرجع الفضل في تأليفها إلى الشيخ كامل القصاب الذي جمع حوله فيها جميع زعماء الأحياء والتجار وأرباب الحرف والصناعات من معممين وغير معممين شيوخًا وكهولًا وشبانًا حتى أصبحت دمشق كلها ممثلة في هذه اللجنة التي كان يديرها بهمة عظيمة. وقد انتدب حزب الاستقلال اثنين من أعضائه ليمثلاه فيها. وكنت أنا واحدًا منهما، فاستطعت أن اختلط بجميع الطبقات وأن أدرس روح دمشق عن كثب.

والروح التي رأيتها في دمشق هي روح الحياة التي كانت راقدة فاستيقظت، واستيقظت معها جميع الصفات والمزايا والمواهب الكامنة في صدر هذا الشعب. وليس من السهل علي أن أصف اليقظة التي بدت في دمشق، والانقلاب الذي طرأ على الحياة الفكرية والاجتماعية والوطنية فيها، والنضوج السياسي الذي بلغت إليه الأمة في أشهر قليلة هي الأشهر التي تمتعت فيها بحريتها واستقلالها. ولكني أذكر بعض حوادث وقعت لي قد تساعد القارئ على تفهم مدى ذلك الانقلاب العظيم.

تطور الوعي الوطني

كانت الصفات التي امتاز بها أهل سوريا جميعًا الصفات الفطرية الموروثة من كرم وشجاعة وتسامح وطيبة وسلامة نية ولين عريكة مما عرفه جميع الذين عاشوا في مدن سورية الداخلية التي كانت ولا تزال محتفظة بكثير من الأخلاق والتقاليد العربية. أما ما عرفته أنا وأريد أن أذكر بعض أمثلة عنه فكان نتيجة اليقظة التي دبت في الأمة في عهد استقلالها القصير فكشفت عن المزايا العظيمة التي كانت كامنة فيها.

وفي مقدمة هذه الأمثلة التي يستطيع القارئ أن يرى فيها صورًا للنهضة القومية من وجوهها المختلفة ما ذكرته آنفًا عن المظاهرتين اللتين اشتركت فيهما في الشهر الأول من إقامتي في دمشق، فإن الفرق بين حالة الشعب الروحية في المظاهرة الأولى وبينها في الثانية كان عظيمًا جدًا لأن الجماهير في المظاهرة الأولى لم تخرج لغرض سياسي بل خرجت للتنزه وإطلاق الرصاص وإنشاد الأناشيد مدفوعة بعامل التنافس بين شبان الأحياء المختلفة، فكانت مظاهرة لا روح فيها ولا غاية لها ولا مغزى. وأما المظاهرة الثانية فكانت مظاهرة سياسية بالمعنى الصحيح لا تختلف في شيء عن مثلها في عواصم الغرب. وكان كل فرد فيها يعرف لماذا يتظاهر وماذا يقول وما هو الغرض الذي يسعى إليه وكيف يمكن تحقيقه. ولذلك ساد النظام تلك المظاهرة من أولها إلى آخرها. فلم نسمع في أثنائها غير الأناشيد الحماسية والوطنية. ولم تطلق فيها رصاصة واحدة لأن الجمهور أصبح يشعر بحاجته إلى هذا الرصاص في الدفاع عن استقلاله. أما التنافس بين شبان الأحياء فقد انقلب إلى رغبة عامة في منافسة الأجنبي في جميع ميادين الحياة.

ومما يذكر تأييدًا لما تقدم أني في اليوم التالي لوصولي إلى دمشق دُعيت إلى تناول الغداء في دار آل البكري، فوجدت هناك شيخًا جليلًا معممًا كان يتحدث عن مصر ويشيد بمزايا حكم الإنجليز فيها. وأهم ما لفت نظري في حديثه قوله إن الإنجليز يحبون المسلمين. واستدل على ذلك بما كان يقابل به من الإكرام حينما يزور دار المندوب السامي في القاهرة، وبالآيات القرآنية التي قال إنه رآها مكتوبة على الجدران في إحدى قاعات تلك الدار.

على أن هذا الشيخ الذي كات يُلقي علينا في دار آل البكري أمثال هذه الحكم، اجتمعتُ به بعد شهر ونصف [الشهر] تقريبًا في دار شكري القوتلي، وتناول الحديث لورانس وسياسته العربية فما كان أشد دهشتي حينما سمعت هذا الشيخ نفسه يقول إن الإنجليز أقدر أمة على الخداع، فهم كالمواد المخدرة يجد الإنسان فيها بعض اللذة ولكنها تضعفه وتقتله في النهاية، وهو مغتبط مسرور. فقلت له وقد تذكرت حديثه في دار آل البكري: «ولكنهم يا أستاذ يحبون المسلمين ويزينون دورهم بالآيات القرآنية»، وكأنه نسي أنه هو الذي قال هذه الكلمة قبل شهر ونصف [الشهر]، فوقف محتدًا وقال إن هذه المظاهر يا بني من وسائل الخداع التي يلجأون إليها. فحذار أن تُخدع بها، إن الإنجليز يجدون بين رجالهم متطوعين لجميع القضايا وجميع السياسات، حتى إذا نجحت قضية منها، اتخذها المتطوع لها من الإنجليز وسيلة لخدمة بلاده، فلورانس يتظاهر الآن بخدمة مصالح العرب على يد الأشراف وفيلبي[212] يتظاهر بمثل ذلك على يد ابن السعود ولكل منهما سياسة تتعارض وسياسة الآخر. فإذا فاز الأشراف ادعى لورانس أنه هو الذي تمكن من استمالة إنجلترا إلى تأييدهم. وإذا نجح ابن السعود لعب فلبي معه مثل هذا الدور. ولا يبعد أن يكون للإنجليز أمثال لورانس وفيلبي في كل بلد من بلاد العالم.

وقد كان الشيخ مخلصًا فيما قاله في المرتين. ولكنه في المرة الأولى كان يقول ما تُمليه عليه سذاجته، وأما المرة الثانية فقد ترك عقله يتكلم بعد أن هذبته المحاضرات والاجتماعات التي كانت تعقد على التوالي في مختلف الأحياء فيحضرها الزعماء والمفكرون والشبان إلى جانب أبناء الطبقات المختلفة من عامة الشعب، فتُلقى فيها الخطب وتُبسط الحقائق السياسية والاجتماعية لإنارة السبل أمام الأمة في جهادها العظيم من أجل الحياة والحرية والاستقلال.

وحضرت مرة اجتماعًا عامًا كان الثاني أو الثالث، من الاجتماعات التي عقدتها اللجنة الوطنية بعد تأليفها. فجلس إلى جانبي كهلٌ من ذوي العمائم الخضراء. وكأنه لم يرقه ما سمعه مني عن قوة الطامعين وما يقضي به الواجب الوطني من عظم الاستعداد لصدها إذا سولت لهم المطامع محاولة الاعتداء على البلاد. فنهض محتدًا ووجه إليّ عتابًا شديدًا على مبالغتي في تقدير الخصم وإساءتي إلى الأمة في عدم تقدير قوة الحياة الكامنة فيها. ثم قال: «إن في البلاد قوة تكفل طرد المغتصب من جميع الأقطار العربية لولا انقيادها لزعماء لا يعمل بعضهم إلا لأغراض خاصة»، وكان يعني بذلك الأمير فيصل رحمه الله.

وقد اقترح هذا الشيخ تدمير جميع الجسور (الكباري) على الحدود لمنع العدو من مهاجمة البلاد، وما كان أشد نقمته عليّ لما أبديته من ملاحظات حالت دون قبولنا اقتراحه، فخرج من الاجتماع منذرًا غاضبًا.

على أن هذا الرجل الذي دلّ بسذاجة اقتراحه على جهل تام بكل ما هو خارج حدود دمشق، رأيته بعد أسبوعين فقط في أحد اجتماعات اللجنة نفسها وقد زار في هذه الفترة لبنان وفلسطين وشاهد القوات العسكرية فيهما، وطاف في أنحائهما فأدهشته كثرة ما رآه من المدافع والرشاشات والطيارات والدبابات. وشهد الجيوش في مناوراتها وثكناتها، فهاله ما رآه من عدّتها وعددها. ثم عاد إلى دمشق بعقلية جديدة ولكنه لم يفقد شيئًا من حماسته. فكان أول ما اقترحه على اللجنة بعد هذه الرحلة وجوب إعلان الخدمة العسكرية العامة من السابعة عشرة إلى الخامسة والخمسين، وتخصيص ميزانية سنة كاملة لشراء المعدات العسكرية الحديثة، والإسراع في إرسال ضباط لتنظيم القبائل وتدريبها، وما شاكل ذلك من وسائل تقوية الروح الوطنية التي كان يقول إنها أعظم سلاح للأمة، وتحصين الحدود وإقامة الاستحكامات وحفر الخنادق في جميع المواقع التي تصلح للدفاع.

وهذا التبدل في عقلية الرجل شاهدت مثله بل أعظم منه في مختلف طبقات العامة. فإن هذه الطبقات كانت معروفة في دمشق بأنها تسير وراء الأسر الوجيهة التي تتوارث النفوذ من أجيال، فتستشيرها دائمًا وتأتمر بأمرها، ولكن أسابيع قليلة مضت على قيام الحكم العربي في الشام كانت كافية للقضاء على هذه التقاليد. وما كان أشد دهشتي حينما كنت أسمع في اللجنة الوطنية المؤلفة على الأكثر من عامة الناس تنديدًا شديدًا ببعض الأعيان وذوي النفوذ من أبناء الأسر الدمشقية الكبيرة الذين كانوا متهمين خطأً أم صوابًا بالخيانة أو بضعف العقيدة الوطنية. وهكذا تلاشى نفوذ هذه الأسر بسرعة مدهشة وحلّ محله نفوذ المفكرين من رجالات الأمة وشبانها لا فرق بين مواطنهم ومذاهبهم ومراكزهم الاجتماعية. وأصبحت الأمة لا تحترم فلانًا لأنه من الأسرة الفلانية بل تحترمه لأنه وطني وكفى.

وقد ضاعت هيبة الارستقراطية في دمشق، وتلاشى نفوذها إلى حد أن أكبر رجالها أمثال عبد الرحمن اليوسف ومحمد العظم وغيرهما طلبوا الانضمام إلى حزب الاستقلال لاسترداد مكانتهم وهيبتهم بواسطته، فرفض الحزب طلبهم. ولكن الأمير فيصل وُفِّق بعد جهد جهيد إلى اقناعه [إقناع الحزب] بأن يؤلف لجنة استشارية يكونون هم من أعضائها، ولا يكون لهم به سوى هذه العلاقة الإسمية، بحيث يستطيع ان يستفيد منهم حينما يرى مجالًا للاستفادة، ويشدد الضغط عليهم إذا وجد ضرورة لهذا الضغط. وقد أراد الأمير فيصل بذلك استرضاء أعيان دمشق ومنع بعضهم من الاستمرار في دس الدسائس، فوُفِّق إلى ذلك بهذا

الحلّ البسيط.

وهذه الأمثلة القليلة أوردتها للدلالة على عظم الانقلاب الفكري والاجتماعي في سوريا. ولدي أمثلة كثيرة أخرى قد تكون أقرب إلى تصوير الحالة منها، ولكن سردها يطول. فأكتفي الآن بما تقدم وأقول إن بلدًا يتبوأ فيه الوطني المقام الأول لمجرد كونه وطنيًا وبصرف النظر عن مركزه وسنه وثروته ودينه ومنزلته في عشيرته والمدينة أو القبيلة أو القرية التي ولد فيها، لهي البلد الذي تصلح تربته لبناء صروح المجد ونمو مبادئ الحرية وتوطيد دعائم الاستقلال، ولأن يكون مصدر كل حضارة وارتقاء. فقد كانت دمشق بل سوريا كلها في قبضة الوطنيين من رجال العرب في الأشهر التي تمتعت فيها بنعمة الاستقلال وأصبحت الكلمة النافذة لأمثال الهاشمي والقوتلي وهنانو ودروزة ومريود وغيرهم من الرجال الذين لم يستمدوا نفوذهم إلا من صدق وطنيتهم، فانهارت قوات الرجعية ورفعت الوطنية لواءها عاليًا وبلغت الحماسة أشدها في نفوس الشعب.

لو ظهر رجل عظيم

فأي عملٍ كانت الأمة العربية تعجز عنه بعد أن بلغت إلى هذه الحالة من اليقظة والانتباه لو ظهر حينئذٍ في دمشق رجلٌ عظيم؟ ولا أظنني بقولي هذا أبخس أحدًا من رجالات العرب حقه، فقد تحلى كثيرون منهم بصفات عظيمة. ولكن الصفات التي تحلى بها كل منهم لم تكن كافية لتنجب الزعيم الذي يُراد منه أن يخلق أمة. وليست الأمة هي التي تختار زعيمها أو منقذها بل الزعيم هو الذي يختار نفسه ويظهرها بتفوقه على المستوى العام وبما يتجلى فيه من المواهب التي تعد الجرأة والتضحية في مقدمتها، وبالطريقة التي يصدم بها الخصم ويدكّ القديم ويُقيم الجديد على أنقاضه.

البحث عن المنقذ

وقد كنت أنا شخصيًا أنتظر ظهور هذا المنقذ في شخص عزيز علي أولًا، وياسين الهاشمي ثانيًا، ويوسف العظمة ثالثًا، ولكن الحوادث خيبت آمالي في هؤلاء الرجال كما خيبتها في غيرهم من أمثال طه الهاشمي وجميل المدفعي ومحمد إسماعيل ومن على شاكلتهم من رجال الأمة.

فعزيز علي الذي كان موضع آمالي وآمال كثيرين غيري ظل بعيدًا عن ميدان السياسة السورية في إسبانيا ثم في ألمانيا. وهذا ما يواخَذ عليه رجل من طينته، وما يدل على أنه لم يكن الرجل المختار لهذه المهمة الخطيرة، وإلا لما استطاعت قوة في العالم أن تحول دون قيامه بها. فتنحّيه عن المعركة التي كان من أكبر قادتها، بعد أن دخلت في دور الفصل، لا يغتفره التاريخ له إذا اغتفر لغيره. أقول هذا وأنا لا أجهل العقبات العظيمة التي كانت تعترض عودته إلى دمشق واشتراكه في إدارة النهضة التي انبثقت فيها. فهذه العقبات يتحطم عندها كل شيء إلا إرادة الرجل المختار لإنقاذ أمته. ولو أن عزيزًا وصل إلى دمشق في تلك الأيام التي تجلّت فيها حماسة الأمة لسيطر على الجيش ووجد بين الشبيبة التي أشرف على تربيتها في العاصمة العثمانية أعظم قوة له

في العاصمة السورية تمكّنه من القبض على ناصية الحالة. ولكي يدرك القارئ عظم المكانة التي كان يشغلها عزيز في النفوس أذكر حادثة بسيطة جرت لي مع ياسين الهاشمي وهو في أوج سطوته ونفوذه في دمشق. فقد كنت اتفقت سرًا مع الأمير زيد على أن نرسل إلى ثابت عبد النور في أوروبا مبلغًا من المال ليعود إلى سوريا مع عزيز علي. وبعد أن أرسل هذا المبلغ وقعت أزمة في دمشق نشأت عن الاستياء من حكومة الركابي [علي رضا] وعن رفض الهاشمي تولي الحكم. فكلفني بعض أصدقائي مقابلة الهاشمي لسؤاله عن السبب في عدم قبوله تأليف الحكومة إجابة لرغبة الشعب. ولما سألته عن ذلك أجاب بما أقنعني بصحة رأيه. فقلت حينئذ: وما رأيك إذن في التعاون مع عزيز علي إذا جاء إلى هنا؟. فقال: «أنا أعمل مع عزيز كتابع ولا أتردد في قبول أية مهمة يكلفني القيام بها مهما يكن نوعها». فقلت: «أبشرك بأن عزيز بك قد يصل قريبًا». فأبرقت أسارير وجهه سرورًا وشعرت كأن كابوسًا ثقيلًا أزيح عن صدره.

وكان عزيز – لو عاد إلى سوريا – يستطيع أن يقبض على ناصية الحال فيها – ولو لم يكن له ألوف من الأصدقاء في الجيش والادارة وبين المفكرين والشبان – بمجرد ظهوره في عاصمتها، إذا تجلت فيه واحدة من تلك الصفات التي كانت تفرض زعامته فرضًا في كل محيط يعيش فيه.

ولكن المصائب التي حلّت به بعد عودته من الحجاز وإبعاده إلى أوروبا والتأثير البليغ الذي أحدثته خيبة الأمل في نفسه وما رآه حوله من الدسائس والمطامع ونكران الجميل حتى بين أقرب الناس إليه وأكثرهم اتصالًا به، كل ذلك أضعف عزيمته وحجب عن الأنظار أبرز صفاته وأوجد في نفسه يأسًا شديدًا كان يتعذّر معه الإتيان بأي عمل عظيم. فلم تتمكن الأمة من الاستفادة منه الفائدة المنشودة وكان ذلك من سوء حظها وحظه.

الهاشمي قبل الاعتقال وبعده

استطاع يس الهاشمي في خلال الأشهر الأولى التي قضاها في رئاسة أركان الحرب أن يحرز مكانة في نفوس الشعب السوري لا تعلوها مكانة أخرى. وكانت الآمال المعقودة عليه عظيمة، ولكنه وقع في أخطاء أقامت في طريقه العقبات، منها إقدامه على حلّ الجيش الذي فتح سوريا، واستغناؤه عن ضباطه الذين جاهدوا فيه جهاد الأبطال وباعوا نفوسهم رخيصه في سبيل حرية بلادهم واستقلالها. فقد اعتاض عن هؤلاء الضباط البواسل بضباط أقل حماسة وأقل حبًا للتضحية منهم. وفي اعتقادي أنه لو كان الجيش الذي حارب في ميسلون هو الجيش الذي دخل سورية فاتحًا مع الأمير فيصل لكانت النتيجة عكس ما رأينا أو لما عاد من ضباطه وأفراده رجل واحد حيًا إلى دمشق.

ثم أن ياسين الهاشمي كانت تنقصه بعض الصفات اللازمة لقيادة الجماهير. وهي الصفات التي كانت تتجلى في عزيز علي. فصمته عن الكلام وتردده حيث يجب الإقدام، وغموضه وتكتمه حتى مع أقرب الناس إليه وتعاونه في العمل مع أشخاص لا يستحقون دائمًا الثقة التي يضعها فيهم، كل ذلك حال دون تحقيق أمنيته في تأليف جيش نظامي قوي في سوريا، وكان من العوامل المؤثرة في فشل مسألة التطوع التي أراد أن يلجأ إليها.

وقد فكر حينئذ في إيجاد قوات غير نظامية في البلاد تحلّ محل القوات النظامية – التي عجز عن إيجادها – إذا ما وقعت الواقعة. وبذل في سبيل ذلك مجهودات عظيمة كان الملمون بها من العاملين معه يعقدون عليها آمالًا كبيرة.

وبينما كان الهاشمي ماضيًا في تنفيذ هذه الخطة دُعي إلى تناول الشاي بمركز القيادة العسكرية البريطانية في المزة بجوار دمشق حيث اعتقل غدرًا وأُرسل على جناح السرعة إلى الرملة بفلسطين. وقد وقعت هذه الحادثة قبل جلاء القوات الإنجليزية عن سوريا بساعات، فلم يفد الهياج الذي أثارته في البلاد شيئًا في الإفراج عن القائد المعتقل، وذهبت المظاهرات العنيفة التي توالت في اليوم التالي ليوم اعتقاله أدراج الرياح.

وبقي الهاشمي معتقلًا في الرملة بضعة أشهر، ثم أعيد إلى دمشق. فكان بعد عودته إليها غير الرجل الذي عرفته قبل خروجه منها. كان صامتًا هادئًا قليل الحركة ضعيف الهمة محبًا للعزلة والابتعاد عن الناس، فتعذر الانتفاع به في أثناء الأزمات التي توالت بعد ذلك على نسبة الآمال التي كانت معقودة عليه. ثم إن الخطة التي كان قد وضعها للدفاع عن البلاد إذا وقع عليها اعتداء ظلت محفوظة في صدره، إذ إن خلفه في وزارة الحربية المرحوم يوسف العظمة لم يأخذ بها بل وضع لنفسه خطة أخرى أدت إلى وجود اختلاف وجهات النظر بين القائدين الكبيرين، تعداهما مع الزمن إلى كثيرين من القواد وكبار الضباط.

فلهذه الأسباب وما شاكلها خابت الآمال التي كانت معقودة على الهاشمي وانصرفت الأنظار عنه بعد عودته من منفاه. وقد سمعت كثيرين من أشد الناس اتصالًا به يتساءلون عن أسباب هذا التبدّل الذي طرأ عليه فلا يحيرون جوابًا.

نوري السعيد وتطور سياسته

أما نوري السعيد الذي أصبح بعد اتصاله بالإنجليز في رابغ. أثناء الثورة العربية الكبرى، فقد أخذ في ذلك الحين يتطور في تفكيره وعواطفه ومبادئه وأخلاقه السياسية والاجتماعية تطورًا تدريجيًا، بدأ بالميل إلى الإنجليز والثقة بقوتهم وعدلهم، ثم بتوزيع هذه الثقة على الأقوياء من دول الغرب التي أصبح لا يرى لذة للحياة إلا في كنفها، ولا يؤمن إلا بها ولا يرجو خيرًا إلا على يدها حتى قال لي مرة: «إذا كان دجلة لا يزال يجري في العراق فما ذلك إلا بفضل الإنجليز».

وكان الرأي العربي العام يشعر بهذا التطور، ويزداد سخطه ونقمته على نسبة ازدياد هذا الشعور. وكثيرًا ما كان يبالغ في سوء الظن فيعزو كل شر يُصيب البلاد وكل خطر يهددها إلى خيانة نوري السعيد ومساعيه حتى أجمع الشعب على اتهامه بالخيانة وأصبح الناس يهتفون ضده في الشوارع.

ومما زاد موقفه تحرجًا عدم اهتمامه بالرأي العام إلى حد التحرش به أحيانًا. والشواهد على ذلك كثيرة أذكر واحدًا منها على سبيل المثال. فقد توترت العلاقات مرة مع الفرنسيين إلى حد استعجل عودة الأمير فيصل من أوروبا. وقرر كثيرون من رجالات سورية الذهاب إلى بيروت لاستقباله فيها والبحث معه في الموقف السياسي. وقد أخبرني نوري بأنه يريد السفر إلى بيروت وأنه سيذهب على ظهر مدرعة فرنسوية

لمقابلة الأمير فيصل في عرض البحر فيبسط الحالة له قبل أن يجتمع بالزعماء الآخرين. فقلت له: «إياك أن تفعل هذا، فأنت متهم لدى الرأي العام، وما يبدو من التردد في موقف الأمير يعزى كله إلى مساعيك. ثم إن ذهابك على ظهر بارجة فونسوية إلى عرض البحر يزيد نقمة الرأي العام عليك، ويعزز في نظره التهم التي يوجهها إليك، فأرجو منك باسم الصداقة أن لا تحرج مركز الأمير ومركزك إلى هذا الحد». فقال: «ولكني اتفقت مع الفرنسيين على أن يعدوا لي سفينة حربية أذهب بها لمقابلة الأمير». قلت: «إذا كان لا بد من ذهابك لمقابلة الأمير فيصل في عرض البحر فلا تذهب وحدك واحذر أن تختلي به في الباخرة». قال: «أنا أوافق على أن أذهب مع الاشخاص الذين تختارهم وأن أكلم الأمير أمامهم». قلت: «سأحاول إقناع أحمد مريود وعزت دروزة بالذهاب معك»، فوافق. وذهبت إلى هؤلاء الاصدقاء وكلّمتهم في الموضوع فقبلوا على مضض. ولكن نوري أسرع إلى مغادرة دمشق من دونهم تاركًا لي في البيت نبأ سفره الفجائي.

وجرى له معي حادث آخر لم أجد له تعليلًا، ذلك إنه في أثناء هياج الرأي العام عليه واتهامه بموالاة الفرنسيين بل بخيانة البلاد، قابلني مرة في الطريق وجعل يحدثني في موضوعات تافهة ثانوية ثم ناولني بلا اكتراث كتابًا من الجنرال غورو يقول له فيه: «لم يعد في طاقتي أن أصبر على أعمال الحكومة السورية وتحرشها بي، لذلك عزمت على أن أقابل الأمير فيصل وأطلب إليه أن يعهد إليك في تأليف الحكومة. لأني لا أستطيع بعد الآن أن أتفاهم مع غيرك». فامتقع لوني بعد مطالعة هذا الكتاب وقلت له:

«ما هذا يا نوري. إن هذا وحده يكفي في نظر الجمهور دليلًا على صحة التهم التي يوجهها إليك».

حوادث البقاع واجتماع زحلة

أخذ مني الكتاب وهو يبتسم ابتسامة تنطوي على كثير من الألم ثم قال: «إن هذا لن يكون، ولكن يجب أن تعرف أن البلاد سائرة إلى الخراب. الملك ضعيف ومتردد والحكومة تسير سير الأعمى. فتُبرم اليوم ما تنقضه غدًا، وهي منصرفة عن العمل إلى الكلام وبث الدعاية التي لا طائل تحتها. إنها مقبلة على حرب فماذا تفعل استعدادًا لها؟».

قلت: «هذا السؤال يجيب عنه يوسف العظمة. وقد كان من حقك أنت بصفتك قائدًا أن تجيب عنه لا أن تطرحه علي».

قال: «أريد أن أريك بعينك أننا على غير استعداد للمستقبل. فأنا ذاهب غدًا إلى زحلة للاجتماع بالجنرال غورو وأرغب في أن تذهب معي».

– ولماذا أنت ذاهب إلى زحلة.

- لمفاوضة الفرنسويين في حل مسألة البقاع لأنهم أنذروا الحكومة بعزمهم على احتلاله قريبًا.

- وما شأنك أنت؟ أليس في البلاد غيرك يفاوض الفرنسويين في هذا الموضوع؟ ألا ترى إلى أي حد بلغ هياج الشعب وكيف أن الأهلين بدأوا بتأليف العصابات لمقاومة الزحف الفرنسوي؟

- الحكومة انتدبتني للقيام بهذه المهمة وأنا لا يهمني ما يقوله الناس عني.

- لا أنصحك بأن تذهب لأن المسألة لا تُحلّ سلميًا إلا بموافقة الحكومة على دخول قوة من الجيش الفرنسوي إلى البقاع. والأمة في هياج جديد وقد قررت الدفاع عنه بالقوة. وبهذه المناسبة أقول بصراحة إني لم أكن أحب لك في الأحوال الحاضرة هذا المنصب الذي قلدته بالأمس وهو منصب محافظ البقاع وقائد القوات السورية في المنطقة الغربية.

- أرجو أن نذهب معًا فترى بعينيك استعداد الفريقين، وتسمع بأذنيك المفاوضات التي ستدور بيني وبين الفرنسيين.

- لا يمكنني أن أحضر هذه المفاوضات ولا صفة لي تمكنني من الاشتراك فيها، ولكني سأذهب معك بشرط أن نمر في عودتنا بمحطة رياق لمقابلة علي جودت [الأيوبي] حاكم البقاع العسكري والاطلاع على رأيه فيما سيقوله الفرنسيون لك أو يتفقون عليه معك.

وفي الموعد المعين من صباح اليوم التالي وقف نوري بسيارته أمام داري وكنت على استعداد للسفر فامتطيتها إلى جانبه وسارت بنا قاصدة إلى زحلة. ولكنها ما كادت تسير في شارع الصالحية أكثر من خمسين مترًا حتى انحرفت إلى اليسار ودخلت في عطفة هناك. فسألت نوري إلى أين؟ فقال: لنأخذ المسيو كوس معنا. وكان كوس ممثلًا لفرنسا في سوريا. وكان الرأي العام شديد النفرة منه لاعتقاده بأن كل ما تأتيه الحكومة الفرنسوية من الأعمال العدائية للحكومة السورية وكل ما يجيش في صدرها من المطامع وما تدسه من الدسائس ناشئ عن مساعي المسيو كوس ومجهوداته.

قلت: أنا لا أذهب مع المسيو كوس يا نوري.

قال: لماذا؟!

قلت: ماذا يقول الناس عنا إذ رأونا ذاهبين معه ونحن على وشك الاشتباك في حرب مع فرنسا؟

قال: وماذا يهمك ما يقوله الناس؟

قلت: دعني أنزل فلا صفة لي تخولني الاشتراك معك، ولا أدري ما هي الصفة التي تقدمني بها إلى كوس وأصدقائك الفرنسويين الآخرين؟

قال: سترى.

وكانت السيارة قد وقفت أمام دار كوس، وكان هو على الباب في انتظارها. فدخلها في الحال واستأنفت سيرها من دون أن تتوقف إلا قليلًا.

ولما خرجت السيارة بنا من العطفة وعادت إلى شارع الصالحية قال نوري للمسيو كوس وكنت أتظاهر بأني غير مصغ إليهما:

- هذا صديقي فلان، وقد جاء معنا باسم الوطنيين ليطلع على سير المفاوضات ونتائجها. فقال المسيو كوس:

- أعرفه.

فمال نوري نحوي وهمس بالعربية قائلًا: ستمر الآن بجميع المخافر التي لنا على الحدود ونتوقف فيها بحجة تفتيشها. فافتح عينيك جيدًا لكي لا يفوتك شيء من أحوالها.

وما دنونا من أول معسكر من معسكرات الجيش السوري في جهات ميسلون حتى أمر نوري السائق بالتوقف، ثم استأذن لنفسه ولي من المسيو كوس بالتغيب خمس دقائق في تلك المنطقة.

وذهبت معه إلى مركز القيادة وكان في خيمة منصوبة على بعد مائتي متر من الطريق حيث تركنا السيارة وفيها المسيو كوس. فجعل نوري يطرح على القائد والضباط الذين معه أسئلة أراد منها أن أفهم حقيقة الموقف.

– كم عدد القوة التي معكم الآن؟

- 200 جندي.

- كم كان عددها أمس؟

- ثلاثة الآف.

- أين ذهبوا؟

- عادوا إلى منازلهم لأنهم كانوا متطوعين.

وزرنا على هذا الشكل أربعة مراكز من مراكز الجيش السوري في طريقنا إلى ميسلون وزحلة، وكانت أجوبة ضباطها على سؤال نوري السعيد واحدة تقريبًا. ولما دخلنا حدود المنطقة التي كان يرابط فيها الجيش الفرنسوي همس نوري في أذني قائلًا:

– من هنا تبدأ منطقة الاحتلال الفرنسوي، ويمكنك من نظرة تلقيها على جانبي الطريق أن تقدر مبلغ استعداد الفرنسويين. والحقيقة أنهم كانوا قد حشدوا قوات كبيرة في تلك المنطقة استعدادًا للزحف إلى البقاع ولم أكن أجهل أن جيوشهم النظامية أكثر عددًا وأوفر عدة من الجيوش السورية، ولكنني كنت أعتقد أن العدد والعدة لا يُجديان نفعًا بإزاء حماسة الشعب وصدق عزيمته. فقلت لنوري هامسًا:

– أرجو أن لا تبت شيئًا على أثر اجتماعك بالفرنسويين، وأن لا تصدر أمرًا قبل اجتماعي بعلي جودت حاكم البقاع. فوعد بذلك.

وكنا قبل دخولنا المنطقة الفرنسوية قد مررنا بسيارة قاصدة إلى بعلبك وفيها جميل مردم وسعيد حيدر وتوفيق هولو حيدر. فأشرت إليهم بأن يقفوا ثم نزلت من السيارة واقتربت منهم وقلت:

- أنا ذاهب مع نوري إلى زحلة للاجتماع بالجنرال غورو وبعض مساعديه. فإذا عرفت أين تكونون حوالى الساعة الخامسة من مساء اليوم أبرقت إليكم بنتيجة المفاوضات لتكونوا على بينة مما يجب عمله، قالوا:

- سنكون في بعلبك على الغالب، قلت:

- إذا لم أتمكن من الاتصال بكم فسأترك لكم خبرًا مع حاكم البقاع.

وقد فهمت بعد ذلك من توفيق هولو حيدر أنه لم يرقهم ذهابي مع نوري والمسيو كوس إلى زحلة، وأنهم لم يترددوا في انتقادي وتوجيه اللوم إلي.

المباحثات مع الفرنسيين

ولما وصلنا إلى زحلة وجدنا الجنرال دلاموت(213) مع سكرتير الجنرال غورو الخاص وبعض كبار الضباط في انتظارنا. وبعد تناول القهوة قلت لنوري: «سأنتظرك في قاعة الفندق إلى أن ينتهي الاجتماع». قال: «بل يجب أن تحضره». قلت: «لا صفة تخولني ذلك». قال: «أحضره على الأقل لتسمع ما يدور فيه من البحث وأنا لا أبدي رأيًا قبل أن أطلعك عليه». قلت: «وكيف يمكن ذلك في أثناء الاجتماع والفرنسيون لا يعرفون سواك؟». قال: «سأتبادل معك الرأي في كل موضوع يطرق للبحث».

وبعد إلحاح شديد قبلت أن أحضر الاجتماع. وقد افتتحه نوري بقوله:

– إن الحوادث التي وقعت في معلقة زحلة أخيرًا وشعور الرأي العام في سوريا برغبة الفرنسويين في توسيع نطاق احتلالهم في البقاع، وكثرة القوات التي حشدوها على الحدود، كل ذلك أحدث في سوريا هياجًا عظيمًا أصبحت الحكومة السورية في عجز تام عن معالجته. ولذلك أرى أن المحافظة على روح الصداقة والتحالف بينها وبين فرنسا تستلزم إبقاء الحالة على ما هي عليه في البلاد، ريثما تحل المشكلة نهائيًا بالطرق السياسية. وما دامت هذه الحالة وقتية باعتراف الفريقين، فمحاولة تعديلها لا تفيد بل قد تكون عظيمة الضرر، ولا سيما إذا أثارت عاصفة من الهياج كالعاصفة التي تهب على سورية الآن.

فأجاب سكرتير الجنرال قائلًا:

– ان ما قلته يا حضرة الجنرال عن حالة الرأي العام في المنطقة الداخلية يمكن أن نقوله عن الحالة في المنطقة الساحلية أيضًا. فإن الرأي العام عندنا في هياج كما هو عندكم. وما دامت الحالة في سورية وقتية وما دمنا حلفاء شركاء في تحمل تبعة الإدارة فماذا يهم دخول جندنا أو جندكم في منطقة أو خروجه منها.

واستمر البحث نحو ساعة ثم أسفر عن الاتفاق على عدم تجاوز الجيش الفرنسي حدود البقاع والاكتفاء بإرسال شرذمة من الجند لا يزيد عدد أفرادها على العشرين إلى محطة الطيران الفرنسوية في رياق لحراستها وتأمين سير العمل فيها.

ولم ترقني هذه النتيجة فأبرقت بها إلى جميل مردم بك وسعيد حيدر في بعلبك، ولكن برقيتي لم تصل إليهما على ما علمت بعد ذلك. ثم ألححت على نوري بوجوب العودة في الحال بطريق رياق. فوافق على ذلك بعد تناول طعام الغداء على مائدة الجنرال دلاموت بدعوة منه.

والجنرال دلاموت كهل طيب القلب لطيف المعشر بعيد عن خبث السياسة ومكرها، خلافًا لصديقه سكرتير الجنرال غورو الذي حضر الاجتماع باسمه بعد أن اعتذر الجنرال عن عدم حضوره شخصيًا لانحراف طرأ على صحته.

ودار حديث طويل على المائدة بيني وبين الجنرال دلاموت وكان النبيذ المعتق قد أنساه متاعب المناقشة، فجعل يتكلم بصراحة في كل موضوع يتناوله، وقد قلت له:

– لا أدري يا حضرة الجنرال ما الذي تتوخاه فرنسا من سياستها في سورية؟ ولماذا تقف عقبة في طريقها وهي التي تلقب نفسها بمحررة الشعوب وحامية استقلالها؟

- أننا نريد لسورية ما أردناه للشعوب التي نحبها، فيجب أن لا يكون لكم أقل شك في ذلك. فابتسمت وقلت:

- إنكم تحتلون الساحل الآن وتطمعون إلى التوسع في الداخل، وتسيرون على خطة ملؤها العداء للشعب السوري، وهذا ما لم تفعلوه مع الشعوب الأخرى التي ساعدتموها حقيقة على نيل استقلالها.

- أننا لا ننتهج هذه السياسة بقصد الاستعمار، بل رغبة في منافسة الإنجليز الذين سلبونا أقطارًا غنية واسعة من بلاد الشرق العربي.

- سيطر الإنجليز على بلاد غنية واسعة وتركوا لكم بلادًا فقيرة صغيرة، ستبذلون فيها أموالًا طائلة ودماء غزيرة على غير طائل. فإذا كان غرضكم من السياسة التي تتبعونها في سورية مناوأة الإنجليز، فاسمح لي أن أقول إن هذه السياسة لا تحقق الغرض الذي تتوخونه. إنكم لا تستطيعون مناوأة الإنجليز، وأنتم في هذه الجبال اللبنانية، والإنجليز محيطون بكم من الغرب والجنوب، والسوريون والترك أعداء لكم في الشرق والشمال، وحالتكم في أوروبا على ما هي الآن. بل إن الذين يستطيعون ذلك هم السوريون. فسورية هي رأس الأمة العربية ودماغها المفكر، والمحور الذي تدور حوله السياسة العربية والسياسة الاسلامية، فاتخذوها صديقة لكم ومدوا إليها يد المساعدة كما مددتموها إلى أمريكا وبولندا وتشيكوسلوفاكيا، ثم انظروا ماذا يحدث في الشرق العربي.

- إن الزعماء السوريين والعرب يسيرون بتأثير السياسة الإنجليزية ولا يمكن أن يكون لهم سياسة خاصة.

- هذه أوهام، والسياسة يا حضرة الجنرال لا تُبنى على الأوهام. إن العرب في سورية وغير سورية يريدون الوحدة والاستقلال، والمطامع الإنجليزية هي أكبر عقبة في هذا السبيل. فإذا رأوا في فرنسا صديقة منزهة عن الغرض بعيدة عن المطامع الاستعمارية استطاعوا أن يوجهوا كل جهودهم ضد الدولة التي رأت مصلحتها في استعمار أغنى أقطارهم كالعراق، وتمليك اليهود جزءًا من بلادهم هي فلسطين ومحاولة بسط سيطرتهم على الجزيرة العربية التي هي حصنهم الحصين. فما دامت السياسة الإنجليزية قائمة على أساس الفتح والاستعمار فعداء العرب للإنجليز سيزداد شدة من يوم إلى يوم، حتى تأزف ساعة الانفجار. وهذه الساعة يمكنكم أن تستعجلوها لا في البلاد العربية وحدها بل في الشرق الإسلامي كله، إذا عدلتم عن إقامة العقبات التي تُقيمونها في طريق استقلال سورية.

وأعتقد أن كلامي هذا أحدث تأثيرًا كبيرًا في نفس الجنرال، فقد أقره وقال إن فرنسا التي لا مصلحة لها في سورية، والتي تشعر بعطف عظيم عليها وعلى العرب عامة لا بد أن تسير في هذه السياسة التي اعترف بأنها خير سياسة تُنتهج لصد المطامع الإنجليزية عن الشرق العربي.

وقد اجتمعت بكثير من كبراء الفرنسويين بعد اجتماعي هذا بالجنرال دلاموت سواء في دمشق أو في مصر أو غيرها، فسمعت منهم جميعًا ما سمعته من هذا الجنرال في زحلة، وكنا دائمًا نفترق متفقين.

موقف شريف لحاكم البقاع

وبعد انتهاء الطعام استأذنا من الجنرال دلاموت ومساعديه وعدنا قاصدين إلى رياق فوصلنا إليها بعد العصر بقليل. ولم يكن علي جودت قائد البقاع فيها. فأرسلنا في طلبه وانتظرناه إلى أن أتى. وقد أبلغه نوري نبأ الاتفاق الذي تم بينه وبين الفرنسويين، وأن شرذمة من الجند الفرنسوي ستأتي بعد غد إلى رياق للإقامة في محطة الطيران الفرنسية فيها، فعليه أن يستقبلها استقبال قوة من قوات الحلفاء، وأن يمنع كل اعتداء يقع من الأهلين عليها. وكان هذا الحديث على مسمع من المسيو كوس الذي عاد معنا بالسيارة. فلما انتهى نوري منه أخذت علي جودت إلى غرفة أخرى وقلت له:

– هذا ما تم الاتفاق عليه. فماذا تنوي أن تفعل إذا دخلت هذه القوة حدود البقاع غدًا؟

– ما هو رأيك أنت؟

– أرى انه لا يجوز لك أن تنفذ هذا الأمر لأن البلاد مُجمعة على المقاومة. فهل في طاقتك أن تقاوم؟ وما هي القوة التي لديك؟

– إذا لم تشأ الحكومة الدخول رسميًا في الحرب لا يمكنني أن أعتمد على أكثر من سبعين أو ثمانين ضابطًا وجنديًا. إن الحكومة في هذه الحالة تعد الجيش الذي يقاتل ثائرًا. ولكن لدي نحو ثلاثة أو أربعة الآف مقاتل من الأهلين هم الآن محتشدون بجوار قرية الناصرية المطلة على سهل البقاع، وهم قوة لا يُستهان بها، وقد يتضاعف عددها عند اطلاق أول رصاصة.

– يمكنك والحالة هذه أن تبلغ حكومة دمشق أنك لن تذعن للأمر الذي تلقيته.

– سأفعل ذلك، لكن القوة المحتشدة بجوار الناصرية تحتاج إلى مؤونة وأخشى أن تنصرف إلى النهب إذا لم أتمكن من تموينها. فإذا استطعنا أن نكفل لها المؤونة اللازمة بقيت في أماكنها وأمكننا استخدامها حين الحاجة إليها، وإلا فلا يبعد أن تحاول تدارك طعامها من القرى المجاورة ومعظمها من القرى المسيحية الفقيرة التي يصعب عليها أن تتحمل إطعام مثل هذا العدد الكبير.

وبعد مباحثة قصيرة اتفقنا على أن يُبرق في الحال إلى اللجنة الوطنية في دمشق بخلاصة ما جرى، وأن يضع نفسه تحت تصرفها، وقلت له:

– سأصل إلى دمشق حين وصول برقيتك إليها. فابحث مع اللجنة الوطنية الموضوع وأرجو منها إبلاغك قراراتها الليلة. أما المؤونة التي تحتاج إليها القوات المحتشدة بجوار الناصرية فسترسلها اللجنة صباح غد إلى حيث تشاء.

ثم افترقنا على هذا. ولم يحاول نوري أن يؤثر في علي جودت كما فعلت أنا، بل اكتفى بالأمر الرسمي الذي أصدره إليه، مع أنه كان عالمًا بما سأقوله له، وبأني سأبحث معه مسألة عدم الاذعان لأوامر الحكومة.

ليلة في مجدل عنجر

على أننا لم نوفق في الوصول إلى دمشق في ذلك اليوم. فقد تركنا رياق عند غروب الشمس ولم يمض على

خروجنا منها ربع ساعة حتى أمطرتنا السماء مطرًا غزيرًا حوّل الطرق إلى بحيرات من الوحول تعذر على السيارة السير فيها. وأخيرًا بعد أن اشتد الظلام وازداد انهار الأمطار وأصبح سهل البقاع كله شبه بحيرة واحدة، أصيبت السيارة بعطل أعلن السائق عجزه عن إصلاحه. فحرنا حينئذ في أمرنا، وصرنا بين أن نبيت فيها تحت المطر أو أن نعود إلى زحلة أو رياق أو إلى أقرب القرى من المكان الذي وقفنا فيه. وقد قال نوري حينئذ إن أقرب القرى إلينا الآن هي قرية «مجدل عنجر»، وإن المخفر العربي القائم أمامها لا يبعد أكثر من ثمانية أو تسعة كيلومترات، فالأوفق أن نقصد إليها. وسار هو أمامنا في ذلك الظلام الدامس والمطر يتدفق علينا كأفواه القرب، وأقدامنا تغوص في الوحل أحيانًا إلى الركب، وسرت أنا وراءه ملتفًا بعباءة أصبحت حملًا ثقيلًا علي لكثرة ما تشربت من ماء المطر، ووضع كوس كوفية فوق قبعته العسكرية الفرنسوية ليظهر فيها بمظهر ضابط عربي على رأسه عقال خوفًا من الطوارئ لأن البلاد كلها كانت حينئذ في هياج شديد ضد الفرنسويين. وكنا نسمع بين حين وآخر دوي الرصاص في جهات وادي القرن تردد الجبال صداه بشكل مزعج، ونحن لا نعلم هل نسير نحو «مجدل عنجر» أم في طريق أخرى بعد خروجنا عن الطريق العام وشروعنا في السير نحو الجنوب الغربي في خط مستقيم. وأخيرًا بعد متاعب كثيرة وصلنا حوالى الساعة الثانية صباحًا إلى قرية صغيرة قال نوري إنها «مجدل عنجر»، وقصد إلى التل الذي كان يظن أن قوة من الجند العربي ترابط فيه، ولكنا لم نجد هذه القوة التي كانت بقيادة صبحي الخضرا، فقصدنا حينئذ إلى القرية وجعلنا ندق أبوابها بابًا بابًا فلا يجيبنا أحد حتى خُيّل الينا أن القرية قد هجرها سكانها. والحقيقة أنهم كانوا في خوف شديد من المعارك التي كانوا يتوقعونها قريبًا على أثر ما بلغهم من عزم الفرنسويين على احتلال المنطقة. ووقفنا في النهاية أمام بيت تدل مظاهره على أنه مأهول، فجعلنا نطرق بابه بعنف إلى أن استيقظ صاحبه وأدخلنا مرحبًا بنا، فرجونا منه أن يشعل لنا النار ويهيئ لنا ما يتيسر من الطعام. وجلسنا حول النار في انتظار الطعام وكان قدرًا من الكشك لم استطب شيئًا في حياتي أكثر منه، فأكلت مع نوري بشهية، ولكن كوس لم يرقه الطعام فاكتفى بالخبز ثم نام إلى جانب الموقدة أو تظاهر بالنوم ليسمع ما يدور بيننا من الحديث. وأخذنا نحن نعرض ملابسنا للنار ونتحدث في موضوعات كان يسرنا أن يسمعها المسيو كوس.

وبقينا على هذه الحالة إلى أن لاح الفجر فكلفنا صاحب البيت أن يذهب إلى أول محطة تليفونية ويطلب لنا سيارة من دمشق. ولما طلعت الشمس كانت السيارة عندنا فأقلتنا إلى دمشق. وقد ذهبت حين وصولي إليها إلى دار اللجنة الوطنية وذهب نوري إلى البلاط الملكي. وكان يهمني قبل كل شيء أن أعرف القرار الذي اتخذته اللجنة بإزاء موقف علي جودت، كما كان يهم نوري أن يطلع البلاط والحكومة على ما تم في زحلة.

في اللجنة الوطنية

ووصلت إلى دار اللجنة فاطلعت فيها على نص البرقية التي أرسلها حاكم البقاع إليها ووضع نفسه فيها تحت تصرفها، بعد أن طلب إرسال كمية من الخبز والبقسماط إلى الجماهير المحتشدة في جهة الناصرية. ولم أجد الشيخ كامل القصاب حينئذ في اللجنة، فسألت الأعضاء الموجودين عن رد اللجنة على حاكم البقاع،

وهل أرسلت إليه المواد الغذائية التي طلبها أم لا؟ فقالوا إنهم لم يعرفوا رد اللجنة، ولكنهم يعلمون أنه لم يُرسل شيء إلى الناصرية. فرجوت منهم أن يبعثوا في الحال مقدارًا من الخبز وقمر الدين والبقسماط تكفي لإطعام أربعة الآف شخص يومين أو ثلاثة أيام ريثما ينجلي الموقف.

وفي تلك الأثناء وصل الشيخ كامل فاختليت به وأطلعته على الحالة وقد علمت منه أنه لم يرد على برقية علي جودت بك ولم يجبه إلى طلبه حتى تلك الساعة، وأنه ينتظر وصولي للوقوف على التفاصيل، وأنه كان يتمنى أن لا أفتح هذا الموضوع في غيابه مع الذين وجدتهم في دار اللجنة وإن كانوا من أعضائها.

وبينما نحن نتحدث وصل علي جودت، فقد استبطأ رد اللجنة ولم يرَ بدًا من أن يأتي بنفسه للاطلاع عليه نظرًا إلى ضيق الوقت. وبعد مناقشة طويلة بيننا نحن الثلاثة طلب الشيخ كامل أن نذهب جودت وأنا إلى مصطفى نعمت[214] الذي عُيّن في اليوم السابق رئيسًا للحكومة ونبحث الموضوع، فهو عازم عزمًا أكيدًا على مقاومة الفرنسيين إذا هم حاولوا اجتياز الحدود. فقلت: «يا شيخ كامل إن علي جودت جاء ليتلقى الأوامر من اللجنة لا من رئيس الحكومة. فهل تريد الآن أن يسير بحسب الأوامر التي يصدرها إليه مصطفى نعمت؟». قال: «إنه متفق معنا على خطة العمل ومع ذلك عد إلي أنت وأخبرني بما يقوله». قلت: «إذا لم ترسل المآكل المطلوبة للشبان المتجمهرين في الصالحية الآن فأنا لن أعود وعلي جودت بك يكون حرًا في اتباع أوامر الحكومة».

وذهبنا إلى دار رئيس الحكومة فأيقظناه من نومه وتحدثنا معه في الحالة، فكان جوابه أنه يرى في الإتفاق الذي تم مع الفرنسويين حلًا وقتيًا للأزمة. فالفرنسيون عدلوا عن محاولة احتلال البقاع بالقوة، ونحن لا نرى بأسًا في أن يأتي عشرون جنديًا من جنودهم إلى رياق حيث يكونون في خدمة محطة الطيران الفرنسوية.

ولم نُطل الإقامة في دار رئيس الحكومة بعد هذا الحديث. واستعجلت علي جودت بالخروج وأنا ناقم على ما سمعته ورأيته، لأنه جاء مخالفًا لشعور الشعب وعواطفه وللدعاية التي كانت تبث فيه. وكان الأمير فيصل حينئذ في أوروبا، وكنت أعرف أنه أبرق إلى شقيقه الأمير زيد بوجوب مقاومة كل جندي فرنسوي يُريد اجتياز الحدود لأن هذه المقاومة تعزز مركز القضية في أوروبا ولأن حالة السياسة الدولية لم تكن في ذلك الحين لتسمح بأن تنقلب هذه المقاومة إلى حرب رسمية.

وهكذا انتهت أزمة البقاع بسلام ولم تلق القوة الفرنسوية التي أرسلت إلى محطة رياق سوى مقاومة بسيطة من بعض الأهلين. نعم إن هذا الحل لم يكن فيه ما يحط كثيرًا من هيبة الحكومة السورية أو يُضعف من نفوذها، لأنه لم يمكّن الفرنسيون [الفرنسيين] من إدخال جيشهم إلى البقاع واحتلال بعلبك والبلاد التي تمر بها سكة الحديد إلى حلب كما كانوا يريدون، ولكنه أظهر للشعب السوري أن رجال حكومته وزعماءه كثيرًا ما يقولون غير ما يفعلون، وأنهم يسيرون على غير نظام وليس لهم هدف معين ولا سياسة مقررة ثابتة.

---

(175) فوزي البكري (1887-1963): أحد أعضاء جمعية «العربية الفتاة» مع شقيقه نسيب، عضو في المؤتمر السوري في عام 1919. شارك في الثورة السورية، وكان أحد أعضاء الكتلة الوطنية. عضو المؤتمر التأسيسي الذي صاغ الدستور السوري في عام 1928.

(176) تحسين العسكري (1882-1947): درس في المدرسة العسكرية في اسطنبول. شارك مع شقيقيه علي وجعفر في الثورة العربية. تسلم وزارة الداخلية في عام 1941.

(177) ناجي الأصيل (1897-1963): ولد في بغداد ودرس الطب في الجامعة الأميركية في بيروت. شغل منصب وزير خارجية العراق في عام 1936. وانتخب رئيسًا للمجمع العلمي العراقي في عام 1953.

(178) أحمد مريود (1886-1826): من بلدة جباتا في الجولان، وهو ينتمي إلى قبيلة المهاودة المنتشرة بين الجولان والبلقاء، شرق الأردن. درس في مكتب عنبر في دمشق، وانتسب إلى «العربية الفتاة». أسس صحيفة **الجولان**. قاد المقاومة ضد الاحتلال الفرنسي منذ عام 1919، كما شارك في معركة ميسلون. حكم عليه الفرنسيون لمحاولة اغتيال الجنرال غورو. شارك في الثورة السورية في عام 1925، واستشهد في عام 1926.

(179) عزة دروزة (1887-1984): ولد في نابلس بفلسطين. عضو جمعية «العربية الفتاة». شارك في المؤتمر السوري في عام 1919. عضو لجنة الدستور في الحكومة العربية بدمشق. كاتب ومفكر له العدد الكبير من المؤلفات في العروبة، وله مذكرات في ستة أجزاء.

(180) معين الماضي: ولد في قرية إجزم التابعة لقضاء حيفا، ودرس في الكلية الملكية في اسطنبول، انتسب إلى المنتدى الأدبي، ثم جمعية «العربية الفتاة». شارك في تأسيس حزب «الاستقلال العربي»، عضو الهيئة العربية العليا في عام 1947. توفي في دمشق في عام 1957.

(181) عبد القادر المظفر (1880-1949): عالم دين ولد في القدس. انتسب إلى «الاتحاد والترقي»، وعمل مفتيًا للجيش التركي. انتقل بعد خروج الأتراك إلى دمشق حيث ترأس النادي العربي. شارك في نضالات الشعب الفلسطيني ضد الانتداب.

(182) بهجت الشهابي: درس في اسطنبول وخدم في الجيش التركي، انضم إلى جمعية «العربية الفتاة» في عهد الحكومة العربية بدمشق. تسلّم مناصب إدارية مثل محافظ الجزيرة ومحافظ دمشق.

(183) مصطفى الشهابي (1893-1968): من العائلة الشهابية في لبنان. درس في اسطنبول ثم تخصص بالهندسة الزراعية في فرنسا. تسلّم مناصب إدارية ووزارية في سوريا. انتخب رئيسًا لمجمع اللغة العربي بدمشق في عام 1959.

(184) خير الدين الزركلي (1893-1976): شاعر ومؤرخ، نشأ في دمشق. أصدر صحفًا عدة. حكم عليه الفرنسيون بالإعدام بعد معركة ميسلون. عمل دبلوماسيًا في الخارجية السعودية. له موسوعة **الأعلام**.

(185) توفيق الناطور: من مواليد بيروت في عام 1888، درس الحقوق في فرنسا، وانضم إلى جمعية «العربية الفتاة»، أنشأ صحيفة **الراية**. اعتقله جمال باشا لكن أُفرج عنه. تولى مناصب قضائية في لبنان.

(186) فؤاد سليم (1893-1925): من بعقلين بلبنان، درس في اسطنبول. التحق بالثورة العربية، وشارك في الثورة السورية، واستشهد في عام 1925.

(187) كينغ - كراين: اسم اللجنة التي أوفدها الرئيس الأميركي وودرو ويلسون في عام 1919 لاستطلاع آراء السوريين بمستقبل بلدهم، وحملت اسمي عضويها: هنري كينغ وتشارلز كراين.

(188) مبدأ مونرو: يُنسب إلى الرئيس الأميركي جيمس مونرو الذي أودع الكونغرس الأميركي رسالة (1823) تتضمن حق الشعوب في تقرير مصيرها. وقد جدد الرئيسان روزفلت وويلسون هذا المبدأ في مطلع القرن العشرين.

(189) سعيد طليع: عضو المؤتمر السوري عن جبل لبنان.

(190) ديفيد لويد جورج (1863-1945): سياسي انكليزي، انتخب رئيسًا للوزراء في عام 1916، واستقال في عام 1922.

(191) جورج كليمنصو (1841-1929): سياسي فرنسي، رئيس وزراء فرنسا (1917-1920) خلال الحرب العالمية الأولى. أدى دورًا بارزًا في مؤتمر فرساي للسلام.

(192) داوود عمون (1869-1922): رئيس أول مجلس نيابي بعد إعلان دولة لبنان الكبير (1920-1922).

(193) نسيم صيبعة (1872-1944): ولد في طرابلس - لبنان، ودرس في الجامعة الأميركية في بيروت. شارك في الحركات الوطنية في سوريا وفلسطين.

(194) مولود مخلص (1885-1951): ولد في الموصل. درس في المدرسة الحربية في اسطنبول. انضم إلى قوات الثورة العربية، وعيّن حاكمًا عسكريًا لدير الزور. انتخب نائبًا في مجلس النواب العراقي في دورات عدة، ثم رئيسًا للمجلس في عام 1937.

(195) ناجي السويدي (1882-1942): درس الحقوق في اسطنبول، والتحق بالثورة العربية. ترأس الوفد الذي استقبل الملك فيصل في البصرة في عام 1921. تقلّب في مناصب قضائية ووزارية. وترأس حكومة العراق (1929-1930).

(196) توفيق السويدي (1892-1968): كان عضوًا في جمعية «العربية الفتاة»، تولى رئاسة الحكومة العراقية أربع مرات.

(197) هاشم الأتاسي (1875-1960): درس في الكلية الملكية في اسطنبول. تسلّم مناصب إدارية في الدولة العثمانية. عضو المؤتمر السوري ورئيسه في عام 1920. رئيس لجنة صياغة الدستور، وثاني رئيس للحكومة العربية في دمشق. رئيس الكتلة الوطنية، انتخب رئيسًا للجمهورية السورية مرتين.

(198) صبحي بركات (1889-1939): ولد في أنطاكية، ترأس الاتحاد السوري في عهد الانتداب الفرنسي(1922-1925)، وكان قبل ذلك عضوًا في المؤتمر السوري (1919-1920). أسس الحزب الدستوري في عام 1930.

(199) مظهر رسلان (1886-1948): إداري عثماني عيّن محافظًا للبلقان، انضم إلى الحكومة العربية في دمشق، وعيّن مرات عدة وزيرًا في حكومات شرق الأردن.

(200) الأمير محمود الفاعور (1877-1927): أمير عشائر الفاعور. ولد في قرية العقدة في الجولان السوري. أحد قيادات المقاومة في الجنوب السوري ضد الانتداب الفرنسي.

(201) رشيد طليع (1977-1929): من جبل لبنان، درس في المدرسة الملكية في اسطنبول، عينته الحكومة العربية متصرفًا في اللاذقية وطرابلس، وحاكمًا لمنطقة حماه. كان أول رئيس لحكومة شرق الأردن في عام 1921.

(202) رشيد الحسامي، من الأعضاء المبكرين في جمعية «العربية الفتاة».

(203) الحاج أمين الحسيني (1895-1974): ولد في القدس، ودرس في اسطنبول. شارك في الثورة العربية واعتقل، فرّ بعدها إلى الأردن وانتخب مفتيًا على القدس في عام 1921. أنشأ اللجنة العربية العليا في عام 1936. رئيس الهيئة العربية العليا لفلسطين التي تشكّلت بقرار من جامعة الدول العربية في عام 1946.

(204) صبحي الخضرا (1895-1954): ولد في صفد بفلسطين. تخرج في الكلية العسكرية في اسطنبول. التحق بالثورة العربية، وشارك في معركة ميسلون. انضم إلى الجيش العراقي وعاد إلى فلسطين في عام 1925. شارك في النضالات الفلسطينية. ممثل فلسطين في اللجنة العسكرية التي شكلتها الجامعة العربية في عام 1947. غادر إلى سوريا بعد النكبة. وهو والد الأديبة سلمى الخضرا الجيوسي.

(205) كامل القصاب (1873-1954): رجل دين دمشقي، من أعضاء جمعية «العربية الفتاة» المبكرين. التحق بالثورة العربية عند قيامها في الحجاز. أسس في دمشق اللجنة الوطنية العليا للدفاع. كان من المتحمسين لقتال الفرنسيين. خرج من دمشق وعمل ابتداءً من عام 1925 مدير معارف الحجاز. عاد إلى سوريا في عام 1937.

(206) نبيه العظمة (1886-1972): درس في المدرسة الحربية في اسطنبول. عيّنته الحكومة العربية مديرًا للأمن العام في حلب. خرج بعد معركة ميسلون إلى الأردن، ثم إلى فلسطين حيث مارس نشاطه السياسي والنضالي، وشارك الفلسطينيين نضالاتهم. عاد إلى سوريا في عام 1936، حيث تابع نشاطه السياسي المناهض للفرنسيين. تسلّم وزارة الدفاع فترة قصيرة في العهد الاستقلالي.

(207) عبد الحميد كرامي (1887-1950): ولد في طرابلس بلبنان. اختاره علماء المدينة مفتيًا بعد وفاة والده. عيّنه الأمير فيصل حاكمًا إداريًا على طرابلس في عام 1918. تزعم مقاومة الفرنسيين، فالتف حوله أبناء المدينة. اعتقل في راشيا مع رجال الاستقلال في عام 1943، وأصبح رئيسًا لمجلس الوزراء في عام 1945.

(208) سلطان الأطرش (1891-1982): خدم في الجيش العثماني. دخل مع الأمير فيصل إلى دمشق في عام 1918. عارض إنشاء دولة درزية، وواصل مقاومته للفرنسيين، فقاد الثورة السورية في عام 1925. لجأ إلى شرق الأردن بعد نهاية الثورة وحُكم عليه بالإعدام. رجع إلى سوريا في عام 1937 بعد صدور عفو عنه غداة معاهدة عام 1936.

(209) يوسف السويدي (1854-1929): قاض عراقي، وأحد رجالات ثورة العشرين. أصبح عضوًا في مجلس الأعيان ثم رئيسًا له في عام 1925. هو والد ناجي وتوفيق وعارف السويدي.

(210) محمد رضا الشبيبي (1889-1965): ولد في النجف وتلقى علومًا دينية، عارض الاستعمار الإنكليزي، واتصل بالشريف حسين في مكة. تسلّم مناصب وزارية خلال الحكم الملكي في العراق، وأسس المجمع العلمي العراقي في عام 1948. شاعر وله العديد من المؤلفات.

(211) محمد رفيق التميمي (1889-1957): من مواليد نابلس. درس في اسطنبول ثم في باريس حيث حصل على إجازة في الآداب. من ناشطي جمعية «العربية الفتاة». شارك في الثورة العربية مع الأمير فيصل. هاجر إلى سوريا بعد النكبة.

(212) جون فيلبي (1885-1960): لُقب بالشيخ عبد الله، مستعرب وضابط مخابرات بريطاني، خدم في الهند ثم في الحجاز، ولازم الملك عبد العزيز آل سعود حتى وفاته. أعلن إسلامه في عام 1930، وتوفي في بيروت.

(213) الجنرال دولاموت: قائد القوات الفرنسية التي دخلت دمشق بعد معركة ميسلون.

(214) مصطفى نعمت: عسكري تسلم لفترة قيادة الجيش في الحكومة العربية. عيّن قائدًا للدرك في حكومة صبحي بركات (1924) في عهد الانتداب.

الفصل الثامن
في مهب العاصفة

في مهب العاصفة

والحقيقة أن السياسة التي اتُبعت في سورية كانت غريبة في بابها. فبينما كان المفكرون من قادة الرأي العام ورجال الحكومة أنفسهم يتوسلون بجميع الوسائل الممكنة لإثارة حماسة الشعب وإبلاغها إلى أقصى حدودها، إذا بهم يتراجعون أمام أقل عقبة تعترض طريقهم، ويتركون الشعب حائرًا في أمره لا يدري كيف يعلل موقفهم. فقد كانوا يدفعونه إلى الاستعداد لمقاومة الفرنسويين ويحثونه على مناوأتهم وعرقلة مواصلاتهم وإقامة العقبات في طريقهم من جهة، وكان بعضهم من الجهة الثانية يلجأ إلى سياسة المجاملة واللين، ويعد الحكومة الفرنسوية بتسيير البلاد في غير الطريق الذي اشترك في تحريض الأمة على السير فيه.

وقد أحدثت هذه الحالة هياجًا عظيمًا في الأفكار وبددت الثقة التي وضعها الشعب في قادة أموره، فجعل يتهم بعضهم بالخيانة صراحة، وينفرط من حولهم بالتدريج إلى أن أصبح الزعماء الذين وضع الشعب زمامه بين أيديهم غير قادرين على قيادته بعد أن انتزع ثقته منهم وقلب لهم ظهر المجن. فالملك فيصل الذي أحرز في البلاد مكانة سياسية لم يحرزها أحد قبله بلغ في أواخر عهده إلى حالة كان يجد فيها نفسه مضطرًا إلى نصب الرشاشات فوق قصره مخافة انقضاض الشعب عليه. ونوري السعيد كان يسمع في الشوارع تهم الخيانة توجه إليه، وياسين الهاشمي فقد مكانته بقدر ما فقد من نشاطه بعد عودته من منفاه. والضباط العراقيون الذين كان يُرجى منهم فائدة كانوا منهمكين بشؤون العراق والثورات التي بدأت فيه.

وفي اعتقادي أن الأمير زيد لو كان حينئذ أكبر سنًا وأكثر تجربة لاستطاع أن يكون الرجل المنقذ بفضل العطف العظيم الذي كان يتمتع به في البلاد كلها. ولكنه في أثناء غياب أخيه في أوروبا كان حريصًا على اتباع أوامره والاسترشاد بآراء بعض الوطنيين الذين لم يكونوا فيما بينهم على اتفاق تام في الرأي.

ولذلك انصرفت الأنظار إلى يوسف العظمة الذي تولى حينئذ وزارة الحربية، وعقد الشعب عليه كثيرًا من الآمال. ولكن موقفه كان دقيقًا جدًا. فهو قد ولي مهمة الدفاع عن البلاد بإرادة الشعب المتحمس الذي لم يكن يرى غير القوة وسيلة لتحقيق وحدته واستقلاله. وقد اضطر إلى مجاراة هذا التيار وتقويته بينما كان في الوقت نفسه يتمتع بثقة الملك ويريد أن لا تقام عقبات كبيرة في طريق مساعيه السياسية. وهذا ما يعلل التناقض الذي كان يبدو أحيانًا في سياسة البلاد ويفسره الرأي العام بأنه ضعف وتردد في بعض الأشخاص وخيانة في البعض الآخر.

ولعل الحادثة التالية توضح للقارئ حرج الموقف الذي وجد بعض الزعماء المسؤولين أنفسهم فيه بعدما أضرموا نار الحماسة في صدور الشعب ثم أرادوا قمعها بسرعة تحت ضغط الحوادث.

فيصل يُناقش فكرة الحرب

أشيع ذات يوم أن فيصلًا سيدخل في مفاوضة جديدة مع الفرنسويين. ولما كان يخشى أن لا تدور هذه المفاوضة على أساس الوحدة والاستقلال اتفق حزب الاستقلال مع اللجنة الوطنية على تكليفه رفض هذه المفاوضة قبل تحديد أسسها. ثم طلب إليه تحديد موعد للاجتماع فحدد هذا الموعد في الساعة السادسة مساءً. وكانت اللجنة الوطنية قد أفرغت هذا التكليف في قالب لا يخلو من العنف والشدة خلافًا لحزب الاستقلال الذي وضعه في صيغة سياسية جمعت بين الحزم والكياسة، وقد عهد الفريقان إلى نحو 15 شخصًا من أعضائهما في عرض هذا التكليف على الملك والمناقشة فيه.

وحوالى الساعة الخامسة دعاني الأمير زيد إليه فذهبت، وكانت دلائل الاضطراب بادية على محياه فلما دخلت قال:

– ماذا فعلتم يا فلان؟ قلت:

- في أي موضوع؟ قال:

- ماذا تريدون من مقابلة أخي؟

فلما بسطت له الحقيقة ابتسم وقال:

- إنه مضطرب جدًا، فقد تطوع الشيخ عبد القادر الخطيب وأبلغه أن في النية تكليفه الخروج من البلاد. ولذلك أخشى أن تكون نتيجة هذا الاجتماع غير حسنة. أفلا يمكنكم تأجيله؟ قلت:

- هذا غير ممكن الآن لأن الموعد قد دنا، ولكني أرجو من سموكم أن تحضر الاجتماع فيساعد وجودكم فيه على تصفية الجو. قال:

- لا أستطيع أن أحضره وحدي. قلت:

- كلفوا يوسف العظمة ورشيد طليع الاشتراك فيه. قال:

- فكرة حسنة.

وأسرع سموه إلى التليفون ودعاهما إلى البلاط، فلم تمض دقائق قليلة حتى كانا فيه. وقد استقر القرار بين حزب الاستقلال واللجنة الوطنية على أن يحمل شكري القوتلي كتاب الحزب والشيخ كامل القصاب كتاب اللجنة. ولكن شكري أصيب بمغص في آخر لحظة حال دون اشتراكه في الاجتماع. فسلم إليّ كتاب الحزب لتقديمه إلى الملك.

وفي الساعة السادسة كان الملك فيصل في انتظارنا، فدخلنا عليه وكنا 15 شخصًا أذكر منهم كامل القصاب وعزة دروزة وسعدالله الجابري وخالد الحكيم وأحمد مريود وتوفيق الناطور ومعين الماضي.

وكان معه حينئذ الأمير زيد ويوسف العظمة ورشيد طليع ونوري الشعلان[215]. فرحب بنا وجعل يمزح معنا ثم انتقل فجأة من المزح إلى الجد وقال:

– انكم يا أخوتي أهل هذه البلاد، فإذا رأيتم أن وجودي بينكم غير مفيد، وأنكم في غنى عني، فلا أتردد لحظة في العودة إلى الحجاز.

ودهش أصدقائي لهذا الحديث لأنهم كانوا على جهل بأسبابه. وأما أنا فقد عرفت الدافع إليه من حديث الأمير زيد معي فقلت:

– إن الغرض من تشرفنا بهذه المقابلة هو عرض رغبات البلاد وأمانيها على مسامعك ولفت نظرك إلى أن الدخول في مفاوضة مع الفرنسويين على غير أساس الوحدة والاستقلال التامين لا يأتي بالفائدة المنشودة.

وكان ينظر إليّ وهو يفكر في شيء آخر، وكأنه لم يسمع ما قلته. بل تابع مجرى أفكاره ونهض محتدًا عن كرسيه وقال:

– لا، لا، لقد دخلت هذه البلاد فاتحًا ولن أخرج منها إلا بالقوة. فإذا كانت لديكم القوة الكافية لإخراجي فافعلوا ودمي ودماؤكم في الشارع.

وجعلنا نتبادل النظر مدهوشين. وأراد بعضنا أن ينهي الحديث ويخرج، ولكن حرج الموقف الذي ينشأ عن ذلك حمله على التأني. ولما كنت أعرف السبب الحقيقي في كل ما جرى أخرجت كتاب الحزب من جيبي وتناولت كتاب اللجنة من الشيخ كامل وفتحتهما ووضعتهما مفتوحين على المائدة وقلت:

– أرجو من جلالتكم مطالعة هذين الكتابين.

وألقى عليهما نظرة عجلى عرف منها أنهما لا يحتويان على شيء مما نقل إليه، فأشرق وجهه وقال من دون أن يتبين الغرض الحقيقي منهما:

– أيها الإخوان، لقد عملنا دائمًا متفقين، وسنعمل كذلك إلى النهاية بعون الله، ولكنكم تريدون الحرب وتريدونها في ثلاث جبهات، جبهة لبنان، وجبهة فلسطين وجبهة العراق، وهذا ما لا نستطيعه. فإذا كنتم تصرون عليه فتسلموا الحكم وتحملوا مسؤوليته، وأنا عائد غدًا إلى الحجاز.

– ما من أحد يريد الحرب لا في جبهة واحدة ولا في ثلاث جبهات. ولكن...

- هذا يوسف العظمة موجود بيننا فاسألوه، هل تستطيع يا يوسف بالقوة التي لديك أن تحارب في ثلاث جبهات؟

ولم يكن يوسف العظمة مطلعًا على المطالب المبسوطة في مذكرتي حزب الاستقلال واللجنة الوطنية، فوقع في حيرة لأنه إذا ردّ على هذا السؤال بالإيجاب عُدَّ متزلفًا مخادعًا، وربما أُخذ بقوله فأوقع البلاد في التهلكة. وإذا ردّ عليه بالنفي خشى أن يثور الرأي العام ضده وينقلب عليه فقال:

- إن الأمة التي ترى حياتها وكيانها مهددين بالخطر لا يجوز أن تتردد في الدفاع عن نفسها مهما تكن العواقب مجهولة. ونحن بين أمرين الآن. أما الموت أو الحياة. والموت يكون بالاستسلام والحياة بالجرأة والتضحية.

وخشيت أن يخرج عن الموضوع ويدخل في نظريات وأبحاث لا نهاية لها فقاطعته وقلت لجلالة الملك:

- إذا تفضلتم بتلاوة الكتابين المرفوعين إلى جلالتكم وجدتم أن لا حاجة لمثل هذه المباحثات، فأرجو منكم مطالعتها.

وتكلم رشيد طليع فقال: «لم أفهم حتى الآن ما هو الباعث على هذه المناقشة». ثم تناول الكتابين - كتاب الحزب وكتاب اللجنة الوطنية - وتلاهما فإذا بهما لا يتضمنان سوى الرجاء بأن لا تدخل الحكومة السورية في مفاوضة مع الفرنسويين إلا على أساس استقلال البلاد السورية ووحدتها، مع استثناء لبنان الذي يخوَّل الحق في بت مصيره.

وتغير جو القاعة فجأة، وانفرجت الأزمة التي نشأت عن دسائس بعض الدساسين واختلاقهم الأكاذيب، وابتسم فيصل حينئذ وقال معتذرًا:

- أنتم إخواني في السراء والضراء، وأنتم قوتي وعضدي. فاعذروني إذا كنت لم أفهم قصدكم، فقد نشأ ذلك عن تعب فكري وضعف أعصابي. وثقوا بأني لن أعمل شيئًا إلا بالاتفاق معكم.

وقد ذكرت هذا الحادث لأوضح ما كان للرأي العام من التأثير في نفوس الزعماء، وأنه هو الذي كان يدير دفة السياسة لا هم. فيوسف العظمة لم يتجاسر أن يقول بصراحة إنه لا يستطيع محاربة دولتين عظيمتين في ثلاث جبهات. ولو قال ذلك لما قال غير الحقيقة التي كان يجب ألا يجهلها أحد ولا سيما المسؤولون عن مصير الأمة. ولكنه كان قد عمل هو وغيره على إثارة الرأي العام إلى أقصى حد حتى أصبح يرى كل قول أو عمل لا يتفق مع رغباته أوعواطفه نوعًا من أنواع الخيانة.

ولا أجد دليلًا على مبلغ حماسة الشعب واندفاعه أعظم من إيراد الحادثة التالية:

لما تعقدت مشكلة البقاع على أثر طلب الفرنسويين إدخال جيوشهم إليه، عُقد اجتماع كبير حضره كبار الضباط والزعماء للبحث في هل يجب على الحكومة أن تشترك رسميًا في الحرب إذا وقعت بين الفرنسويين والأهالي أم لا.

فبسط المسؤولون عن الجيش الحالة العسكرية وأبدوا أراءهم في نتيجة الحرب من الوجهة الفنية، ولكنهم قالوا إن النتيجة لا تتوقف على الجيش بل على ما تُبديه الأمة قاطبةً من التضحية في الدفاع عن كيانها، وكان مصطفى نعمت حاضرًا في هذا الاجتماع فقال:

– يجب على الحكومة أن تخوض غمار الحرب وأن لا تترك أمر الدفاع منوطًا بالأهلين وحدهم، وإن لم تكن موقنة بأن جيشها يستطيع الثبات أكثر من نصف ساعة.

وقد تناقلت الألسنة هذه العبارة عن مصطفى نعمت، فكانت في اليوم التالي كافية لرفعه إلى منصب رئاسة الحكومة بتأثير حماسة الرأي العام.

على أن مصطفى نعمت لم يفعل بعد توليه الحكم غير ما كان يريد أن يفعله سلفه. بدليل الأمر الذي أصدره إلى علي جودت حاكم البقاع حينما ذهبت معه لزيارته بإيعاز من الشيخ كامل. ولكن حالة الشعب الروحية كانت تحول دون رؤية كثير من الحقائق في ذلك الحين، والذنب في ذلك ليس عليه بل على بعض قادته.

ومما يدعو إلى الأسف الشديد أن بعض هؤلاء القادة لم يصارحوه بالحقيقة مرة واحدة. ولو صارحوه بها لعمل على الاستعداد لدرء عواقبها ولضحّى بكل شيء في سبيل ذلك. فلو قيل له إن الجيش غير كافٍ لما تردد في قبول الخدمة الإجبارية أو التطوع. ولو قيل له إن الدفاع عن البلاد يحتاج إلى أضعاف ما لديها من السلاح والذخيرة لما أحجم عن بذل الأموال في سبيل تداركهما. ولكنه كان يسمع أن الجيش على أتم استعداد وفي إمكانه أن يقذف بالفرنسويين إلى البحر في ثلاثة أيام. وقد سمعت هذه الكلمة بنفسي من رجل كبير مسؤول عن الجيش بحضور حبيب اسطفان[216] وسليم عبد الرحمن[217] على ما أذكر.

تناقض أعمال الحكومة

وكان الشعب، وقد رسخ في نفسه هذا الاعتقاد، يرى تناقضًا عظيمًا في أعمال الحكومة. ففي الوقت الذي كان يؤيد فيه العصابات على الحدود، ويظن أنها تعمل بتشجيع بعض المقامات الرسمية، كان يرى هذه المقامات نفسها تساعد الفرنسويين

على العصابات وتجيبهم إلى كل ما يطلبونه منها. كما كان يراها في كثير من الأحيان تُضطر إلى مجاراة الرأي العام في أمر ما، ثم تُضطر في الوقت نفسه إلى مجاراة الفرنسويين في عكسه.

وقد أدت هذه الحال إلى هياج عظيم في الرأي العام، تعذر على الزعماء وقفه عند حد معقول، فتحول إلى تيار جرف أمامه الثقة التي قامت عليها زعامة الرجال المسؤولين عن إدارة البلاد في تلك الأثناء ولم يتمكن من إيجاد زعامة أخرى تحلّ محلها. فاضطربت الحال واختلت الأمور واختلط الحابل بالنابل.

ومما زاد الطين بلة أن حزب الاستقلال انقسم على نفسه كما تقدم، فضعف تأثيره في إدارة شؤون البلاد، وأن اللجنة الوطنية كانت تنقصها الكفاءة للقيام بالمهمة التي أخذتها على عاتقها، وأن الملك فيصل رأى من ضعف نفوذه ما حمله على السعي لتأليف أحزاب جديدة تؤيده فضاعف بذلك استياء الجمهور منه وأثار هواجسه ومخاوفه. وقد فقد هو والرجال الذين جاؤوا معه إلى سوريا الثقة التي كانوا يتمتعون بها فانقلب الرأي العام عليهم انقلابًا عظيمًا. ولم يقم لسوء الحظ في البلاد من يستطيع أن يشغل المكانة التي فقدوها في نفوس الشعب. فمحمد إسماعيل كانت تنقصه قوة الإرادة وصدق العزيمة. وأحمد اللحام لم يظهر بالمظهر الذي أراده فريق من الجمهور له. وجميل المدفعي وإخوانه الضباط العراقيون كانوا منهمكين بشؤون العراق. وطه الهاشمي الذي كان يقول عنه عزيز إنه خير من يستطيع النهوض بالعرب لم يحقق هذا القول في سورية بل كان عمله فيها عمل موظف عادي.

انقسام حزب الاستقلال

وما قلناه عن الزعماء العسكريين يُقال مثله عن الزعماء غير العسكريين. فإبراهيم هنانو لم تكن الزعامة قد تجلت حينئذٍ فيه كما تجلت بعد نكبة ميسلون. وصبحي بركات قام بثورته عقب الهدنة ثم ركن إلى السكينة والهدوء واضعًا نصب عينيه التقرب من الفرنسويين. ورشيد طليع لم تكن له عصبية في سورية الداخلية تمكنه من إظهار مواهب الزعامة التي كانت فيه. والحاج أمين الحسيني كان حينئذٍ شابًا غير معروف في سوريا. وأحمد مريود كان نفوذه محصورًا في منطقته وفي محيطه بدمشق، ولم تكن له المقدرة على استهواء الجماهير. وشكري القوتلي كان يبتعد عن الوسائل التي تؤدي إلى الزعامة الشعبية ويحجم عن الالتجاء اليها. فلو أن الثقة التي اكتسبها بصدق وطنيته قد وُضِعت في رجل آخر لاستطاع هذا الرجل أن يكون حينئذ زعيم سورية. والدكتور عبد الرحمن شهبندر دخل في الوزارة فأُقفلت أبواب الزعامة الشعبية في وجهه في ذلك الحين. والأمير زيد كان مقيدًا بوجود أخيه لا يستطيع أن يأتي عملًا. وكامل القصاب كان في حاجة إلى

مستشارين أفضل من الذين اختارهم في أثناء توليه إدارة اللجنة الوطنية. والأمير عادل أرسلان كان متصلًا بالحكومة ولم تكن له في دمشق بنوع خاص عصبية يمكنه الاستناد اليها في القيام بأعمال جديدة. ونبيه العظمة كان شديد الوطأة، صلب الرأي، قليل الاحتكاك بالجمهور. وجميل مردم وسعدالله الجابري وفوزي الغزي[218] وفارس الخوري[219] وعوني عبد الهادي وعزت دروزة وخير الدين الزركلي وبهجت الشهابي وفخري البارودي والكيالي والدكتور الشيشكلي وغيرهم من الرجال الذين تتردد أسماؤهم الآن كانوا في ذلك الحين بين متصل بالحكومة والبلاط، ومنهمك بأعمال شعبية تُقصيه عن الحكم، أو منكمش في محيطه أو قانع بالمكانة الثانوية التي يشغلها في إدارة شؤون البلاد.

على أن سوريا كانت في تلك الأثناء أشد حاجة إلى زعيم عسكري منها إلى زعيم سياسي. لأن تنظيم الشعب وترتيبه واستكمال أسباب القوة فيه، والقضاء على النزعات المختلفة بين أفراده وتوحيد صفوفه وتوجيهه إلى هدف معين، كل ذلك كان يتطلب يدًا قوية لم يكن أحد يظن قبل ظهور لينين وموسوليني وهتلر أنها قد تكون يدًا غير عسكرية.

ومع أن جميع زعماء العرب كانوا يشعرون بهذه الحقيقة، لم يجرؤ أحد منهم على مواجهة الرأي العام بها والالتجاء إلى الوسائل التي تكفل استمالته إلى تأييدها. بل حاول أعظمهم شأنًا وهو الملك أن يزيد عدد أنصاره في الطبقات العليا من الشعب بعد أن رأى ضعف نفوذه في الطبقات الأخرى. فألف حزبًا جديدًا معتدلًا منها قوبل تأليفه بنفرة عامة أثارت الضغائن وزادت الأحقاد والمنافسات.

وكان حزب الاستقلال قد انقسم على نفسه فأخطأ الهدف الذي كان يسعى إليه، خصوصًا بعد أن ضعفت الروح الثورية في نفوس بعض زعمائه لأسباب مختلفة أهمها العجز عن إحراز أي انتصار سياسي أو عسكري في ذلك الحين.

لقد كانت سورية في أثناء الحرب العظمى في حالة يأس واضطراب شديدين، لا أمنية للأكثرية من سكانها سوى النجاة بأرواحهم وأموالهم، ورفع كابوس الاتحاديين الهائل عن صدورهم بأية طريقة كانت. ولم تتبدل هذه الحالة إلا بعد أن دخلها الجيش العربي والرجال الذين انضموا إليه، وعاد إليها أبناؤها المبعدون أو الفارون. والدليل على أن نضجها السياسي لم يكن قد اكتمل وإنها لم تسترد رباطة جأشها وسلامة تفكيرها إلا بعد مضي عدة أسابيع على جلاء الترك عنها، تلك الحماسة التي قابلت بها التصريح الفرنسوي الإنجليزي بعد أن فسرته تفسيرًا لا يتفق وحقيقة الغاية التي توختها الحكومتان منه. فقد اعترفتا فيه بحق «الشعوب العربية» في الاستقلال ولكنهما اقتسمتا النفوذ في بلادها على أساس الاتفاق المعروف باسم «اتفاق سايكس – بيكو»، ولم يفطن الرأي العام السوري لما تضمنه هذا التصريح من عبث بوحدته واستقلاله، فقابله بارتياح كان له في نفسي ونفوس أصدقائي في مصر أسوأ وقع.

على أن هذه الحالة انقلبت إلى عكسها بعد عودة رجال سورية إليها واجتماع مفكري الأمة العربية فيها، وضم جهودهم إلى جهود مفكريها. وقد أسفرت هذه الجهود عن إضرام نار الحماسة الوطنية في صدور الأمة إلى أقصى حد وإيضاح حقيقة الموقف بأتم جلاء، وتنمية الشعور القومي وتقويته وتعميمه في جميع الأقطار العربية لا في سوريا وحدها.

الوعي العربي يبلغ ذروته... ولكن

فكانت النتيجة بعد مضي أسابيع قليلة أن الأمة التهبت حماسة وطنية واتسع أفق أمانيها إلى أقصى حدود الوطن العربي. وأخذت الكبرياء القومية مأخذها منها. فسمت بها الهمة إلى محاولة الظهور في المكانة الأولى بين الأمم المستقلة والسير معها جنبًا إلى جنب على قدم المساواة التامة في جميع ميادين الحياة الاستقلالية الحرة.

ولكن زعماء العرب ومفكريهم بعد أن رفعوا شعور الأمة إلى هذا المستوى العالي لم يُحسنوا الاستفادة منه، إما لنقص في التجربة أو ضعف في العزيمة أو خلاف في الآراء أو تنافس بين الأفراد أو لكل هذه الأسباب مجتمعة في وقت واحد. فبدلًا من أن توضع خطة سياسية بعيدة المدى تتولى تنفيذها يد حازمة، وأن ينشر الشبان في حواضر البلاد وبواديها لتعليم الشعب من بدو وحضر ما يجب عليه عمله في تلك الساعات الفاصلة في تاريخه ودعوته إلى القيام بواجبه وفاقًا للخطة المرسومة، لجأوا إلى الراحة في دمشق التي لم تكن في حاجة إليهم، وقضوا أوقاتهم الثمينة في بحث النظريات العقيمة غير حاسبين للمستقبل أقل حساب، فكانت النتيجة أن انقسموا على أنفسهم شيعًا وأحزابًا فدب الضعف في صفوفهم في العاصمة وتسرب منها إلى جميع الجهات وظهر في بعضها بأفظع المظاهر وأشدها مساسًا بالكرامة القومية. مثال ذلك أن الدروز الذين رفعوا في الثورة السورية رأس الأمة عاليًا وكانوا رمزًا للبطولة والوطنية وصدق العزيمة وكرم الأخلاق، مشى بعضهم قبل سنتين من ذلك التاريخ في ركاب الجنرال جورو [غورو] ودخلوا معه دمشق بعد معركة ميسلون المشؤومة، وأن حلب التي هي عماد الوطنية وينبوع فياض للشعور القومي كانت قبيل تلك المعركة وبعدها في حالة من التفكك والخمول والاستسلام لم تنجح في معالجتها الجهود الجبارة التي بذلها بعض كبار الوطنيين أمثال رشيد طليع ونبيه العظمة وغيرهما في آخر ساعة لدرء النكبة..

وقد كان نجاح الوطنيين في إيقاظ الشعور القومي وإضرام نار الحماسة في الصدور وتوحيد آراء الأمة وأمانيها في النصف الأول من عهد الاستقلال، ثم فشلهم في تنمية هذا الشعور وتنظيمه والاستفادة من حماسة الأمة ووحدة آرائها في النصف الثاني من هذا العهد، أكبر سبب من أسباب الاضطراب الذي ساد البلاد وأدى إلى التفكك الذي كان يزداد ظهورًا فيها كلما زادت الأدلة على تردد المسؤولين وحيرتهم وتبلبل أفكارهم. ولو أنهم واصلوا السير على الخطة التي رسموها لأنفسهم منذ البدء وأعدوا العدة للمضي فيها إلى النهاية بلا تردد ولا تباطؤ، لسار الشعب وراءهم كالرجل الواحد ولكانت النتيجة غير ما رأينا.

حول معركة ميسلون

نعم إن القذف بالفرنسويين إلى البحر لم يكن سهلًا. ولكن معركة ميسلون كان يمكن أن تسفر عن غير النتيجة التي أسفرت عنها. فلو أن الشعب كان منظمًا بقدر ما كان متحمسًا لاستطاع أن يثبت في ميسلون شهورًا لا أسابيع، ولكان ثباته هذا مؤديًا إلى قيام الأمة قومة واحدة وزحفها زحفًا عامًا إلى المنطقة الغربية جارفة أمامها القوات الفرنسوية إلى الجبال على الأقل، ومثيرة الفتن والثورات وراء هذه القوات إن لم يكن

في لبنان ففي جميع أنحاء الساحل السوري من الإسكندرونة إلى طرابلس ومن بيروت إلى حدود فلسطين. وفيما حدث في أثناء الثورة السورية التي لم تكن تعتمد على جيش ولا نظام ولا مدافع ولا مال في سنتي 1925 و1926 أكبر دليل على ما كان يمكن حدوثه في سنة 1920. ثم إن سوريا لو ظهرت في معركة ميسلون كما ظهرت في معارك جبل الدروز والغوطة والقلمون والبقاع وبعلبك وحماه لوجدت في الرأي الفرنسوي العام نفسه من يستنكر الاعتداء الذي وقع عليها، ولما رأت الحكومة الفرنسوية وسيلة لتهدئة الرأي العام في بلادها، سوى دعوة الجنرال غورو إلى باريس ووضع حد للحرب التي أثارها لغير ما سبب وظهرت بوادرها شرًا ووبالًا عليه. ولم يكن ينتظر من الإنجليز الذين اعترفوا باستقلال سوريا الداخلية والنظام الذي أعلن فيها أن يقفوا طويلًا موقف المتفرج بإزاء الحرب التي أعلنت عليها ظلمًا وعدوانًا وخصوصًا إذا شعروا بهياج الرأي العام في فلسطين ووجدوا مركزهم فيها محفوفًا بالخطر. وهذا الهياج كانت فلسطين على أشد استعداد له وكانت سوريا تستطيع أن تستعجل ظهوره فيزداد بذلك مركز الإنجليز تحرجًا لا في فلسطين وحدها بل في العراق والجزيرة العربية كلها أيضًا.

على أن معركة ميسلون لم تدُم إلا ساعات قليلة لسوء الحظ، وليس ذلك ذنب الرئيس ولا ذنب الأمة بل ذنب الزعماء والمفكرين والضباط والشبان والوطنيين، كل منهم على نسبة ما كان له من تأثير أو نفوذ في البلاد.

ويجب الاعتراف من جهة أخرى بأن سوريا ذهبت ضحية مجاملتها لتركيا الكمالية من دون أقل مقابل، وهذا الخطأ تقع تبعته على المسؤولين عن السياسة السورية. فقد اشتد الجفاء بينهم وبين الجنرال غورو منذ رفضوا أن يسهلوا له استعمال السكة الحديد لإرسال القوات والمؤن والذخائر إلى كيليكيا حيث كانت الجيوش الفرنسوية مشتبكة في محاربة القوات التركية التي كانت تأتمر بأمر مصطفى كمال باشا(220). وقد كان عمل سوريا هذا أعظم خدمة يمكن أن تقدم للترك في مثل الأحوال العصيبة التي كانوا فيها، ولكن سوء السياسة أو ارتباك المسؤولين عنها حال دون حصول سوريا على أي مقابل لهذه الخدمة العظيمة. نعم إن رشيد الخوجة أُرسل إلى تركيا لعقد اتفاق معها. ولكنه لم يكن مفوضًا إليه البت في مثل هذا الاتفاق. فلما عاد إلى دمشق لبسط الحالة على حكومتها ثم رغب في الرجوع إلى تركيا منعه الفرنسويون من السفر من بيروت وحالوا دون إتمام المهمة التي أخذ على عاتقه القيام بها.

وقد كانت نتيجة مساعدة سوريا للترك أن شعر الفرنسويون بحرج مركزهم في كيليكيا، فاتفقوا مع مصطفى كمال باشا على الجلاء عنها واستردوا قواتهم منها وصبوها فجأة على سوريا. ولما فكر السوريون جديًا في أن يحصلوا من تركيا على مساعدة تعادل تلك المساعدة العظيمة التي مكنتها من احتلال كيليكيا، كان الوقت قد فات وكان الترك قد أصبحوا أصدقاء للفرنسويين الذين اشتروا هذه الصداقة بالتخلي عن كيليكيا وعن مقادير كبيرة من الأسلحة والذخائر، تركوها لهم فيها.

نكبة لا مفر منها

ولا أفشي سرًا الآن إذا قلت إن الثورة التي قامت في العراق والاضطرابات التي وقعت في فلسطين كان

مركزها دمشق وكانت تُدار فيها بأيدي رجال غير مسؤولين يؤيدهم الرجال المسؤولون وتؤيدهم الأحزاب بالمال والذخيرة والسلاح. وهكذا بينما كانت سوريا عاجزة عن إيجاد صديق أو حليف لها في حكومة تركيا أو غيرها، كان الاحتكاك بينها وبين فرنسا وإنجلترا يبعدها عنهما من يوم إلى يوم ويمهد لهما سبل الاتفاق ضدها. فلما وقعت الواقعة وجدت نفسها في عزلة عن العالم كله. ولا ريب في أن هذه العزلة كان من الممكن تداركها لو عني السوريون بالسياسة الخارجية عنايتهم بالسياسة القومية، وعرفوا كيف يستفيدون من منافسات الدول وتباين أغراضها.

وأريد الآن أن أقول كلمة في موضوع نكبة سورية لا أعرف كيف يكون وقعها في نفوس القراء. فهذه النكبة لم يكن مفر منها، بل كانت في نظري ضرورية لبناء صرح المستقبل على أساس وطيد الأركان. لقد تمتعت سورية باستقلالها في سنة 1919–1920، من دون أن تدفع له ثمنًا كافيًا من دماء أبنائها. والاستقلال لا يكون هبة ولا يأتي عفوًا بل لا بد له من ثمن يعادله. وبقدر ما يكون الثمن عظيمًا يكون الاستقلال عزيزًا منيعًا. فلو دام استقلالنا الذي ابتعناه بثمن قليل من دماء رجالنا لكان استقلالًا أعرج لا مستقبل له ولا حياة ولا مجد. ونحن أمة تريد أن تبني للمستقبل صروح المجد الأثيل وأن تشيّد دعائمها على أسس التضحية والمفاداة التي لا حياة للأمم بدونها ولا استقلال ولا عظمة ولا خلود إلا بها.

وأية تضحية بذلناها ثمنًا للمستقبل العظيم، الذي كنا ننشده؟ إن جماجم المئات القليلة من إخواننا الذين استشهدوا في سبيل الحرية على مشانق الترك أو في ميادين الحرب حتى سنة 1920، لم تكن كافية لبناء صرح الاستقلال العربي. ذلك الصرح العظيم الشامخ الذي يحتاج كل ركن من أركانه إلى عشرات الألوف من تلك الجماجم الطاهرة. فإذا عجز هذا الصرح عن الثبات أمام العاصفة فما ذلك إلا لأننا بنيناه قبل أن نستكمل المواد اللازمة للبناء. ولأننا أحجمنا في ميسلون عن تقديم هذه المواد التي طلبت من كل فرد منا نحن أبناء هذا الجيل.

وكأني بالأمة قد أدركت بعد ميسلون ما لم تكن لتدركه قبلها، فضاعفت البذل من ذلك الحين بسخاء نادر المثال وستستمر عليه إلى أن تدفع منه الثمن اللائق بما تنشده من حرية ووحدة واستقلال. وهذا الثمن تعرفه الشعوب الحية الناهضة، وقد دفعته عن طيبة خاطر من دمها ولحمها ومالها. وكانت هي الرابحة لأن الحرية والاستقلال يرخص في سبيلهما كل شيء، حتى الحياة.

فإذا عرفت الأمة السورية ان ما تمتعت به من نِعَم الاستقلال الأخير من سنة 1919 والنصف الأول من سنة 1920، كان بلا ثمن يعادله، وإنه كان يستحيل عليها بالثمن الذي قدمته إلى ذلك الحين أن تحصل على ما يحقق آمالها أو يفتح أمامها باب المستقبل الذي تطمح اليه وجب عليها أن لا ترى في نكبة ميسلون والنكبات التي توالت بعدها سوى أقساط عادلة مطلوبة منها ثمنًا للمستقبل الذي تنشده.

ولا أكون مبالغًا إذا قلت إن نكبة ميسلون كانت لازمة لحياة الأمة ليس لأنها أوجدت فيها روحًا جديدة جعلتها تدرك قيمة الحرية وتعرف ما يجب عليها نحوها، بل لأن حالتها الروحية لم تكن في سنة 1920 الحالة التي تعلل بإمكان دوام الحياة الاستقلالية فضلًا عن تنميتها وتوطيد أركانها، فلو لم تنتزع منا بقوة السلاح في ميسلون لأضعناها نحن أو أفسدناها بأيدينا. والذين عاشوا في دمشق في شهري يونيو [حزيران]

ويوليو [تموز] من تلك السنة التاريخية يذكرون الحوادث التي كانت تتوالى فيها فتدك في كل يوم ركنًا من أركان استقلالنا.

يذكرون المساعي التي بُذلت لحمل الأمة على قبول المساعدة الأمريكية أو البريطانية والأحقاد التي أثارتها هذه المساعي. ويذكرون الهياج الذي أحدثه في البلاد مشروع اتفاق «فيصل – كليمنصو»[221]، وقضى على الثقة التي كان يتمتع بها كثيرون من ولاة الأمور. ويذكرون إلى أي حد بلغ العداء الذي استفحل أمره بين الشعب والحكومة وأنصارها. فمزق وحدة الأمة وشتت آراءها وأوجد في نفوسها يأسًا وألمًا لم تكن معالجتهما ممكنة في تلك الأحوال العصيبة التي سادها الاضطراب واختلط فيها الحابل بالنابل.

ويذكرون أيضًا أن الملك فيصلًا الذي كان في أول عهده معبود الشعب وجد نفسه فيما بعد مضطرًا في بعض الأحيان إلى نصب مدافع ورشاشات فوق قصره ودعوة أخصائه إليه مخافة هياج الشعب.

ويذكرون أن الثورة التي قامت في دمشق ليلة ميسلون كانت أكبر مشجع للجنرال غورو على المضي في الحرب التي أثارها. فقد اطلعت على برقية منه إلى الملك فيصل في تلك الليلة التاريخية يبرر بها استئناف زحفه بعد موافقة الحكومة السورية على شروطه بقوله: «لم يعد في الإمكان وقف جيشي الذي بدأ يتسلق انتيليبان»[222]. وسمعت من الضابط السوري الذي رافق ساطع الحصري[223] للمسيو [والمسيو] تولا إلى المعسكر الفرنسوي أن قائد القوات الفرنسوية التي كانت مرابطة أمام ميسلون قال إلمسيو [للمسيو] تولا حينئذ على مسمع منه، وكان يظنه يجهل الفرنسوية: «كيف تريد أن نكف عن الزحف والثورة قائمة في دمشق نفسها؟».

وقد يكون من المفيد أن أشفع هذه الذكريات المؤلمة بما يزيدها وضوحًا ويساعد القارئ على تكوين فكرة صحيحة عن الحالة في سوريا منذ أواخر سنة 1919.

لما أعلن عزم عصبة الأمم على إرسال لجنة الاستفتاء إلى سوريا كانت الأمة من أكبر زعيم إلى أصغر فرد من أبنائها مُجمعة على المطالبة بالاستقلال التام ورفض كل مساعدة أو حماية أو انتداب. وكان الزعماء وفي مقدمتهم المتصلون بالبلاط، يعملون على تقوية هذه الروح وتعزيزها وتوحيد كلمة سوريا في مناطقها الثلاث الشمالية والجنوبية والساحلية. وقد سافرتُ لهذا الغرض مع المرحوم إسكندر عمون إلى لبنان فاجتمعنا بمعظم الزعماء اللبنانيين وبحثنا معهم في الأمر واتفقنا مع كثيرين من كبارهم على خطة واحدة للعمل على أساس استقلال كل من لبنان وسوريا استقلالًا تامًا، والاتفاق فيما بينهما على الحدود والعلاقات الاقتصادية بشكل تراعى فيه حاجة كل منهما، حتى البطريركية المارونية نفسها اقتنعت بسداد الخطة التي بسطناها لها. فبعد أن تكلمنا نحو ساعة مع البطريرك الياس الحويك[224] قال رحمه الله: «إني شخصيًا أشعر بميل شديد إلى التعاون معكم في هذه السياسة. فقابلوا الأساقفة ثم عودوا إليّ بعد يومين».

واجتمعنا بالأساقفة الذين كانوا في بكركي حينئذ فرأينا منهم كل تأييد. وأذكر ان المطران عبد الله الخوري[225] أوصلنا إلى السيارة ودفعنا إليها قائلًا: «اذهبوا فنحن معكم». على أن قوله هذا لم يمنعه من أن يكون في باريس بعد أسابيع قليلة لغير الغاية التي خيل إلينا أنه يؤيدنا في السعي إلى تحقيقها.

تبدل الحالة في دمشق

على أني لما عدت إلى دمشق وجدت الحالة قد تبدلت فيها. فالدعاية التي كان يبثها كبار الرجال المسؤولين لحمل الشعب على رفض كل مساعدة أجنبية قد تبدلت إلى عكسها، وأصبحت سياسة البلاد ترمي إلى قبول مساعدة أميركا أو إنجلترا، مع رفض الانتداب الفرنساوي رفضًا باتًا.

وقد ثارت أفكار الوطنيين على أثر هذا التبدل في سياسة البلاط وبعض المتصلين به، وبلغ الهياج أشده في نفوسهم من جراء ذلك. فتوالت الاجتماعات الحزبية والعامة لدرس الموضوع. وكان معظمها يُعقد برياسة الملك فيصل نفسه. وكانت الحجة التي يستند إليها القائلون بطلب المساعدة الأمريكية أو الإنجليزية أن أميركا لا تقبل أن ترتبط بعهود جديدة في خارج القارة الأمريكية، وأن إنجلترا لا يسعها بالنظر إلى علاقتها الودية مع فرنسا أن تقبل بما تعده الحكومة الفرنسوية حقًا لها. فينتج عن ذلك أننا بطلبنا المساعدة الأمريكية أو الإنجليزية نكتسب عطف الشعبين وصداقتهما، من دون أن نستهدف لنفوذهما [نفوذهما] أو انتدابهما، فنجعلها [فنجعلهما] بذلك عونًا لنا على درء المطامع الفرنسوية.

وأذكر أني حضرت في ليلة واحدة اجتماعيين خطيرين من هذا النوع في دار آل البكري رأسهما الملك فيصل نفسه (الأمير فيصل في ذلك الحين)، وكان الأول عامًا اشترك فيه مئات من رجال العرب ومفكريهم، والثاني خاصًا عقد في إحدى قاعات تلك الدار وحضره بعض رجال حزب الاستقلال ورجال الهيئة الاستشارية لهذا الحزب، وكانت مؤلفة من بعض الأعيان أمثال محمد باشا وعبد الرحمن باشا اليوسف، كما تقدم. وبعد مناقشة طويلة احتدم فيها الجدال تكلم الأمير فيصل فبسط النظرية التي أشرت إليها. واستشهد على صحتها بمحادثات دارت بينه وبين رجال السياسة الإنجليز والأمريكيين وبوثائق حصل عليها من بعض المقامات السياسية، فأمكنه بذلك أن يستميل أكثرية المجتمعين إلى رأيه، أو بالأحرى أن يخفف من معارضتهم بأضعاف الحجج التي كانوا يستندون إليها في هذه المعارضة.

غير أن المرحوم أحمد مريود بقي مصرًا على أنه لا يجوز أن تُسمِع لجنة الاستفتاء في البلاد السورية غير طلب الاستقلال التام الناجز، وأيدته أنا فقلت: «إن ما تفضلت به يا سمو الأمير على أعظم جانب من الأهمية. ولكن رجال السياسة الذين تعودوا إنكار المعاهدات لا يجوز الاعتماد على أقوالهم في مسألة حيوية كهذه المسألة. فإذا أنكروا وعودهم لسموكم كما أنكروا تعهداتهم لجلالة الوالد فماذا نفعل؟ وبأية حجة نستطيع حينئذ أن نقابل فرنسا؟». فقال: «أن الحجة الوحيدة هي القوة إذا فشلت السياسة. فعلينا أن نستعد».

ومال محمد باشا العظم نحوي حينئذ – وكنت إلى جانبه – وهمس في أذني قائلًا: «أخشى يا بني أن تبلغوا إلى حالة تندمون فيها على الترك؟».

وخرجت من هذا الاجتماع مع المرحوم أحمد مريود إلى الفندق الذي كنا نُقيم فيه، وجلسنا في شرفته المطلة على نهر بردى إلى الساعة الرابعة صباحًا، ننظر إلى مياهه الصافية تجري هادئة مطمئنة في وسط العواصف السياسية التي كانت تنذر بالهبوب، ونبحث في الأسباب التي حملت الأمير فيصل على اتباع هذه

الخطة الجديدة وفي النتائج التي يمكن أن تنشأ عنها. وكان المرحوم أحمد في حالة اضطراب شديد، لأنه رأى حينئذ بنظره الثاقب ما لم يره غيره إلا بعد وقوع النكبة. وقد قال لي: «إن المستقبل مظلم جدًا لأننا نسير بلا برنامج وعلى غير هدى حيثما تدفعنا أيدي المطامع المحيطة بنا من كل الجهات. فإذا لم نضع لأنفسنا برنامجًا صريحًا نتعهد بأن لا نحيد عنه، ذهبت جهودنا كلها أدراج الرياح وكانت العاقبة شرًا ووبالًا علينا وعلى البلاد».

وقد بحثنا حينئذ في هذا البرنامج. وكان مما اتفقنا عليه أن هذه الأمة في حاجة إلى نبي أو زعيم لا بد من أن يظهر فيها عاجلًا أو آجلًا. وأن مركز الاشعاع العربي يجب أن يكون مصر لأنها قلب البلاد العربية وأغناها وأرقاها وأكثرها عددًا، وأن سوريا لا تستطيع أن تحل محلها في هذه المهمة ولا العراق ولا الجزيرة. فمن الواجب والحالة هذه أن نتقرب من مصر ونحملها على السير في موكب العروبة التي تنتظر ظهور نبي فيها..

لجنة الاستفتاء في سورية

وكانت نتيجة المساعي التي بذلت في تلك الأثناء أن سورية الداخلية أعلنت بما يقرب من الإجماع رغبتها في الاستقلال التام، ولكن أكثرية سكانها شفعوا هذه الرغبة بقبولهم المساعدة المادية والأدبية التي قد يحتاجون إليها من أميركا أو من إنجلترا بشرط أن لا تمس هذا الاستقلال.

وأذكر أنه لما دعيت اللجنة المركزية لحزب الاستقلال العربي إلى الاجتماع باللجنة الأميركية التي كان يرأسها المستر كراين، عُهد في الكلام إلى الدكتور سعيد طليع لمعرفته اللغة الإنجليزية. وكنت لا أعرفه جيدًا وأجهل ما تحلى به من المزايا الوطنية الصحيحة، فاعترضت وطلبت أن يدور الحديث باللغة الفرنسوية وأن يكون المتكلم الأستاذ توفيق الناطور سكرتير الحزب حينئذٍ. فأُجبت إلى بعض ما طلبت، وتكلم الأستاذ الناطور وتكلمت أنا أيضًا بعد ما فرغ الدكتور سعيد من بسط آراء الحزب.

على أن حزب الاستقلال كان قد وضع مطالبه في تقرير وافقت عليه أكثرية لجنته المركزية ثم أقرته الأكثرية الساحقة في البلاد وهو يتضمن المطالبة بالاستقلال التام الناجز. ولكنه يسلم بأن خروج سورية من الحرب فقيرة منهوكة القوى، يجعلها في حاجة إلى مساعدة نزيهة من دولة غنية مجردة عن المطامع الاستعمارية، وأن الشعب السوري يود أن يقيم للجنة الاستفتاء دليلًا قاطعًا على حسن تقديره للحالة ورغبته في استعجال سيره في طريق النهضة والارتقاء، فيعلن استعداده لطلب كل مساعدة يرى نفسه في حاجة إليها من حكومة الولايات المتحدة، وإلا فمن الحكومة البريطانية، بشرط أن لا تمس هذه المساعدة استقلاله، وأن يكون هو الذي يحددها ويطلبها. أما الانتداب الفرنسوي فقد رفضه الحزب كما رفضته الأمة رفضًا باتًا.

ومما ساعد على نجاح المساعي التي بذلت لحمل البلاد السورية على قبول المساعدة الأميركية أو الإنجليزية أن عمال فرنسا والمتصلين بها في سوريا كانوا يسعون لحمل الأمة على المطالبة بالاستقلال التام. فنشأت عن ذلك فكرة عملت بعض المقامات الرسمية في سورية على ترويجها وهي أن الاكتفاء بطلب

الاستقلال يظهر الشعب السوري أمام عصبة الأمم بمظهر الشعب الذي لا يشعر بسوء الحالة التي نشأت عن الحرب، ولا يريد أن يستعجل الإصلاح، ليستطيع أن يسير بخطوات سريعة في طريق النهضة والارتقاء، وأن يقوم بنصيبه في خدمة الحضارة والسلم. وهذا المظهر هو الذي تريد فرنسا أن تظهرنا به أمام الرأي المتمدن بدليل المساعي التي يبذلها رجالها وأعوانها لحمل الشعب على رفض كل مساعدة أدبية أو مادية من أية دولة كانت. وقد كان لهذه الدعاية تأثير عظيم في مختلف الطبقات حتى أن بعضها لم يحجم عن اتهام دعاة الاستقلال التام ورافضي المساعدة من أي نوع كانت بالخيانة والعمل لمصلحة فرنسا.

اتفاق فيصل - كليمنصو

ووقعت بعد ذلك حادثة أخرى كان لها تاثير أعظم في توسيع شقة الخلاف بين فيصل والفريق الأكبر من الوطنيين. فقد وردت على دمشق قبل دعوته إليها من إحدى زياراته لأوربا أنباء وثيقة عن مشروع اتفاق وقّعه باسم سورية مع المسيو كليمنصو الذي كان حينئذ رئيسًا للوزارة الفرنسوية. وكان ورود هذا النبأ في أشد ساعات الهياج ضد فرنسا كافيًا لإثارة المخاوف والشكوك في الرأي السوري العام. فعقد الزعماء الوطنيون عدة اجتماعات للبحث في هذا الموضوع أيقنت على أثرها بأن فيصلًا قدّر نفوذه في البلاد بأكثر ما كان في الحقيقة، وأن الأمة لن تقر في حال ما مثل هذا الاتفاق الذي كان ينطوي على اعتراف ضمني بالحماية والانتداب.

وأذكر أني اطلعت على نص مشروع اتفاق «فيصل - كليمنصو»، مع بعض أصدقائي للمرة الأولى في دار الدكتور أحمد قدري[226] الذي حمله إلينا من باريس، وكان من أشد معارضيه، فقد درسنا مواده في ذلك الاجتماع مادة مادة فرأينا فيها تمهيدًا صريحًا لجعل سورية كتونس في مستقبل قريب.

واشتد هياج الوطنيين من جراء ذلك وازداد نفورهم من بعض الرجال المسؤولين عن هذا المشروع وفي مقدمتهم الأمير فيصل، وضعفت ثقتهم فيه فضعف مركزه في البلاد على نسبة ذلك. وكان هؤلاء المسؤولون من جهة أخرى قد وعدوا المسيو كليمنصو وعدًا صريحًا بحمل الأمة على قبول مشروع الاتفاق الذي عُقد معه، فلما رأوا شعور المفكرين نحو هذا المشروع انضم بعضهم إلى الوطنيين الثائرين لا في رفضه فحسب، بل في إقامة العقبات دون التفاهم على المسائل الثانوية التي كانت معلقة بين الحكومتين السورية والفرنسوية. ولكن ذلك لم يفدهم في استرداد ثقة الأمة وضاعف العداء الذي كانت فرنسا تضمره لهم.

ولم يعرف هذا المشروع حينئذ غير الزعماء وقادة الرأي العام. وقد ذكرني نوري السعيد مرة به في أثناء مروره بالقاهرة سنة 1930، فقال: «ألا ترى الآن أن قبول مشروع (فيصل - كليمنصو) كان خيرًا لسورية من حالتها الحاضرة؟». فأجبته قائلًا إن ذلك المشروع كان من شأنه أن يؤدي إلى حالة معترف بها أسوأ من الحالة الحاضرة، وأن يقتل الروح الوطنية في الشعب ويمزق وحدته إلى الأبد. فسكت سكوت مقتنع بهذا الجواب.

ولا أظنني مبالغًا فيما قلته لنوري السعيد لأن جميع الزعماء السوريين الذين خبروا الذهنية الفرنسية في

سوريا في السنوات الأخيرة أصبحوا موقنين بأن الاتفاق مع فرنسا صعب وتنفيذه أصعب ودوامه مستحيل، ولديهم من الأدلة على ذلك ما يحتاج سرده إلى مجلدات.

وهكذا اضطر الأمير فيصل إلى عدم مفاتحة الشعب بهذا المشروع الذي ولد ميتًا. وهكذا أدت هذه الأساليب وما شاكلها إلى اشتداد الخلاف ووقوع الاصطدام بين سورية وفرنسا. ولكن هذا الاصطدام وقع لسوء الحظ في أحرج الأوقات وأقلها ملاءمة له فكانت النتيجة ما عرفناه عن معركة ميسلون ونتائجها.

الإنذار الفرنسي

في مساء ذات يوم من أيام شهر يوليو [تموز] سنة 1920، كنت خارجًا من النادي العربي منشرح الخاطر مطمئن البال على أثر اجتماع عقده بعض الإخوان. فأبصرت في أول شارع الصالحية نوري السعيد عائدًا بإحدى السيارات الملكية من بيروت مقطب الجبين شارد الفكر، فاستوقفته وسألته عما لديه من الأخبار. وكان مستعجلًا يرغب في مقابلة الملك فيصل في الحال فدعاني إلى السيارة التي استأنفت سيرها بسرعة بينما هو يحدثني عن نتيجة زيارته للجنرال غورو[227]. ومما قاله لي أن الجنرال قرر إرسال إنذار نهائي إلى الحكومة السورية، وأن هذا الانذار سيتضمن شروطًا قاسية أطلعه عليها. ثم سرد عليّ الشروط التي وردت بعد ذلك في إنذار الجنرال غورو وقال إنه يتوخى منها أن يُفرض الانتداب على البلاد فرضًا.

وأردت أن أعرف هل هو مبالغ في روايته التي وجدتها في منتهى الغرابة، أم لا؟ وهل هو موقن بأن فرنسا ستوجه إلى سورية مثل هذا الإنذار. فقال: «هذا ما سمعته اليوم من الجنرال غورو. ولا أعرف هل هو جاد أم يقصد التهويل. وعلى كل حال أرى الموقف حرجًا والخطر شديدًا».

وكنا قد وصلنا حينئذ إلى البلاط فتركته وعدت مسرعًا إلى النادي العربي حيث اجتمعت ببعض الإخوان الذين وجدتهم فيه وأخبرتهم بما سمعته من نوري السعيد. واستقر الرأي حينئذ على أن يذهب بعضهم إلى البلاط بعد خروج نوري السعيد منه ليجتمعوا بالملك فيصل ويطّلعوا على حقيقة الحالة ويقرروا بالاتفاق معه ما يجب على البلاد أن تفعله. وكان من الذين انتدبوا لهذه المهمة المرحوم أحمد مريود. وقد غابوا عنا نحو نصف ساعة ثم عادوا إلينا، وكنا لا نزال في انتظارهم، فأخبرونا بما سمعوه، وهو ما كنت قد نقلته إليهم على لسان نوري السعيد، ولكن بعضهم أبدى ارتيابه في صحة الرواية وصدق راويها مدعيًا أنه لفقها لغرض في نفسه. فأنكرت هذا الاتهام، وقلت إن نوري نقل إلى الملك التهديد الذي سمعه، ولكنه لم يؤكد أن الجنرال عازم على تنفيذه. وعلى كل حال، يجب أن نستعد لمقابلة هذا التهديد بكل ما لدينا من قوة.

وقد سافر المرحوم أحمد مريود على أثر هذا الاجتماع إلى جهات القنيطرة حيث كان يتمتع بنفوذ كبير لتنظيم وسائل الدفاع في تلك المنطقة بالاتفاق مع الأمير محمود الفاعور، وسافر غيره إلى جهات أخرى، وبقي الآخرون في دمشق يرقبون الحوادث.

ومضت أيام على اجتماع نوري السعيد بالجنرال غورو ولم يطرأ أقل تبدل على الحالة، فازداد ارتياب الناس في صحة ما رواه نوري بعد عودته من بيروت. وكثر تساؤلهم عن الغاية التي يتوخاها من إثارة

الخواطر في البلاد، حتى إني سمعت مرة من مركز عال كثيرًا ما كان يلجأ إلى خدماته تنديدًا شديدًا به وشكًا في حسن نيته.

وأخيرًا وصل الإنذار الفرنسوي وكان أشد لهجة مما كنا نتوقع، فقامت البلاد له وقعدت وهبت عليها عاصفة شديدة من الحماسة كادت تجرف كل شيء أمامها.

وقد كانت الوزارة القائمة حينئذٍ تتمتع بثقة الأمة. فاستطاعت أن تعطل اجتماعات المؤتمر الوطني الذي كانت له صفة البرلمان من دون أن تثير هياج الرأي العام. ومما ساعد على تعزيز الثقة بتلك الوزارة اتخاذها كلمة «الدفاع» شعارًا لها، والخطب الحماسية التي كان يُلقيها أعضاؤها، والمباحثات التي كانت تدور بين الملك فيصل وزعماء الوطنيين حول التدابير التي يجب اتخاذها للدفاع عن البلاد والمحافظة على أمنها الداخلي في أثناء الحرب، فعاشت سورية تلك الأيام العصيبة وهي موقنة بأن الحرب واقعة لا محالة، وأنها ستكون حربًا هائلة طويلة الأجل.

وأقبل الناس على التطوع زرافات، فغصت بهم الثكنات العسكرية في كل مكان، ولم تقتصر مظاهر النشاط على حركة التطوع بل تعدتها إلى جميع مظاهر الحياة القومية. فامتلأت دمشق برؤساء القبائل وزعماء المناطق وقد جاءوا ليتلقوا منها الأوامر، ويتبادلوا مع رجالها الآراء. واشتد الإقبال على ابتياع الأسلحة والذخائر من فلسطين والعراق والجزيرة، وتمكن بعض الوطنيين من الاتفاق مع إحدى الشركات الأجنبية على شراء مقادير كبيرة منها، وبدأت الأحياء تنظم قوات محلية للمحافظة على الأمن بعدما تخلو المدن من القوات المسلحة.

التفكير في الديكتاتورية

وكان الأستاذ عزة دروزة من المتشائمين. وقد التقيت به مرة في الطريق فسألته عن رأيه في الموقف وعن الأسباب التي يبرر بها سوء ظنه. ولما كنا على مقربة من داره دعاني إليها لتناول طعام الغداء ودرس الموضوع. فلبيت الدعوة وبقيت معه نحو ثلاث ساعات كان موضوع البحث فيها ضعف المسؤولين عن مستقبل البلاد، وتردد الملك فيصل. وقد قال لي إنه يرى من معظم الإخوان في حزب الاستقلال ميلًا إلى تشجيع المرحوم يوسف العظمة، وزير الدفاع حينئذ، على إعلان الديكتاتورية لأنه في الأحوال الحاضرة التي تغل يده لا يستطيع أن يفعل شيئًا. ومع أن صلتي بالمرحوم يوسف لم تكن حسنة، حبذت هذا الرأي وقلت إن البلاد في حاجة إلى يد حديدية تُخرجها من المأزق الذي بلغت إليه، وإن الحرب التي لم يبق بد منها يجب أن تكون حرب حياة أو ممات. فإذا كنتم ترون في يوسف العظمة من صدق العزيمة وقوة الإرادة وحسن التدبير ما يمكنه من إضرام نار الحماسة في صدور الشعب، وجعل الحرب حربًا قومية تخوض الأمة كلها غمارها، وإدارتها إدارة تكفل النصر، فيجب أن يتم هذا المشروع بلا تأخير لكيلا يفسده المفسدون.

وخرجت من دار الأستاذ عزة دروزة إلى وزارة الحربية لمقابلة الأمير زيد، وكان قد عُيّن قائدًا عامًا، فقلت له: يا سيدي يجب أن نعرف بصراحة هل الملك والحكومة عازمان عزمًا أكيدًا على رفض إنذار الجنرال

غورو وخوض غمار الحرب أم لا؟ فقال: «وهل عندك شك في ذلك؟». قلت: إن مظاهر الحال تثير الشكوك في النفوس، لأن الاجراءات البطيئة التي تتخذها الحكومة لا تدل على أنها مقبلة على حرب تريدها أن تكون حرب حياة أو ممات. قال: «وماذا ينبغي للحكومة أن تفعل؟». قلت: «الموقف يتطلب يدًا قوية حازمة. فحبذا لو وجدت البلاد دكتاتورًا يسير بها إلى شاطئ السلامة في وسط هذه العاصفة الهوجاء. ولا أدري ما هو رأي سموكم في يوسف العظمة. فإني أرى الأنظار متجهة إليه». فأثنى سموه على يوسف بك ثناءً عظيمًا ثم قال: «هلم بنا إلى البلاط فسأحاول معرفة رأي أخي في الموضوع».

وركبنا السيارة قاصدين إلى البلاط، فلما بلغنا إلى أول شارع الصالحية التقينا بالملك فيصل قادمًا منه متجهًا نحو الثكنة العسكرية، وقد أشار بيده إلى الأمير زيد أن يتبعه إليها فسرنا وراءه وزرنا الثكنة معه وكانت غاصّة بالجند.

ولا أنسى ما حييت الخطبة الحماسية التي ألقاها الملك فيصل على الجند في أثناء زيارته للثكنة، فلا أذكر أني سمعت أو قرأت ما هو أبلغ منها وأشد وقعًا. ولعل المحيط الذي ألقيت فيه ضاعف تأثيرها في نفسي التي كانت حينئذ مستعدة للتأثر بكل مظاهر الحماسة، ولكن ذلك وحده لا يعلل تأثيرها العظيم في نفوس الجنود. وهذا ما يحملني على الاعتقاد بأن الملك فيصلًا كان حتى الساعة عازمًا على الموت على رأس الوطنيين في سبيل الدفاع عن البلاد، وأن ما قاله في خطبته كان صادرًا من أعماق قلبه فبلغ إلى أعماق قلوب السامعين.

وخرجنا من الثكنة توًا إلى البلاط وكنت دائمًا بصحبة الأمير زيد. وقد أردت أن لا أفارقه قبل أن يعرف رأي أخيه في مسألة تنظيم الدفاع. ولكننا وجدنا في البلاط جميع أعيان دمشق وقد جاءوا إليه بدعوة من الملك فيصل. فألقى فيهم خطبة حماسية ضمّنها إنذارًا لكل من تحدثه نفسه بمناوأة أماني البلاد أو الإخلال بالأمن في أثناء انهماك الشعب والجيش في الدفاع عن استقلال الأمة وكرامتها. ثم طلب إليهم أن يوجهوا كل اهتمامهم إلى المحافظة على الأمن والنظام. وقال إنه يُعِدّهم مسؤولين عن كل حادث يُقلق راحة الأهلين أو يعبث بطمأنينتهم.

وبعد أن خرج أعيان دمشق من البلاط جمع الملك الذين كانوا فيه من أعضاء حزب الاستقلال وجعل يبحث معهم في مسألة الأمن الداخلي وطريقة المحافظة عليه، وفي تدارك المؤن والذخيرة للمتطوعين من الحضر والبدو وفي جمع القوات غير النظامية المنتظر اشتراكها في الحرب. وحان وقت الطعام قبل أن يتمكن الأمير زيد من مقابلة أخيه فغادرت البلاط حينئذٍ على أن أعود إليه بعد الظهر لإتمام البحث الذي بدأت به معه.

اجتماع المجلس الحربي

ولم أكن أعلم في تلك الساعة أن مجلسًا حربيًا عقد لبحث الموقف برياسة الملك وحضور كبار القواد، وأن يس الهاشمي بسط في هذا المجلس حالة الجيش من الوجهة الفنية العسكرية، ونوّه بعدم توفر الذخيرة لديه

ولا سيما قنابل المدافع. وقال إن الاعتماد عليه وحده يجعل المقاومة أكثر من بضعة أيام مستحيلة.

وقد وجه كثيرون من الوطنيين انتقادات شديدة إلى يس الهاشمي على إثر ارفضاض المجلس الحربي وسلقوه بألسنة حداد، واتهموه بأنه توخى بما قاله التنديد بسياسة يوسف العظمة وضربه ضربة قاضية. وما دروا أن الهاشمي لم يكن يستطيع بصفته قائدًا مسؤولًا، سوى بسط الحالة من الوجهة العسكرية الصرف في المجلس الحربي، كما يراها أو يعتقدها بلا زيادة ولا نقصان، وأن يرد على الأسئلة التي توجه إليه بصراحة تامة خصوصًا وأن الأمة لم تكن تعتمد على الجيش وحده في محاربة الفرنسويين، وأنه كان من الواجب أن يظل ما دار في المجلس الحربي سرًا مكتومًا عن كل انسان.

ولا أدري كيف عُرفت المعلومات التي أفضى بها يس وغيره عن حالة الجيش وكفاءته، وكيف انتشرت بسرعة البرق بين جميع الطبقات. ولماذا عُنيَ بعض الناس بجعلها موضوع حديث الخاص والعام في تلك الأثناء، ولكني أعلم أنها زعزعت مركز يوسف العظمة وأفسدت عليه خططه، فبدأ اليأس يتسرب إلى نفسه من تلك الساعة. ومما قاله لي حينئذ: «لا أفهم معنى لإفشاء أسرارنا العسكرية. نعم إننا لا نعتمد على الجيش وحده، ولكن إطلاع الرأي العام على مواطن الضعف في البلاد يُضعف القوة المعنوية في نفوس الشعب، ويفسح المجال الواسع لإثارة الخواطر وإحداث الاضطرابات».

واجتمعت الوزارة لدرس الموقف برياسة الملك فيصل فانقسمت إلى فريقين. قال أحدهما برفض إنذار الجنرال غورو وخوض غمار الحرب إلى النهاية، وفي مقدمته المرحوم يوسف العظمة. ورأى الثاني من المصلحة قبول إنذار الجنرال غورو وانتهاج سياسة التفاهم معه لتعديل بعض مواد الإنذار. وأيّد الملك فيصل القائلين بالرأي الثاني مستندًا إلى البيانات التي أفضى بها بعض كبار القواد في المجلس الحربي. فاستمال في النهاية جميع الوزراء إلى رأيه ما عدا المرحوم يوسف العظمة الذي بقي مصرًا على الرفض وأنذر بالاستعفاء.

ووقعت حينئذ أزمة خطيرة، لأن استعفاء يوسف العظمة كان معناه قيام الأمة ضد الحكومة والملك، واتهامهما بالضعف أو بما هو أعظم منه والتفافها حول وزير الحربية المستقيل وتسليمه زمام أمورها بالقوة إذا اقتضت الحال.

وأصر المرحوم يوسف العظمة على الاستعفاء. وأصر الملك على الرفض قائلًا: «إنك يا يوسف تحرج مركزنا بعملك إلى آخر حد. وتعرض البلاد للثورة والفوضى. فمن حقي عليك وحق الوطن أن تضحي بشخصيتك وتخرجنا من هذا المأزق بموافقتك على رأي الوزارة». وكان يوسف بك شديد الإخلاص للملك فوافق على هذه التضحية مكرهًا وخرج وعيناه دامعتان.

ولم يكن الجمهور حتى تلك الساعة يعرف ما يدور في الخفاء، بل كانت خطبة الملك فيصل في الثكنة العسكرية واجتماعاته بزعماء الأحياء وبعض رجال حزب الاستقلال قد انتشرت أخبارها في العاصمة، فأثارت روح الحماسة فيها وأقنعتها بأن الحكومة قررت نهائيًا رفض إنذار الجنرال غورو وإصدار أوامرها إلى الجيش والقوات غير النظامية بصد الجيوش الفرنسوية التي كانت حينئذ محتشدة على الحدود. وفي تلك الأثناء وردت الأنباء بأن الجنرال غورو أطال مدة الإنذار فأحدث ذلك دويًا عظيمًا في البلاد وذهب الناس

في تأويله مذاهب.

وكان الأمير عادل أرسلان قد أُرسل إلى فلسطين لمعرفة الخطة التي ينتهجها الإنجليز في حالة وقوع الحرب بين سورية وفرنسا. فلم يستطع أن يحصل منهم على أي وعد رسمي يمكن الاطمئنان إليه. ومع ذلك كتب إلى الملك يشير برفض إنذار الجنرال غورو ويبسط آراءه فيما يكون موقف الإنجليز إذا دامت الحرب أكثر من أسبوعين.

اجتماع المؤتمر

ودُعيَ المؤتمر السوري، وكانت له صفة البرلمان كما تقدم، إلى الاجتماع في القصر الملكي قبل أن تنتهي مدة الإنذار بنحو 16 ساعة. وكان الرأي العام يعتقد بأن لهذه الدعوة علاقة بإعلان الحرب، مع أن الغرض منها كان حمل المؤتمر على تأييد قرار الحكومة.

وأقبل أعضاء المؤتمر على القصر الملكي حوالى الساعة الثالثة بعد الظهر فجلسوا في الحديقة حيث أعدت لهم المقاعد. ثم جاء الملك فيصل فجلس بينهم. وكنت مع بعض الأصدقاء في الحديقة نصغي إلى أحاديثهم. وما كان أشد دهشة أصدقائي لما سمعوا الملك يفتتح الاجتماع بوصف الحالة وصفًا يدعو إلى اليأس، وكنت أقل دهشة منهم لأني كنت أعرف أن أكثرية الوزراء قبلوا التسليم بشروط، ولكني لم أكن أعتقد أن يوسف العظمة والدكتور شهبندر انضما إلى رأيهم. فلما رأيت أصدقائي بدأوا يتذمرون من موقف الملك قلت لهم إن هذا الموقف هو نتيجة الاجتماع الذي عقدته الوزارة قبل دقائق قليلة وقررت فيه قبول إنذار الجنرال غورو بالإجماع على ما يظهر، بدليل وجود هاشم الأتاسي ورئيس الوزارة إلى جانب الملك.

وجاء حينئذٍ جميل مردم، وكان سكرتيرًا لوزارة الخارجية، فقلت له: «هل تعلم يا جميل أن الوزارة قررت قبول الإنذار؟». قال: «بل إنها رفضته». وأبصرنا الدكتور شهبندر حينئذٍ مقبلًا، وكان وزيرًا للخارجية في تلك الوزارة. فقلت أسأله عن القرار الذي اتُخذ بعد ظهر اليوم. فالتفت جميل إلى الدكتور [الشهبندر] وكان قد اقترب منه وقال: «يظهر أن الملك فيصلًا يحبذ قبول الإنذار. فهل هذا ما قررته الوزارة في اجتماعها الأخير؟». فقطب الدكتور جبينه وقال: «أهكذا يتكلم الملك؟» ثم ابتعد وهو يقول: «لا، لا».

وأبصرت في تلك الساعة يوسف الحكيم[228] مسندًا ظهره إلى شجرة وراءنا. وكان من أعضاء الوزارة فدنوت منه وقلت:

– هل كانت الوزارة تعرف ما سيقوله الملك في اجتماع المؤتمر؟

- كل ما قاله إلى الآن متفق عليه.

- إذن قبلت الوزارة إنذار الجنرال غورو؟

- نعم وبإجماع الآراء.

فتركته حينئذٍ وصعدت إلى شرفة القصر حيث كان بعض أصدقائي مجتمعين وقد امتقعت وجوههم وأصيبوا بذهول شديد. ورأيت كبير الأمناء مسرعًا نحو غرفة التليفون فلحقت به وسمعته يخاطب حكومة حلب ويبلغها خبر قبول الإنذار. ولما أتم حديثه قلت له: «أهذه هي النتيجة يا إحسان؟». فطأطأ رأسه ولم يُجب.

وبعد قليل اجتمع الملك بأعضاء الوزارة لوضع صيغة الرد على إنذار الجنرال غورو، وعدت أنا إلى داري وأنا عازم على السفر إلى مصر.

الثورة في دمشق

وبينما كنت أعد حقائبي سمعت الرصاص يدوي في المدينة، وكانت الشمس قد أشرفت على الغروب، وكان الدوي يشتد ويدنو من حي الصالحية حيث كنت أقيم، فخرجت لأرى ما الخبر، وسرت متجهًا نحو ساحة المرجة. ولما وصلت أمام المستشفى العسكري رأيت شكري القوتلي مع بعض الأصدقاء يتحدثون، وكانوا مثلي على جهل بحقيقة ما هو جار في المدينة، فاشتركت معهم في الحديث. وجعل الناس ينضمون إلينا ويأتوننا بأخبار متناقضة. فمن قائل منهم إن الشيخ كامل القصاب اعتُقل فثار الشعب من أجله، ومن قائل إن الجند قد سُرح فعد تسريحه خيانة في الأحوال الحاضرة وقام [الجيش] يريد إسقاط الحكومة، ومن قائل غير ذلك. والحقيقة أن المرحوم يوسف العظمة الذي كان قد بلغ منه اليأس أقصى حدوده، أصدر الأمر بتسريح الجيش من دون أن يفكر في التدابير التي يجب اتخاذها في مثل هذه الحالة. وتلقى الضباط الأمر في ثكناتهم العسكرية وكانوا في حالة من اليأس لا تقل عن حالة وزير الحربية، ففتحوا أبواب الثكنات وأبلغوا الجنود وجوب العودة إلى منازلهم.

وخرج الجنود بأسلحتهم وقد ضربت الفوضى أطنابها بينهم، وساروا نحو ساحة المرجة. وقال قائل في تلك الساعة إن الشيخ كامل اعتُقل وإن الحكومة سلمت البلاد إلى الفرنسيين، وإنه يجب إنقاذ الذخيرة من القلعة، فاتجهوا نحوها لتسلّم ما فيها من سلاح وذخيرة قبل أن يتسلّمه العدو، وإخراج الشيخ كامل منها.

وقال شكري القوتلي بعد أن أجمعت روايات القادمين نحونا من جميع أنحاء المدينة على أن الثورة موجهة ضد الحكومة: «يجب أن لا نتركها تتحول إلى فوضى، وأن نتصل في الحال بزعمائها ونبدأ بتنظيمها ووضع الخطط المناسبة لها». فوافقناه على رأيه وأستأنفنا السير نحو منطقة النار، ولكننا التقينا بأناس كانوا فيها، فأخبرونا والأسف ملء أفئدتهم، بأن النهب بدأ في المدينة، وأن البوليس يلقى صعوبة كبيرة في صد الغوغاء عن المخازن، وأن الحالة أصبحت حرجة جدًا فاختلط الحابل بالنابل ولم يبق لعاقل رأي. ووقعت بين الجماهير الصاخبة وقوات الحكومة مصادمات عنيفة لا أدري عدد ضحاياها بالضبط ولكن يقال إنهم يُعدون بالمئات.

وسألنا عن زعماء الحركة فقيل ليس بينهم زعيم. وبحثنا عن الشيخ كامل القصاب فلم نجد من يعرف مكانه. وحينئذٍ ترددنا في التدخل في أمر لا ندري مبلغ تأثيرنا فيه، والاشتراك في تبعة ثورة سيطر الغوغاء عليها وأصبح من المتعذر ضبطها وتنظيمها، وخصوصًا بعد أن اشتد الظلام ولم يعد يستطيع الانسان أن يرى أبعد من أنفه. ويغلب على ظني أننا لو وجدنا الشيخ كاملًا حتى في تلك الساعة المتأخرة لما أحجمنا عن

الاتصال بالثوار ومحاولة تنظيمهم بواسطته، نظرًا إلى ما كنا نعرفه عن عظم تأثيره في طبقات العامة خاصة، وعن اعتقاد الثوار بأنه معتقل، وقد ثاروا لإخراجه من معتقله.

وبينما نحن على هذه الحالة من التردد والارتباك أقبلت سيارة بأقصى السرعة متجهة إلى القصر الملكي ورأى راكبها على ضوئها شبانًا واقفين في الشارع لم يتبيّنهم. فارتاب في نيتهم وأطلق الرصاص في الهواء إرهابًا لهم. وعرفنا من صوت السيارة وسرعتها أنها سيارة المرحوم يوسف العظمة فأدركنا أنه عائد من منطقة الفتنة، وقدرنا خطورتها من مدى الخوف الذي دلّ عليه إطلاقه الرصاص لإرهابنا. وكنا رأينا أن لا فائدة تُرجى من محاولتنا الاتصال بالثوار في تلك الساعة المتأخرة من الليل وفي وسط ذلك الظلام الدامس، فقر قرارنا على أن نسعى لمعرفة الحالة الحقيقية في المدينة لنكون على بيّنة مما يجب أن نفعله في الصباح.

ورأيت أن أقصد إلى القصر الملكي لأطلع على الأخبار الواردة عليه، وأجتمع فيه بالمرحوم يوسف العظمة، ولما وصلت إليه قابلني الأمير زيد قائلًا: «هل تعرف أين هو الشيخ كامل؟»

- يقال يا سيدي إنه معتقل وإن الثورة قامت في المدينة على أثر اعتقاله.

- هذا غير صحيح، والحالة قد تفاقمت وما من أحد يستطيع تهدئتها سواه، فحبذا لو أمكنني أن أقابله.

- سأبحث عنه وأبلغه رغبتكم هذه.

- لا أوصيك بأن تستقل سيارة من سيارات البلاط لتطوف بها في الشوارع في هذه الساعات الخطرة.

– لا، سأستقل سيارة سموكم فهي خير واق من الخطر.

فابتسم ثم خرج معي إلى الباب وأمر السائق بأن يكون تحت تصرفي.

وكان يهمني أن أجتمع بالشيخ كامل لأعرف هل له يد في الثورة أم لا. وهل يستطيع الوطنيون السيطرة عليها قبل الصباح أم أنها تحولت إلى فوضى، لأني كنت أعتقد بإمكان الاستفادة منها إذا أُحسِن تنظيمُها.

وذهبت إلى دار الشيخ كامل فلم أجده، وبحثت عنه في الأماكن التي كان يُحتمل وجوده فيها فلم أعثر له على أثر. فعدت إلى البلاط لأبلغ الأمير زيد الخبر.

واجتمعت هناك بالمرحوم يوسف العظمة ووقفت منه على معلوماته عن الثورة. ولا تختلف عما كنت أعرفه عنها. فقد قال لي إن الجنود لما بلغهم خبر تسريحهم خرجوا بأسلحتهم من الثكنات العسكرية يهتفون ضد الحكومة بحجة أنها سلمت البلاد إلى الأجانب. ثم ذهبوا إلى القلعة لإنقاذ الأسلحة والذخائر وإخراج الشيخ كامل الذي قيل إنه اعتُقل فيها.

فسألته: «هل صحيح أن الشيخ كامل اعتُقل؟»

- هذه إشاعة كاذبة رُوِّجت لأغراض لا تخفى.

- وكيف مكنتم الجنود من الخروج بأسلحتهم؟ وهل بهذه الطريقة تُسرح الجيوش عادة؟.

- لقد أصدرت الأمر بتسريح الجيش وأنا في أشد حالات الاضطراب. والظاهر أن الضباط تلقوه وهم في مثل حالتي فلم يخطر لهم أن يتخذوا التدابير التي تتخذ عادة فجرى ما جرى. ولكن المصيبة أن دماء زكية تُراق الآن، وأن الثورة تحولت إلى فوضى قد تزيد موقف البلاد خطرًا.

- ما هي الطرق التي تفكرون فيها لإعادة السكينة إلى المدينة.

- لا أعرف غير طريقة واحدة ولكني لن ألجأ إليها لأنها تكلف دماء غزيرة لا فائدة من إراقتها. فحبذا لو استطاع الوطنيون أن يسيطروا على الحالة ويحولوا دون استمرار الفوضى وتفاقمها.

– أعتقد أن إعلان الحرب ينقذ البلاد من حرب أهلية.

– ولكن قواتنا جلت عن مجدل عنجر حيث أعددنا عدتنا للدفاع، وهي الآن في طريقها إلى دمشق فاستحكاماتنا المنيعة قد خرجت من يدنا ولم يبق لنا أمل قوي بنتيجة الحرب.

الساعات الأخيرة في دمشق

وانتهت مدة الإنذار الذي أرسله الجنرال غورو إلى الحكومة، وقد ادعى أن رد الحكومة عليه لم يصل في وقته. وكانت لذلك أسباب أدت فيما بعد إلى محاكمة حسن الحكيم[229] مدير البرق والبريد الذي استعفى على أثر قبول الحكومة إنذار القائد الفرنسي، فأريد جعله مسؤولًا عن تأخير الرد. والحقيقة أن الأسلاك عُطلت عمدًا. ويقال إنه كان للفرنسويين غرض في تعطيلها، وإن موظف التلغراف الفرنسي في مركز القيادة الفرنسية أبى قبول برقية الحكومة السورية قبل هذا التعطيل.

وفي صباح اليوم التالي أرسل الملك فيصل ساطع الحصري ومعه ممثل فرنسا لدى الحكومة السورية لمقابلة قائد القوات الفرنسوية في البقاع وإبلاغه أن حكومة دمشق قبلت الإنذار قبل الموعد المعين، وأنها ليست مسؤولة عن تأخير وصول برقيتها المنبئة بذلك.

ولكن هذا السعي لم يُجدِ نفعًا لأن الجنرال غورو كان عازمًا على الحرب. وقد بلغته أنباء الثورة التي نشبت في دمشق، فقوّت عزيمته، وجعلته يعتقد بأن أبواب العاصمة السورية أصبحت مفتوحة أمامه بعد جلاء الجيوش السورية المرابطة في مجدل عنجر وتسريح القوات التي جُندت حديثًا، وقيام الثورة في دمشق نفسها.

وتناقلت الألسنة في المدينة منذ فجر اليوم التالي أن الحكومة قررت إعلان الحرب، وكان ذلك على أثر الأمر الذي أصدرته إلى القوات التي انسحبت من مجدل عنجر بالتوقف في ميسلون بعد أن وردت الأنباء بأن الجيش الفرنسوي بدأ يزحف إلى دمشق.

وما كاد هذا الخبر يُذاع في المدينة حتى انطفأت فيها الثورة فجأة، كأن ماء ألقى على نارها، فعاد الثوار إلى الثكنات، ونُقل القتلى والجرحى إلى المنازل والمستشفيات، وألفت لجنة خاصة تولت إعادة المنهوبات إلى أصحابها. وعادت دمشق إلى حماستها الأولى واستأنفت استعدادها للحرب.

آخر لقاء مع يوسف العظمة

وقابلت يوسف العظمة في البلاط الملكي فسألته عن رأيه في الموقف، وهل يستمر الجيش الفرنسوي في زحفه وما هي التدابير التي اتخذت لمقاومته وصده بعد تسريح الجيش؟ فقال إنه لم يبلغه حتى تلك الساعة نبأ عن توقف الجيش الفرنسوي الذي دخل الأرض السورية بحجة المرابطة على ينابيع المياه في أول الأمر، ثم

استولى على مجدل عنجر بعد جلاء الجنود السورية عنها. وقال عن التدبير الذي اتخذته لمقاومته إن القوات التي كان قد صدر الأمر بتسريحها وقفلت راجعة إلى دمشق تلقت أمرًا جديدًا بالعودة إلى ميدان القتال من وسط الطريق، ثم اغرورقت عيناه بالدموع ونهض عن كرسيه وخرج إلى الشرفة فتبعته إليها محاولًا تخفيف ما اعتراه من شدة التأثر والانفعال. وقلت: «يا يوسف إن مزايا الرجولة تظهر في ساعات المحن والشدائد. ولسنا أول أمة في التاريخ استهدفت لما نحن مستهدفون له الآن، وخُدعت وأخطأت كما خُدعنا وأخطأنا. ونحن لا نزال في بدء جهادنا والجهاد كالحرب السجال يتعاقب فيها الفشل والفوز».

فقال: «كان الفوز مكفولًا لنا فأضعته بيدي. وإني أعرف ما يجب علي وسأقوم بواجبي، ولست آسفًا على نفسي بل أسفي على الأمة التي ستظل سنوات كثيرة أو قليلة هدفًا لكل أنواع المحن المصائب».

قلت: «ما هذا الذي تقوله؟ إن الأمة محتاجة إليك في جهادها الحقيقي الذي يبدأ بعد هذه المحنة، فاحفظ لها نفسك وقواك ومواهبك».

فقال: «إني مطمئن إلى مستقبل الأمة لما رأيته وخبرته بنفسي من قوة الحياة الكامنة فيها، وواثق من عطف أصدقائي على طفلتي. فسأذهب مستريح البال مطمئن القلب في طريق الواجب المفروض علي».

ثم تركني وانصرف إلى داره وبقيت أتمشى في الشرفة منتظرًا عودته. ثم أبصرته بعد خمس دقائق عائدًا بالسيارة ولم يتوقف أمام القصر بل نظر إلي مودعًا، وسار في اتجاه ميسلون.

وانقضى ذلك النهار وسورية كلها تغلي كالمرجل على النار ولكن القوة المنظمة فيها كانت قد تضعضعت، ولم يكن هناك متسع من الوقت لجمع شملها وإعادة تنظيمها. فالحكومة في دمشق فقدت هيبتها ونفوذها على أثر الثورة، والجيش تسرح في أنحاء البلاد، وكانت الأوامر تصدر من دمشق متضاربة متناقضة حتى حار قواد الفرق وحكام المناطق في تنفيذها.

وقد ظلت الحكومة تعتقد بإمكان اجتناب الحرب حتى المساء، ولم تتأكد أنه لم يبق منها مناص إلا في أوائل الليل. ومع ذلك ظل بعض رجالها يفكرون في عدم إعلانها وفي اجتناب القتال مع الفرنسويين.

واجتمعت بعد ذلك اليوم بالدكتور سعيد طليع فاستعرضنا الحالة والنتائج المشؤومة المنتظرة وخصوصًا أن بعض رجال الحكومة كانوا حتى تلك الساعة لا يزالون مترددين في هل الأفضل مقاومة الجيش الفرنسوي بالقوة أو عده جيشًا من جيوش الحلفاء في بلاد محتلة احتلالًا مشتركًا لم يُبت في مصيرها بعد.

وبعد مباحثات طويلة حاولنا فيها إيجاد منفذ لهذا المأزق الحرج استقر الرأي على أن أذهب في الحال لمقابلة الأمير زيد وعرض ما يأتي عليه:

«إذا كان الملك وبعض الوزراء يرون أن لا فائدة من الدفاع ويفضلون الاستمرار في معاملة الفرنسويين معاملة حلفاء في بلاد محتلة لم يبت في مصيرها، وإذا كانوا يعتقدون أن هذه السياسة تُكسبهم عطف أوروبا وتأييد عصبة الأمم، فليفعلوا ذلك ولكن بالشروط التالية:

1 - أن يخرج سموه وجميع أعضاء المؤتمر (البرلمان) بما لديهم من السجلات والوثائق الرسمية ومعهم

جميع المواطنين الذين يستطيعون السفر إلى مكان معين في شمال سورية لاستئناف أعمال المؤتمر وإقامة حكومة مشروعة وقتية.

2 - أن يتفق سموه مع يوسف العظمة على أن يغمض عينيه عن القوات النظامية التي تريد الالتحاق بهذه الحركة ومعها الأسلحة والمهمات الكافية من مدافع وبندقيات وذخائر وسيارات ورجال.

3 - يقتحم بعض الوطنيين بالقوة دور الحكومة وخزائنها فيأخذون ما فيها وينقلونه إلى حيث يجتمع البرلمان وتؤلف الحكومة الوقتية. ويمكن اتخاذ التدابير لتنفيذ جميع هذه الاقتراحات من دون أن تعلم بها الحكومة ودون أن تراق نقطة من الدماء، بالاتفاق عليها مع بعض ضباط الجيش والشرطة. ففي هذه الحالة تستطيع الحكومة أن تنفذ سياستها السلمية مع الاحتفاظ بقوة الأمة ووسائلها الدفاعية. ولن يستطيع الفرنسيون أن يتهموا حكومة الملك فيصل بهذه المؤامرة لأنها تكون بالفعل جاهلة لها وبعيدة عنها إذا استثنينا يوسف العظمة أحد أعضائها الذي يجب أن ينضم إلى الحركة فيما بعد».

وأسرعت إلى الأمير زيد وعرضت عليه هذا الاقتراح فقبله، وخاطب يوسف العظمة في موضوعه فوافق عليه. ولكن قبل البدء بالتنفيذ قال الأمير زيد إنه يرى وجوب استشارة أخيه في الأمر لكي لا يُعد عمله خروجًا عليه. والظاهر أن الملك فيصلًا لم يوافق على هذا المشروع لأني لما عدت إلى سموه لأعرف منه النتيجة رأيته في حالة اكتئاب شديد لفشل مساعيه. وهكذا حبط هذا المشروع كما حبط غيره من المشروعات التي كنا نعقد عليها الآمال. وقد عدت إلى داري وأنا في أشد حالات اليأس.

مدافع ميسلون

واستيقظت في صباح اليوم التالي على دوي المدافع في ميسلون. وبعد قليل قرع الباب ودخل يس الهاشمي وقد شاء أن يمر بي، وهو في طريقه إلى وزارة الحربية، التي تولاها من مدة قصيرة فقلت:

- يظهر يا باشا أن المعركة ابتدأت في جهة ميسلون فمن يتولى القيادة هناك؟

- يوسف العظمة الذي سافر أمس وتبعه الملك فيصل قبيل فجر اليوم.

- وما رأيكم في النتيجة؟

- إذا استطاع الجيش أن يثبت أمام الصدمة الأولى تغير وجه الحرب.

- وهل تعتقدون أنه يستطيع الثبات ثلاثة أو أربعة أيام ريثما تهب البلاد كلها لنصرته؟

- إن شاء الله.

وافترقنا فذهب هو إلى وزارة الحربية وقصدت أنا إلى البلاط لمرافقة الأمير زيد إلى الميدان بناء على اتفاقنا في اليوم السابق. وقد وجدته على وشك أن يستقل السيارة فجلست فيها بعد أن تداركت بندقية جاءني بها أحد رجال الحرس.

وفي تلك الساعة وصل نوري السعيد، وكان قد عيّن محافظًا لدمشق، فلما رآني في السيارة قال للأمير: «أرجو أن تبقيه هنا فقد يكون في بقائه بعض الفائدة».

واتفقا على أن أبقى، وألحّا في ذلك، فأذعنت مكرهًا ونزلت من سيارة الأمير التي سارت بسرعة إلى بلدة الهامة حيث مركز القيادة العامة.

ووضع نوري السعيد نص بيان يذيعه على شعب دمشق وكان هذا البيان مفرغًا في قالب لا يتفق مع مظاهر الحماسة التي تجلت في البلاد. وقد يفهم منه أن الحكومة لا تعد نفسها في حالة حرب مع فرنسا، فعارضت في نشره وألححت في وجوب تعديله قائلًا إن الحرب أعلنت وبدأت فعلًا، فرغبة بعض المسؤولين عن شؤون الأمة في التنصل منها لا تُفيد مع الفرنسويين إذا كتب لهم النصر، وتلحق بنا ضررًا عظيمًا لأنها تضعف حماسة الشعب وتعرقل مهمة الدفاع.

وبعد أن عدل ذلك البيان تعديلًا كبيرًا صرف نوري النظر عن نشره وخصوصًا حينما رأى أن الصحف بل المطابع نفسها ترفض كل بيان لا تكون الغاية الأولى منه إضرام نار الحماسة في البلاد.

وقضى نوري ساعة ونصف ساعة في محافظة العاصمة معي، ثم قال إنه ذاهب إلى المزة لتحصين مداخل دمشق، وانصرف. فبقيت وحدى على جهل تام بأنباء القتال التي كنت أنتظرها بفارغ الصبر، ولم يكن من سبيل إلى معرفتها لأن الأسلاك التليفونية قُطعت في أثناء الثورة.

أول نبأ بالنكبة

على أن انتظاري هذا لم يدم طويلًا لسوء الحظ. ففي الساعة العاشرة تقريبًا دخل على جندي يلهث وقال:

– هل هنا وزارة الدفاع؟

– من أين أنت آت؟

– من الهامة، أرسلني تحسين بك الفقير[230] قائد الجبهة بهذا الكتاب.

وأدركت أنه يحمل الخبر اليقين، ولم أجد في نفسي صبرًا على الانتظار، فقلت: «نعم هات ما عندك».

وناولني الكتاب ففضضته وقرأت فيه هذه العبارة بالحرف الواحد:

«**إلى القيادة العامة**».

«**أفاد مراقبونا الأماميون أنهم يرون جموعًا غفيرة تعود من جهة ميسلون ولم يروا منتهاها**».

«تحسين الفقير»

ووضعته في ظرف وأرسلته إلى يس الهاشمي مع رسول خاص طلبت منه الإسراع في إيصاله. ثم جعلت أسير في القاعة ذهابًا وإيابًا وكأنني أصبت بذهول فلم أشعر بمضي الوقت. وكانت الأفكار والذكريات تزدحم في مخيلتي فتحدث فيها انفجارات هائلة، وتهيج في نفسي عواطف متناقضة تمزق صدري وتفتت

فؤادي. وقد كدت أختنق لو لم ينفجر الدمع من عيني، فجلست إلى مكتبي ووضعت رأسي بين يدي وجعلت أبكي.

ولا أدري كم بقيت على هذه الحالة. ولكني أذكر أني لما استعدت رباطة جأشي ونظرت من النافذة إلى ساحة المرجة رأيت رجال البوليس على أذرعتهم شارات بيضاء علامة التسليم. فلم أعد أطيق صبرًا على البقاء في دمشق، وقررت مغادرتها في الحال لكي لا أرى الجيش الفرنسوي داخلًا إليها.

وخرجت من دار المحافظة أو دار البلدية قاصدًا إلى منزلي في الصالحية لأرتدي ملابس السفر واستأجر عربة تقلني إلى إحدى قرى الغوطة. ولكني التقيت في الطريق بصديقي الأستاذ عثمان قاسم وكان في مثل حالتي يأسًا واضطرابًا. فأخبرني أن قطارًا خاصًا أعد في المحطة لسفر الوزراء والذين يريدون مغادرة البلاد من الوطنيين. وقال إنه كان يبحث عني لنسافر معًا في هذا القطار.

وعدلت عن الذهاب إلى المنزل وعدت مع صديقي عثمان إلى المحطة، وجلسنا في القطار ننتظر وصول أكبر عدد من الإخوان لنخرج معًا من العاصمة.

وبدأت الطائرات الفرنسوية حينئذٍ تحلق فوق القطار، كأنها أدركت أن فيه نخبة رجالات سورية، وأراد بعض الشبان المجتمعين حوله أن يطلقوا عليها النار فمنعناهم لكي لا تُستفز إلى ضرب المدينة أو المحطة. وقد بقينا على هذه الحالة نحو ساعة نتوقع في كل لحظة منها أن يأتينا الموت من الجو. وقد شعرت الطائرات بعدم الرغبة في رميها بالرصاص فاطمأنت وجعلت تحلق على ارتفاع قليل جدًا. أما نحن فلم نطمئن إلى وجودها فوق رؤوسنا، ومع ذلك قررنا أن لا نكون البادئين بالشر وأن نكتفي بمراقبتها والاستعداد لمقاومتها عند أول قنبلة تقذف علينا أو على المدينة.

الخروج من دمشق

وتحرك القطار حوالى الساعة الرابعة مساء فتنفسنا الصعداء، ولكن الطائرات تحركت معنا فقلقت منا النفوس لاعتقادنا بأنها امتنعت عن ضرب القطار في المدينة لكي لا تحدث أضرارًا فيها، وفضلت ضربه في الطريق، ولكنها عادت أدراجها بعد أن صحبتنا إلى قرب الكسوة. فاطمأنت قلوبنا حينئذ وأيقنا بزوال الخطر.

ووقفت في نافذة القطار أنظر إلى دمشق نظرة الوداع، والأسى يملأ فؤادي. وكان جميع الذين فيه صامتين كأن على رؤوسهم الطير. وقد امتقعت وجوههم وكاد اليأس يملأ قلوبهم لولا الأمل بإمكان إعداد الجيش في حوران وإعادة الكرّة على الفرنسويين منها.

ووصلنا إلى محطة الكسوة حيث رأينا الملك فيصلًا والأمير زيد وكثيرين من الذين كانوا في ميدان القتال أو في الهامة مركز القيادة، وبينهم نوري السعيد وعوني عبد الهادي وساطع الحصري، في قطار أعد من قبل ليكون رهن تصرف الملك وحاشيته، وقد وصل إلى الكسوة قبل قطارنا بقليل. وسألت عن الملك فيصل فقال لي تحسين قدري إنه متعب، وهو الآن في السرير!

وبحثت عن الأمير زيد فأبصرته جالسًا في سيارته وقد وضعت على مركبة نقل ملحقة بالقطار فسألته: «هل تطيلون المكث هنا؟». فقال: «لا أظن ذلك والأرجح أن نسافر في أول الليل».

واستأنف القطار الذي أقلنا من دمشق السير فوصلنا إلى درعا قبيل الغروب وكنا نحو سبعين رجلًا، لا يعرف أحد منا أين يقضي ليلته لعدم وجود فنادق في المدينة. وخطر ببالي أن أستبق أصحابي إلى متصرف حوران – وكان الشريف جميل[231] – لعلي أجد عنده ما يكفل راحتي وراحة فريق منهم. فنزلت من القطار مسرعًا، واتجهت نحو المقهى القريب منه لأسأل عن دار المتصرف. وما كان أشد دهشتي حينما أبصرت الشريف جميلًا نفسه بملابس النوم جالسًا في المقهى يلعب النرد، فاقتربت منه بلهفة على أمل أن يقابلني بمثلها، وخصوصًا أني كنت أظن أننا أصدقاء وقد اجتمعت به مرارًا عند الأمير زيد وعرف عطف سموه عليّ وصداقته لي، ولكنه لم يتزحزح عن كرسيه واكتفى بأن نهض قليلًا ومد يده إليّ مصافحًا بينما كانت يده الأخرى تقذف «الزهر» وهو يقول «شاش بيش». فاستغربت هذه المقابلة من رجل مسؤول، هو أحد أبناء عم الملك، ولكني قلت في نفسي: «ربما رأى نفسه أعظم من أن يتنزل للحفاوة بي أو سؤالي عما هو حادث في العالم، فلا بد أنه سيحتفي بالآخرين ويلحقني نصيب من عنايته بهم».

والظاهر أنه خطر لأصدقائي ما خطر لي، فرأيتهم يُسرعون في النزول من القطار للبحث عن المتصرف، وكان أسبقهم إلى لقياه على ما أذكر رياض الصلح وسعدالله الجابري، ولكنه قابلهما بمثل ما قابلني به، ثم قابل غيرهما كما قابلهما.

وقد استاء الجميع من هذه المعاملة واستغربوا على الخصوص أن يكون موظف كبير مثله، منصرفًا إلى لعب النرد بينما البلاد في يوم نكبة من أشد النكبات التي عرفتها في تاريخها. ولكن لم يكن من الوقت متسع لإظهار الاستياء أو الاستغراب لأننا كنا في حاجة ماسة إلى البحث عن طعام وعن أماكن نقضي فيها الليل.

وبينما نحن في تلك الحالة أقبل علينا قائد الفرقة المرابطة في درعا، وكان عراقيًا ومعه بعض الضباط فدعانا إلى العشاء في النادي العسكري، ولما سألناه عن مكان للمبيت قال إنه يقدم لنا النادي ويهيء لنا فيه كل ما يستطيعه من وسائل الراحة.

وقضينا في النادي ليلة لم تذق فيها أعيننا النوم. وفي الصباح جاءني بعض معارفي من الضباط العراقيين وقالوا لي إذا كنت أنت وأصحابك في حاجة إلى خيل، فنحن مستعدون لتقديمها لكم. فقلت نحن باقون هنا إلى أن يأتي الملك فنبت حينئذ خطتنا. فقالوا إن المتصرف أرسل أمس إلى الحكومة في دمشق برقية قال فيها: «إن نحو سبعين مشاغبًا وصلوا فجأة إلى درعا وجعلوا يذيعون أخبارًا مقلقة، فأنتظر أوامركم للقبض عليهم».

فلم أصدق هذا الخبر لغرابته ولكنهم أكدوه لي، وقالوا إنهم مستعدون لإطلاعي على صورة البرقية في مكتب البريد.

وأطلعت أصدقائي على هذا الخبر فقر قرارهم على إقامة رقابة على مكتبَي البريد والتليفون لمنع كل مخاطبة مع دمشق.

عودة الملك فيصل إلى دمشق

ونيطت بي مراقبة التليفون فعلمت من مخاطبات دارت بيني وبين بعض موظفي التليفون بدمشق أن اثنين من رجال الملك فيصل عادا إليها تمهيدًا لعودة الملك نفسه.

ورجوت منهم أن يزيدوني إيضاحًا، فأخبروني بعد البحث أنهم علموا أن بعض الوطنيين الباقين في دمشق أرسلوا يدعون الملك إليها بعد ما قابلوا قنصل إيطاليا وغيره من ممثلي الدول.

ولم يكن في الكسوة تليفون لأتصل بحاشية الملك فيها. ولكن أحد الذين وصلوا منها إلى درعا في تلك الساعة أخبرني بأن الملك فيصلًا تلقى دعوة بهذا المعنى من بعض أصدقائه في دمشق، على أن الذين كانوا معه اختلفوا في الخطة التي يجب اتباعها. فقال بعضهم بوجوب العودة إلى العاصمة تلبية لهذه الدعوة ورفض البعض الآخر بشدة. واستقر القرار في النهاية على أن يرجع اثنان إلى العاصمة أحدهما من أنصار الرأي القائل بوجوب عودة الملك إليها، والثاني من مخالفي هذا الرأي ليدرسا الموقف ويرجحا أحد الرأيين بعد هذا الدرس.

ولا أدرى لماذا ثارت ثائرتي لما تأكدت أن بين إخواننا في الكسوة من استطاع أن يفكر في إمكان عودة الملك فيصل إلى دمشق بهذا الشكل. ولعل السبب الأكبر في ذلك كان اعتقادي بأن النية متجهة إلى الثبات في حوران واستئناف الزحف منها إلى دمشق. وقد علمت بأن خادمًا لأحد الأشراف سيُرسل بمهمة خاصة إلى الكسوة فبعثت معه كتابًا إلى الأمير زيد، رجوت منه فيه أن يحول دون عودة الملك إلى دمشق، وبسطت الأسباب التي دفعتني إلى هذا الرجاء. ولكن الرسول لم يصل إلى الكسوة إلا بعد أن كان الملك قد برحها مع بعض رجال حاشيته عائدًا إلى العاصمة بينما البعض الآخر واصل سيره إلى درعا.

وقد شعرت بألم شديد لما وصل إلى درعا بعض الأصدقاء القادمين من الكسوة ورووا لنا تفاصيل المباحثات التي أقنعت الملك فيصل بالعودة إلى دمشق، وحقدت على جميع الذين اشتركوا فيها، لاعتقادي بأن الفرنسويين سيعلنونه ملكًا على سورية ويُقيمونه خيالًا في عاصمتها، وهذا الاعتقاد ضاعف آلامي وأظهر المستقبل أمامي بأفظع أشكاله. ملك يخرج من بلاده ثم يُعيده المغتصب إليها، وشعب ينهار أمام القوة فيفقد ثقته بنفسه ورجاله، ويخرج إلى أبواب عاصمة بلاده لاستقبال المغتصب والترحيب به، وبلاد يفرّ منها أحرارها ويشرد أخيارها ويُذل رجالها ويفرض المستعمر الغاشم سيطرته ونفوذه عليها. فأي مستقبل يمكن أن يكون لها في ظل دولة قوية ظالمة هي أفظع دول الاستعمار وأغلظها قلبًا وأرسخها في الظلم قدمًا. رأيناها في جميع البلاد التي احتلتها كيف تمتص الدماء وتزهق الأرواح وتتفنن في أساليب التقتيل والتشريد والإذلال، وكيف تحول الحدائق إلى صحارى والمدن إلى مقابر وتجعل من الأرض الطيبة الآمنة جهنم النار.

رأيناها في المغرب العربي كيف أنست الجزائر لغتها وأخرجتها عن عروبتها وجعلتها جزءًا من بلادها. وكيف أراقت دماء الألوف ومئات الألوف من أبنائها في حروب استعمارية متواصلة في الشرق والغرب.

رأيناها كيف ألبست الاستعمار في تونس ثوب معاهدة لم تفكر في جعل معاهدتها مع سورية خيرًا منها.

وكيف انتزعت حقوق الشعب المراكشي واحدًا واحدًا، واغتصبت أملاكه وحاولت القضاء على دينه ولغته. ولجأت إلى جميع وسائل المحو والإبادة في معاملته.

ورأيناها في الهند الصينية ومدغشقر وغيرهما من المستعمرات دولة غاشمة لا يعرف قلبها الرحمة ولا يطمئن إلا إلى الظلم وسفك الدماء. فمن كانت هذه أعماله وتلك صفاته كيف يكون شأن سورية الضعيفة اليائسة معه؟ وهي محرومة من كل عضد لا قوة لها ولا مال ولا رجال؟!.

كيف عومل الملك فيصل في دمشق؟

وقد عومل الملك فيصل في دمشق معاملة لم تخطر في بال أحد من الذين أشاروا عليه بالعودة اليها. فما كاد يصل إلى القصر الملكي حتى جاءه الكولونيل تولا وأبلغه رغبة الحكومة الفرنسية في أن يغادر البلاد في قطار وضع رهن تصرفه ليقله إلى فلسطين في الساعة الخامسة من صباح 28 يوليو [تموز] سنة 1920، وقد أدرك رحمه الله أنه أخطأ في الرجوع إلى دمشق، فكتب احتجاجًا إلى الجنرال غورو أفرغه في قالب شديد اللهجة، ثم بكّر في السفر لكي لا يراه الناس فيزيد ألمهم برؤيته خارجًا على هذا الشكل من عاصمة ملكه. ولم يودعه في المحطة سوى عدد قليل من الناس وكان ذلك إما تزلفًا للفرنسيين أو لأنهم لم يعرفوا بسفره.

سفره إلى درعا ومنها إلى حيفا

ووصل إلى درعا في الليل ولكنه ظل في القطار فلم نعرف بوصوله إلا في صباح اليوم التالي، وقد خرجت مع بعض الإخوان لاستقباله في المحطة. وكان لا يزال في قاعة النوم فقضينا في انتظاره نحو نصف ساعة نستعرض مع الأمير زيد والذين كانوا معه حوادث اليومين الماضيين. وقد عرفنا منهم تفاصيل ما جرى في دمشق والأسباب التي دعت فيصلًا إلى العودة إليها. وكيف أن بعض مندوبي الدول الأجنبية أشاروا بهذه العودة اعتقادًا منهم بأن الفرنسيين لا يجرؤون على طلب مغادرته دمشق بعد اعتراف عصبة الأمم والدول بمركزه فيها، ورغبة في أن لا يحتج الفرنسيون بأنه هو الذي غادر البلاد من تلقاء نفسه.

وقد عرفنا منهم أيضًا أن يوسف العظمة قتل في ميسلون وهو يهاجم الدبابات بقنابل اليد. كما عرفنا كيف أن بعض الوزراء امتنعوا عن الالتحاق بالملك وقبلوا الأمر الواقع. وقد كنت أعتقد لسذاجتي أنهم لا يترددون لحظة واحدة في المبادرة إلى نقل أوراق الحكومة وسجلاتها وأموالها إلى درعا لاتخاذها عاصمة وقتية للبلاد.

وقد استغرب كثيرون من الإخوان أن يروا نوري السعيد في مقدمة الذين لم يتخلوا عن الملك فيصل. وأما أنا فلم أستغرب ذلك وإن كنت أعرف حق المعرفة أنه لو بقي في دمشق لما اختار الفرنسيون غيره حاكمًا لسورية.

أما الذين بقوا في سورية من رجال الحكم العربي بعد خروجنا منها فكانوا فريقين. فريق الذين كانت

السلطة البريطانية تعدهم أعداء لها، فسدت في وجههم طرق فلسطين والعراق أمثال يس الهاشمي وجميل المدفعي وغيرهما. وفريق الذين نظروا إلى مصالحهم الخاصة فاختار ممالأة القوة واستثمار الموقف.

ونزل الملك من القطار وكان رابط الجأش وابتسامته المعهودة لم تفارق ثغره، ولكنها كانت تشف عن كثير من الألم. فذهبنا معه إلى مقهى المحطة حيث تناولنا الطعام في صمت عميق كانت تتخلله مداعباته اللطيفة.

وخرجنا من المقهى إلى دار البلدية التي أعدت لإقامته فدخل قاعتها الكبرى وترك بابها مفتوحًا وتفرقنا نحن في الممرات والقاعات الأخرى المجاورة نبحث في ما يمكن عمله. وقد جلس جلالته إلى أحد المكاتب وظل يكتب نحو ربع ساعة ثم نهض وجعل يسير ذهابًا وإيابًا في تلك القاعة ويردد أبياتًا من الشعر سمعت منها:

ومن رعى غنمًا في أرضٍ مسبعة ونام عنها تولى رعيها الأسد

ثم تناول سيجارة وجعل يبحث عن كبريت فأسرعت إليه لإشعالها. فقال: ما عندك يا أسعد؟. ماذا تقول؟ قلت: الرأي رأيكم ولكن إذا أوسعتم لي صدركم تجاسرت على أن أعرض عليكم أن بعض الإخوان قد يفضلون سفركم إلى أوروبا لمعالجة القضية السورية من الوجهة السياسية، على بقائكم هنا. ولكني أعتقد مع كثيرين منهم أنكم لا تقرون هذا الرأي، لأنكم تعلمون أنه ما من ملك ترك بلاده في مثل هذه الحالة ثم عاد إليها. وأنا واثق بأن حوران ستلبي الدعوة إلى القتال ثم لا تلبث سورية كلها أن تلتف حولكم.

ودخل حينئذ الأمير زيد ونوري السعيد وعوني عبد الهادي وغيرهم فاشتركوا في الحديث وكانت آراؤهم مختلفة في موضوعه. فمنهم من كان قليل الثقة بأهل حوران لا يعتقد بإقدامهم على القتال إذا رأوا الجيش الفرنسي زاحفًا إليهم بطائراته ودباباته ومدافعه. ومنهم من قال عكس ذلك وأصر على وجوب المقاومة إلى النهاية، ولم يسفر الحديث عن قرار في هذا الموضوع، ولكن جعفر العسكري أُرسل على الأثر إلى فلسطين للاجتماع فيها بالأمير عادل أرسلان والاطلاع على نتيجة مساعيه مع الإنجليز.

وفي اليوم التالي أرسل الفرنسيون إنذارًا بوجوب خروجنا من درعا لكيلا تهاجمنا طائراتهم فيها. ثم ألقت الطائرات الفرنسية منشورات على بعض قرى حوران طالبة إلى السكان إخراج الملك فيصل ورجاله من بلادهم وإلا زحفت الجيوش الفرنسية إليها لإخراجهم منها.

والظاهر أن بعض إخواننا العراقيين فكروا حينئذ في ما يمكن أن يجنوه من الفائدة لبلادهم التي كانت الثورة قائمة فيها، فألحوا على الملك فيصل في وجوب السفر إلى إنكلترا، وساعدهم ما أذاعه عمال الفرنسيين عن موقف أهل حوران وما أسفرت عنه زيارة جعفر العسكري لفلسطين على ترجيح رأيهم، فقرر الملك فيصل السفر في اليوم التالي أي يوم أول أغسطس [آب] سنة 1920 بقطار خاص نقلنا جميعًا إلى حيفا.

الفتنة في حوران بعد خروجنا منها

والذين يذكرون ما فعله الحوارنة بعد خروجنا من درعا قد يرون أننا لم نُحسن صنعًا بمغادرتها، أو على الأقل لم نقم بكل واجبنا تجاه البلاد التي أوصلناها إلى هذه الحالة ثم تركناها ونجونا بأنفسنا.

فما كدنا نصل إلى حيفا حتى توالت علينا الأنباء بقيام الحورانيين في وجه السلطات الفرنسية ومهاجمة كل قطار قادم من دمشق يظنون أن فيه فرنسيين، وقطع علاقاتهم بحكومة الاحتلال التي ألفت في دمشق برئاسة علاء الدين الدروبي[(232)].

وخشيت السلطات المحتلة العاقبة، فأرسلت بعض الوزراء إلى حوران لتهدئة الحالة. ولكن الحوارنة هاجموا القطار الذي كان يقلهم على مقربة من محطة خربة الغزالة وقتلوا بعض الذين كانوا فيه، وفي جملتهم علاء الدين الدروبي رئيس الوزراء نفسه وعبد الرحمن اليوسف رئيس مجلس شورى الدولة. أما عطا الأيوبي[(233)] الذي كان وزيرًا للداخلية فقد نجا بأعجوبة وجاء إلينا في حيفا، وهو يروي ما لقيه مع زملائه في القطار في تلك الساعة الرهيبة. وهكذا استهدفت حوران لزحف قوات فرنسية كبيرة إليها وهي بلا زعيم ولا قائد ولا نظام ففتكت هذه القوات بسكانها ودمرت الكثير من قراها.

18 يومًا في حيفا

وبقي الملك فيصل في حيفا ثمانية عشر يومًا. وبقينا نحن معه كل هذه المدة ضيوفًا على الحكومة. فلما عزم على السفر أخذ كل منا يفكر في اختيار البلد الذي يقصد إليه. وكنت أقصد السفر إلى مصر. ولكن السلطة أبت الترخيص لي بذلك، فلجأت إلى الأمير زيد طالبًا إليه مخاطبة ولاة الأمور من الإنكليز لتسهيل سفري وإلا فلا سبيل لخروجي من فلسطين إلا السفر مع الملك نفسه.

وزودني الأمير زيد بعدة كتب لبعض كبار الإنجليز في القدس أوصاهم فيها بمساعدتي للحصول على ترخيص بدخول مصر. فلما سافر الملك بالقطار الذي أقله إلى بورسعيد ومعه بعض رجال الحاشية ذهبت أنا إلى القدس مع سعد الله الجابري وجميل مردم للسعي في تسهيل سفرنا إلى مصر.

وأقمنا في فلسطين بضعة أيام في حالة يأس واضطراب وقلق، فقد انهارت الآمال التي كانت تغذيها سورية، وخاب رجاؤها في المساعي التي كان يبذلها رجالها. ولم يكن للوطنيين حينئذ أقل شأن في فلسطين لأن فريقًا منهم صدرت عليه أحكام غيابية قاسية فلم يرجع إليها من سورية الشمالية، بل لجأ إلى الصحراء أو إلى جهات شرق الأردن، ولأن الفريق الثاني كان في حالة ذهول من تأثير النكبة، وقد اعتقلت الحكومة كثيرين من الذين عادوا منهم من دمشق ووضعت الباقين تحت مراقبة شديدة.

---

(215) نوري الشعلان (1847-1942): زعيم قبيلة الرولة في شمال سورية. سيطر على منطقة الجوف في شمال الجزيرة العربية. كان رجل حرب، شارك في معارك جيش الثورة العربية.

(216) حبيب اسطفان (1888-1946): درس في روما. انضم إلى الحكومة العربية في دمشق، واشتهر بخطبه الحماسية. هاجر إلى مصر ثم إلى البرازيل حيث توفي.

(217) سليم عبد الرحمن: ولد في طولكرم. من المنتسبين إلى جمعية «العربية الفتاة». كان في دمشق إبان عهد الحكومة العربية، وأدار النادي العربي فيها. كان بارزًا في نشاطه في فلسطين ضد الاستيطان اليهودي.

(218) فوزي الغزي (1891-1929): درس في الكلية الملكية في اسطنبول، وأسس مع عبد الرحمن الشهبندر حزب الشعب في عام 1924. عُرِف في سورية باسم أبو الدستور.

(219) فارس الخوري (1877-1962): ولد في الكفير في قضاء حاصبيا بلبنان، ودرس في الكلية الانجيلية (الجامعة الأميركية في بيروت). انتسب إلى الاتحاد والترقي. انتخب نائبًا في مجلس المبعوثان عن دمشق في عام 1913. تولى الوزارة ثلاث مرات في عهد الحكومة العربية. من مؤسسي حزب الشعب في عام 1924، وعضو الكتلة الوطنية. رئيس المجلس النيابي السوري في عام 1936، ورئيس مجلس الوزراء في عام 1944.

(220) مصطفى كمال باشا- أتاتورك (1881-1938): ولد في سالونيك. درس في الكلية العسكرية، وخاض معارك غاليبولي وطبرق. قاد تركيا بعد الحرب العالمية الأولى وقاد حروب الاستقلال. أسس الجمهورية التركية وأصبح رئيسًا لها (1923-1938). قاد حركة إصلاح في السياسة والاقتصاد واللغة، وفرض التغريب في العادات والقانون والثقافة.

(221) فيصل- كليمنصو: مشروع اتفاق بين الملك فيصا وكليمنصو رئيس وزراء فرنسا آنذاك، ولم يرَ النور البتة، وقد رفضه معظم القادة في سورية لأنه يتضمن بنودًا تضمر نوعًا من الحماية الفرنسية لسورية، وهو أمر كان مرفوضًا، جملة وتفصيلًا، للقادة العرب في سورية آنذاك، ةهو ما حمل الملك فيص على عدم إذاعته ر سميًا.

(222) Anti Liban، سلسلة جبال لبنان الشرقية.

(223) ساطع الحصري (1879-1968): مفكر سوري. عمل في الإدارة العثمانية، وانتسب إلى «الاتحاد والترقي». وبعد قيام الحكومة العربية، وفد إلى دمشق حيث تسلم وزارة المعارف. انتقل مع الملك فيصل إلى العراق، ثم عمل مديرًا لمعهد البحوث العربية في جامعة الدول العربية. له العديد من المؤلفات في القومية العربية.

(224) البطريرك الياس الحويك (1843-1931): ولد في حلتا بقضاء البترون، درس في لبنان ثم في روما. عيّن في عام 1872 أمين سر البطريركية وأوفد إلى عواصم أوروبا فزار روما وباريس حيث أسس الكنيسة المارونية، وزار النمسا واسطنبول حيث قابل السلطان عبد المجيد الذي منحه الوسام المجيدي. أصبح بطريركيًا في عام 1899، فكان له دور في تأسيس الرهبانيات وبناء الكنائس. كان له دور خلال الحرب العالمية الأولى في توطيد العلاقة مع فرنسا ومساعدة الأهالي خلال المجاعة. وله الدور الكبير في إعلان «دولة لبنان الكبير».

(225) المطران عبد الله الخوري (1872-1949): تخرج في مدرسة عينطورة في عام 1872، وسيم كاهنًا في عام 1898، وأسقفًا في عام 1911. رئيس الوفد الثالث إلى مؤتمر الصلح ممثلًا البطريرك الحويك. شارك في عدّة مؤتمرات لاهوتية.

(226) أحمد قدري (1893-1958): ولد في دمشق، ودرس الطب في اسطنبول ثم في باريس. كان من مؤسسي جمعية «العربية الفتاة». التحق بالثورة العربية ودخل دمشق مع الأمير فيصل، وكان طبيبه الخاص. بعد معركة ميسلون، انتقل إلى مصر وعيّنه الملك فيصل قنصلًا عامًا للعراق في القاهرة.

(227) هنري جوزيف غورو (1867-1946): خريج مدرسة سان سير (Saint-Cyr) العسكرية. شارك في معارك الحرب العالمية الأولى، وكان أول مندوب سامٍ فرنسي في لبنان وسوريا في عام 1920، وهو الذي أعلن دولة لبنان الكبير في 1 أيلول/سبتمبر 1920.

(228) يوسف الحكيم: من مواليد اللاذقية بسوريا في عام 1879. درس الحقوق، وعيّن قاضيًا في عام 1904. عضو المؤتمر السوري في عام 1919. شغل منصب وزير النافعة (أي الأشغال) في الحكومة العربية. له عدة مؤلفات في تاريخ سوريا الحديث، بينها **سوريا في العهد الفيصلي**.

(229) حسن الحكيم (1886-1882): ولد في دمشق ودرس في اسطنبول. عضو حزب العهد ومدير البرق والبريد في الحكومة العربية. شارك في الثورة السورية، حُكم بالإعدام. نُفي من سوريا، واستقر في بغداد، وعاد إلى دمشق بعد معاهدة سنة 1936. تقلّب في مناصب عديدة منها رئيس الحكومة مرتين.

(230) تحسين الفقير (1880-1948): دمشقي، درس في الكلية العسكرية في اسطنبول. قائد القوات في معركة ميسلون، عاش بعد مغادرته سوريا بين الأردن والحجاز واليمن. عاد إلى دمشق بعد جلاء الفرنسيين في عام 1946.

(231) الشريف جميل بن ناصر (1888-1938): ابن شقيق الشريف حسين. درس في اسطنبول. عيّنه الأمير فيصل حاكمًا على حوران. شارك في تأسيس إمارة شرق الأردن وتولى منصب رئيس الديوان الأميري.

(232) علاء الدين الدروبي (1870-1920): ولد في حمص، ودرس الحقوق والإدارة في اسطنبول. عُيّن في مناصب عدة في البلقان واليمن والبصرة. عاد إلى سوريا بعد نهاية الحرب الأولى وعيّن وزيرًا في الحكومة العربية. كلّفه الملك فيصل تشكيل حكومة قبل خروجه من دمشق. خرج إلى حوران لتهدئة غضب الأهالي، فاغتيل مع رئيس مجلس الشورى عبد الرحمن اليوسف.

(233) عطا الأيوبي (1877-1951): سياسي سوري تقلّب في مناصب وزارية عديدة بينها رئاسة الحكومة. شغل منصب رئيس الجمهورية لأشهر في عام 1943.

الفصل التاسع
في مصر من سنة 1920

وصلتُ إلى مصر فوجدتُ فيها كثيرين من أصدقائي الذين تمكنوا من دخولها قبلي، ولم تمض بضعة أيام حتى التحق بنا جميع الذين كنا قد تركناهم في فلسطين من غير أبنائها، فاجتمع في القاهرة نحو خمسين من زعماء سورية وقادة الرأي العام فيها، أمثال الشيخ كامل القصاب وساطع الحصري وشكري القوتلي وخير الدين الزركلي والدكتور عبد الرحمن شهبندر وخالد الحكيم وسعد الله الجابري ورياض الصلح وحسن الحكيم والدكتور أحمد قدري والدكتور سعيد طليع وجميل مردم وسامي السراج[234] وسعيد حيدر وتوفيق اليازجي[235] ونجيب الأرمنازي[236] وغيرهم.

وكان حزب الاتحاد السوري يعمل حينئذ في مصر بنشاط كبير، وقد انضم إليه أعضاؤه الذين كانوا في سورية ووصلوا إلى مصر مع من وصلوا إليها. فازداد نشاطًا بهم وفتح ناديه لجميع الوطنيين فجعلنا نتردد على هذا النادي ونعقد اجتماعاتنا فيه. ثم فكرنا في تأليف فرع لحزب الاستقلال في القاهرة، واجتمعنا لهذا الغرض في عيادة الدكتور أحمد قدري. ولكننا قبل أن ننفذ هذه الفكرة تلقينا الدعوة إلى اجتماع كبير يعقده جميع الوطنيين على اختلاف أحزابهم في نادي الاتحاد السوري. وكان مُقترِح هذه الدعوة المرحوم رفيق العظم فلم يتردد أحد منّا في تلبيتها.

لجنة الصلة بين الأحزاب

ولما اكتمل عقد المدعوين وكانوا يزيدون على مئة من رجال سوريا وأدبائها ومفكريها نهض السيد رفيق وطلب توحيد العمل لإنقاذ سورية، ثم اقترح انتخاب لجنة من الحاضرين تسمى «لجنة الصلة» وتكون مهمتها جمع كلمة الأحزاب الاستقلالية في الداخل والخارج على خطة واحدة. وقوبل هذا الاقتراح بسرور عظيم. وانتخب المجتمعون 13 شخصًا كنت في جملتهم، ولا أذكرهم جميعًا الآن لأن اللجنة لم تعمر طويلًا، ولكني أذكر أنه كان بينهم السيد رشيد رضا والشيخ كامل القصاب وخالد الحكيم وعوني عبد الهادي وشكري القوتلي وساطع الحصري وسعيد حيدر.

وقد أشيع قبل أن تعقد هذه اللجنة اجتماعها الأول أن تحت تصرفها خمسة عشر ألف جنيه. وتوهمت أن هذا المبلغ لا بد أن يكون من الأمير ميشيل لطف الله رئيس الاتحاد السوري[237] فاقترحت دعوته إلى الاشتراك معنا في العمل وانتخابه رئيسًا للجنة.

وكان أول قرار اتخذناه جعل جلسات اللجنة سرية، ثم إرسال وفد قوامه الشيخ كامل القصاب وعوني عبد الهادي واثنان آخران إلى جزيرة العرب للتوفيق بين الملك حسين والملك ابن السعود – وقد كان أميرًا في ذلك الحين – وحملهما على اتخاذ خطة واحدة لمصلحة سورية وخير القضية العربية.

ولما تقرر موعد سفر الوفد علمنا أن مسألة الخمسة عشر ألف جنيه لم تكن جدية، أو أنها كانت جدية ثم صُرف النظر عنها لأسباب، فاتضح لي حينئذ أني كنت الرجل الوحيد بين أعضاء اللجنة الذي اعتقد بأن مثل هذا المبلغ يمكن أن يودع بين يديها لغير ما غرض خاص. ولم تكن هذه المرة هي الوحيدة التي ظهرت فيها سذاجتي وحسن نيتي. ولكني لا ألوم نفسي على ذلك لأن سوء الظن لا يكون من حسن الفطن إلا في المسائل المهمة التي تؤثر في سير الحوادث. وأما الأمور البسيطة التافهة التي لا فائدة منها ولا ضرر، فخير

للمرء أن يقبلها كما تأتي وألا يتعب نفسه بدرسها وتمحيصها لأنها لا تستحق أن يفكر في اتخاذ خطة معينة بإزائها.

ولما رأت اللجنة أن في عدم تنفيذ قرارها بشأن إرسال الوفد حطًّا من كرامتها، اقترح شكري القوتلي، على ما أذكر، أن يسافر الوفد على حساب أعضائه وأن يُعلَن إلغاء اللجنة. وهكذا كان.

أهم حوادث تلك الأيام

وكانت أنظارنا في تلك الأثناء متجهة إلى عدة حوادث أهمها ثورة العراق والاضطرابات التي قامت في سورية وقدوم الأمير عبد الله إلى شرق الأردن.

أما ثورة العراق فقد كانت أعظم ما عُرف عنها في الخارج لعدم توفر الرعاية اللازمة لها. وكنا على استعداد للقيام بهذه الدعاية، ولكن المعلومات الكافية عنها كانت تنقصنا في ذلك الوقت. وقد حاولت جهد طاقتي أن أحصل على هذه المعلومات فلم يتيسر لي ذلك لأن جميع الذين أعرفهم من رجالات العراق كانوا أما في خارجه وأما بين المشتركين في الثورة.

على أني كنت مقتنعًا بأن الدماء التي تُراق في العراق لن تذهب سدى. وجاء أول دليل على صحة اعتقادي هذا في قيام حكومة [طالب] النقيب في بغداد وتعيين السيد طالب وزيرًا للداخلية فيها. ولكني أدركت من ذلك الحين أن تلك الحكومة لا بد أن تكون وقتية، وأن استقرار الحالة يتطلب وجود رجل محبوب محترم نافذ الكلمة في العراق. ولا أذكر الآن لماذا اقترن اسم الملك فيصل باسم العراق في ذهني، وأيقنت بأنه لا بد ذاهب إليه، مع أن ظاهر الحالة لم يكن يدل على ذلك لا في أوربا ولا في العراق. فإن حقد الفرنسيين عليه كان من الوجهة الخارجية أكبر حائل في نظري دون موافقة الإنجليز على قدومه إلى بغداد، كما أن نفوذ السيد طالب النقيب ومطامعه الواسعة كانت من الوجهة الداخلية عقبة كأداء في طريق الخطة التي رسمتها في ذهني للملك فيصل، وخصوصًا بعد أن تولى السيد طالب وزارة الداخلية وكان له شأن كبير في إخماد الثورة. على أني لا أريد أن أعتقد أن توقعي ما توقعته للملك فيصل كان نتيجة بُعد نظري أو صحة رأيي في تقدير الحوادث، بل أرجح أن الرسائل التي كنت أتلقاها من أصدقائي الذين صحبوه إلى أوربا هي التي ساعدتني على هذا التكهن وإن لم يكن فيها شيء صريح.

ولما انجلت الأمور في إنجلترا جاء نوري السعيد إلى القاهرة في طريقه إلى بغداد، وألح علي في أن أصحبه إليها لأعمل معه في التمهيد لقدوم الملك فيصل، ولكني رفضت ذلك لاعتبارات شخصية من جهة، ولأني من جهة أخرى لم أشأ أن يكون لي أقل تأثير في توجيه أفكار العراقيين إلى ناحية معينة. ولعل رفضي السفر حينئذ إلى بغداد كان من جملة الأخطاء التي اقترفتها في حياتي. ومع ذلك لست بنادم عليه، لأني فعلت ما فعلته عن مبدأ واعتقاد، فقد أبيت على نفسي أن يُقال إني سعيت لمصلحتي الخاصة بخدمة أغراض كنت أظنها إنجليزية صرفة. وبث الدعاية لأشخاص لم يُحسنوا الدفاع عن ملك أنشأوه في سوريا، فأرادوا أن يحصلوا عليه من الإنجليز في العراق. ولا أظن أني أُلام على خطأي هذا، وخصوصًا أن الحوادث كلها كانت تبرر اقترافه لمن يريد أن يحرص على المبدأ ولا يعتقد بالحظ وقد أحاطت به أحوال تحمله على إساءة الظن في كل شيء.

مرور الملك فيصل بمصر

ومرّ الملك فيصل بمصر في طريقه إلى العراق ونزل في فندق الكونتيننتال فاجتمعت به مدة طويلة وفهمت خططه وأمانيه وخرجت من حضرته داعيًا له بالتوفيق والنجاح.

وبينما كنت أتحدث مع بعض رجال حاشيته جاءني الأستاذ عبد المحسن الكاظمي[238] شاعر العرب، وأخبرني أنه خاطب جلالة الملك في أمر الضباط العراقيين الذين لا يزالون في سورية ورجا منه أن يدعوهم لمرافقته. وأن جلالته طلب إليه أن يبرق إليهم بالحضور إلى مصر والالتحاق به في الحجاز، ولكنه استثني منهم يس الهاشمي بحجة السياسة التي قال إنه اخذها تجاه الجنرال غورو في اجتماعهما ببيروت. كما استثنى الضباط الآخرين المحظور سفرهم إلى بغداد كجميل المدفعي وإخوانه الذين اشتركوا في ثورة العراق.

فلما سمعت هذا الكلام من الأستاذ الكاظمي عدت إلى الاجتماع بالملك وقلت له إن ما سمعه عن الهاشمي لا يمكن أن يكون صحيحًا، وإنه يجب تأمين وسائل المعيشة للضباط العراقيين قبل دعوتهم إلى مصر أو الحجاز. فأجابني قائلًا إنه سيُعنى في مكة بتدارك المبالغ اللازمة لسفرهم إلى العراق، وإنه سيسعى إلى دعوة الهاشمي وجميل المدفعي وغيرهما بعد وصوله إلى بغداد.

والذي فهمته منه أنه يريد أن يقوم في العراق بتجربة جديدة على أساس جديد لخير العرب وأنه سيضع مسألة إنقاذ سورية نصب عينيه أينما حلّ وكيفما كان.

مبايعة فيصل بملك العراق

وسافر الملك فيصل إلى مكة حيث التحق به كثيرون من الضباط العراقيين الذين كانوا في سورية، ثم برحها إلى بغداد بطريق البحر. وكان الإنجليز، قبل وصوله إليها، قد اعتقلوا السيد طالب النقيب (وزير الداخلية حينئذ) وأخرجوه من العراق، فجاء عملهم هذا أقوى ممهد لتنفيذ الخطة الجديدة التي كان السيد طالب عازمًا على معارضتها بكل قواه طمعًا منه في عرش العراق.

وجرى استفتاء في العراق أسفر عن مبايعة الملك فيصل بالملك بأكثرية كبيرة، وتمت المبايعة في حفلة فخمة أقيمت في بغداد يوم 23 أغسطس [آب] سنة 1921 بحضور عظماء البلاد وكبار الموظفين العراقيين والإنجليز.

كيف كنا ننظر إلى حوادث العراق؟

وكانت أنباء هذه الحوادث تصل إلينا متقطعة لصعوبة المواصلات مع بغداد في ذلك الحين. وكنا ننظر إليها ونحن بين عاملي الخوف والأمل: الخوف من أن يكون الإنجليز قد تمكنوا بهذه المناورة من توطيد دعائم الاستعمار البريطاني في العراق بمساعدة العرب أنفسهم، والأمل في حكمة الملك فيصل وصدق وطنيته ومقدرة الرجال الذين أحاطوا به على الاستفادة من هذا الانقلاب العظيم في سياسة إنجلترا إلى أبعد حد ممكن.

على أن لهؤلاء الرجال الذين تحلوا بصفات ومزايا كثيرة عيوبًا في مقدمتها أنهماكهم في الأمور الماثلة أمامهم ونسيانهم كل شيء آخر. فقد قطعوا أخبارهم عن إخوانهم في سورية ومصر وغيرهما، فبقينا مدة طويلة لا نعرف عنهم شيئًا إلا من بعض روايات الصحف.

وقد أدركنا أنهم في شغل شاغل عنا بالحالة التي يعالجونها في العراق، فلم نشأ أن نحاول توجيه أنظارهم إلى سورية وغيرها، لكيلا تتشتت جهودهم فيضعف بذلك جهادهم في سبيل الاستقلال، وانفردنا نحن بالعمل من أجل سورية وفلسطين.

وكانت الثورات التي تتوالى في سورية أكبر مشجع على العمل السياسي، وكان وجود الملك حسين في الحجاز من بواعث الاعتقاد بأننا إذا كنا قد فقدنا سورية فلا يزال أمامنا ملجأ نلجأ إليه وقوة نستعين بها عند الحاجة. وكان بعض إخواننا البعيدي النظر في الأمور قد أدركوا مزايا ابن السعود وما يمكن أن يُرجى منه لخير القضية العربية عامة والقضية السورية خاصة فاتصلوا به وأوفدوا بعض أصدقائهم إليه.

المؤتمر السوري الفلسطيني في جنيف

وقرر الإخوان المقيمون في مصر بالاتفاق مع حزب الاتحاد السوري الذي كان يعمل برئاسة السيد ميشيل لطف الله عقد مؤتمر في جنيف يمثل جميع الأحزاب الاستقلالية في سورية والمهاجر.

وعُقد هذا المؤتمر في جنيف فوضع المبادئ التي تسير عليها السياسة السورية وأهمها استقلال سورية التام بحدودها الطبيعية ورفض وعد بلفور والسعي إلى تحقيق الوحدة العربية.

وقد نشأت عن هذا المؤتمر اللجنة التنفيذية السورية الفلسطينية التي جعلت مركزها في مصر. وأُلفت هذه اللجنة من مندوب واحد عن كل حزب اشترك في المؤتمر السوري الفلسطيني الذي عُقد في جنيف، وكان لي الفخر بأن أمثل حزب الاستقلال العربي فيها منذ إنشائها.

ولا أريد الآن أن أسرد الأعمال التي قامت بها هذه اللجنة في الأوقات العصيبة التي مرت بها سورية، ولكني أقول إنها قامت بواجبها في بسط القضية السورية الفلسطينية والدفاع عنها في جنيف وعواصم الدول العظمى ولدى الرأي العام الأوروبي. فلرئيسها السابق ميشيل لطف الله ولكل من أعضائها على حدة فضل في هذه الجهود يُشكر عليه.

وإذا ذكرت اللجنة التنفيذية فلا يسعني إلا التنويه بالجهود التي قام بها في أوربا وفدها الذي كان مؤلفًا من الأمير شكيب أرسلان وإحسان الجابري ورياض الصلح. فإن الأعمال التي قام بها هذا الوفد بالاتفاق مع اللجنة التنفيذية والأحزاب الوطنية الممثلة فيها جدير بالتقدير والشكر.

وإذا سأل سائل عن الخلاف الذي شجر بين أعضاء اللجنة التنفيذية وأوجد انقسامًا عظيمًا في البلاد، وعن الأسباب التي أدت إليه والنتائج التي أسفر عنها، أجبته بأن الخير كان فيما كان. وأن تلك الحوادث المؤلمة أُسدل عليها ستار ليس من المصلحة رفعه الآن، فلنتركه للذين يريدون التعمق في درس تاريخ هذا الجيل المملوء بالمصائب والأخطار لأنهم سينظرون إليه نظرًا منزهًا عن الغرض لا أثر فيه للنزعات والأهواء. ولا أريد الآن أن أتنصل من تبعة أشعر بخطورتها ويهمني إلقاؤها على سواي، بل أقول بكل

إخلاص إني وأصدقائي بذلنا كل جهد لتلافي هذا الانقسام وإننا اضطررنا إلى الدخول فيه اضطرارًا، لأننا رأينا المصلحة الوطنية توجبه علينا. فهل كنا مخطئين في هذا الرأي أم لا؟ ذلك ما أترك الحكم فيه للذين يدرسون تفاصيل حوادث هذا الجيل من أبناء الأجيال المقبلة على نور الحقائق منزهين عن الغايات والأغراض. وحسبي أن أقول الآن إني وبعض أصدقائي قضينا الليلة السابقة ليوم إعلان الانقسام حتى الصباح ونحن نسأل ضمائرنا هل لخلافنا مع إخواننا أعضاء اللجنة الآخرين علاقة بأحقاد أو أغراض خاصة، أم أننا مدفوعون إلى هذا الخلاف بدافع المصلحة الوطنية، تفاديًا من تلاعب البعض بمصالح الوطن ومقدراته؟ فكان جواب كل منا لنفسه ولأصدقائه أن القضية الوطنية لم تعد تتحمل استمرار المساومة على عروش وتيجان، وأن السكوت على التضحية بالدماء التي أريقت في الثورة السورية في سبيل عرش يُقام في لبنان، يكون منّا خيانة وطنية وجناية لا تغتفرها لنا الأجيال القادمة. هذا ما قلناه لأنفسنا عن يقين وإخلاص، وأعتقد أن الأجيال المقبلة تُقرنا عليه، وتجد لنا مبررًا فيه.

زيارتي الأولى لشرقي الأردن

وقبل تأليف اللجنة التنفيذية واختياري لتمثيل حزب الاستقلال العربي فيها سنحت لي الفرصة لزيارة شرقي الأردن وأنا في أشد الحاجة لهذه الزيارة. فقد كنت أعقد على سمو الأمير عبد الله «الملك عبد الله» آمالًا عظيمة بنيتُها على ما سمعته عنه وأنا في دمشق من الذين عرفوه، وعلى المعلومات التي نقلها إلي بعض أصدقائي العراقيين الذين كانوا معه في شرقي الأردن، تلك الآمال التي ما لبثت أن انهارت أمام الحقائق التي تجلت لي من خلافه مع الإخوان في عمان وسفر فريق منهم إلى خارج المنطقة، ومن تأخر الحال السياسية في الإمارة تأخرًا سريعًا، بعد أن ظهرت في أول عهدها بمظهر يبعث على الأمل، فرأيت من واجبي أن أسعى لمعرفة الحقيقة بنفسي وتبديد الشكوك التي بدأت تعلق في ذهني.

وحدث في تلك الأثناء – وكنا في سنة 1921 على ما أذكر – أن زار حامد باشا الوادي[239] مرافق الأمير عبد الله في ذلك الحين مدينة القاهرة، فاجتمعت به فيها أكثر من مرة ولكني لم أفاتحه بشيء مما كان يخالج ضميري، لأن الصداقة بيننا كانت حديثة العهد من جهة، ولأني رأيت من جهة أخرى أن لا أعرضها لمثل هذه التجربة القاسية.

على أن الأقدار شاءت غير ذلك. فقد زارني ذات يوم في منزلي، وبينما نحن خارجان منه التقيت بموزع البريد وتناولت منه الكتب الواردة باسمي. ووقع نظر حامد على أحد الظروف وعليه طابع بريد ألماني فقال:

– هذا خط عزيز علي (عزيز باشا علي المصري). عسى أن يكون في خطابه ما يسر.

فقلت: وماذا يهمكم من أمره؟ فقد أصبحتم في غنى عنه وصرتم من أصحاب المناصب والمال.

قال: حرام عليك أن توجه مثل هذا الكلام إلي. فعزيز بك ليس من الرجال الذين يمكنني أن أنساهم.

قلت: لو كنت حقيقة تفكر فيه، لحملت الأمير على محاولة الاستفادة منه بعد أن اختلف سموه مع جميع الرجال المخلصين وجاهرهم العداء وجعل يتخبط في سياسته خبط عشواء.

قال: وهل يأتي عزيز بك إلى شرق الأردن؟

قلت: الذي أعرفه أنه لا يُحجم عن خدمة القضية في كل مكان يستطيع أن يخدمها فيه.

قال: سأحاول إقناع الأمير بدعوته إلى عمان وأكتب إليك.

وبقيت أكثر من شهرين أتبادل الرسائل في هذا الموضوع مع عزيز من جهة وحامد من جهة أخرى، فاقتنع الأول بأن خدمة القضية العربية ممكنة في شرقي الأردن، وأن من واجبه الإقدام على هذه التضحية الأخيرة في سبيلها. وجاءني من الثاني ما يُفهم منه أن سمو الأمير عبد الله على أتمّ استعداد لأن يطلق يد عزيز في كل شيء، ولا يطلب منه سوى مراعاة بعض الظروف القاهرة التي لا تخفى عليه. ثم اقترح علي أن أذهب إلى عمان لأقابل الأمير بنفسي.

ولم أتردد في الذهاب رغم الأحوال الصعبة التي كانت محيطة بي، لأني كنت أعقد أملًا كبيرًا على وجود رجل كعزيز في عمان، إلى جانب رشيد طليع والأمير عادل أرسلان ونبيه العظمة وخير الدين الزركلي وعوني عبد الهادي وأحمد مريود وفؤاد سليم وغيرهم. وقلت إن بلادًا تتمتع بشيء من الاستقلال ويجتمع فيها أمثال هؤلاء الرجال ستكون حتمًا محور النهضة العربية. وإذا كانت لم تظهر بهذا المظهر حتى الآن، فذلك بسبب سوء التفاهم بين إخواننا والأمير. وما دام سموه على استعداد لأن يطلق يد عزيز في كل شيء فإن سوء التفاهم سيزول حتمًا وتصبح عمان «أنقرة» العرب.

ولما وصلت إلى القدس أبرقت إلى حامد باشا بوصولي لأن المواصلات التليفونية لم تكن موجودة حينئذٍ، ولم أشأ أن أنتظر الجواب لأني كنت مضطرًا إلى العودة لمصر بأسرع ما يمكن. فرجوت من صاحب الفندق الذي نزلت فيه في القدس أن يستأجر لي سيارة أو محلًا في سيارة إلى عمان.

بين القدس وعمان

وجاءت السيارة حوالى الساعة الثالثة بعد الظهر وفيها رجل من أعيان عمان ومعه خادمه، وقد جلس الخادم إلى جانب السائق. وأخذت مكاني في السيارة إلى جانب هذا الرجل الذي لم أر أثقل منه في حياتي. فقد كان يأمر السائق بالوقوف كلما قطعنا كيلو مترًا أو وصلنا إلى مقهى أو كوخ ليستريح ويدخن نارجيلته. وبقينا على هذا الحال وهو لا يشعر بوجودي إلى أن أقبل الليل وبدأ المطر يهطل بغزارة فانكمش في داخل عباءته وغط في نوم عميق.

ولم يكن في عمان فنادق للمبيت. وكنت أعرف ذلك فجعلت أفكر في طريقة تمكنني من الوصول إلى دار أحد أصدقائي، لأن رفيقي في هذه المرحلة لن يقدم لي مثل هذه الخدمة، ولا يترك السائق الذي كان يطيعه طاعة عمياء يكلف نفسه مثل هذا العناء في سبيلي. وكانت الساعة قد تجاوزت التاسعة لما دخلنا عمان. وكان المطر يتدفق كأفواه القرب، فاضطررت حينئذ أن أقول للسائق: «هل تعرف يا أخي أحدًا من الدمشقيين في عمان. ومن منهم مقيم في طريقنا؟».

فسمّى بقالًا يُقال إنه من دمشق ولكن لا يعرف أين داره.

فقلت له بكل لطف: «يا أخي يجب أن أجد دارًا أبيت فيها ما دامت عمان محرومة من الفنادق فأرجو منك أن تسمي لي جميع الدمشقيين الذين تعرف أننا سنمر على مقربة من منازلهم».

ويظهر أن السائق أشفق علي فجعل يسمي لي معارفه من حوذي وجزار وخادم وبقال ونفر بوليس ويستغرب كيف أسأل عن الدمشقيين ولا أعرف أحدًا منهم.

وأخيرًا مرت بنا السيارة على مقربة من دار رأيت فيها نورًا قويًا. فقلت للسائق: «يا أخي.. لمن هذه الدار؟»

قال: «لمظهر باشا رسلان رئيس الحكومة». فتنفست الصعداء وقلت: «قف سأنزل إذن هنا».

ولاحظ رفيقي في هذه السفرة المشؤومة أني أعرف رئيس الحكومة وسأنزل ضيفًا عليه فوثب عن مقعده وقال:

«أبدًا يا سعادة البيك ستكون سعادتك ضيفًا علي». قلت: «أشكرك. المرة القادمة أن شاء الله».

قال: «هذا شرف عظيم كنت أعلل نفسي به منذ تشرفت بك في السيارة فألتمس أن لا تحرمني منه».

ثم أخذ حقيبتي بيده ونزل بها من السيارة واتجه نحو باب الدار. فحاولت أن أتسلمها منه وأنا أقول (أستغفر الله. أستغفر الله)، ولكنه حرص على أن يحملها هو بحجة أن خدمة (سعادتي واجبة عليه). وتركته إلى أن وصلت إلى الباب فطرقته بشدة وتناولت الحقيبة من رفيقي بشيء من العنف وقلت له: «أشكرك فسيأتي الخادم الآن لتسلمها». ولحظت أنه يريد الدخول معي إما رغبة منه في التعرف برئيس الحكومة أو تزلفًا له على حسابي. فقررت أن أنتقم منه بحرمانه لذة الجلوس مع الحاكم، وقد فعلت.

ودخلت القاعة فوجدت فيها مع مظهر رسلان رشيد طليع والأمين العام عادل أرسلان، وقد دهشوا لمجيئي على غير انتظار ورحبوا بي، ثم انهالوا علي بالأسئلة. ومن حسن حظي أنني كنت أشعر ببرد وجوع شديدين فقلت لا كلام قبل الأكل والدفء، فاهتموا بإشعال النار وأمر الخادم بالإسراع في إعداد ما تيسر من الطعام. وكانت الساعة قد قاربت الحادية عشرة. فقال المرحوم رشيد بيك: «أنا ذاهب الآن لأنام وسنجتمع غدًا». وقال مظهر باشا: «وأنا كذلك. وبما أنه ليس لدي سوى غرفة واحدة ينام فيها الأمير عادل فسأضع فيها سريرًا ثانيًا تنام أنت فيه». وهكذا كان.

ولم أذق في تلك الليلة طعم النوم، وكذلك الأمير عادل، لأننا قضيناها في الحديث عن كل ما جرى لنا بعد خروجنا من دمشق. ومن حسن حظي أن الأمير لم يسألني عن سبب مجيئي إلى عمان إلا بعد أن فهمت الحالة فيها كما هي. فخجلت من نفسي حينئذ أن أذكر له السبب الحقيقي، وقلت إني آت لرؤيتكم. وقد قررت في نفسي أن أعود في اليوم التالي من دون أن أقابل الأمير [عبدالله] لأني أيقنت بأن المهمة التي جئت إلى عمان من أجلها لا أمل بنجاحها، وأنه كان الواجب علي أن أستشير أصدقائي بشأنها. ولكني لم أستطع أن أنفذ قراري بشأن السفر في اليوم التالي لأن أحد أصدقائي وهو المرحوم إبراهيم أبو الهدى قد توفي قبيل

وصولي ولم يكن لي بد من الاشتراك في تشييع جنازته.

وقد مشيت في الجنازة في اليوم التالي فقابلت جميع أصدقائي وفي جملتهم حامد الوادي الذي جاءني وأخبرني بأن سمو الأمير عبد الله ينتظرني لتناول الغداء على مائدته. فقلت له انتظرني إلى ما بعد دفن الفقيد وسنذهب معًا، فتقدمني لسمو الأمير لأني لا أعرفه شخصيًا. وقد أجابني إلى طلبي فلما أصبحنا وحدنا في السيارة قلت له بلهجة قاسية: «أنت تعلم يا حامد أن عزيزًا لا يستطيع أن يعيش في محيط كمحيط الأمير. فإذا كانت تربطك بسموه عواطف المحبة وعرفان الجميل فحسبك أن تظهرها له شخصيًا ولا تمزجها بالشؤون الوطنية فتخدع الناس». ولا أذكر ما قلته له تمامًا ولكنني أؤكد أنه لم يحر جوابًا وأنه كان لكلامي تأثير عظيم في نفسه. وقد قال: «ستقابل الأمير فاشرح الحالة كما تراها». فقلت إني لن أخاطب سموه في الموضوع الذي جئت من أجله، فقال: «هو الذي سيخاطبك بشأنه».

مع الأمير عبد الله

ووصلنا حينئذ إلى المقر الأميري فذهبت توًا إلى مكتب الأمير عادل الذي كان مستشارًا للإمارة. وبعد بضع دقائق دعاني الأمير عبد الله لمقابلته وكان معه حينئذ عوني عبد الهادي وحامد الوادي ثم جاء الأمير عادل وآخرون فسألني سموه عن حالة مصر فبسطتها له. ثم سألني عن حالة الهند فقلت إن من أعظم مظاهر الاتحاد بين الهنود أن المسلمين قبلوا زعامة المهاتما غاندي مع أنه وثني.

قال: إذن ليسوا بمسلمين.

قلت: ولكن جلالة الوالد حالف الإنجليز.

قال: أولئك من أهل الكتاب.

قلت: عفوًا يا سيدي. إذا فكرت تركيا أو إحدى الدول الأوروبية في مهاجمة الحجاز وجاءت اليابان بصفتها دولة شرقية وعرضت مساعدتها.

قال: لا نقبل. نهاجر ولا نقبل.

وقمنا إلى المائدة وكان معنا بعض الطيارين فخطر في بالي أن أرجو من سمو الأمير إصدار أمره إلى أحدهم بأن يحلّق بي في الجو ولو ربع ساعة وقلت:

– هل سبق يا سيدي أن طرتم؟

قال: ومن قال لك إني جننت لأعلق نفسي بين الأرض والسماء.

– قلت: إن الطيران قوة من قوى الدفاع فإذا كان لا يجوز لكم أن تخاطروا بحياتكم الثمينة لأن الأمة في حاجة إليها فمن الواجب أن لا تثبطوا من عزائم الشبان أمثالي وأن تشجعوهم على ذلك.

قال: وهل طرت أنت؟

قلت: لم تسمح لي الفرصة حتى الآن ولكني مستعد لأن أطير إذا أمرتم.

قال: لا أريد ذلك لك.

على أن ما لم يرده سموه لي قد حققته مرارًا فيما بعد لأن معظم أسفاري إلى العراق وسوريا وأوروبا كانت بالطائرة، كما أن سموه عدل عن رأيه هذا على ما يظهر، فقد قابلته للمرة الأولى في الإسكندرية نازلًا من الطائرة مع شقيقه المغفور له الملك فيصل ثم سمعت أنه سافر بها عدة مرات بعد ذلك.

وكان الحديث الذي دار بيننا في ذلك اليوم مبددًا لآمالي فخرجت من المقر وقد استولى علي يأس شديد وأظلمت الدنيا في وجهي، فقررت نهائيًا أن لا أفاتح الأمير بالمهمة التي جئت من أجلها ورجوت من حامد أن لا يفعل ذلك هو أيضًا.

ولكن سموه أرسل يطلبني بعد الظهر وتفضل بمقابلتي مقابلة خاصة استغرقت أكثر من ساعة فتح لي فيها قلبه وبسط أمامي موقفه بصراحة وثقة تركتا في نفسي أعظم أثر. وقد عرف بهذا الحديث أن يكتسبني وأن يحرك عواطفي ولا سيما حينما وصف حالته والضغط الواقع عليه وعيناه مغرورقتان بالدموع.

فقلت: «يا سيدي، إن عزائم الرجال تدك الجبال، وحولك رجال والحمد لله عركهم الدهر ومحصتهم التجارب فألقِ على عواتقهم مهام الأمور واحتفظ بصحتك وهمتك إلى اليوم الذي تقدم فيه الأمة على عمل حاسم».

قال: «ولكن إخواننا غير راضين وقد قلبوا لنا ظهر المجن».

قلت: «أطلق يدهم يا سيدي في إدارة شؤون المنطقة ووجه اهتمامك إلى ما هو أعظم. وأسمح لي أن أعرض على مسامعك أن دعاية شديدة يبثها أعداء القضية ضدك، وأن لا سبيل إلى التغلب على هذه الدعاية إلا باتفاقك مع الرجال الذين التحقوا بسموك، فهم رجالات سورية وقد وضعت الأمة ثقتها فيهم. فما داموا إلى جانبك فالأمة معك ولا يستطيع الأجنبي أن يبعدها عنك مهما بذل من الجهد والمال في هذا السبيل. أما وأنهم بدأوا يغادرون المنطقة الواحد تلو الآخر فأنا أخشى أن يعد الرأي العام انفضاضهم من حولك مصداقًا لما يشيعه المستعمرون». ثم سردت على مسامع سموه ما سمعته وعرفته عنه وعن رجال المنطقة بصراحة تامة عازيًا كل ذلك إلى الإشاعات التي يروجها عمال الأجانب للحط من مكانته في نظر الأمة.

ولما انتهيت من كلامي قال: «ولهذا السبب أريد أن يأتي عزيز علي إليّ فقد يسهّل وجوده بيننا مهمتي ومهمة الإخوان. وأنا أعد بأنني سأضع كل شيء في قبضة يده، وهو يعرف الموقف وما يتطلبه من كياسة ومرونة».

قلت: «إنه مستعد يا سيدي لتلبية دعوتكم، ولي وطيد الأمل بأن عمان ستصبح بوجوده ووجود الإخوان الآخرين إلى جانبكم فيها محور القضية العربية ومحط آمال العرب في كل صقع وناد».

قال: «أتظن أن الإنجليز يعارضون في مجيء عزيز؟».

قلت: «كنت أعتقد بأنكم مهّدتم له سبل المجيء، وعلى كل حال إذا كانت إرادتكم أن يأتي فهم لن يستطيعوا المعارضة».

قال: «سأبحث معهم الليلة في هذا الأمر. وعلى كل حال سأكتب لعزيز كتابًا الآن أتركه معك، فإذا استقر الرأي على دعوته بعثت إليه بغيره وإلا فأرسله إليه أنت من مصر». ثم تناول القلم وكتب إليه ما يلي:

عزيزي عزيز

«إني في حالة لا يمكن الصبر عليها. فبعد أن كنت عزيزًا في بلادي أصبحت ذليلًا تحت ضغط الأجنبي

وسلطانه لا قوة ولا مال ولا نفوذ. فإذا استطعت أن تشق الطريق أمامنا وتجد القوة والمال والسلاح أنقذتني وأنقذت الأمة وإلا فدعني أسقط وأتدهور واسلم انت للعرب».

«عبد الله»

ثم ناولني الكتاب فقرأته وعيناي مغرورقتان بالدموع، وقلت له بصوت مرتجف من شدة التأثر: «إن الرجال خلقوا للشدائد والمحن وهذه محنة ستجتازونها بعون الله مع الأمة بما عرفتم به من صدق في العزيمة ورباطة الجأش والإقدام. فالقنوط لن يعرف سبيلًا إلى قلبكم الكبير، ولنا في همتكم وقوة إيمانكم أكبر ضمان على تحقيق الآمال المعقودة عليكم. فقرروا مع الرجال الملتفين حولكم الخطة التي يجب السير عليها إلى النهاية والأمة وراءكم حتى النفس الأخير».

وسألني سموه قائلًا: «متى تريد العودة إلى مصر؟».

قلت: «غدًا إن شاء الله».

قال: «لا. أمكث عندنا ثلاثة أيام أنهي في خلالها مسألة عزيز».

قلت: «أنا يا سيدي مضطر إلى السفر».

الأمير يلح علي بالبقاء ثم...

فألّح علي بوجوب البقاء ولم يتركني أبرح القاعة إلا بعد أن قلت: «أمركم يا سيدي».

وأخبرت المرحوم رشيد طليع بما جرى فقال: «سأذهب حالًا لمقابلة الأمير. فالحديد يجب أن يُضرب حاميًا، ولسموه ساعات تتأجج فيها العواطف النبيلة في صدره ويمكن التفاهم معه على كل شيء في خلالها».

وتركني رشيد وذهب إلى مقر الأمير وخرجت أنا مع الأمير عادل إلى نزهة على ظهور الجياد بعد أن أجّلت اجتماعي بأصدقائي في تلك الليلة على أثر تأجيل سفري ثلاثة أيام وفاقًا لرغبة الأمير.

وكنت مدعوًا في المساء لتناول العشاء عند حامد الوادي على ما أذكر مع أحمد مريود ورشيد طليع وبعض الإخوان، وبينما نحن على المائدة أقبل ضابط يسأل عني، وقد قال لي إن سيارة سموه ستمر في الساعة الخامسة من صباح اليوم التالي فتقلني إلى القدس.

واستغربت ذلك كثيرًا وخصوصًا أنه لم تكد تمضي أربع ساعات على إلحاح الأمير علي بالبقاء ثلاثة أيام في عمان. فقلت للضابط: «إني في الساعة الخامسة أكون في سريري». فقال: «هذا ما أمرت بإبلاغك إياه لتكون على استعداد».

وأدرك رشيد طليع رحمه الله شدة تأثري، فسأل الضابط من هو السائق الذي أمر بالذهاب معه، فلما سماه قال لي رشيد بك: «إن هذا السائق كان عندي لما كنت رئيسًا للحكومة وسينتظرك بقدر ما تشاء».

وقد فهم أصدقائي من هذا العمل أني من غير المرغوب في بقائهم في المنطقة. أما أنا فلم أفهم ذلك ولكني لم أجد تعليلًا معقولًا لتبدل موقف الأمير نحوي بمثل هذه السرعة وإكراهي على السفر بهذه الطريقة بعد أن ألح علي بوجوب البقاء عنده ثلاثة أيام.

وقضيت تلك الليلة مع أصدقائي إلى ما بعد منتصف الليل. واستيقظت على صوت السيارة في الساعة الخامسة صباحًا. ولكن رشيد أسرع إلى المنزل الذي كنت فيه وقد كان منزل نبيه العظمة على ما أذكر، فطلب إلى السائق أن ينتظرني حتى الساعة التاسعة. وهكذا كان. وقد تركت عمان وأنا في حيرة وأسف شديدين، لأني لم أكن أتوقع ما لقيته ورأيته فيها. على أني لم أندم على زيارتي لها لأني اكتشفت حقائق لم يكن في إمكاني اكتشافها، لولا هذه الزيارة، إلا بعد زمن طويل.

كتابي إلى الأمير عبد الله

ووصلت إلى القدس فأرسلت منها إلى الأمير عبد الله كتابًا طويلًا في ست صفحات سردت له فيه جميع الإشاعات والحقائق التي كانت ترددها الألسنة عنه، وقلت إنه يهم جميع المواطنين أن يحتفظ سموه بثقة الأمة ليمكن العمل معه في خدمة القضية، وإن هذه الثقة لا يستطيع الاحتفاظ بها إلا إذا اتفق مع الرجال الذين أحاطوا به وعمل معهم يدًا واحدة على تحقيق الآمال المعقودة عليهم وعليه. ومما ذكرته أن الأمة بدأت تتحول عنه بعد أن كان قبلة نظرها ومحط رجائها. وقلت له صراحة: «إن هذا التحول لم ينشأ عن الدعاية التي بثت ضده، بل نشأ عن شعور الرأي العام بأنه لم يستطع أن يعمل مع الوطنيين»، وقد رجوت منه، لقمع هذه الدعاية واسترداد الثقة التي كان يتمتع بها في البلاد، أن يعود إلى سابق عهده مع إخواننا في عمان وأن يطلق أيديهم في حكم المنطقة وينصرف هو إلى خدمة القضية من وجهتها العامة. والكتاب طويل كما تقدم وهو صادر من قلب مفعم ألمًا وأسى.

وقد كان من الطبيعي أن لا أتلقى جوابًا عنه لتعذر الرد على المسائل الواردة فيه أو تفنيدها أو الاعتذار عنها من جهة، ولأنه من جهة أخرى لا يرضى المرسل إليه إلا بما فيه من صدق وصراحة وإخلاص وهي لسوء الحظ لا تُرضي غير القليلين من الحكام.

على أن بعض أصدقائي الذين أخبرتهم بقضية هذا الكتاب قالوا لي إن الأمير عبد الله محاط بحاشية لا تطلعه على غير ما يتفق مع أغراضها ومصالحها، فمن المحتمل أن يكون أحد رجالها فض الكتاب وأخفاه عن الأمير.

وبقيت عدة سنوات وأنا في شك من وصول كتابي إلى سموه حتى اجتمعنا مرة في بورسعيد وكان مع شقيقه المرحوم الملك علي، في طريقهما إلى قبرص لزيارة المغفور له الملك حسين. وقد قابلته في الكازينو بحضور رشيد الخوجة قنصل العراق العام حينئذ في مصر وإبراهيم الخضيري سكرتير القنصلية. فلما أبصرني تقدم لمصافحتي وهو يقول:

- لو زرتنا في عمان لرأيت الفرق بينها اليوم وبين ما كانت عليه في أثناء زيارتك الماضية لها. فقد أصبحت الآن عاصمة حقيقية. ولكنك نسيتنا ولم تعد تفكر في زيارتنا.

ورأيت أن الفرصة مناسبة لإثارة مسألة الكتاب الذي ظل عنده بلا جواب، فقلت:

- إن سموك لم تشجعني على هذه الزيارة حتى أن كتابي الذي أرسلته.

فقاطعني قائلًا: «كتابك.. كتابك.. لو ذهبت إلى عمان لرأيته أمامي مفتوحًا في درج مكتبي فهو دستور عملي».

بعد عودتي إلى مصر

وبعد عودتي إلى مصر سمعت أن رضا الركابي عازم على السفر إلى عمان على أمل أن يتولى رياسة الحكومة فيها. وكان يريد قبل سفره إليها أن يستميل الوطنيين إلى جانبه. فلما عرف بأني عائد منها فاتحني بالأمر كأنه يريد أن يعرف رأيي فيه. ومع أن علاقتي به لم تكن وثيقة في يوم ما، ومع أن ثقة أصدقائي به كانت ضئيلة، فقد شجعته على السفر اعتقادًا مني بأنه يستطيع بدهائه أن يحسّن الحالة التي كنت أراها سيئة جدًا. وقد أفضيت إليه بكل معلوماتي ووصفت له الحالة كما عرفتها وأخبرته عن موقف الأمير بإزاء إخواننا الوطنيين في عمان. فقال إنه سيضع يده في أيديهم ويعمل معهم على إنقاذ الموقف، ثم اتصل ببعضهم كتابة. وكان المرحوم مريود يكتب إليه بواسطتي ويستعجله في السفر ويعده بتأييد إخوانه.

وفي اعتقادي أن هؤلاء الإخوان الذين ألّفوا في عمان اللجنة المركزية لحزب الاستقلال العربي كانوا يستطيعون السيطرة على الحالة وتسلّم زمام الحكم لولا خوفهم من عواقب عملهم وبقية باقية من الثقة بالأمير في نفوس بعضهم. ففضلوا سياسة الترقيع على أمل أن يساعدهم الزمن على الإصلاح، وكانوا يضعون أيديهم في يد كل رجل يرجون فيه الخير، حتى إذا ما جاء رضا باشا الركابي وتسلم رياسة الحكومة في شرق الأردن التفوا حوله ومهدوا أمامه سبيل العمل فوقعوا في الشراك التي نصبت لهم في عهده.

وبرح كثير منهم حينئذ عمان التي أصبح العمل فيها متعذرًا قاصدين إلى مصر وفلسطين. واستطاع الأمير أن يرسل فريقًا آخر إلى الحجاز أقام في ضيافة المرحوم الملك حسين إلى أن وقعت الحرب بينه وبين الملك عبد العزيز.

في اللجنة التنفيذية

ودخلت اللجنة التنفيذية للمؤتمر السوري الفلسطيني عقب عودتي من عمان مندوبًا عن حزب الاستقلال العربي كما تقدم. وكانت هذه اللجنة تنشط بنشاط الحركة في سورية وفلسطين وتضعف بضعفها. كما كانت خير صلة بين الداخل والخارج. وقد قامت للقضية السورية الفلسطينية بأعظم دعاية يمكن أن تقوم بها لجنة سياسية مهما تكن مواردها.

وكنت في الوقت نفسه على اتصال خاص بكثير من الوطنيين في سورية والعراق والحجاز أعمل جهد طاقتي للتوفيق بين الآراء المتضاربة والقلوب المتنافرة. وقد أخطأت كثيرًا واكتشفت لغيري أخطاء كثيرة لا يبعد أن تكون قد تركت أثرًا في سير القضية. ولكن الوقت لم يحن بعد لسرد هذه الأخطاء ووصف تأثيرها في أعمالنا السياسية، بالرغم مما في ذلك من عظات وعبر. ولعلي أوفق في الجزء الثاني من مذكراتي إلى سد النقص الذي يراه القارئ في هذا الكتاب وأشعر أنا بوجوده في كل صفحة من صفحاته.

أما الآن فأريد أن أشير إشارة بسيطة إلى الأدوار التي نشطت فيها اللجنة التنفيذية وإلى التأثير الذي أحدثه نشاطها في قضية البلاد. فإنها لم تكد تُؤلف حتى قام إبراهيم هنانو بثورة في شمالي سورية، فوجهت معظم اهتمامها إلى ترديد صدى هذه الثورة في الخارج، وألفت بالاتفاق مع حزب الاتحاد الذي أسسه الشيخ كامل القصاب حينئذ مكاتب لها في حيفا وغيرها لتلقي الأخبار. ولما انتهت ثورة هنانو انصرفت اللجنة إلى

العمل السياسي في أوروبا بالاشتراك مع الوفد السوري.

في أثناء الثورة السورية

وبلغ نشاط اللجنة والوفد أشده في أثناء الثورة السورية الكبرى التي بدأت في جبل الدروز وامتدت إلى الغوطة وإقليم البلان وحماه وسيطرت على نصف سوريا تقريبًا.

وكان هم اللجنة في أثناء هذه الثورة أن تتلقى المعلومات الصحيحة عن حوادثها المختلفة وتذيعها في أوربا وتساعد على إمداد منكوبي الثورة وجرحاها بما يحتاجون إليه من أغذية وعقاقير وتحاول جهد طاقتها تخفيف آلامهم وإرشادهم إلى خير الطرق التي يحتمل أن تؤدي إلى خدمة البلاد.

وقد خيّل إلي لأول وهلة أني فوجئت بإعلان الثورة مفاجأة. ولكني لما راجعت ذاكرتي أدركت حقائق كثيرة شهدتها ولم أفطن لها حين وقوعها. وفي مقدمة هذه الحوادث أني ذهبت مرة إلى الإسكندرية لمقابلة رشيد طليع في موضوع خاص، وكان ذلك قبل نشوب الثورة في جبل الدروز بستة أشهر أو أكثر، فرأيته شديد الانهماك برسائل تلقاها من الجبل. ولما سألته عن السبب قال لي إن الحالة أصبحت لا تُطاق في سورية، وإن بعض زعماء الدروز عازمون على القيام في وجه السلطة. وإنهم يسألونه رأيه في الموضوع.

فقلت: «وما هو رأيكم في ذلك؟».

قال: «إن البلاد على استعداد الآن للقيام بعمل واسع النطاق، وأنه يسعى إلى تنظيم هذا العمل من مدة، ولكن مساعيه لم تكلل بالنجاح المطلوب حتى الآن». ثم قال: «وعلى كل حال لا أعتقد أن الثورات تكون دائمًا نتيجة استعداد وتنظيم بل هي على الأكثر انفجارات تنشأ عن شدة الضغط، وأنا أخشى أن يقع هذا الانفجار قبل الآوان».

وقد توهمت حينئذ أن رشيد بك بسط أمامي نظريات عامة ولم أفطن إلى أهمية حديثه إلا بعدما سمعت بأول نبأ عن الثورة وبسفره إلى القدس. ففهمت في ذلك الحين ثم تأكدت فيما بعد أنه – رحمه الله – كان على اتصال وثيق ببعض زعماء الجبل، وأنه كان الدماغ المفكر للثورة منذ نشوبها.

وقد قام في القدس بأعمال الجبابرة. فإليه يرجع الفضل الأول في تأليف لجنة الإعانة التي استطاعت أن تكفل لجرحى الثوار ونسائهم وأطفالهم الأغذية والملابس والعقاقير، وفي تنظيم الثورة بواسطة الضباط الذين ساعدهم على الالتحاق بها كالمرحوم فؤاد سليم وغيره، وفي إرشاد زعمائها إلى خير الخطط التي يجب أن يسلكوها، والتوفيق بينهم وبين جيرانهم الذين كانوا خصومًا لهم وتوسيع نطاق الحركات الثورية شمالًا وغربًا حتى سيطر الثوار على أكثر من نصف البلاد السورية.

ومهما تكن المصائب التي حلت بسورية من جراء هذه الثورة عظيمة، فإن النتائج التي أسفرت عنها، برغم الفشل الذي منيت به في النهاية، كانت أعظم بما لا يقاس، فالسوريون يعدون الشرف أغلى من الحياة. وقد خسروا كل شيء إلا الشرف. أضاعوا خمسة عشر ألفًا من الشبان وما يقرب من ضعفي هذا العدد من

الشيوخ والنساء والأطفال، وبارت أرضهم ودُمرت مدنهم وقراهم، وظلت عاصمتهم دمشق الجميلة أقدم مدينة في التاريخ هدفًا لقنابل المدافع والطيارات تُصب على القصور الأثرية الشامخة والمخازن الغاصة بالتحف النادرة والبيوت المأهولة بالنساء والأطفال ثلاثة أيام بلياليها، ولكنهم خرجوا من تحت الأنقاض رؤوسهم مرفوعة وكرامتهم مصونة والعالم كله ينظر إليهم بعين الإعجاب والاجلال لأنهم لم يترددوا في التضحية بكل شيء في سبيل أشرف الغايات. فإذا لم تكلل بالنجاح جهودهم، فحسبهم أن يكونوا قد مهّدوا طريقهم إليه في المستقبل القريب. وكم من انكسار كان أشرف من النصر. وكم من انتصار كان عارًا على المنتصرين. فلنحمد الله لأن الشعب السوري أظهر للعالم أن المحن التي حلّت به لم تُضعف قوة الحياة الكامنة في صدره بل زادتها شدة وظهورًا. وأن حب الحرية والاستقلال امتزج بدماء أبنائه فلن يقوى الاستعمار على خنقه وفي واحد منهم عرق ينبض.

أثر الثورة السورية

ولا يستطيع السوري أن يعرف كم كان فضل الثورة عليه وعلى بلاده عظيمًا إلا إذا قارن بين رأي الناس فيه قبل سنة 1925 وبعدها. ففي فرنسا كان الجمهور يعتقد أنه شعب منحط لا مزية له إلا حبه لفرنسا إلى حد الغرام. وقد ظل رجال السياسة إلى ما بعد الثورة يعملون على تعزيز هذا الاعتقاد لأغراض في نفوسهم، فكانوا يعلنون في كل مناسبة أن فرنسا لم تحتل البلاد السورية إلا بطلب سكانها وإلحاحهم، وأن السوريين لا يطمحون إلا إلى توطيد دعائم الاستعمار الفرنسي في بلادهم، وأن هذا الاستعمار في نظرهم هو أعظم نِعَم الله عليهم. وكانت الأصوات التي ترتفع بعكس ذلك تضيع في ضوضاء هذه الدعاية التي لم يستطع إسكاتها غير دوي المدافع وقرقعة السلاح. فلو لم يكن للثورة السورية غير هذه النتيجة لكفاها فخرًا، فكيف بها وقد تمكنت من إقناع القريب والبعيد بأن في سورية شعبًا حيًا ناهضًا يأبى الضيم ولا يقيم على الذل ويعرف كيف يدافع عن كرامته ويطالب بحقه في الحرية والاستقلال.

ولا أبالغ إذا قلت إن مصر نفسها لم تفهم السوريين إلا بعد ثورتهم، ولم تنظر إليهم بعين العطف إلا بعد أن سمعت ما سمعته عن أعمالهم وتضحياتهم واستبسالهم في سبيل حريتهم واستقلال بلادهم. فمنذ ذلك الحين أصبحت مصر تعد نفسها شقيقة سورية وتفسح صدرها للفكرة العربية التي كان السوريون من دعاتها. فإذا كانت مصر اليوم قد اعتنقت هذه الفكرة وتبنتها فمعظم الفضل في ذلك يرجع إلى الأثر العظيم الذي تركته الثورة السورية في نفوس أبنائها.

وما قلته عن مصر يمكن أن يُقال مثله عن الأقطار العربية الأخرى في آسيا وأفريقية. فقد كانت سورية مجهولة في معظم الأقطار، وكانت نكبة ميسلون قد أظهرتها للذين كانوا يجهلونها بمظهر لا يشرفها. فلولا الثورة لبقي عار ميسلون لاحقًا بها، ولما انفسح مجال التعارف والتقارب بينها وبين شقيقاتها في ظل الفكرة العربية.

وقد كانت الشعوب الغربية تعتقد أن السوريين أقوام متخاصمون يفرق بينهم الجنس والدين والثقافة والعادات والأخلاق، وأن أقصى أمانيهم في الحياة أن يروا وطنهم مستعمرة لفرنسا، ولذلك هم يتمسكون

ببقائها في بلادهم ولا يريدون عنها بديلًا، ويخشون أن يتطاحنوا فيذبح بعضهم بعضًا إذا هي غضّت النظر عنهم.

وكان الموظف الفرنسي يظن أن سورية مصدر الخير والثروة وأن التوظف فيها لا يكبده أقل مشقة، فحسبه أن يقيم فيها وقتًا قصيرًا ليعود منها إلى بلاده صاحب ثروة ضخمة.

وهكذا لم يكن أحد في أوربا أو فرنسا من غير المسؤولين عن سياسة الاستعمار يعتقد أن السوريين يريدون الاستقلال، ويسعون إليه بكل ما لديهم من الوسائل، أو أن الاحتلال يكلّف الخزانة الفرنسية مبالغ طائلة، ويكلف الشعب الفرنسي دماءً غزيرة، وأن سورية فقيرة ليس فيها ما يُشبع الجشع الاستعماري، وأن الموظفين الذين يثرون أنما يحصلون على الثروة بامتصاص دم الفقير.

وكانت فرنسا في نظر الشعوب المتمدنة منتدبة للقيام بعمل إنساني في البلاد السورية هو تمدين سكانها المنقسمين طوائف وقبائل مختلفة متنافرة وتعليمهم وتهذيبهم ومنعهم من أن يأكل بعضهم بعضًا.

فلما قامت الثورة وظهر الشعب السوري فيها بمظهره الحقيقي، أدركت فرنسا كما أدرك العالم كله أنه شعب متمدن راق يعرف قيمة الحرية ويعرف كيف يضحي في سبيلها، وأنه بما ضحى به على مذبح الوطنية من الدماء والمال أثبت أهليته للاستقلال وحقه في الحياة الحرة، فارتفع بذلك رأس سورية عاليًا في الخارج وأصبحت مضرب المثل في التضحية والبسالة وصدق الوطنية.

هؤلاء الأبطال

فأبناء هذا الجيل وأبناء الأجيال المقبلة في سورية وسائر الأقطار العربية مدينون بالشكر الخالص لأولئك الأبطال الذين لفتوا أنظار العالم إلى قضية بلادهم: للشهداء المجهولين الذين ارتوت أرض جبل الدروز والغوطة ودمشق وإقليم البلان وجبل عامل والبقاع ووادي التيم وجبل القلمون وحماه بدمائهم الزكية ولم تعرف الأمة عنهم سوى تضحيتهم، وللشهداء الذين دونت أسماؤهم في سجل المجد ونقشت على صفحات الصدور أمثال فؤاد سليم وأحمد مريود ورشيد طليع و[عبد القادر] الجزائري والنكدي[240] والأطرش والبربور[241] والعائدي والعسلي[242] والحلبي وقنباز[243] والخراط[244] وغيرهم. فعلى أضرحة هؤلاء وأولئك يستمطر الأبناء والأحفاد الرحمة والرضوان، ومن أرواحهم التي ترفرف في جو الوطن تستوحي الأمة الثبات وصدق العزيمة والوطنية الصادقة والتضحية والمفاداة.

وإذا ذكرنا شهداءنا الأعزاء فلا يجوز لنا أن ننسى أبطالنا الذين حفظتهم العناية للأمة وفي مقدمتهم سلطان الأطرش. ذلك الرجل المقدام الذي يخفي وراء مظهره البسيط قلب الأسد وصلابة الحديد ووداعة الحمل، ومعاونوه الغر الميامين من رجالات سورية وجبلهم الأشم. وأحاذر أن أسمي بعضهم فيفوتني ذكر آخرين ممن قد لا يكونون أقل فضلًا على القضية منهم.

وقد كان لغير المحاربين من السوريين في داخل البلاد وخارجها نصيب من التضحية في أثناء الثورة السورية الكبرى. فأهل دمشق الذين صبروا ثلاثة أيام بلياليها على قنابل المدافع والطائرات، تُصب بلا

انقطاع على رؤوس أطفالهم ونسائهم وتدمر دورهم وتلتهم نيرانها أموالهم ومقتنياتهم، وأهل حماه الذين قابلوا نكبة مدينتهم الجميلة برباطة جأش نادرة المثال، وسكان قرى جبل الدروز والغوطة والبقاع الذين رأوا التضحية بأنفسهم قليلة فأضافوا إليها التضحية بآلهم وذويهم وكل ما يمتلكونه من دور وأثاث ومال، والمهاجرون في أمريكا وغيرها الذين قطعوا الخبز عن أطفالهم ليشبعوا الجائعين من أطفال المجاهدين، وساعدوا على تخفيف آلام الثورة ومصائبها بعشرات الألوف من الجنيهات، ورجال السياسة والعلم والصحافة والتجارة في مصر وأوربا وأمريكا الذين ضحوا بوقتهم وراحتهم ومالهم في سبيل الغاية التي ضحى الثوار بأنفسهم من أجلها. كل هؤلاء المعروفون منهم والمجهولون الأغنياء والفقراء من علماء وأدباء وتجار وعمال قاموا بالواجب المفروض عليهم، كل منهم جهد طاقته، فاستحقوا جميعًا تقدير الوطن وشكر أبناء الأجيال المقبلة.

اللجنة التنفيذية والمسيو دي جوفنيل

وكان نشاط اللجنة التنفيذية للمؤتمر السوري الفلسطيني عظيمًا في أثناء الثورة لا يُضاهيه سوى نشاط الوفد السوري في أوربا. فقد توسلا بجميع الوسائل الممكنة لجني أقصى ما يمكن جنيه من ثمارها. والظاهر أن فرنسا رأت من مصلحتها الإسراع في وضع حدٍ لها لأنها كبدتها خسائر عظيمة في الأرواح والأموال وأساءت إلى سمعتها وأضعفت نفوذها في العالمين العربي والاسلامي بنوع خاص.

فلما عين المسيو هنري دي جوفنيل[245] مندوبًا ساميًا في سورية أراد أن يكون وصوله إليها فاتحة عهد سلام، فاتصل ببعض السوريين ثم بأعضاء الوفد السوري في جنيف وبسط لهم الأسس التي يريد أن يبني سياسته عليها، واتفق معهم على بعضها، ثم طلب الاجتماع بأعضاء اللجنة التنفيذية ومرّ بمصر لهذا الغرض في طريقه إلى سورية.

وعقدت اللجنة عدة اجتماعات لدرس الخطة التي يجب أن تنتهجها في أثناء اجتماعها بالمندوب السامي الجديد وكان مما قررته:

1 – لا تستطيع اللجنة بصفتها لجنة تنفيذية للمؤتمر السوري الفلسطيني الدخول في مفاوضة سياسية على غير الأسس التي وضعت في ذلك المؤتمر.

2 – بالنظر إلى الأحوال العصيبة التي تعانيها سورية يحسن بأعضاء اللجنة، بل يجب عليهم بصفتهم الشخصية، التوسل بجميع الوسائل الممكنة لحقن الدماء ووضع حد للخراب المحدق بالبلاد.

3 – بناءً على ما تقدم، يُدعى الوطنيون السوريون في مصر إلى اجتماع يُعقد في دار اللجنة التنفيذية للبحث في الوسائل التي يمكن أن تؤدي إلى تهدئة الحالة في البلاد.

وحضر هذا الاجتماع كثيرون من الوطنيين السوريين في القاهرة ودُعي إليه خصيصًا من الإسكندرية الدكتور أحمد قدري والدكتور سعيد طليع والأستاذ عباس المصفي. وكان شكري القوتلي قد سافر إلى القدس فكُلف أن يأخذ رأي الإخوان فيها في الموضوع، وأن يعود إلى القاهرة قبل إنتهاء المباحثات.

وقد اتفق المجتمعون بعد مباحثات دامت ثلاثة أيام على الأسس التي رأوا أن الثوار قد يقبلونها لوقف الحركات الثورية. ووضعت هذه الأسس في مذكرة باسم المجتمعين لا باسم اللجنة التنفيذية لتقدم إلى المسيو دي جوفنيل، حتى إذا قبلها يتوسط أعضاء اللجنة بينه وبين زعماء الثورة على أساسها.

وكانت اللجنة قد قررت في الوقت نفسه أن لا يجتمع أعضاؤها بالمسيو دي جوفنيل إلا إذا طلب ذلك منهم إما رأسًا أو بواسطة المفوضية الفرنسية، أي أن لا يكتفي بما صرّح به لمراسل **الأهرام** قبل سفره من فرنسا وهو أنه ينوي المرور بمصر لمقابلة اللجنة التنفيذية فيها. فلما وصل إلى القاهرة دُعي إلى تناول الشاي في دار آل لطف الله، ودُعي أعضاء اللجنة التنفيذية معه، وكنت في جملتهم، وكان الغرض من هذه الدعوة التعارف فقط. فلم يَدُر في الاجتماع حديث ما يتعلق بالسياسة.

وفي اليوم التالي أبلغنا رئيس اللجنة أننا سنجتمع بالمسيو دي جوفنيل في منتصف الساعة الرابعة بعد الظهر. فقلت له إن اللجنة قررت في اجتماعاتها السابقة أن يكون هذا الاجتماع بعد دعوة رسمية منه لكيلا يكون شأننا معه شأن كثيرين من السوريين واللبنانيين الذين يذهبون إليه للتزلف أو لأغراض خاصة. ودارت مناقشة شديدة حول هذا الموضوع انتهت بموافقة الأكثرية للرئيس بعد أن قال إنه تلقى هذه الدعوة شفهيًا من وزير فرنسا المفوض في حفلة الشاي التي أقيمت في داره.

وذهبنا في الموعد المعين إلى فندق الإنتركونتيننتال وكان بيننا بعض أعضاء اللجنة وفي مقدمتهم رئيسها ميشيل لطف الله وسكرتيرها نجيب شقير وكثيرون من غير أعضائها، أذكر منهم نسيم صيبعة وخير الدين الأحدب[246] ومظهر البكري[247] ونجيب الأرمنازي وغيرهم.

وأعرب المسيو دي جوفنيل لنا عن رغبته في السلم وحقن الدماء، وقال إنه يتمنى أن يوفق في الشرق لعقد ميثاق السلام كميثاق لوكارنو[248] في الغرب، وإن العلاقات بين سورية وفرنسا يجب أن تقوم على أساس التعاقد، فتُعقد بين الفريقين معاهدة تحلّ محلّ الانتداب.

وتكلم نجيب شقير موضحًا موقف اللجنة التنفيذية فقال إنها لا تستطيع أن تدخل في أية مفاوضة على غير أساس الاستقلال التام. ولكن أعضاءها الذين شاهدوا بأعينهم ما حلّ بسورية من المصائب والويلات، وما أريق فيها من دماء الفريقين رأوا بعد النصائح التي أسدتها عصبة الأمم إلى الوطنيين السوريين والعواطف الطيبة التي أظهرها المندوب الفرنسي السامي أن يبذلوا قصارى جهدهم لإعادة السلم إلى البلاد ووضع حد للثورة القائمة فيها تمهيدًا لحلّ المشاكل بالمفاوضات السياسية.

وقد بحثوا الموضوع مليًا مع فريق كبير من المفكرين السوريين فكانت نتيجة بحثهم أنه يمكنهم التوسط بين الثوار والمندوب السامي الجديد على قواعد وضعوها في مذكرتهم وأهمها استقلال سورية التام وعقد معاهدة بينها وبين فرنسا تحلّ محلّ الانتداب.

فقال المسيو دي جوفنيل إنه يرجو أن يوفق للوصول إلى هذه النتائج بمساعدة حسني النية من الفريقين، وإنه يعد نفسه سعيدًا إذا استطاع أن يضع أساسًا وطيدًا للصداقة المقبلة بين فرنسا وسورية. وكان في أثناء حديثه يقلب صفحات المذكرة التي قُدمت إليه، بينما أحد كتبة الاختزال القادمين معه يدوّن كل ما يسمعه

وهو جالس إلى مائدة وُضِعت وراء المندوب السامي. وقد لاحظت أن المسيو دي جوفنيل توقف عند الصفحة الأخيرة من المذكرة وهي التي تضمّنت الشروط التي قال أعضاء اللجنة إنهم يستطيعون أن يتوسطوا لدى الثوار لإنهاء الثورة على أساسها.

وقرأ هذه الشروط عدة مرات بينما كان يستمع إلى الذين تكلموا منا، وقد كانوا كثيرين. فبعدما انتهى نجيب شقير من بسط الحالة، بحث السيد رشيد رضا في مسألة سورية وعلاقتها بالعالم الإسلامي، وتكلم بعده ميشيل لطف الله عن أهمية مطالب الثوار وعدالتها، وأيدته أنا بقولي إن ما ورد في المذكرة هو الحد الأدنى الذي يستطيع المندوب السامي أن يمهد به للسياسة التي رسمها لنفسه وبسطها لنا. ثم تكلم خير الدين الأحدب ومظهر البكري – على ما أذكر – بمعنى ما تقدم.

وكان المسيو دي جوفنيل يُجيب كل واحد على كلامه معلنًا رغبته في التعاون مع السوريين على إنقاذ الحالة ووضع أساس وطيد للصداقة المقبلة بين فرنسا وسورية. وانتهت المقابلة والجو مشبعٌ بروح الثقة وحسن التفاهم. ولكننا لم نتلق جوابًا صريحًا على ما ورد في المذكرة بل كان آخر ما قاله لنا إنه يسره أن يتعاون معنا على تحقيق الغاية التي وضعها نصب عينيه ويراها في مصلحة فرنسا كما هي في مصلحة سورية.

وخرجنا من فندق الكونتيننتال إلى دار اللجنة التنفيذية حيث عقدنا اجتماعًا دام نحو ساعة بحثنا فيه الموقف الجديد بإسهاب. وقد شق على فريق منا – وكنت أنا منه – أن لا نسمع من المسيو دي جوفنيل جوابًا صريحًا عن مطالبنا المعتدلة، فقررنا أن نرسل إليه كتابًا نطلب فيه الرد على ما جاء في مذكرتنا. ووُضِع هذا الكتاب بصيغة لطيفة، ثم أُرسِل مع الأستاذ نجيب الأرمنازي الذي عرف المسيو دي جوفنيل في باريس وجاء إلى مصر قبله ليمهد سبيل التفاهم بينه وبين اللجنة التنفيذية.

السبب في فشل المباحثات

ولم يجد الأستاذ الأرمنازي المسيو دي جوفنيل في الفندق فترك له الكتاب فيه وعاد الينا. وكان قد وصل إلى القاهرة بعض الضباط الفرنسيين قادمين من بيروت خصيصًا للحيلولة دون خطة التفاهم التي عرفوا أن المندوب السامي الجديد عازم على انتهاجها مع اللجنة التنفيذية. والظاهر أنهم قابلوه بعد اجتماعنا به وبسطوا له الحالة في سورية على ما يوافق أغراضهم، وتمكنوا من إقناعه بتعديل الآراء التي أبداها لنا بحجة أن الثورة ضعفت وأن القوة التي لفرنسا في البلاد أصبحت كافية للقضاء عليها.

وكان في تلك الليلة مدعوًا إلى تناول طعام العشاء على مائدة المندوب السامي البريطاني، فلما عاد إلى فندق الكونتيننتال عند منتصف الليل وجد كتاب اللجنة ينتظره فيه، فاطلع عليه ثم وضع نص بيان أرسله إلى المفوضية الفرنسية وكلفها نشره في الصحف لأن سفره إلى بيروت كان مقررًا في صباح اليوم التالي.

ونشر هذا البيان الرسمي وفيه تهديد للجنة التنفيذية التي قال المندوب السامي إنها تتحمل تبعة الثورة السورية، «وإعلان للحرب على من يريد الحرب، والسلم على من يريد السلم».

واستغربنا هذا العمل من المسيو دي جوفنيل الذي يُعد من كبار رجال السياسة في فرنسا ولم نستطع أن

نعلله إلا بقوة الحزب العسكري في سورية واضطرار المندوب السامي الجديد إلى الإذعان لإرادته. وكان هذا الحزب العسكري يضم بين أعضائه الضباط المتحمسين الذين يستهويهم المجد الحربي، إلى جانب الوطنيين الفرنسيين الذين يريدون بسط سيطرة فرنسا على العالم كله، والموظفين الذين لا هم لهم سوى البقاء في الوظيفة، وطالبي المال الذين لم يجدوا عملًا في بلادهم فجاءوا إلى بلادنا لاكتساب الثروة بأية طريقة كانت، والمرائين المحتالين الذين لا يستطيعون أن يعيشوا إلا من الاصطياد في الماء العكر. فكل هؤلاء وأمثالهم جمعت بينهم المصلحة برغم اختلاف الأغراض والغايات، فوقفوا صفًا واحدًا في طريق كل سياسة معقولة تُعيد إلى سورية السكينة والهدوء وتحفظ لفرنسا كرامتها وشرفها ودمها وآمالها وما كانت تتمتع به من سمعة حسنة في الشرق كله.

تأثير الموظفين في المفوضية

وعلى ذكر هؤلاء وأمثالهم وما كان لهم من تأثير في العلاقات بين سوريا وفرنسا أقول إن الحالة بين العراق وإنجلترا لم تتحسن إلا بعد ما حصل المندوب السامي البريطاني في بغداد من حكومته على سلطة واسعة تمكنه من غل أيدي الموظفين العسكريين وكبح جماحهم ومنعهم من التدخل في ما لا يعنيهم.

وقد صرّح وزير خارجية العراق مرة للمسيو بونسو[249] الذي كان مندوبًا ساميًا لفرنسا في سورية بهذه الحقيقة في اجتماعه به في جنيف سنة 1930، فكان كأنه يعرب له بذلك عما في ضميره. وقد قال له المسيو بونسو: «كنت عازمًا على السفر الليلة إلى باريس ولكني أؤجل سفري إذا قلت مثل هذا الكلام لوزير الخارجية الفرنسية أمامي».

والحقيقة أن المسيو بونسو كان كغيره من المندوبين الساميين في سورية مغلول اليدين لا يُبرم أمرًا حتى ينقضه مساعدوه، ولا يستطيع أن ينفذ خطة غير التي يملونها عليه لاتصال كل منهم بأحد موظفي وزارة الخارجية في باريس والاستفادة من نفوذه فيها لتوجيه سياسة الحكومة إلى الغاية التي توافق مصالحه. وهذا هو سبب التناقض المدهش الذي رأيناه في سياسة فرنسا منذ دخولها إلى سوريا حتى خروجها منها.

على أن المسيو دي جوفنيل الذي كان يظن أن مجرد ظهوره في دمشق يكفي لقمع الثورة، وأنه لن يمكث في سورية أكثر من بضعة أسابيع ثم يعود منها إلى بلاده عود الفاتحين، رأى أن السوريين لم يتأثروا بفصاحته وبلاغته التأثير الذي كان ينشده، وأنهم قابلوا بابتسامة واحدة السلم الذي أعلنه عليهم والحرب التي أنذرهم بمواصلتها والمضي فيها إلى النهاية.

وقد افتتح المسيو دي جوفنيل في سورية عهد خطب وبيانات ووعود من المحتمل أنه كان حسن النية يريد أن يأتي عملًا مفيدًا، ولكنه لم يفهم الموقف على حقيقته من جهة ولم يستطع من جهة أخرى أن يتخلص من تأثير معاونيه، ولا أن يتغلب على تردد حكومة باريس وحيرتها. فلولا هذه العقبات التي اعترضت سبيله لما تعذر عليه وضع أساس صالح لمعاهدة تُعقد بين سورية وفرنسا على الأساس الذي بسطه لنا في مصر، وكان قد تناقش فيه مع بعض أعضاء الوفد السوري في أوروبا.

انقطاع الأمل في سياسة التفاهم

على أني أصبحت بعد فشل المسيو دي جوفنيل وفشل خلفه المسيو بونسو، أعتقد أنه من الصعب إن لم أقل من المستحيل الوصول إلى اتفاق مُرضٍ بين سورية وفرنسا، لأن هذين الرجلين كانا من أصدق الساسة الفرنسيين نظرًا في الأمور وأقدمهم على تفهم الحقائق، فعدم نجاحهما في مهمة كانا خير من يمكن انتدابه لها لا يترك أملًا في نجاح غيرهما فيها. ولا أعزو السبب في ذلك إلى عدم كفاءة من جاء بعدهما بل إلى عدم وجود سياسة معينة لفرنسا في سورية، وإلى تأثير أصحاب المصالح والأغراض من الفرنسيين في كل لحظة يضعها المندوب السامي أو تضعها وزارة الخارجية نفسها، وإلى وجود أفراد قلائل من السوريين صغرت نفوسهم وضعف إيمانهم الوطني فكانت مصيبة بلادهم بهم أعظم من مصيبتها بالمحتلين.

تساهل اللجنة التنفيذية

ولا يفوتني أن أذكر قبل الانتهاء من هذا البحث أن اللجنة التنفيذية للمؤتمر السوري الفلسطيني اندفعت بعامل الرغبة في السلم إلى الخروج غير مرة عن برنامجها خروجًا كاد يؤدي إلى انحلالها. والأمثلة على ذلك كثيرة أكتفي الآن بايراد واحد منها. ففي سنة 1926 دارت مفاوضات في باريس بين الوفد السوري والحكومة الفرنسية كان الأمل بنجاحها قويًا لولا قيام وزارة بوانكاره[250] فجأة وقلبها للوفد ظهر المجن وقطعها المفاوضات معه. وقد كنت حينئذ مصطافًا بالإسكندرية وكنت على اتصال بمباحثات باريس، ولكني قبل أن أعرف السبب الحقيقي في قطعها علمت بقدوم ميشيل لطف الله رئيس اللجنة من فرنسا، فعدت إلى القاهرة للاجتماع به ووجدت حين وصولي إليها دعوة من اللجنة التنفيذية إلى عقد اجتماع مستعجل. وقد خُيّل إليّ أن هذا الاجتماع سيُعقد لسماع معلومات الرئيس عن مباحثات باريس. ولكني فوجئت بعد افتتاح الاجتماع بمشروع كتاب وضعه رئيس اللجنة ليرسله إلى المسيو بونسو المندوب السامي بعد موافقة اللجنة عليه. واطلعت على هذا الكتاب فرأيت فيه اقتراحًا مقدمًا إلى المسيو بونسو باستئناف المفاوضات مع اللجنة في المكان الذي يريده وعلى الأسس التي تبدو صالحة لإيجاد حسن التفاهم بين سورية وفرنسا.

وسألت الرئيس قائلًا: «جئت إلى هنا على أمل أن أسمع منكم بيانات عن المباحثات التي دارت في باريس فإذا بي أمام سعي جديد للدخول في مباحثات أخرى. فإذا كانت مباحثات باريس أسفرت عن نتيجة فلا موجب لمباحثات جديدة، وإذا كانت قد حبطت فلا أمل بنجاح غيرها في بيروت. ولذلك أرجو قبل البحث في مشروع هذا الكتاب أن تبسطوا للجنة تفاصيل ما جرى لكم في باريس مع وزارة الخارجية».

فبسط رئيس اللجنة تفاصيل المساعي التي بذلها هو والوفد السوري وكيف أن الأمل كان قويًا بنجاحها قبل قيام وزارة المسيو بوانكاره. ثم قال: «إنني تركت باريس وليس لي أقل أمل باستئناف المباحثات فيها».

قلت: «إذا كان الاتفاق قد تعذر مع وزارة الخارجية الفرنسية فكيف يمكن الوصول إليه مع المندوب السامي؟ أنني لا أرى فائدة من الكتاب المقترح إرساله إليه».

وأصرّ رئيس اللجنة ووافق الأعضاء على وجوب إرسال هذا الكتاب إلى المسيو بونسو. ولما رأيت أن القرار سيتخذ بأكثرية الآراء قلت: «إن اللجنة لا تستطيع الدخول في المفاوضات مع فرنسا على غير أساس

الاستقلال التام والوحدة الكاملة. فاتخاذ مثل هذا القرار ولو كان بإجماع الآراء غير مشروع لأنه ينقض الأساس الذي قامت عليه اللجنة».

ودارت مناقشة شديدة لم تُسفر عن نتيجة فقلت حينئذٍ: «إذا كنتم ترون فائدة حقيقية من هذا الكتاب فأجلوا إرساله ريثما أستشير الحزب الذي أمثله في أمره. لأني لا أستطيع أن أخرج عن مبادئ اللجنة من دون استشارته على الأقل». ونهض الرئيس قائلًا: «لا يمكن التأجيل وقد تمت الموافقة على الكتاب بالأكثرية فيجب إرساله»، ثم خرج.

ورجعت إلى المرحوم نجيب شقير الذي كان سكرتيرًا عامًا للجنة وقلت له: «إنكم يا نجيب بك تنسفون اللجنة من أساسها بعملكم هذا. فلماذا هذا الإسراع؟». فأسر إلي قائلًا إن اثنين من أصدقاء المندوب السامي وصلا من بيروت أمس للحصول على هذا الكتاب وسيعودان اليوم إليها. فلا بد من الإسراع في وضعه وتسليمه إليهما قبل سفرهما.

وبعد أن تبادلنا بعض العبارات الجافة خرجت توًا إلى مكتب التلغراف وأرسلت برقية إلى رئيس اللجنة قلت فيها: «إذا أُرسل الكتاب فأنا منسحب من اللجنة». ثم اجتمعت بأصدقائي في مصر وأبلغتهم كل ما جرى في اجتماع اللجنة الأخير. كما إني كتبت إلى هيئة حزب الاستقلال العربي وإلى بعض أركانه في سورية وفلسطين والحجاز وإلى اللجنة التنفيذية العربية في فلسطين وإلى بعض زعماء الثورة في جبل الدروز بخلاصة الحوادث التي وقعت في باريس ومصر. وامتنعت عن حضور جلسات اللجنة نحو أسبوع لم أتلقَّ في خلاله ردًا على برقيتي، ولكن الكتب التي وردت عليّ من سورية وفلسطين وجبل الدروز دلتني على أنّي لم أكن مخطئًا في الموقف الذي وقفته. فقد كتب إليّ بعض زعماء الثورة يقولون إن مجرد إقدام المسيو بونسو على نشر كتاب اللجنة يؤثر في مركزهم تأثيرًا كبيرًا. وعلمت أن اللجنة التنفيذية الفلسطينية استنكرت إرسال مثل هذا الكتاب، وأبلغني حزب الاستقلال الشروط التي يجب أن أتمسك بها إذا طلب إليّ أن أعود إلى اللجنة. ولم يعرف الخلاف الذي وقع في اللجنة التنفيذية غير الرجال المشتغلين بالشؤون السياسية مباشرة. وقد لقيت منهم في مصر، كما لقيت في الخارج، كل تأييد للخطة التي انتهجتها.

وفي خلال الفترة التي امتنعت فيها عن حضور [اجتماعات] اللجنة سافر رئيسها بالطائرة إلى القدس على أثر كتاب تلقاه من المرحوم موسى كاظم الحسيني[251] للتفاهم معه في الموضوع.

وأخيرًا تلقيت من رئيس اللجنة كتابًا خاصًا يدعوني فيه إلى الاجتماع للبحث في الأسباب التي أدت إلى انسحابي من اللجنة، فلبّيت الدعوة واطلعت على كتب الاحتجاج التي وردت عليه من اللجنة التنفيذية الفلسطينية ومن زعماء الثورة، وفي مقدمتهم سلطان باشا الأطرش على ما أذكر، ومن اللجنة المشرفة على أحوال الثورة التي كان يرأسها الأمير عادل أرسلان، ومن كثيرين من زعماء وطنيين من سورية وفلسطين. وقد قلت ردًا على سؤال طرحه عليّ رئيس اللجنة التنفيذية: «إن سبب انسحابي هو مخالفتكم في كتابكم إلى المسيو بونسو للأسس التي وضعها مؤتمر جنيف وقام عليها كيان اللجنة».

– والوفد السوري لماذا تركتم له حرية الدخول في المفاوضات؟

– لأن لديه تفويضًا من الثوار، ولأنه لم يقم بهذه المفاوضات باسم اللجنة.

قال الرئيس: «لقد سألتني اللجنة التنفيذية العربية في فلسطين وسألني غيرها عن القواعد التي كانت اللجنة تريد أن تتخذها أساسًا للمفاوضات لو أجيبت عن كتابها إلى المسيو بونسو بالإيجاب، فأجبتهم بالكتب التالية». ثم تلا هذه الكتب التي سُجلت في محاضر اللجنة وفيها أن المفاوضات كان لا بد من أن تدور على أساس استقلال سوريا التام ووحدتها الشاملة.

ورأيت في هذه الكتب ترضية للمبدأ الذي كنت أدافع عنه. فقلت إني حريص على سمعة اللجنة وكرامتها ويهمني أن تزداد قوة على قوتها، فلا يتسرب الشك إلى أحد فيها. ولذلك أعود إليها بارتياح وأعد ما كان كأنه لم يكن وخصوصًا أن الذين اطلعوا على الحوادث الأخيرة قليلون وكلهم من كبار الوطنيين.

وقد ذكرت هذه الحادثة ليعلم القارئ منها مبلغ التساهل الذي بلغت إليه اللجنة التنفيذية مع الفرنسيين لحقن الدماء والوصول إلى تسوية تستطيع سورية معها أن تتنفس بشيء من الحرية. ولكن المندوب السامي ضرب بتساهلها عرض الحائط، كما فعل في جميع المساعي السلمية التي بذلت من قبل ومن بعد لأنه رأى القوة في جانبه ولأن بعض مساعديه من رجال المفوضية وضباط الجيش تغلبوا عليه واضطروه إلى الإذعان لإرادتهم.

فرنسا توسّط الملك فيصل

ولو أردت أن أسرد الحوادث التي تدل على حيرة السياسة الفرنسية واضطرابها لطال بي المقام، وحسبي أن أذكر منها واحدةً تكفي للدلالة على أن التفاهم مع الفرنسيين لم يكن ممكنًا. فقد زار المرحوم الملك فيصل باريس سنة 1926، ورأى الفرنسيون فيه خير وسيط لإنهاء الثورة في سورية. ففاوضوه في الأمر، ويظهر أنهم وصلوا في أبحاثهم معه إلى نتيجة ظن – رحمه الله – أنه يستطيع مخاطبة زعماء الثورة على أساسها، ولكنه برح باريس إلى بغداد قبل أن تقر الوزارة الفرنسية النتيجة التي قبلتها وزارة الخارجية. ولما مرّ رحمه الله بمصر، أتيح لي شرف مقابلته. فأعرب لي عن أمله بتسوية الحالة قريبًا، وقال إنه لن يصل إلى العراق حتى تأتيه برقية من وزارة الخارجية الفرنسية بموافقة الحكومة على القواعد التي تقررت بينهما، وإنه سيطلب حينئذ إلى زعماء الثورة وقف القتال ويدعو بعض الزعماء السوريين إليه للبحث في تفاصيل الاتفاق بين سورية وفرنسا. وكان موقنًا بالوصول إلى هذه النتيجة إلى حد أنه كلفني مخاطبة أصدقائي في الموضوع لكي يكونوا على استعداد لتلبية دعوته في الحال. ولما قلت له إن البرقية لن تصلك يا سيدي، أطرق قليلًا ثم قال: «هذا غير ممكن».

ولكن ما يظنه الرجل الشريف الذي يحب السلم ويقدّر مقتضيات الأحوال غير ممكن الوقوع هو الذي يقع عادة في علاقات بعض الدول الاستعمارية، ولا سيما فرنسا، مع البلدان الضعيفة التي تطمع فيها. ولا غرو فإن هذه الدول التي لا سياسة معينة لها تنهج كل يوم السياسة التي تُمليها عليها مطامع بعض صغار موظفيها غير مكترثة بالمستقبل، ولذلك يجب أن يُنتظر منها كل شيء حتى ما لا يتفق مع مصالحها الحقيقية

أو مع المنطق نفسه. فقد أوشك المسيو بونسو أن يحلّ المشكلة السورية بالاتفاق مع الوطنيين لولا المساعي التي بذلها بعض مساعديه في باريس وحملت الحكومة الفرنسية على رفض الدستور الذي أقرته الجمعية التأسيسية السورية بعد أن وضعت مواده كلها بالاتفاق مع المندوب السامي وزعماء الكتلة الوطنية. وكان هذا العمل من فرنسا الدليل الأخير القاطع على استحالة الاتفاق على أي مشروع كان حتى على الاستعمار نفسه. نعم إن الكتلة الوطنية قامت بمحاولات أخرى بعد أن تجلت لها هذه الحقيقة. ولكن هذه المحاولات كانت نتيجة اجتهاد بعض المتفائلين الذين تمكنوا مدة طويلة من حمل الجمهور على مقابلتها بالسكوت بقولهم عن كل منها إنها ستكون المحاولة النهائية.

فشل سياسة التفاهم بين سورية وفرنسا

على أن لكل شيء نهاية، وقد كان لهذه المحاولات نهاية أيضًا. فوجّه الوطنيون، في ذلك الحين، سياستهم وجهة جديدة أعدّوا عدتهم لها ورسموا خطتها بدقة وإتقان، واثقين من بلوغ النتيجة بقوة اتحاد الأمة وصبرها وثباتها.

---

(234) سامي السراج: صحافي ولد في حماه بسوريا، وخرج من دمشق بعد معركة ميسلون. عمل في الصحافة في مصر ثم في فلسطين. رجع إلى سوريا بعد معاهدة عام 1936.

(235) توفيق اليازجي: صحافي سوري، أصدر **سوريا الجديدة** في عام 1918.

(236) نجيب الأرمنازي (1897-1968): ولد في حماه بسوريا. صحافي وسياسي ودبلوماسي، درس الحقوق في باريس. تقلب في مناصب حكومية عدة. كان مندوب سوريا إلى اللجنة التحضيرية للأمم المتحدة في عام 1945. له العديد من المؤلفات القانونية وله مذكرات.

(237) ميشيل لطف الله: رئيس المؤتمر السوري - الفلسطيني الذي عُقد في جنيف في عام 1921. كان يبذل من ثروته في سبيل القضية السورية، وكان طامحًا إلى يصبح ملكًا على سورية.

(238) عبد المحسن الكاظمي (1871-1935): عالم وشاعر عراقي، عاش في مصر، وصادق الأمام محمد عبده. له العديد من المجموعات الشعرية.

(239) حامد الوادي (1898-1966): ولد في بغداد. التحق بالكلية العسكرية في اسطنبول، وانضم مع والده إلى الثورة العربية. التحق بالملك فيصل في العراق، ثم خدم الأمير عبد الله في الأردن. شغل منصب رئيس الديوان الأميري.

(240) عادل النكدي (1891-1926): كاتب وحقوقي. درس في بيروت وفي لوزان. كتب الكثير عن الثورة في صحف فرنسا. التحق بالثورة السورية واستشهد.

(241) حمد البربور (1888-1925): أحد المقربين من سلطان باشا الأطرش. من أعضاء جمعية «العربية الفتاة». شارك في الثورة السورية واستشهد في هجوم شنّه على القوات الفرنسية.

(242) حكمت العسلي: من ثوار دمشق، شارك في الثورة السورية الكبرى واستشهد عام 1926 في معركة جباتا الخشب في الجولان.

(243) صالح قنباز (1887-1926): ولد في حماه. درس الطب في دمشق واسطنبول. أسس النادي العربي في حماه. وكان يشارك في الثورة من خلال معالجة الجرحى. استشهد في عام 1926.

(244) حسن الخراط (1861-1925): أحد الأسماء التي برزت في دمشق إبان الثورة السورية. استشهد في كمين نصبه الفرنسيون.

(245) هنري دي جوفنيل (1876-1935): المفوض السامي الفرنسي في لبنان وسوريا (1925-1926). تمت في عهده المصادقة على الدستور اللبناني.

(246) خير الدين الأحدب (1894-1941): ولد في بيروت ودرس في فرنسا. أسس صحيفة **العهد الجديد** في عام 1925. انتخب نائبًا في البرلمان اللبناني وترأس الحكومة في عام 1937.

(247) مظهر البكري: درس في الجامعة الأميركية في بيروت، وشغل منصب سفير سوريا في البرازيل. من عائلة البكري التي اشتهر أبناؤها خلال الثورة العربية والحياة السياسية السورية، وهو شقيق نسيب وفوزي.

(248) معاهدة لوكارنو (1925): اتفاقية متعددة الأطراف وقّعت في مدينة لوكارنو في سويسرا بين فرنسا وبريطانيا وألمانيا لتطبيع الوضع بعد الحرب العالمية الأولى، وتأكيد نتائج معاهدة فرساي.

(249) هنري بونسو (1877-1963): دبلوماسي فرنسي، المفوض السامي الفرنسي (1926-1933).

(250) ريمون بوانكاريه (1860-1934): محام ورئيس فرنسا (1913-1920)، قاد بلاده خلال الحرب العالمية الأولى.

(251) موسى كاظم الحسيني (1853-1934): زعيم الحركة الوطنية الفلسطينية، درس في اسطنبول وتقلب في مناصب إدارية عدة، منها متصرف في الأناضول ونجد وعسير. بعد خروج الأتراك، انتخب رئيسًا لبلدية القدس. وانتخبه المؤتمر العربي الفلسطيني رئيسًا في عام 1920. بقي في هذا المنصب حتى وفاته متأثرًا بإصابة خلال تظاهرة يافا سنة1933.

الفصل العاشر
في بغداد

رحلتي الأولى إلى العراق

لم تكن فكرة القيام برحلة إلى العراق حديثة عهد في نفسي، ولا وليدة طارئ أو مفاجئ، وإنما كانت بنت زمن يرجع أقله إلى عشرين سنة خلت، وأكثره إلى زهاء ثلاثين. كنت في عاصمة العثمانيين قبل الحرب العامة، وكان لي فيها أصدقاء وإخوان كثيرون منهم عراقيون، يحدثني هذا عن البصرة «قبة الإسلام» كما كانت تُدعى، ويذكر لي أنها العربية بنيانًا – وقد أنشئت في عهد الخليفة عمر – وينوه بما كان لها من شأن حفظه التاريخ وعفت آثاره العصور. ويحدثني ذاك عن جنات الموصل وأوديتها وجبالها، وما لدجلة من أثر في خصبها وجمالها، وينتقل الحديث إلى دار السلام – والقول في وصفها يطول – فأحس بخوالج ونوازع تحوم حول تمني زيارة العراق ومن في العراق. وما كانت يومئذ طائرة ولا سيارة تقربان البعيد، وتدنيان النائي. فكنت أطوي اللهف وأتعلل بالخبر عن الخبر وأقول لعل الله يُحدث بعد ذلك أمرًا. وأويت إلى مصر عام 1920 مقيمًا غير مُفكرٍ في رحيل. وإذا بجماعة من أصدقائي زعماء العراق يدعونني إلى سكناه دعوة إصرار وإلحاح. فاعتذرت وأكاد أجيب بنعم لو جاريت هوى النفس وملت حيث تميل.

ومضت سنون ولي فيها المرحوم الملك فيصل بن الحسين عرش العباسيين، وضعفت آمال عقدت على سوريا وفلسطين، وحارت أنظار الأحرار في القبلة التي يجب أن يكون إليها الاتجاه، لجعلها محورًا لقضية العرب. وتقدم العراق خطوات عاجلة ثابتة في سبيل استقلاله، أعانه عليها وضعه السياسي وبسالة أبنائه، وثروته الكامنة في ذرات رماله وقطرات ينابيعه وأنهاره.

وقربت المسافات بين النيل ودجلة بتوسط بردى في طريق السيارات، وبانتظام الطيران بين عاصمة الديار المصرية وعاصمة العراق العربي، فعاودتني الفكرة في صيف 1930. وعلم بما في نفسي بعض أصدقائي في بغداد فجعل كل منهم يدعوني إلى النزول ضيفًا عليه. وأوشكت أن ألبي الدعوة ولكن الشواغل حالت بيني وبين ما أبغي فقلت صبرًا جميلًا.

ومرّ الوفد العراقي بمصر سنة 1931، في طريقه إلى الحجاز لمفاوضة حكومتها في عقد معاهدات الصداقة وحسن الجوار والتحكيم وتسليم المجرمين. ففاتحني بعض أعضائه بالرغبة في أن أصحبهم إلى جدة على اعتقاد أن وجودي فيها ربما يساعد على التقريب بين الحكومتين بوساطة أصدقاء لنا في مكة يشاطروننا الشعور وإرادة الخير للعرب والعروبة. وأبرق وكيل الحجاز في مصر إلى حكومته بذلك ولكن حائلين أقعداني يومئذ عن مبارحة مصر: أحدهما تغيب بعض الأصدقاء عن مكة في ذلك الحين وهو من المؤثرين في سياسة الحجاز. والثاني ترجيحي أن تكون الرحلة – إذا استطعتها – إلى العراق قبل سواه لأن عملي في **الأهرام** لا يمكنني من القيام برحلتين في وقتين متقاربين، ولا أحب أن تحين الفرصة للرحلة وأضيّعها في غير زيارة أصدقائي في بغداد والارتشاف من معين دجلة.

على أني لم أقصد من زيارتي العراق في سنة 1931، ما كنت أقصده لو تيسرت لي زيارته قبل ذلك بسنين. فبعد ما رأيت يد الأجنبي قد امتدت إلى تراث العرب وانتزعته بقوة المدفع والسيف، ورأيت الاستعمار على نوعيه المقنع والصريح، ضاربًا أطنابه في كل بقعة من بقاع الوطن العربي العزيز، لم يعد يهمني أن أشاهد خصب التربة أو جمال المناظر أو آثار الماضي أو شيئًا آخر مما يتعلق بالأرض التي أصبحت أعدها لغير أهلها. بل صرت أتوق إلى أن أعرف هل في روح الأمة التي تعيش على سطحها، الأمة التي لم يتزعزع اعتقادي بأنها حيّة خالدة، ما يعزز الأمل الوحيد الذي أحيا من أجله وهو أن أراها قبل أن يغمض الموت جفنيَّ متحدة مستقلة، تسير في مضمار الحضارة جنبًا إلى جنب مع الأمم الراقية.

رأيت في سورية، ورأيت في فلسطين، وسمعت عن نجد والحجاز واليمن وغيرها من الأقطار العربية ما يعزّز الأمل في مستقبل كان يهمني أن أستعجله لو استطعت إلى ذلك سبيلًا، فقلت عسى أن أجد في العراق من يقظة شعبه، وصدق وطنيته، ومزايا سكانه، وذكاء زعمائه ما يعللني بأن أرى في حياتي تحقيق هذه الآمال العزيزة. وعلى ذلك وطدت العزم على زيارة العراق لرؤية شعبه الذي أحببته، وكدت من زمن بعيد، كما يعرف جميع أصدقائي، أعقد عليه أعظم الآمال في تحقيق استقلال العرب ووحدتهم، فذهبت إلى بغداد لهذه الغاية ولها وحدها.

الاستعداد للسفر

قال لي جبرائيل تقلا[252]، صاحب **الأهرام**، وقد كاشفته بشوقي إلى زيارة العراق: «أتمكث أكثر من أسبوعين إذا قمت برحلتك؟». فقلت: «إذا ذهب ما في الجيب عدت قبل إنقضاء الأسبوعين».

فقال: «وإذا دعوتك أن تكون ضيفًا على **الأهرام** في بغداد؟».

قلت: «شكرًا يا سيدي، ولكن هذا اللطف قد لا يروق كثيرين من أصدقائي هناك».

قال: «إذن ستكون ضيفًا على **الأهرام** في الطريق»، ثم تناول سماعة التليفون وطلب شركة الطيران وحجز لي مكانًا للذهاب والإياب في الطيارة. فكنت مدينًا له بألذ ساعات حياتي، أعني الساعات التي قضيتها في الجو بين مصر وبغداد، وبغداد ومصر، فحق له عليّ جزيل الشكر. وإذا كان كتابي هذا الذي يعود معظم الفضل فيه إليه لا يستحق أن يشاركني القراء في شكره عليه، فإن ما له من الأيادي البيضاء على نهضة العرب من وجهتيها الأدبية والسياسية، وعلى الصحافة العربية التي تسير **الأهرام** في مقدمتها، جدير بشكر الناطقين بالضاد في كل صقع وناد.

وعاد وفد العراق من الحجاز فقابلت أعضاءه وسرّهم إزماعي زيارة بلادهم، وسألتهم عما أحتاج إليه، فأشاروا بأن أملأ حقيبتي ثيابًا بيضاء كمباذل الملائكة، ولم يكن عندي من البياض غير بياض القلب، فابتعت ما أشاروا به علي: سموكنج من لون القطن و«بدلات» ناصعة البياض وأحذية وجوارب وربطات رقبة بيضاء وغير ذلك مما لم أحتج إليه في بغداد لأن الجو فيها لم يكن أشد حرارة منه في القاهرة.

في مطار هليوبوليس

بكرت يوم الجمعة في 24 أبريل [نيسان] سنة 1931، إلى مطار هليوبوليس[253]، واستعرضت ما هنالك من طائرات كأنني أنتقي إحداها - هذه صغيرة يتلاعب بها الريح لا أركبها - وهذه كبيرة أظنها تهيأ لسفر أبعد من بغداد. وهاتيك متوسطة الحجم لعلها هي، ولماذا لا أسأل؟

سألت عن طائرتي موظفًا بريطانيًا - وكأنه فهم من إشارتي واهتمامي أن هذه أول رحلة لي في طائرة فابتسم، ولو لم يكن بريطانيا لقهقه - وقال: «طائرتك لا تزال في الجو فانتظرها».

وتكاثرت الطائرات «على خراش» في ذلك اليوم، فكنت أعدو من أول المطار إلى آخره لأسأل عن الطائرة القادمة. «هل هي لي»؟ فلا أكاد أجاب بلا حتى أعود إلى الوراء مسيرة كيلو متر لأسأل عن قادمة ثانية. وهكذا قضيت الوقت قبل الظهر وقليلًا مما بعده ذاهبًا آيبًا أتحرى وأسأل في ميدان المطار الفسيح.

في الطائرة

نظرت إلى الساعة فإذا هي الثالثة بعد الظهر وأمامي طائرة اسمها «مدينة كراتشي»، ذات محركين وثمانية مقاعد عدا مقعدي السائق ومساعده في المقدمة. وقد حام حولها ثلاثة من الإنجليز حزرت أنهم رفاقي في هذه الرحلة، وصدق حزري.

وقيل لنا اصعدوا فقفزت قفزة خبير – وكنت قد مرّنت ساقي على صعود سلم الطائرة في هذا النهار الطويل – وأسرعت إلى مؤخرها فاخترت الكرسي الذي يقابل الباب لأن صديقًا لي من الذين ألفوا الأسفار الجوية قد أشار عليّ باختياره لكي لا يحجب عني جناحا الطائرة شيئًا من المناظر. وابتدأ أزيز المحركات في الساعة الثالثة والدقيقة السابعة بعد الظهر.

كنت حريصًا على أن أدخر في نفسي وأسجل في مفكرتي كل حركة أشعر بها من ابتداء الركوب إلى اهتزاز الطائرة الأول إلى ارتفاعها فتحليقها في الجو ثم هبوطها. وذلك لأن بعض إخواني ممن لم «يوفقوا» حتى تلك الساعة – مثلي – إلى امتطاء طائرة أرادوا أن أصف لهم «دقائق» الطيران وجلائله. فليكن لهم ما أرادوا. وها هي الورقة في يساري والقلم في يميني وعيناي في النافذة وسوف أرى كل شيء وأدوّنه.

أيطول الانتظار والطائرة تزحف على الأرض؟ إنني في سيارة إذن لا في طائرة وصحراء المطار ألا تنتهي؟ لقد اجتزتها على قدمي مرات اليوم.

ولكن ما هذه البيوت الصغيرة التي يصنعها الأطفال للتلهي؟ إنني لم أرها في المطار.

فوجئت بالخيبة الأولى في رحلتي هذه حين تبيّنت أن تلك البيوت الصغيرة إنما هي مدينة هليوبوليس وقد فاتني إدراك حركة ارتفاع الطائرة مع شدة تحديقي في الأرض ومحافظتي على الورقة والقلم. فليعذرني من طلب مني وصف ذلك. ويُخيّل إليّ الآن أن الطائرة انتقلت من الأرض إلى الجو كما تنتقل السيارة الفخمة من شارع تكثر فيه الحفر إلى شارع رُصف بالأسفلت. وكانت حركتها في الجو كحركة المصعد «الأسنسور» أو كحركة الزورق في بحيرة صغيرة هادئة.

لم أتمكن من إطالة النظر إلى هليوبوليس لأن الطائرة كانت قد ارتفعت في الفضاء وانطلقت انطلاق العاصفة. وغابت مناظر العمران عن عيني، وبالغت في تقدير ما بلغناه من ارتفاع عظيم في طبقات الجو لأني ولا أكتم، قد تهيبت الموقف فحولت نظري إلى أجنحة الطائرة متشاغلًا برؤيتها وهي تهتز على نغمات الحركات، ثم أدركتني نفحة من الشجاعة فقلت: «ماذا يحدث لو عدت إلى النافذة، فأجيل الطرف فيما بيني وبين البسيطة من أميال كنت أقدرها بالمئات، يجب أن أعرف في أي تيار نسبح من عالم الفضاء».

نظرت من النافذة وأطلت، فلم أرَ ما بين الطائرة والأرض أكثر من ذراعين أو مترين. وكانت الصحراء بساطًا ممدودًا خُيّل إليّ أني لو ألقيت بنفسي عليه لما سقطت على غير ما يُشبه الحرير نعومة. وفي ذلك البساط الحريري نقوش وطيات بديعة، تلك النقوش أعشاب الصحراء وتلك الطيات كثبانها.

لقد خانني بصري وجهلت أن المرتفع في الجو لا يستطيع أن يعرف مسافة بعده عن الأرض إذا كان فوق سهل أو بحر بل يتوهم أنه يسير على ارتفاع أمتار قليلة لعدم وجود جرم يعرف علوه ويتخذه أساسًا للقياس، كالبيت أو الباخرة أو ما شاكلهما.

والحقيقة إني لم أشعر بأننا نسير على ارتفاع عظيم إلا بعد أن حلّقت «مدينة كراتشي» فوق مدينة الإسماعيلية. ولم أعد أحسب المنازل من «بيوت الأطفال» كما ظننتها وأنا في سماء هليوبوليس. وقد كان منظر الإسماعيلية من الجو أعجب منظر رأيته في حياتي: دور كأنما هي خطوط مر بها رسام على قرطاس، اتسقت سطوحها وتساوت زواياها وتناسقت شوارعها وميادينها وأحاطت بها أشكال هندسية ملونة لولا العلم بأن هناك بحيرة وحدائق وأزهارًا ومزروعات لما خامرني شك في أنني أنظر إلى صورة لُوِّنت بالزيت: فمن مثلث أحمر إلى مربع أخضر إلى أشكال أخرى مختلفة الألوان لا ينتهي منها حسن حتى يلوح أحسن.

يعلو الإنسان في حياته النفسية فيرى جمال الحياة، وكلما ازداد إمعانًا في الصعود وترفعًا عن أدران العالم المنحط ومعايبه زاد احتجاب تلك الأدران والمعايب عن عينيه حتى إذا ما تناهى في الارتفاع نسي ما خلّف في الحضيض النائي عنه. كذلك حياة المادة والأشكال والصور يختفي المشوه منها بقدر البعد عنها. أما قناة السويس فكانت أشبه بجدول صغير دقيق أزرق.

وها نحن فوق البحر بين فضاء السماء وعباب الماء. وها هي صحراء سينا بل أين نحن؟ إنني أنظر من النافذة اليمنى نظرًا عاموديًا إلى الأرض فإذا أنا فوق الرمال، فأطل من النافذة اليسرى فلا أرى غير زرقة البحر. أترى الطائرة قد ساوت بين المتجاورين فأبحر شطر منها وأصحر شطر؟

دام هذا المنظر نحو عشر دقائق كان يُخيّل إليّ في خلالها أن الطائرة لو سقطت لوقع نصفها في الصحراء ونصفها في الماء. ثم غاب مشهد البحر، وبدت واحة صغيرة أخذت تكبر كلما اقتربت الطيارة منها وقد انحدرت إليها فبلغتها في الساعة الرابعة والدقيقة الخمسين بعد الظهر وهي ساعة وصولنا إلى مطار غزة.

في مطار غزة

حف بي خدم المطار في غزة، وكلهم من العرب، وكأنهم أنِسوا بي لقلة من يرون من الطائرين الشرقيين.

وأقبل أحدهم يهنئني ويثني على قائد الطائرة ويصفه بالإقدام قائلًا إنه «كثير جراعتلي» أي (جريء جدًا). والحقيقة أن القائد كان جديرًا بهذا الوصف، وحريًا بأن تُضاف إليه صفة الخبرة والمهارة أيضًا لأن الجرأة وحدها ليست مزية بل تكون ضربًا من التعرض للهلاك إذا لم يصحبها العلم والاختبار ثم التمهر.

وفي غزة فندق أو شبه فندق لا بأس به، وهو تابع لشركة الطيران، تناولنا فيه طعام العشاء ونمنا تلك الليلة. ونهضنا فجر اليوم التالي 25 أبريل [نيسان] فتبوأنا مقاعدنا من الطائرة قبيل الساعة الرابعة وانبعث نور من المطار ظل ممتدًا في اتجاه سير الطائرة مسافة بعيدة فبرحنا غزة والساعة تدق أربعًا والناس نيام.

إلى بغداد

اجتزنا البحر الميت من جنوبه الغربي إلى شماله الشرقي في نحو خمس دقائق. وكنا قد بلغناه بعد أربعين دقيقة من توديعنا مطار غزة. وبدت لنا في الساعة الخامسة أشباح عمران تجاورها بركة ماء كبيرة أظنها «الأزرق» أول ملجأ أوى إليه أباة سوريا ومجاهدوها في ثورتهم على بغي الغرب.

ومضت ثلاث دقائق بعد الساعة الخامسة فرأيت أشعة الشمس تلقي على أجنحة الطائرة تحية الصباح، ونظرت إلى الأرض فإذا الظلام لا يزال باسطًا رواقه عليها. فأدركت ما بيننا وبينها من شاسع. وخُيِّل إليّ في الدقيقة العشرين بعد الخامسة صباحًا أننا تجاوزنا عمران شرقي الأردن إذ لم نعد نرى غير رمال الصحراء.

ولا أوّد أن تفوتني الإشارة هنا إلى ما أحس به نظري من الفرق بين الصحارى الثلاث: صحراء مصر وصحراء سينا وصحراء سورية والعراق. فقد كانت الأولى باسمة فيها كل البهجة، وكان في الثانية شيء من العبوس. أما الثالثة فقاتمة مربدة مخيفة. ولعل سبب ذلك كثرة ما يسمونه (الصرار) وهو حجارة من الصوان يضرب لونها إلى السواد تغطي جانبًا كبيرًا من تلك السهول.

ترى أين نحن؟ في الساعة الخامسة والدقيقة 32 كنا نمر بمستنقع أو شبه بحيرة تحيط بها أرض بيضاء كالملح وإلى الشمال جبال. واستمرت المناظر متشابهة متشاكلة إلى الساعة السابعة والدقيقة 22 فرأيت عن بُعد بحيرة أو لعلها نهر بل لعلها سراب.

وفي الدقيقة 45 بعد السابعة أراني المنظار قافلة ثم ماشية ثم بحيرات ماء كدرة، وأخال كدورتها لأن السماء قد أمطرت قبل وقت يسير.

وفي الثامنة مررنا بكثبان من الرمال قامت على أشكال هندسية جذابة بعضها هرمي والآخر بين مثلث ومربع.

وقد وصلنا إلى مطار الرطبة على مقربة من الحدود العراقية السورية في الساعة الثامنة والدقيقة الثانية والعشرين.

في أرض العراق

لا أستطيع أن أصف شعوري حينما وصلنا إلى الرطبة. فقد خَيّل إليّ أني وصلت إلى بلدي بل إلى بيتي مع إني غريب عن العراق ليس لي فيها أهل ولا سكن، ولم تطأ قدماي أرضها من قبل ولا عرفت عنها غير ما قرأته وسمعته.

فلماذا هذا الشعور إذن؟ لقد حاولت أن أكتشف سببه، فجعلت أفكر فيه وأنا أسير ذهابًا وإيابًا في المطار. وقد خُيّل إلي في آخر لحظة أني اكتشفته، فقلت في نفسي: «من الطبيعي أن أشعر بأني في بلدي، حينما أكون في بلد إخواني وأصدقائي هم أصحاب الشأن فيه، هم في الحكومة وهم في المعارضة وهم في الجيش والصحافة والأدب والتجارة والصناعة والزراعة وفي جميع ميادين العمل والنشاط». ولكني ما لبثت أن عرفت خطأي ورجعت عنه، فقد تخيلت أنهم غير موجودين في بغداد وإني لا أقابل فيها أحدًا من الذين أعرفهم. ثم بحثت في أعماق قلبي عما يكون شعوري في هذه الحالة، فوجدت أنه لم يتغير وأنه شعور رجل عائد إلى أهله وبيته مدفوعًا بعامل الشوق الشديد بعد غياب طويل.

ما أجمل حب الوطن وما أشد تأثيره في النفوس. إنه يفعل فيها فعل الغرام في نفس العاشق المتيم، بل قد يكون أشهى وألذ، وكما أن العشيقة ليست في ملابسها وحليها ومظاهرها بل في روحها وعواطفها وفضائل نفسها وجمال خُلقها وخَلقِها، كذلك الوطن ليس هو الجبل ولا النهر ولا البلد ولا الفقر بل هو كيان معنوي مؤلف من جماعات متجانسة تجمع بينها وحدة الآمال والأماني والعادات والتقاليد والأخلاق والمصالح واللغة والتاريخ. فإذا ما وجد الانسان بلدًا تربطه بسكانه كل هذه الروابط فهذا البلد هو وطنه، سواء وُلد في هذه البقعة منه أو في تلك، وسواء كان سكنه هنا أو هناك أو لم يكن له فيه دار ولا سكن.

نزلنا في الرطبة واشتركنا في توديع الطائرة «سيتي أوف دلهي»، وقد وصلت من بغداد في طريقها إلى مصر، ثم تناولنا طعام الصباح، وقيل لي إن في تلك المحطة تلغرافًا «لاسلكيًا»، فأسرعت إليه وحييت بعض أصدقائي في بغداد. وفي مطار الرطبة مخفر عراقي كان طليعة ما رأيت من جيش العراق المنظم. وفي ذلك المطار سألني إنسان: «متى خرجتم من غزة؟». فقلت: «منذ أربع ساعات ونصف». فهز رأسه قائلًا: «لقد اجتزت أنا هذه المسافة على الجمل بشهرين».

ودعنا الرطبة في الساعة الثامنة والدقيقة 55، فطرنا فوق أرض لا زرع فيها ولا إنسان. وبدت لنا بحيرة الحبانية في الساعة الحادية عشرة. واستدللنا برؤية منطقة خضراء على أننا دخلنا العمران في الساعة 11 والدقيقة 35، وكان جملة ممن «طار» بي إليهم الشوق ينتظرونني في محطة الطيران ببغداد، أقبلت عليهم وأقبلوا علي للسلام في الساعة الحادية عشرة والدقيقة 40 من صباح يوم السبت 25 أبريل [نيسان] سنة 1931.

وأخبرني أحد إخواني بأنه قد حجز لي غرفة في «كارلتون أوتيل» ولكن الآخرين فضلوا أن أنزل في «زيا أوتيل» لأنه أهدأ، فانصرفت إليه معهم. ولا يزال في نفسي أن أذكر ثلاثة أمور عن الطائرة وأعد القارئ بألا أطيل:

1 – كان الحديث فيها لا يُسمع لشدة دوي المحركات، فاستعان ركابها بأقلامهم فنابت الرسائل مناب التخاطب.

2 – بلغ من مهارة الطيار – ويؤسفني أني لم أدون اسمه في مذكرتي – أنه لم يدعنا نشعر بشيء من اهتزاز الطائرة بحيث لم تكن تفرق بين ارتفاعها وهبوطها أو إسراعها وبطئها، فلو أردت أن أتخيلها «ثابتة» في الفضاء غير متحركة حتى في الصعود والانحدار لصح الخيال، ولعل لحالة الجو في ذلك اليوم البديع شأنًا في ذلك.

3 – ألذ الدقائق التي قضيتها في الطائرة كانت في سماء شرقي الأردن حيث بقينا مدة في جو صاف فوق الغيوم المتكاثفة التي كانت تحجب الأرض عن أنظارنا. ولو كان ذلك اليوم من الأيام الممطرة لربما تمتع سكان الطائرة بشمس الصيف بينما سكان الأرض لاجئون في منازلهم فرارًا من العواصف والأمطار.

ولما ابتعدنا من منطقة الغيوم ودخلنا الصحراء أطللت من النافذة فأبصرت ثلاثة طيور كبيرة أظنها نسورًا أو عقبانًا تسير تحت الطائرة وعلى مسافة عشرين مترًا منها، وتحاول أن تجاريها في سرعتها. ولكن هيهات لها ذلك فلم يمض على هذا السباق دقيقة حتى أصبحت الطيور وراءنا لا تُرى إلا بالمنظار.

ماذا رأيت في العراق

رأيت في العراق نهضة حياة: في شبابه وعمرانه وسياسته واجتماعه وحضارته. ورأيت فيه يقظة روح في معارضته وحكومته وذوده عن حقوقه وتلمسه مطالع النور في مستقبله.

ورأيت في شعبه جدة انتعاش في أدب وتفكير وخطط وخطى.

شعب شجاع متحمس جبار.

شوق إلى السبق في الحضارة. وطنية كالبركان المتفجر. ذكاء فطري.

أدب في الحديث. وصدق وأمانة لا فضول ولا ازدهاء.

حرية في كل ما أباحته النظم. وديمقراطية لا تكلف فيها.

إباء. شمم. صراحة. حدة ذهن. حب في المطالعة. إقبال على الدرس.

شبان العراق يعرفون كتّاب العرب جميعًا ويتابعون أخبارهم وآثارهم.

رأيت حوذيين يتخاصمان فأصغيت إلى ما يقولان فكان أشد ما قاله الأول: «يا غاتي يا عيوني هو أنا شتمتك مع أنك أهل للشتيمة». وكان أشد ما أجابه به الآخر: «يا غاتي يا عيوني الشتيمة أنت أهل لها». ولفظ (غاتي) أصله (أغاتي) أي «سيدي».

وطعن عامل عراقي مزارعًا في إحدى مزارع الملك بخنجر. والملك قريب منهما. وكان السبب أن المزارع – وهو غير عراقي – أراد إظهار الاهتمام بالعمل حينما رأى الملك فصاح بالعامل قائلًا: «اشتغل، اشتغل يا ابن الكلب». ولم يحتملها العامل العراقي فترك معوله وأستل خنجره. وبعد ما شفي المزارع رحل من

العراق.

وكنت مرة في قصر الحارثية وقد استقل الملك سيارته وتبعته أنا في سيارة أخرى مع تحسين قدري عائدين إلى المدينة، فلما وصلنا إلى الكوبري (الجسر) القائم على مقربة من القصر وقفت سيارة الملك فجأة حتى أن سيارتنا كادت تصطدم بها فاطللت من النافذة لأرى ما السبب، وإذا بقطيع من الماشية يغطي الجسر كله وقد سد الطريق وعجز الرعاة وعددهم أربعة أو خمسة عن إفساح المجال لمرور سيارة الملك. وكان أول ما خطر في بالي أن رجال البوليس المرابطين على ذلك الجسر القريب من القصر الملكي سيشنون غارة شعواء على الماشية والرعاة ويقذفون بهم عن «الكوبري» أحياءً أو أمواتًا. وأردت أن أرى هل يكتفي البوليس في مهمته هذه بالحراب أم يستعمل البندقيات ويستنجد بالمدافع فنزلت من السيارة لأشرف على هذه المعركة عن كثب. ولكن ماذا رأيت؟ رأيت أحد رجال البوليس يشير بيده إلى سيارة الملك بوجوب الوقوف بينما زملاؤه الآخرون ينضمون إلى الرعاة ويساعدونهم في سوق الماشية لتسرع في اجتياز (الكوبري). وقد أعجبت بمنظر نفر البوليس وهو يأمر السيارة الملكية بالوقوف، وبمنظر زملائه يتحولون إلى رعاة لتسهيل حركة المرور. ولما عدت إلى مقعدي في السيارة لم أكتم عن تحسين قدري سروري ودهشتي من هذا الحادث الذي لم أتعود أن أرى مثله.

فأجابني تحسين بصراحة قائلًا:

– وهل تعتقد أن في الإمكان انتهاج غير هذه الخطة في العراق؟

– كنت أتوقع أن ينهال رجال البوليس بعصيهم الغليظة على رؤوس الرعاة والماشية.

فقاطعني تحسين قائلًا وهو يبتسم:

– أنت تعرف سيدنا (الملك فيصل الأول) وديمقراطيته. ولكني أؤكد لك أنه لو لم يكن كما تعرفه لما استطاع أن يكون كما تقول. فالعراقي حريص على كرامته الشخصية لا يتساهل فيها مع أي كان، وهو لا يقيم على الضيم ولا يصبر على الإهانة القريبة (وأشار بيده نحو الشمال). إن فتى في الثانية عشرة من عمره رمى دجاجة فكسر ساقها فجيء به إلى مخفر البوليس ورأى الضابط أن ما فعله لا يستحق أكثر من التأنيب فأنّبه وطرده مهددًا إياه بالسجن إذا عاد إلى مثل ما فعل. ومنذ ذلك التاريخ إلى قبل أسبوع والعرائض تنهال على مديرية البوليس ووزارة الداخلية والبلاط الملكي بالشكوى من هذا الضابط. ولما رأى الفتى أن شكواه لم تسفر عن نتيجة – لأن ولاة الأمور اعتقدوا أن الضابط لم يفعل شيئًا يستحق عليه اللوم بالنظر إلى صغر سن المشتكي – جمع أقرباءه وأصدقاءه في الأسبوع الماضي وهجموا على الضابط وأوسعوه ضربًا ولكمًا. فشعب يكون صغاره على هذا الشكل لا يُمكن أن يُعامل بغير هذه الطريقة. إلى جانب هذا وما شاكله قد أكون مخطئًا في بعض ما أذكر، ولكني أحرص على أن أكون صريحًا في القول، وصديقك من صدقك لا من صدّقك.

في العراق سرعة قنوط، شبانه يميلون إلى الشتائم، ينظرون إلى المستقبل في ابتسام. كأن على عيني كل منهم نظارتين إحداهما بيضاء يرى بها العالم والأخرى سوداء يرى بها بلاده. ينكرون على شعبهم مزاياه

وفضائله ويجسّمون هفواته وزلاته. يريدون رقي الطفرة في حالهم الاجتماعية ولا يؤمنون بالصعود التدريجي.

أعظم ما رأيت حينئذٍ في العراق نهضة في العلوم والآداب ونهضة في الصناعة والزراعة ونهضة في الجيش. ولكن أهله القائمين بكل هذه النهضات يعيبون عليه تقصيره في العلوم والآداب والصناعة والزراعة ووسائل الدفاع.

سمعت بعض شبان العراق المتعلمين يتحدثون بأن بلدهم لم تزل دون ألمانيا وأميركا وإنجلترا وفرنسا رقيًا، ويتمنون بلهفة وشوق لو استطاعوا إلى المهاجرة منها سبيلًا.

دعاني صديق لي في بغداد إلى زيارة طاق كسرى[254]، وأراد مبالغة في تكريمي أن يستصحب شابًا خبيرًا بالآثار القديمة كان يشغل منصبًا كبيرًا في المعارف. ومررنا في طريقنا بوزارة الخارجية فاستأذنت بضع دقائق لمقابلة عبد الله الدملوجي الذي كان يتولى هذه الوزارة حينئذٍ. وقد وجدت على مكتبه مجموعة من المعاهدات التي عقدتها الدولة العراقية الجديدة فأخذتها وعدت إلى السيارة التي كان صديقي ينتظرني فيها مع صاحبه. وقد وضعت المجموعة في السيارة وجلست فوقها وسرنا في طريق ديالى. وما كدنا نخرج من بغداد حتى ابتدرني صاحب صديقي قائلًا: « هنا – وقد أشار إلى منطقة تبدأ عند آخر بيوت بغداد – سيُنشئ الإنجليز مطارًا جديدًا بدلًا من مطارهم الحالي بمقتضى المعاهدة التي عقدها نوري السعيد».

قلت: «سيكون لهم بمقتضى هذه المعاهدة ثلاث [ثلاثة] مطارات اثنان غربي بغداد وواحد في الجنوب».

قال: «وآخر هنا أيضًا».

قلت: «اطلعت على المعاهدة وحدثني نوري السعيد عن تفاصيلها ولا أذكر أني قرأت أو سمعت أنه سيكون لهم مطار في بغداد».

- نوري لم يُصدِقْكَ القول.

- ولكني لا أذكر أني قرأت ما تقوله في المعاهدة، فهل لها ذيول؟

- لا ليس لها ذيول سرية ولكنها كما قلت لك.

ولم يخامرني شك حينئذٍ في أن نوري تعمد عدم الإشارة إلى هذا المطار. وإني لم أفطن لما ورد بشأنه في المعاهدة وذلك اعتمادًا مني على صحة معلومات محدثي فَسَكَتُّ وغيرتُ الموضوع.

وبعد أن زرنا طاق كسرى عدنا إلى السيارة فأخذت مجموعة المعاهدات بيدي وجلست مكانها ثم جعلت أقلب فيها بدون انتباه. فكان أول ما وقع عليه نظري فيها البند الخاص بالمطارات البريطانية، فقرأته وأعدت قراءته مرة بعد مرة وأنا لا أكاد أصدق ما أقرأ لعظم ثقتي برفيقي، ولأنه لم يخطر في بالي أن رجلًا متعلمًا يبحث في معاهدة يتوقف عليها مصير بلاده من دون أن يقرأها. ثم التفت إليه وقلت:

- هل هذه المعاهدة مزورة؟

– لا.

– إذن أرني أين هي المادة التي تقضي بأن يكون للإنجليز مطار عسكري في بغداد؟ فتناول المعاهدة مني وجعل يتصفحها ثم قال:

– لا توجد مادة كهذه.

– ولماذا ذكرت لي أنها موجودة؟

– كنت أظن ذلك.

ولم أستطع حينئذٍ أن أضبط نفسي فقلت:

– كيف كنت تظن ذلك؟ وكيف تعقد معاهدة بمثل هذه الأهمية ولا تقرأها؟ وكيف تبحث عنها مع صحفي كان يمكنه أن يثق بكلامك ويبني عليه معلوماته؟ إن هذا كثير من رجل متعلم مثلك يشغل مثل مركزك.

وزارني مرة صحافي فسألني:

– ما هو رأيك في المعاهدة التي عقدها نوري السعيد؟

قلت:

– لم أقرأها جيدًا، فما هو رأيك أنت وما هي النسبة بينها وبين مشروع المعاهدة التي عرضت على مصر؟

قال:

– معاهدة مصر استقلال تام ومعاهدة العراق استعمار أبدي.

قلت:

– أريد منك مقارنة بسيطة بين المعاهدتين.

قال: «أنت قرأت مشروع المعاهدة المصرية بالطبع».

قلت: «قرأتها طبعًا».

قال: «سأقدم لك غدًا نسخة من المعاهدة العراقية لترى بعينيك أي فرق عظيم بين المعاهدتين».

ولم يرقني هذا التأجيل فألححت في الطلب وأصر على الرفض. ولما أعيتني الحيلة معه قلت:

– حسن. سنقارن بين المعاهدتين غدًا. ولكني أرجوك الآن أن أعرف منك ما هو أعظم شر ينتظر العراق من جراء المعاهدة الجديدة مع إنجلترا.

– قال: أعظم شر. هو انضمام العراق إلى عصبة الأمم.

توالي زياراتي لبغداد

وقد توالت زيارتي إلى بغداد بعد ذلك. وكثيرًا ما كنت أزورها مرتين في السنة، فانعم فيها بصداقة إخواني وعطفهم وأرقب نهضتها بعينين تطفحان بِشرًا وسرورًا، واستمد منها القوة والأمل، وأشاطر سكانها لذة الحياة في ظل الاستقلال الذي كان معظم أقطارنا محرومًا منه.

وكانت هذه الزيارات كلها لأغراض قومية سياسية لأن آمالنا جميعًا كانت في تلك الفترة من الزمن معقودة على العراق، وقد أطلقوا عليه اسم «بيامونتي العرب». ولأن جميع رجالات العراق كانوا حينئذ على قلب واحد ورأي واحد في كل ما يتعلق بمستقبل الأمة العربية واستعجال نهضتها واستقلالها ووحدتها. وقد قاموا في سبيل ذلك بأعمال عظيمة لم يحن الوقت لسردها الآن ولكنني لا أرى بدًا من إشارة إلى بعض أمثلة منها إشادة بفضل العراق وصدق وطنيته أبنائه.

أوفدتني اللجنة التحضيرية للمؤتمر العربي العام مرة إلى بغداد لمفاوضة رجالها وفي مقدمتهم يس الهاشمي في موضوع هذا المؤتمر الذي كان في النية عقده فيها. واجتمعت بيس باشا ليلة وصولي إلى بغداد وحدثته في أمر المؤتمر، فقال إنه كتب إلى اللجنة ينصحها بعدم الدعوة إليه، ولكنه لم يرسل الكتاب بعد وإنه لا يرى أية فائدة من مؤتمر يُعقد لسماع الخطب والقصائد الحماسية ثم ينفرط على لا شيء. قال: «لقد أكثرنا من الكلام فلم يعد أحد يصدقنا وجاء دور العمل وهو الوسيلة الوحيدة للنجاح إذا استطعنا أن نعمل بصمت وحزم».

قلت: «إذا وافقتم على اقتراح سأعرضه عليكم الآن فأنا أؤكد لكم أن كل ما في البلاد العربية من هيئات وجمعيات وأحزاب ستسير وراءكم في تنفيذه. إن الغرض من عقد المؤتمر هو إيجاد لجنة تنفيذية تتولى توجيه الأمة إلى ما فيه خيرها، وإرشادها إلى الخطط المؤدية إلى تحقيق آمالها. والمؤتمر، مهما يكن ناجحًا، لا يستطيع أن ينتخب اللجنة التي يراها الوطنيون صالحة لقيادة الأمة. فما هو رأيكم إذا جيء بخمسة إخوان متفاهمين متجانسين من رجال الوطنية في العراق وخمسة مثلهم من كل قطر يُختارون بالتفاهم معكم، وألفت من هذه المجموعة الطيبة لجنة تنفيذية سرية تتوفر لها جميع الوسائل المادية للعمل؟»

– هذه فكرة حسنة جدًا.

– من هم رجالات العراق الذين يمكنكم العمل معهم في هذا الموضوع؟

– أنت تعرفهم. ففي القضية العربية يمكن التعاون مع جميل [المدفعي] وعلي جودة [الأيوبي] ومولود [مخلص] وأمثالهم.

– أرجو إذن أن تبدأوا العمل على هذا الأساس.

– لا يمكن القيام بأي عمل من هذا النوع قبل الحصول على تأييد الملك فيصل، فاذهب إليه ولا تخبره بما جرى بيننا بل حاول أن تجعله يقترح عليك ما تقترحه أنت الآن أي أن يكون هو صاحب الاقتراح.

الاجتماع بالملك فيصل الأول

وتشرفت بمقابلة الملك فيصل الأول وعرضت عليه موضوع المؤتمر والغرض منه والعقبات التي تحول دون انتخاب لجنة تنفيذية له تكون متجانسة وجديرة بالثقة. ورجوت منه أن يفكر في خير الوسائل اللازمة لوضع زمام القضية العربية في أيدي رجالها المخلصين، وتوفير الأسباب الكافية لتمكينهم من العمل الجدي بقوة وحزم وصمت. ثم قلت إن هذه اللجنة يجب أن تكون سرية، إذا أمكن أن تأخذ على عاتقها قيادة الأمة العربية.

فقال: «ولماذا لا يكون ذلك ممكنًا. أترى من المستحيل جمع فريق من رجالات القضية العربية لتأليف هذه اللجنة منهم؟»

قلت: «إن رجالات البلاد جميعًا تحت تصرفكم في كل ما يعود على الأمة بالخير».

فقال: «اذهب إلى يس [الهاشمي] ونوري [السعيد] وابحث معهما هذا الموضوع من دون أن تذكر اسمي ثم عد إليّ برأيهما».

وعدت بعد الظهر وقلت لجلالته إنهما قبلا فكرة تأليف اللجنة على الأساس الذي وسمتموه باغتباط شديد. فقال: «امضوا إذن في تأليفها وأنا معكم».

اللجنة العليا لإدارة الشؤون العربية

وأُلِّفت هذه اللجنة من يس ونوري وجميل المدفعي وعلي جودة ومولود مخلص على أن ينضم إليهم بالتفاهم معهم عدد من رجالات الأقطار العربية الأخرى. وعقدت هذه اللجنة اجتماعها الأول في دار جميل المدفعي وكان حينئذ رئيسًا لمجلس النواب، وقد افتتح الكلام بقوله: «إن العمل من أجل سوريا والبلاد العربية الأخرى يحتاج إلى مال. فإذا وافق الباشا – ولا أعرف هل قصد يس أو نوري – اقترحت على مجلس النواب زيادة مخصصات البلاط أربعة الآف جنيه في الشهر توضع تحت تصرف هذه اللجنة».

ورأى نوري أن زيادة مثل هذا المبلغ على المخصصات الملكية في عهد وزارته ستُحدث أثرًا سيئًا في النفوس وخصوصًا أن الرأي العام سيظل على جهل تام بأسبابها، والأغراض المنشودة منها.

وقال يس: «إن المبالغ التي تُخصص للقضية العربية يجب ألا توضع تحت تصرف فرد ولو كان الملك نفسه». أما الباقون فسكتوا ولم يعلقوا على اقتراح جميل. وفرك يس باشا جبهته كعادته وقال: «إن العراق لن يعجز عن تدارك 80 أو 90 ألف جنيه لتأليف هذه اللجنة، وسنعرف كيف نجد الأموال اللازمة لها بعد تأليفها. فنحن مدينون لسوريا بما هو أعظم من ذلك بكثير».

قلت: «إن سوريا لا تطالب العراق بدين، بل تطالبه بواجب أعظم من الدين».

كلمة العراق إلى سوريا

وبعد بحث طويل اشترك فيه جميع الحاضرين استقر الرأي على توجيه الكلمة التالية إلى الشعب السوري وقد وقعوها جميعًا، وكُلفت إبلاغها إلى قادة الرأي العام في سوريا، وهي:

«نحن الموقعين أسماءنا أدناه، نعلن أن العراق اضطر إلى انتهاج السياسة الاقليمية اضطرارًا لكي يتمكن من تحطيم القيود التي تغل يده عن العمل في حقل القضية العربية، وقد وُفِّق إلى ذلك بعد أو أوصل قضيته إلى مرحلة لا بد له فيها من التريث والتحفز للوثبة المقبلة التي يسترد بها حريته الكاملة واستقلاله التام. ولذلك رأينا تأليف لجنة منّا تعمل باسم العراق على إنقاذ سورية وتحقيق آمال العرب في مختلف أقطارهم. على أن ينضم إليها فريق من إخواننا الوطنيين باسم الأقطار العربية الأخرى للعمل معًا في هذا المضمار. ويهمنا أن نرجو من إخواننا السوريين بنوع خاص المثابرة في جهادهم وتوحيد صفوفهم وعدم تسرب اليأس إلى نفوسهم والاعتماد على العراق خاصة والشعوب العربية عامة في تذليل العقبات القائمة في طريق حريتهم واستقلالهم.

«ولا يخامرنا شك في أن رجالات العرب العاملين الآن في حقل السياسة الاقليمية يجب أن يواصلوا جهودهم في خدمة هذه السياسة التي عادت إلينا بفوائد كبيرة وإن نكن لجأنا إليها مضطرين».

الامضاءات

ثم قرر المجتمعون عقد اجتماع آخر في اليوم التالي.

في قصر الزهور

وفي مساء ذلك اليوم أقام السيد جعفر أبو التمن[255] حفلة شاي كبرى حضرها معظم رجالات العراق، وقابلت فيها تحسين قدري مرافق الملك فيصل ورجوت منه أن يطلب لي موعدًا لمقابلة جلالته لأني قد اضطر إلى السفر فجأة. فتركني إلى غرفة التليفون ثم عاد بعد دقيقتين وقال: «إن جلالته على استعداد لمقابلتك في الحال في قصر الزهور».

ودعوت يس وجميل وعلي جودة ومولود – ولم يكن نوري قد حضر بعد – إلى مرافقتي في هذه الزيارة لعرض ما تم معنا على جلالة الملك. وقد رآنا جلالته من إحدى نوافذ القصر قادمين في سيارتين فتقدم نحو الباب ووجهه يطفح بِشرًا وسرورًا لأنه رأى أصدقاءه من زعماء المعارضة يعودون إليه بعد أن قاطعوه مدة طويلة، فمد إلي يده وقال: «ماذا فعلت يا أسعد داغر وما هي هذه الدسائس؟».

قلت: «لم أفعل شيئًا سيدي، ولكن إخواننا هؤلاء رأوا أنهم أوصلوا العراق بقيادتكم إلى حالة يحتاج فيها إلى شيء من التريث استعدادًا لوثبة أخرى، فأرادوا أن يعملوا بقيادتكم أيضًا على إيصال سوريا والبلاد العربية الأخرى إلى مثل هذه الحالة».

فقال وعلائم الفرح بادية على محياه: «إنهم يكذبون عليك يا أسعد لأن هؤلاء يستطيعون إنقاذ الأمة العربية إذا أرادوا».

قلت: «ومن أنا سيدي حتى يكذبوا علي. فهم إذا كذبوا إنما يكذبون على أنفسهم، لأنهم هم أهل الرأي والمكانة وزعماء البلاد والمسؤولون عنها».

وأراد علي جودة – وكان من زعماء المعارضة – أن يتجاهل ما في عبارة الملك من مزاح فقال بلهجة الجد: «نحن لا نكذب يا مولاي، وما كنا نظن أن هذا هو رأي جلالتكم فينا». أما يس باشا فجعل يفرك جبينه كعادته حينما كان يفكر.

ورأيت أن الموضوع قد ينقلب إلى عتاب. فقلت: «إن إخلاصكم يا سيدي هو الذي خطا بالبلاد هذه الخطوات الواسعة، وأصدقاؤكم هؤلاء وضعوا أنفسهم تحت تصرفكم الآن بصفتهم أعضاء عراقيين في اللجنة التنفيذية العربية لاستئناف الجهاد بقيادتكم في سبيل القضية العربية».

وكان قد جلس وجلسنا حوله فقال:

– إني سعيد بما سمعته، وأنا واحد منكم أضع كل قواي وأموالي ونفوذي تحت تصرفكم. ولما كان مركزي الرسمي لا يسمح لي بأن أشترك دائمًا في مناقشاتكم، فقد فكرت في اختيار واحد منكم كبيرًا للأمناء لأكون دائمًا معكم وعلى اتصال بكم فمن هو الذي ستختارونه سكرتيرًا لهذه اللجنة؟

واستطرد فقال:

– أما يس فلا، لأننا نحتاج إليه في أمور أعظم شأنًا. وكذلك جميل فهو الآن رئيس مجلس النواب، فإذا شئتم فليكن علي جودت سكرتير اللجنة، وسأعينه ابتداءً من غد كبيرًا للأمناء في البلاط. وهكذا كان.

ولم أر في حياتي الملك فيصل فرحًا كما رأيته في ذلك اليوم. وقد اجتمعت اللجنة مرة أخرى قبل مغادرتي بغداد فقررت تكليف يس الهاشمي القيام برحلة في البلاد العربية للتفاهم مع رجالاتها في الموضوع، وعدت أنا إلى مصر بطريق فلسطين.

ولما وصلت إلى مطار طبريا خاطبت السيد أمين الحسيني مفتي فلسطين بالتليفون راجيًا منه أن يبعث إليّ بأحد الأصدقاء لأخبره بما تم في بغداد. وكانت الساعة العاشرة ليلًا فسألني:

– إلى متى أنت باق في طبريا؟

فقلت:

– إلى السابعة من صباح غد.

فقال:

– إن المسافة طويلة بين القدس وطبريا فتنفيذ رغبتك مستحيل وخصوصًا أنه ليس عندي أحد من الإخوان الآن لأنهم جميعًا لجأوا إلى بيوتهم. والأفضل أن تأتي أنت إلى القدس.

وتعذر علي أن ألبي دعوة سماحته فوجدت نفسي مضطرًا إلى الاستعاضة عن المقابلة بالمكاتبة، وأرسلت من طبريا كتابين مطولين أحدهما إلى شكري القوتلي في دمشق والثاني إلى خير الدين الزركلي بالقدس لإطلاع الإخوان على ما تم في بغداد. ثم عدت إلى القاهرة فعرضت على اللجنة التنفيذية تفاصيل رحلتي ونتائجها فكان سرورها عظيمًا جدًا.

وانهالت برقيات التهنئة والتحبيذ والتشجيع على العراق من رجالات العرب في البلاد العربية والمهاجر. فكان تأثيرها عظيمًا في نفس الملك ونفوس زعماء العراق. وبدأت اللجنة التنفيذية تضع الاقتراحات الكفيلة بإتمام تأليف اللجنة العربية العليا وتنظيم سيرها وتنسيق أعمالها وترسلها إلى بغداد فتتلقى الأجوبة المشجعة عنها. وظل نشاط إخواننا العراقيين في هذه اللجنة عظيمًا إلى أن وقع الخلاف على بعض الشؤون الداخلية بين الملك فيصل ويس الهاشمي فاضطرب العمل حينئذ وخصوصًا بعد عودة الملك فيصل من زيارته الرسمية لإيران. وشعرنا نحن في مصر بهذا الاضطراب وعزا بعضنا أسبابه إلى التنافس بين الملك فيصل والهاشمي على قيادة الأمة العربية. وكان ذلك نذيرًا بفشل اللجنة، فاستؤنفت المساعي منذ ذلك الحين لعقد المؤتمر العربي الذي كان في النية عقده في بغداد.

العودة إلى فكرة المؤتمر

ولما كان جلالة الملك عبد العزيز قد أبدى بعض المخاوف من أن يكون هذا المؤتمر الذي يعقد لتوحيد العرب أداة في أيدي الذين يمزقون شملهم بمثل حوادث الدويش[256] وابن رفادة، رأى القائمون بأمره محاولة تبديد هذه المخاوف بإرسال وفد إلى الرياض قوامه شكري القوتلي وخير الدين الزركلي والشيخ كامل القصاب.

وكان شكري القوتلي منحرف الصحة حينئذٍ فلم يتمكن من السفر، ومُنع الأستاذ خير الدين الزركلي من المرور بمصر فلم يستطع القيام بالمهمة الموكولة إليه. وسافر الشيخ كامل القصاب وحده.

ولم يكن كثيرون من الإخوان راضين عن انفراد الشيخ كامل في القيام بهذه المهمة لعلمهم بأنه من أشد المعارضين في عقد المؤتمر في بغداد، وأنه سيسعى إلى حمل الملك عبد العزيز على المعارضة لا على الموافقة. ولكن الشيخ كامل عاد إلينا حاملًا معه كتابًا صريحًا يتضمن موافقة الملك عبد العزيز وتأييده للمؤتمر. وأطلعنا على هذا الكتاب فسُررنا به سرورًا عظيمًا وأبرقت بفحواه إلى الهاشمي في بغداد فأجابني بقوله: «بارك الله في الشيخ كامل وحيّاه».

موقف السعودية من المؤتمر

ولم يكن الشيخ كامل على ما يظهر مرتاحًا إلى هذه النتيجة لأسباب لم نتبينها حينئذٍ، وقد دعاني ودعا المرحوم السيد رشيد رضا إلى الاجتماع به عقب وصوله من الحجاز وقال لنا إن إخواننا في المملكة العربية السعودية غير راضين عن عقد هذا المؤتمر في بغداد، وهم يرجون منكم تأجيل عقده إلى وقت أكثر ملائمة

من الوقت الحالي. فقال السيد رشيد بحدة:

– نحن يهمنا موافقة جلالة الملك وعطفه على المؤتمر وقد حصلنا عليهما كما حصلنا على موافقة جميع الحكومات العربية ومعظم رجالات الأمة. وهم يرون أن الأحوال الحاضرة تفرض علينا عقده فرضًا لجمع كلمة الأمة وتنظيمها وتنسيق أعمالها. فرأى الإخوان الذي نقلته الينا لا يستند إلى أي سبب جوهري، وبما أننا قد كفلنا موافقة جميع الزعماء على هذا المؤتمر ورضى الرأي العام عنه ومهدنا له جميع السبل فنحن ماضون في عملنا إلى النهاية.

وقلت: «ألا يمكنك يا أستاذ أن تبيّن لنا الأسباب التي حملت إخواننا في المملكة العربية السعودية على طلب تأجيل المؤتمر؟»

فقال: «إن أهم الأسباب هي عدم ملائمة الوقت، وسنجتمع بعد ظهر اليوم لأبسط لكم ذلك بالتفصيل».

وسألنا عن الشيخ كامل في المساء فعلمنا أنه سافر إلى فلسطين. وفي اليوم التالي تلقينا برقية منه يدعونا فيها إلى الاجتماع مع إخواننا أعضاء لجنة المؤتمر وغيرهم في حيفا. وقد أبرق بمثل هذه الدعوة إلى شكري القوتلي ورياض الصلح وغيرهما من الزعماء، علاوة على أعضاء اللجنة. واعتذرنا نحن واعتذر شكري عن السفر إلى فلسطين، ولبى الباقون وفي مقدمتهم رياض [الصلح] وعوني عبد الهادي وعزة دروزة ومعين الماضي وصبحي الخضرا وسائر أعضاء اللجنة هذه الدعوة، وعقدوا في حيفا عدة اجتماعات أرسل إليّ الأستاذ عزة دروزة تفاصيل ما دار فيها.

قلق بغداد

وعلمت العراق بهذا الاجتماع الذي لم يُدعَ أحد منها إليه. وقد تلقيت كتابًا من يس باشا الهاشمي – وكان قد تولى وزارة المالية – يقول: «إن إهمالكم دعوة العراق إلى اجتماعات حيفا أثار استياء المقامات العليا في بغداد، وإنها عزت هذا الإهمال إلى دسائس ومناورات كان يجب أن لا تقع في شراكها». فأجبته بكلمة موجزة قلت فيها إن كل ما بلغكم عن اجتماع حيفا افتراء محض كان يجب ألا تصدقوه، وها أنا أرسل إليكم كتابًا شخصيًا من الأخ عزة دروزة ضمنه كل ما جرى في ذلك الاجتماع وما قاله كل من الإخوان في الموضوعات التي تناولها البحث.

ورد عليّ الهاشمي باشا قائلًا: «لقد أحسنت بإطلاعي على حقيقة ما جرى في حيفا، وقد عرضت كتابكم وكتاب الأخ عزة على جلالة الملك فيصل فكان لهما أحسن وقع في نفسه، لأن جلالته كان قد تلقى من أحد رجالات فلسطين كتابًا جاء فيه أن جميع المهتمين بأمر المؤتمر هم من أصدقاء ابن السعود وأنهم اجتمعوا في حيفا لوضع خطة ترمي إلى إثارة الشعب العراقي ضد الأسرة الهاشمية، وإحداث اضطرابات في العراق تكون الأسرة السعودية على أتم استعداد لاستغلالها. على أن كتابك وكتاب الأخ عزة اللذين أطلعت جلالة الملك فيصل عليهما أزالا كل أثر في نفسه وأثارا سخطه على صاحب الواشية الحقيرة، فسيروا في أعمالكم

والله معكم».

وأعدّتْ العراق على يد الهاشمي باشا كل ما يلزم من مال وأماكن وبرامج وأبحاث ودروس لعقد المؤتمر العربي في بغداد، وبدأت لجنته التحضيرية تدرس أسماء الأقطاب الذين سيدعون إلى هذا المؤتمر وتعد أوراق الدعوة، ولكن الإنجليز والفرنسيين وغيرهم من الشعوب الاستعمارية كانوا يرقبون هذه الحوادث عن كثب، فلما تبيّنوا أن المؤتمر سائر حتمًا في طريق الانعقاد وأن نتائجه لن تكون ملائمة لهم في حال ما، قاموا بضغط سياسي شديد على الملك فيصل وعلى الحكومة العراقية للحيلولة دون عقد المؤتمر في بغداد.

موقف الإنجليز من فكرة المؤتمر

وكانت إنجلترا أشد الدول رغبة في ذلك، وكانت حجتها أن هذا المؤتمر سيُدعى إليه كثيرون من زعماء مصر وأفريقيا الشمالية، وأنها لا تستطيع هي ولا فرنسا أن تقفا مكتوفتَي الأيدي أمام النتائج التي قد تنشأ عنه في بلاد هما المسؤولتان عن استقرار السكينة والهدوء فيها.

فيصل وزيارته الرسمية للندن

وكان الملك فيصل حينئذٍ على أهبة القيام بزيارة رسمية للندن. وقد أبلغ عن طرف خفي أن هذه الزيارة لن تكون لها النتائج المنشودة من توثيق أواصر الصداقة مع إنجلترا في الوقت الذي تُبذَل فيه محاولات جدية لإثارة الشعوب العربية ضدها. واضطر جلالته إلى التمهيد لزيارة لندن بالتخلي – ولو في الظاهر – عن فكرة عقد المؤتمر، ثم سافر إلى إنجلترا ومعه يس الهاشمي ونوري السعيد وذهبت لمقابلتهم في عمان، فشعرت بهذا التبدّل في خطة العراق. وقد خرجت من الاجتماع الأول بجلالته والأسف يملأ فؤادي وقد قلت له:

– لم يبق لي عمل هنا يا سيدي فاستأذن جلالتكم بالعودة إلى مصر.

فقال:

– قابل يس قبل سفرك وسأجتمع بك في القاهرة.

وبعد خروجي دعا جلالته إليه عوني عبد الهادي وقال له:

– يظهر أن أسعد خرج غاضبًا.

وقال عوني:

– بالطبع سيدي، فقد جاء من مصر بآمال يظهر أنه أضاع بعضها هنا.

وقال جلالته:

– اسمع يا عوني، إن للظروف أحكامًا قاهرة لا يجوز بل لا يمكن إهمالها. فقل لأسعد أن يصبر قليلًا،

وستُحقق كل آمالنا وآماله بعون الله.

ثم قال:

– لا أستطيع الآن أن أقول شيئًا. ولكنني سأمر بمصر وعمان في طريق عودتي من لندن فنتحدث مليًا ونضع الخطط اللازمة للعمل على ضوء الاختبارات الجديدة.

والتقيت بنوري وأنا خارج من القاعة التي استقبلني فيها الملك فيصل فقال، وقد رأى مظاهر الكآبة على وجهي:

– قابل يس فهو الوحيد الذي يستطيع أن يتحدث إليك في الموضوعات التي تهمك.

فقلت:

- ما هذا يا باشا هل نحن ألمان أو إنجليز أو روس لتتخذوا معنا هذه الأساليب السياسية التي لا تتبع عادة إلا مع الغرباء؟

فقال:

- هذا ليس من شأني - فأنا لست في هذه الرحلة سوى كاتب يد لياسين باشا. وتركته وذهبت إلى فندق فيلادلفيا حيث كان يُقيم الهاشمي باشا وقلت له:

- يظهر يا باشا أنكم متفقون على معاملتنا معاملة الأعداء، وأنك أنت المكلف بالتحدث معنا، فقد أحالني جلالة الملك عليك، وقال لي نوري إنه في هذه الرحلة إنما هو كاتب يد عندك فهل تريد أن تقول لي شيئًا؟.

قال:

- نعم ولكني ذاهب الآن بمهمة مستعجلة إلى حيفا فتعالَ معي.

قلت:

- أنا هنا مع عوني وعزة وبعض الإخوان فانتظرني قليلًا لأجتمع بهم ثم أذهب معك.

قال:

- إذا كنت ستتأخر فموعدنا غدًا صباحًا في الفندق الذي تقيم أنت فيه في القدس - وكنت قد أعطيته اسم هذا الفندق - وذهبت فاجتمعت بإخواني وأوضحت لهم الحالة.

وفي صباح اليوم التالي كنت مع السيد عزة دروزة في انتظار الهاشمي في الفندق المشار إليه، فلما وصل إليه اختلينا به مدة ساعتين تكلم فيهما عن الغرض من زيارة لندن وعن الخطط التي يفكر في اتباعها لتأمين استقلال سوريا ولبنان وإنقاذ فلسطين وشرق الأردن. ثم قال: «أما تفاصيل هذه الخطط فسندرسها بعد عودتنا من زيارة إنجلترا».

ولا أظن أن الوقت قد حان لذكر ما كان يفكر به يس لتحقيق آمال العرب في أقطارهم المختلفة ولا سيما سورية ولبنان وفلسطين. وما كان يعمله الملك فيصل الأول ورجال دولته في سبيل هذه الغاية النبيلة مستندًا

إلى إرادة الشعب العراقي وحماسته وصدق وطنيته.

ولما كانت آمالي كلها معقودة على العراق في ذلك الحين، فقد حاولت أن أتغلب على الشعور بخيبة الأمل من جراء ما رأيته من التبدل في موقف المسؤولين عن السياسة العراقية، وأن أجد له مبررًا في الزيارة الرسمية التي يقوم بها الملك للمملكة المتحدة. ومع ذلك أسرعت في العودة إلى مصر لعرض الحالة على اللجنة التنفيذية والسعي إلى معالجتها، خصوصًا بعد أن أكد لي الملك فيصل ويس الهاشمي بأنهما سيجتمعان بها طويلًا في القاهرة.

مع الملك فيصل في القاهرة

ورجوت من الملك فيصل، وأنا استأذنه بالسفر، أن يتفضل بمقابلة صاحب جريدة **الأهرام** ويشمله بعطفه، لاعتقادي بأن هذا الصحفي الكبير على استعداد لمؤازرة الفكرة العربية في جريدته، والعمل على تحقيقها بكل همة وصدق وإخلاص.

وكان الملك فيصل، على ما يظهر، يود أن يتجنب بقدر الإمكان، الاجتماع بأعضاء اللجنة التنفيذية، فرأى في اقتراحي ما يساعده على تحقيق رغبته هذه، دون أن يشعر أحد بأنه تعمد ذلك.

وقد وصلت إلى القاهرة قبل جلالته ببضع ساعات، وأطلعت اللجنة التنفيذية على خلاصة ما استنتجته من اجتماعاتي برجالات العراق في عمان، فقر قرارهم على مقابلة الملك مجتمعين، والبحث معه في موضوع سوريا وفلسطين بصراحة تامة مهما يكن في ذلك من إحراج له.

ويظهر أن جلالته قد أدرك ذلك. فبعد زيارته لقصر عابدين دعا تقلا باشا صاحب **الأهرام** للاجتماع به وبقي معه إلى أن جاء الملك فؤاد[257] لرد هذه الزيارة. وقد طال اجتماع الملكين حتى حان موعد السفر. وعندئذ استقبل فيصل أعضاء اللجنة التفيذية على عجل ليؤكد لهم أنه باق على العهد، ولن يحيد عنه قيد أنملة، وأنه سيمر بالقاهرة بعد عودته من لندن للبحث معهم في كل ما يهم من الشؤون، ولوضع خطة العمل والنظر في وسائل تنفيذها.

وكان من المقرر أن يقضي الملك فيصل الصيف في أوروبا، ولكنني فوجئت ذات يوم بنبأ وصوله إلى القاهرة. وقد أخبرني بذلك أحد موظفي السفارة العراقية بأمر من جلالته. وقال إنه سيمضي الليل في مصر ثم يواصل السفر صباحًا إلى بغداد، وإنه يريد أن أقابله وحدي، لأن رحلته هذه يجب أن تبقى طي الكتمان.

ثورة الآشوريين[258]

ودهشت لهذا النبأ وأسرعت إلى فندق الكونتيننتال لاستجلاء الحقيقة، وخشيت أن يكون قد وقع في العراق حادث خطير استوجب عودته إليه على جناح السرعة. ولما وصلت إلى الفندق سألت نوري السعيد عن سبب هذه العودة الفجائية. وسمع الملك سؤالي ورأى نوري يتردد في الإجابة، فالتفت إلي وقال إنه

اضطر إلى العودة بسبب الثورة التي قام بها الآشوريون، والحالة التي نشأت عنها في العراق وفي الخارج. وقال إنه متعب، وطلب مني الروايات التي ترجمتها ليقرأها أثناء السفر. وذهبت لأحضر هذه الروايات، ودخل هو ليستريح. ولما عدت وجدته منفردًا في الشرفة، فجعل يحدثني عن الأثر الذي تركته حوادث الآشوريين في أوروبا، وعن الهياج الذي نشأ عنها، وكيف ينوي معالجته. ثم انتقل إلى موضوع سوريا وفلسطين، وما دار بشأنه من حديث في لندن وباريس، وما يجب علينا أن نعمل لإنقاذ هذين القطرين العزيزين. ومما قاله جلالته: «إن التعاون بين العرب ضروري لتحقيق هذه الأمنية، وإن هذا التعاون الذي بدأ بين العراق والمملكة العربية السعودية واليمن ينتظر أن ينمو بسرعة فيتناول البلاد العربية كلها، وحينئذ ينبثق للعرب فجر عصر جديد تتحقق فيه آمالهم كاملة في الاستقلال والوحدة والعزة والمجد».

ثم تحدث عن المساعي التي قام بها للتقرب من الملك فؤاد والنتائج الطيبة التي وصل إليها. وكيف أنه بسط يده إلى الملك ابن السعود بكل صدق وإخلاص، رغم ما كان يشوب علاقتهما من فتور. وقال إن أمكن قيام تعاون بين مصر والعراق والمملكة العربية السعودية فمن المحقق نجاة سوريا وإنقاذ فلسطين، وعندئذ يستطيع العرب أن يضعوا أساسًا متينًا لوحدتهم المنشودة. ثم قال: «لم أمكث طويلًا في بغداد، وسأمر بالقاهرة في طريق عودتي إلى أوروبا، وقد يكون لدي ما يسرني أن أقوله لك وللإخوان».

وكانت حوادث الآشوريين قد بدأت تشغل الرأي العام. فما كاد فيصل يصل إلى بغداد حتى قامت قيامة الصحف البريطانية والفرنسية والأميركية عليه وعلى العراق متوعدة منذرة. بل تجاوزت حد الانتقاد والتهديد إلى السب والشتم. ولم يتورع بعضها عن القول بأن العرش العراقي قد أصبح في خطر، وإن العراق أثبت أنه غير جدير بالاستقلال. ولكن الجيش العراقي كان قد حلَّ المشكلة بالفعل تاركًا أولئك الناقمين الطامعين يموتون من غيظهم.

آخر لقاء مع الملك فيصل

وبقي الملك فيصل بضعة أيام في بغداد، درس خلالها مشكلة الآشوريين وبواعثها ووسائل معالجتها، واتخذ التدابير اللازمة لدرء أخطارها. ثم عاد إلى القاهرة في طريقه إلى أوروبا.

واستقبلني في شرفه مطلة على حديقة الأزبكية في فندق كونتيننتال فأطلعته على كل ما كتب ضده وضد العراق، وقلت إن هذه الضجة التي أثارها الاستعمار والإرهاب، يجب أن تقابل بالازدراء والإهمال، فلا يُقام لها وزن ولا يُحسب لها حساب. وإذا حاول الإنجليز استغلالها لمصالحهم الاستعمارية، فعندئذ يمكن وقف تلك المحاولة بكلمة واحدة يقولها الشعب المتحد المتحفز للنضال.

وكانت مظاهر التعب بادية على جلالته، فما أن سمع قولي حتى أشرق وجهه بابتسامة تنمّ عن القوة والصحة وصدق العزيمة، ووضع يده على كتفي معربًا عن سروره وارتياحه. وقال: «يستحيل علينا أن نقبل الحياة التي يريدها لنا حلفاؤنا الإنجليز. وما صبرُنا عليها حتى الآن إلا نتيجة الضعف والعجز والحاجة الملحة إلى كل شيء. وقد نستمر على هذه الحالة إلى أن تنفجر براكين الحقد في نفوسنا، أو أن نوفق إلى جمع

كلمتنا وتوحيد صفوفنا فنملي حينئذ إرادتنا، ويتم لنا ما نريد من أصدقائنا وأعدائنا على السواء».

قلت: «ليس في العالم أمة متحدة العواطف والمبادئ والأماني والآمال كالأمة العربية، فكيفما سار الإنسان وأينما حلَّ في ربوعها الواسعة، لا يسمع إلا آراءً واحدة ومطالب ورغبات واحدة وآمالًا وآلامًا واحدة. فكل شيء والحالة هذه مهيأ في طريق الوحدة، والعرب جميعًا يؤيدون جلالتكم ويباركون جهودكم في سبيلها. وقد أبصرت الآن وأنا داخل إلى الفندق فؤاد حمزة وكيل الخارجية السعودية جالسًا في البهو، فهل تريدون جلالتكم أن تُسمعوه شيئًا من آرائكم في مستقبل العرب؟ فهو من الوطنيين دعاة الوحدة».

فقال: «اذهب وعد معه إليّ، فأنا في انتظاركما ولا أريد أن أقابل أحدًا غيركما». ولما عدنا بعد دقائق قليلة وجدنا نوري السعيد جالسًا أمام الملك على الكرسي الذي كنت أجلس عليه في شرفة الفندق. فتناول كل منا مقعدًا، وجلس فؤاد بجوار نوري وأنا إلى جانب الملك. ولم ألبث أن أدركت ما في جو الاجتماع من برود وثقل، فأومأت إلى نوري بأني أريد التحدث إليه، ولكنه تظاهر بعدم الانتباه إلى إشارتي وظل في مكانه. وكأن الملك أدرك قصدي فقال له: «أسعد يريدك يا نوري فاذهب معه». وانتقلت مع نوري إلى غرفته وبقينا نتحدث إلى أن فتح الملك الباب علينا وقال: «حان موعد السفر».

وذهبنا جميعًا بمعية جلالته إلى محطة القاهرة حيث ظل يتحدث معنا من نافذة القطار إلى أن تحرك بركابه. وأدركني حينئذ شعور لم أستطع تفسيره، فاغرورقت عيناي بالدمع، ونظرت إلى ذلك الملك العظيم المحبوب نظرة حب وأمل. ولم أكن أدري أنها نظرة الوداع الأخيرة.

كان ذلك يوم الجمعة من أيام الأسبوع، وفي يوم الجمعة من الأسبوع التالي جئت إلى جريدة **الأهرام** حوالى الظهر فالتقيت بعامل اللاسلكي خارجًا منها، وكان إيطاليًا صديقًا لي. وقد توقف ليحييني فسألته كعادتي عن الأخبار، فقال إنها عادية.. ثم سألني هل الملك فيصل مريض؟ فقلت: «لا، ولكنه متعب قليلًا وقد مر يوم الجمعة الماضي بالقاهرة في طريقه إلى سويسرا للراحة والاستجمام، فهل في برقيات اليوم نبأ عن صحته؟». فأطرق قليلًا ثم قال: «لقد شعر بتعب بسيط في الليلة البارحة». عندئذ أمسكت بيده وجذبته إلى غرفة الراديو بعنف قائلًا: «أريد أن أرى البرقية». وسار معي بضع خطوات ثم توقف وقال: «لا فائدة من الاطلاع على البرقية فقد توفي». وجزعت لهذا النبأ المفاجئ وأصبت بدوار شديد، فجلست إلى أقرب مقعد إليّ. وجلس هو بجواري يشاطرني الأسى ويروي لي تفاصيل الوفاة. وبقيت إلى ما بعد منتصف الليل أكتب **للأهرام** عن الفقيد العزيز، وأستعيد ذكرياتي معه.

كانت وفاة هذا العاهل العظيم نقطة تحوّل في تاريخ القضية العربية. فبدأت الأنظار تنصرف عن العراق باحثة عن أمل جديد بدلًا من الأمل الذي تبدد. وأخذت الحوادث تتوالى في بغداد فتزيد الحالة سوءًا والموقف شدة.

كنت لا أزال أرى طريقًا واحدًا للنجاة، هو التفاف رجالات العراق مع رجالات الأمة العربية حول يس الهاشمي بعد وفاة الملك فيصل وظهورهم بمظهر الرجل الواحد، بحيث يُكمل بعضهم بعضًا ويُصلح بعضهم عيوب بعض، وبحيث يؤلف من مجموعهم الزعيم المنتظر الذي لا بد من ظهوره، إذا أراد الله للأمة العربية البقاء والنجاح. والحقيقة أن اعتقادي من زمن طويل بأنه ليس بين المعروفين وقتئذ من رجالات

العرب من هو جدير بالزعامة التي تحتاج إليها الأمة في موقفها العصيب الحالي، كان يدفعني على الدوام إلى بذل كل جهودي للبحث عن هذه الزعامة في مجموعة متجانسة من الرجال تعمل برأي واحد وإرادة واحدة لتحقيق أمنية مشتركة واحدة، هي الحرية والوحدة والاستقلال.

ويذكر الأحياء من أصدقائي في العراق كم مرة اصطدموا بي وانتقدوا أعمالي، وكان كل فريق منهم يلومني على ثقتي بالفريق الآخر، ولا سيما بالسيد نوري السعيد. ولا أعرف واحدًا منهم لم يقل لي إن لا نجاح للعراق ولا للأمة العربية إلا بعد اعتزال نوري السعيد السياسة نهائيًا، ولكن صداقتي لهذا الرجل منذ الصبا أعمتني عن رؤية الحقيقة، وحملتني على الاستمرار في محاولاتي الفاشلة سنوات عديدة بدأت منذ سنة 1925 واستمرت حتى السنوات الأخيرة.

وقد تحدثت مرارًا إلى الملك فيصل في هذا الموضوع، وكنت أقول له إن العراق مهيأ لتولي مهام النهضة العربية بما لديه من إمكانيات غير متوفرة لبعض الأقطار العربية الأخرى. وإن إعداده للقيام بهذه المهمة يتوقف على التوفيق بين قادته وزعمائه وجعلهم كتلة واحدة تسير خلف جلالتكم في الاتجاه الصحيح. وإذا كنتم تجدون الآن تباعدًا بينهم في وجهات النظر، فهذا التباعد قد يفيد لأنه يؤدي إلى احتكاك الآراء الذي لا بد منه للوصول إلى الحقائق. وهكذا يصبح اختلاف الأمزجة، وتباين درجات الفهم، وتنوع الأفكار والميول، وسيلة للمناقشة وعاملًا من عوامل القوة وأهم دافع للنجاح إذا خلصت النية وتلاشت الأنانية، وكانت التضحية رائد الجميع في سبيل الوطن ومصالحه العليا.

قلت لجلالته: «إذا توليتم جلالتكم مراقبة نوري السعيد والحد من نزواته، أمكن الانتفاع به بين هذه المجموعة الطيبة من رجالات العراق. وهكذا تؤلَّف تحت اشرافكم لجنة لإدارة الشؤون العربية، تتولى زعامة العرب وتوجيه سياستهم في مختلف أنحاء هذا الشرق».

رأي فيصل في نوري السعيد

وكان جلالته يشكو من شخصين: ياسين الهاشمي لصعوبة التعاون معه، ونوري السعيد لميوعته وأعماله الصبيانية. وكثيرًا ما كان يقول: «لو أمكن العمل مع يس لخطت العراق والقضية العربية خطوات واسعة إلى الإمام». وقال لي مرة عن نوري: «ماذا تريد أن أفعل؟ لقد اضطررت أثناء زيارتي لأنقرة زيارة رسمية إلى إكراه نوري على العودة بقطار الشحن إلى بغداد لمعالجة الفتنة التي كانت على وشك الوقوع فيها». ثم قال: «إنه رجل لا يبالي بشيء ولا يهتم إلا بنفسه، يعتمد على الوحي الذي يأتي من الخارج أكثر من اعتماده على رأيه وآراء إخوانه التي تكون عادة نتيجة البحث والاستقراء والاستنتاج».

ومع ذلك كان الملك فيصل موقنًا بأن لا نجاة للعراق ولا للعرب إلا بإيجاد تكتل بين رجال الوطنية في مختلف الأقطار العربية. وهذا ما حمله على تبني اللجنة التي أُلِّفت في إحدى زياراتي لبغداد من يس الهاشمي ونوري السعيد وجعفر العسكري وجميل المدفعي وعلي جودة الأيوبي ومولود مخلص، على أن ينضم إليها بعض رجالات سورية وفلسطين ولبنان والجزيرة والأقطار العربية الأخرى، بحيث تصبح قوة سياسية

وأدبية عظيمة، تستطيع أن تعتمد على قوى أدبية ومادية هائلة هي قوى الحكومات والشعوب العربية معًا.

العلاقات السعودية – الهاشمية

وكما بذلت جهدي للتوفيق بين رجالات العراق حينما كان العرب يعدونه محورًا للوحدة العربية ويطلقون عليه اسم «بيامونتي العرب»، كذلك عملت بكل قواي على التقريب بين المملكة العربية السعودية والعراق بعدما تبيّنت الأخطار العظيمة التي تنشأ عن تباعدهما واستمرار الجفاء بينهما. وكانت الدعايات ضد العاهل السعودي تزداد شدة من يوم إلى يوم، ولم يكن من الصعب تصديقها رغم الأكاذيب الفاضحة والافتراءات الفظيعة التي تنطوي عليها، لما كان عالقًا في الأذهان عن المذهب الوهابي من آثار الدسائس والمؤامرات والأكاذيب التركية وغيرها خلال قرنين كاملين.

وكانت أول كلمة طيبة سمعتها عن عبد العزيز بن السعود من عزيز علي المصري تعليقًا على كتاب تلقاه من عبد الله الدملوجي الذي كان قد سافر مع نوري السعيد إلى الرياض للاتصال بابن السعود ومعرفة إمكانياته. وقد أطلعني عزيز على هذا الكتاب بعد وصولي إلى القاهرة من اسطنبول ثم قال لي: «يظهر أن هذا الرجل هو خير أمراء العرب الآن، ففيه من المزايا ما يجعله أهلًا لتبوأ [لتبوّؤ] مركز الزعامة وما يحملنا على تأييده والالتفاف حوله».

حاولت أن أعترض، فقاطعني بقوله: «إن ما ذكره الدملوجي عن اهتمام ابن السعود بالأسلحة الحديثة يدلّ على إدراك حقيقي للأمور وقابلية صحيحة للتطور. فإذا أضفنا إلى ذلك شجاعته المعروفة وقدرته على تحمل المشاق وبعده عن الترف وذكاءه وصدق عزيمته وسخاءه وإباءه وكريم أخلاقه، جاز لنا أن ننتظر منه العظائم، وخصوصًا إذا أحيط برجال مخلصين من الذين أخذوا على عاتقهم إنهاض الأمة واسترداد كرامتها وعزها ومجدها».

ثم رأيت بعض أصدقائي يدعون إلى مساعدته والتعاون معه كشكري القوتلي وخالد الحكيم وكامل القصاب ويوسف يس وخير الدين الزركلي وغيرهم من أعضاء جمعية [العربية] الفتاة الذين كانوا موضع ثقتي واحترامي. وكنا جميعًا نعد الخلاف بينه وبين الملك حسين من الأخطار التي تهدد مستقبل العرب، فبذلنا جهودًا كثيرة للتقريب بين هذين الزعيمين سواء أثناء وجودنا في دمشق أو بعد الخروج منها إلى مصر. وآخر تلك المحاولات وقعت بعد استيلاء الفرنسيين على سورية. فإن الأحرار الذين خرجوا حينئذ منها مع الملك فيصل، اتجه بعضهم إلى مصر والبعض الآخر إلى الأردن لاستئناف الجهاد فيهما، فالذين لجأوا إلى مصر – وكانوا من مختلف الأحزاب الاستقلالية – اختاروا من بينهم لجنة أسموها «لجنة الصلة بين الأحزاب»، لمواصلة الكفاح السياسي. بينما تولى القادمون إلى الأردن قيادة الكفاح العسكري.

وقد شكلت هذه اللجنة من 15 عضوًا، كان بينهم شكري القوتلي وكامل القصاب وسعد الله الجابري وعوني عبد الهادي وساطع الحصري والسيد رشيد رضا وغيرهم. واقترحت في أول جلسة أن يعيّن ميشيل لطف الله رئيسًا لها بعد أن سمعت أن 15 ألف جنيه وضِعت تحت تصرفها. فوافق الجميع على اقتراحي.

وكان أول قرار اتخذته اللجنة بعد هذه الموافقة هو تأليف وفد من السادة: شكري القوتلي والشيخ كامل القصاب وعوني عبد الهادي، لزيارة عمان ومكة والرياض سعيًا وراء التوفيق بين الحسين وابن السعود. ولم تعمر هذه اللجنة إلا أيامًا بعد أن تعذر سفر الوفد للقيام بالمهمة التي انتدب لها، وخُيّل إلينا من ذلك الحين أن أصابع الأجانب قد بدأت تندس بيننا.

مؤتمر جنيف

واتجهت الأنظار بعد ذلك إلى خلق أداة جديدة تتولى تنظيم السياسة السورية الفلسطينية وتنسيقها وإيجاد تعاون وثيق بين الأحزاب الوطنية لإدارة الحركات الشعبية وتوجيهها. وقد استقر الرأي على عقد مؤتمر للأحزاب السورية والفلسطينية في جنيف لاتخاذ القرارات ووضع الخطط وتوحيد الجهود وتنسيقها. وكان من بين قرارات هذا المؤتمر تأليف لجنة تنفيذية من مندوبين يمثلون الأحزاب التي اشتركت فيه، وأهمها حزب الاستقلال وحزب الاتحاد السوري والأحزاب الوطنية في فلسطين، والأحزاب العربية في أمريكا ثم مندوب الثوار بعد قيام الثورة الكبرى في سورية، وقد أطلق على هذه اللجنة اسم «اللجنة التنفيذية للمؤتمر السوري الفلسطيني»، وكان من الذين عملوا فيها شكري القوتلي وسعد الله الجابري ورياض الصلح ومحب الدين الخطيب وتوفيق اليازجي وميشيل لطف الله وعبد الرحمن الشهبندر وحسن الحكيم وسعيد حيدر، وانتُخبتُ أنا سكرتيرًا لها في السنوات الأخيرة، وظلت تعمل بنشاط إلى أن عُقدت المعاهدة بين سورية وفرنسا في سنة 1936، فأوقفت أعمالها.

وكانت مساعيها طول هذه المدة متجهة إلى التوفيق أو التقريب بين الأسرتين المالكتين في العراق والجزيرة، فلم تترك وسيلة من الوسائل التي تؤدي إلى هذه الغاية إلا توسلت بها على غير طائل. وكنت شخصيًا أميل إلى إلقاء تبعة الخلاف بين الأسرتين على ابن السعود بتأثير الدعاية التي كانت تُبث ضده. وبقيت على هذه الحالة إلى أن قال لي الأمير زيد يوم كنا نفكر في وضع كتاب عن النهضة العربية: «لا أستطيع مساعدتك على وضع هذا الكتاب في حياة والدي، لأن ما سأذكره عن علاقته بابن السعود لا يُرضيه».

هذه العبارة كشفت لي أن ما كنت أسمعه عن العاهل الوهابي لم يكن صحيحًا، فالقول بأنه كان عاملًا للإنجليز أثناء الثورة العربية، وإنه رفض الانضمام إليها لغرض في نفسه، وإنه هو الذي عرقل سيرها وحال دون نجاحها، لا لسبب سوى النكاية بالملك حسين... ذلك كان كله أو بعضه نتيجة لدعاية مغرضة ضد ابن السعود قضى عليها الأمير زيد ومحاها من ذهني بكلمة واحدة.

الملك عبد العزيز

وقد بدأت منذ ذلك الحين أتتبع أعمال العاهل الوهابي وأدرس شخصيته بنفسي على ضوء كلمة الأمير وما سمعته مرة من عزيز علي المصري يوم أطلعني على ما كتبه إليه عبدالله الدملوجي من الرياض بعد وصوله إليها. وقد أدى بي هذا الدرس إلى اكتشاف حقائق كثيرة عن هذا العاهل العظيم، أهمها في نظري

التوفيق الذي رافقه طول حياته. فقد قلت في نفسي: «إن هذا التوفيق الذي ناله إما أن يكون نتيجة نبوغ وعبقرية لا يجوز إهمالها في حال ما، وإما أن يكون نعمة من الله عليه استحقها باخلاصه وحسن نيته، مما يجب أن يزيد الأمة احترامًا لشخصه وتمسكًا بآرائه».

وكنت كلما تعمقت في دراسة شخصية ابن السعود أزداد تقديرًا له. فالطريقة التي استرد بها إمارة نجد، والمشاق التي كابدها في حروبه الشديدة مع ابن الرشيد، وطرده الترك من الحساء [الأحساء]، وتمكّنه من القضاء نهائيًا على إمارة حايل التي كانت تؤيدها السلطنة العثمانية، ثم استيلاؤه على الحجاز وعسير، وحربه وصلحه مع اليمن وتدخله بعد ذلك في الشؤون العربية بالتدريج تدخلًا أكسبه عطف العرب جميعًا وضاعف احترامه واجلاله في العالم كله، كل ذلك رفعه في نظري إلى مكانة عظماء العالم. فلما تبينت ما في هذا الرجل من صفات الشجاعة والحكمة والحزم والصبر على الشدائد وبُعد النظر في الأمور وعلو الهمة والطموح إلى المجد وغيرها من الصفات المقرونة بتوفيق من عند الله لم يفارقه طول حياته، وبكل ما يحببه إلى القلوب من الكرم والتواضع والتسامح، قلت في نفسي: «إن في التقريب بين الأسرتين السعودية والهاشمية فائدة كبرى للعرب قد تستعجل نجاح قضاياهم». وبدأت أسعى جهد طاقتي مع الساعين في هذا السبيل.

وقد كنت أتحدث في الموضوع مع الملك فيصل كلما اجتمعت به، فأرى منه تحمسًا واعتقادًا بأن الاتحاد بين العرب هو الوسيلة الوحيدة إلى النجاح، وأن من واجبه هو السعي إلى الاتفاق مع ابن السعود. فلما سمعت بنبأ اجتماع العاهلين في خليج البصرة[259]، كدت أرقص طربًا، وإن كنت أعلم أن الوحدة العربية لا تعلن على ظهر سفينة بريطانية. ولكني قلت في نفسي: «إنها الخطوة الأولى وإنه يجب استعجال الخطوات التي تليها». وصرت أضاعف الجهود المضنية في هذا السبيل مقتديًا في ذلك بنملة لافونتين المشهورة التي استطاعت أن تجر عربة النقل الضخمة إلى أعلى الجبل بإشراك جهودها مع جهود آخرين خصصت للقيام بهذه المهمة. وكما أن النملة لا تستطيع أن تزعم أنها هي التي دفعت العربة إلى القمة، كذلك أنا لا أستطيع إلا القول بأن ما فعلته لا يزيد على ما فعلته هذه النملة، ولكني أرفع رأسي فوق كل رأس مفاخرًا بما أردت أن أفعل، وبأني بذلت في سبيل ذلك كل قواي، ولا كلّف الله نفسًا فوق طاقتها.

كنت أنتهز كل فرصة لتنقية الجو وتصفيته، وتكذيب الإشاعات المغرضة والحوادث المختلقة، ونقل الأخبار الطيبة إلى كل من الفريقين ومحاولة تحبيب كل منهما بالآخر. وأذكر كلمة سمعتها من الملك علي يوم اجتمعت به في بورسعيد ونشرتها في جريدة **الأهرام**، وهي قوله: «إن عبد العزيز هو خير من يستطيع أن يحكم الجزيرة العربية، فأدعو له بالتوفيق». وكان ذلك بعد خروجه من الحجاز بقليل. وقد تركت هذه الكلمة أحسن أثر في نفس ابن السعود وجماعته تردد صداه في كثير من أقوالهم وأفعالهم.

وزرت مرة بغداد وكان الشيخ إبراهيم بن معمر[260] سفيرًا للملكة السعودية فيها، وكان صديقًا قديمًا لي، فلما سمع بقدومي أسرع إلى مقابلتي، وأحاطني بعطفه وعنايته. ورأيت أنه غير مرتاح إلى علاقة العراق بمليكه، وأنه يصدق كل ما يسمعه وينقله حرفيًا إلى حكومته. ولم يكتم عني ذلك بل كان يروي لي كل يوم إساءة من العراق للملك ابن السعود، ويؤكد لي صحة وقوعها، ويذكر لي المصادر التي استقاها منها والأشخاص الذين نقلوها إليه.

وكنت أكذّب كل ما أسمعه منه في هذا الموضوع وأعده بتقديم الأدلة القاطعة على عدم صحته. وقد قلت له: «إن مهمتك في بغداد هي التقريب لا التفريق بين الدولتين، وإنه لا يجوز أن تنقل إلى مليكك كل ما تسمعه على علاته من دون تعليق، وإلا كنت عدوًا لبلادك لا خادمًا لها». فقال: «ماذا تريد أن أعلق على حادثة طرد السوري من الموصل لأنه أبى أن يشتم ابن السعود، والسوري الآخر الذي أُمر في كربلا أن يلعنه فلم يفعل؟ وقد كان عقاب الرجلين السجن والضرب ثم الطرد من العراق». ولما نطق باسم الرجل الذي نقل إليه هذين الخبرين صحت بأعلى صوتي أنه خسيس كاذب ولن أجلس معه غدًا على مائدتك إذا كان من المدعوين.

وخرجت من السفارة السعودية رأسًا إلى دار جميل المدفعي، وسألته: «لماذا تسيئون إلى السوريين إلى هذا الحد؟ أهذا جزاؤهم عندكم؟». ونظر إليّ بدهشة نظرة استفسارية فذكرت حينئذٍ قصة الرجلين قائلًا إنهما طُردا من العراق لأنهما سوريان وليس لهما ذنب آخر. وغضب جميل وقال: «هذا افتراء. إنهم يكذبون عليك».

وجاءني جميل بعد الظهر وقال: «إن ما بلغك عن طرد الرجلين من العراق صحيح. ولكنهما لم يُطردا لأنهما سوريان بل لأن أحدهما خطب في أحد مساجد الموصل داعيًا إلى ذبح المسيحيين، والثاني لأن أهل كربلاء ثاروا عليه وهو يدعوهم إلى الكفر والإلحاد، فاضطرت الحكومة إلى اعتقاله بضعة أيام قبل ترحيله، لحمايته من الشعب. فهل يُغضبك هذا؟».

ولما تحققت مما قاله جميل بك ذهبت إلى السفارة السعودية وقلت للسفير كلامًا لم يسمعه من غيري. ولم اكتفِ بذلك بل كتبت إلى صديقي فؤاد حمزة، وكان وكيلًا للخارجية، خلاصة هذه الحادثة وقلت له: «إن السفير السعودي في بغداد شملني بعطفه وأغرقني بكرمه فليس من عرفان الجميل أن أغتابه. ولكني لا أستطيع إلاّ أن أرجو منك بذل كل ما في طاقتك من جهد للحيلولة دون إطلاع جلالة الملك على التقارير التي ترد عليه من بغداد». وقد رد علي فؤاد بكتاب قال فيه: «أما بشأن تقارير بغداد فجلالة الملك يلقيها دائمًا في سلة المهملات دون أن يتصفحها. فهوّن عليك الأمر».

واستقالت مرة وزارة العراق على إثر خطبة ألقاها يس الهاشمي، وكان وزيرًا للمالية، وتعذر إيجاد وزارة تحلّ محلها. فاشتدت الأزمة وتفاقم الخلاف بين الدولتين [العراق وبريطانيا]. وقبل أن ينقضي على ذلك أسبوع، انتشرت إشاعات تناقلتها أسلاك البرق والصحف في كل مكان عن حشد القوات السعودية على حدود العراق للضغط عليه وإكراهه على قبول وجهة النظر الإنجليزية. فهالني الأمر وكتبت إلى فؤاد حمزة أقول: «إن ما يُشاع عن موقف الملك عبد العزيز تجاه الأزمة العراقية البريطانية لا يُمكن تصديقه، كما أنه لا يمكن السكوت عنه أو الصبر عليه. فلا بد في هذه الحالة من عمل قوي يقضي على ما قد يتركه من أثر في نفوس الأمة العربية ويحيي فيها الآمال التي أوشكت أن تبددها الأكاذيب».

ولم تمض أيام قليلة على إرسال هذا الكتاب حتى نشرت الصحف تصريحًا للملك عبد العزيز هذه خلاصته: «إن بيننا وبين العراق خلافات كثيرة. ولكنها خلافات بين الإخوة. أما خلافاته مع الآخرين فنحن معه فيها إلى النهاية».

وكان رشيد الخوجة قنصلًا للعراق في مصر، فلفتَّ نظره إلى هذه البرقية وطلبت منه أن يُرسل عددًا من الصحف التي نشرتها إلى بغداد. ثم ابتعت عدة نسخ وأرسلتها إلى بعض أصدقائي فيها. وقد كان لذلك وقع عظيم في العراق وسائر البلاد العربية.

ولما قام فيصل الدويش بثورته الكبرى ضد ابن السعود، كتب إليّ فؤاد حمزة يقول إن العراق يمّد هذا الثائر بالسلاح والمال. ثم ذكر لي الأدلة التي تؤيد هذا القول. فنقلت عن هذا الكتاب أهم فقراته وقدمت لها بكلمة إلى يس الهاشمي قلت فيها: «لما اشتدت الأزمة بين العراق والإنجليز، وقف ابن السعود إلى جانب العراق وأعلن موقفه هذا بصراحة أثارتهم عليه وحملتهم من ذلك الحين على البدء في مناوأته والكيد له. والآن وقد قامت الثورة ضده بمساعيهم لتحقيق أغراض يبغون منها القضاء على مستقبل العرب وكيانهم، فهل تقبلون أن يضع العراق يده في أيدي جلادي العرب لمساعدة ثائر جاهل متعصب على ملك أبي كريم جاهر الإنجليز العداء في سبيل مصلحة العرب». وشفعت هذه الكلمة بالتصريح الذي أفضى به الملك ابن السعود، وقلت: «هذا ما قاله يوم كنتم في محنة، أما ما تفعلونه أنتم فهذا بعضه». ثم نقلت إليه ما جاء في كتاب فؤاد حمزة هكذا:

في يوم كذا خرج فلان من محلة كذا في بغداد ومعه عدد كذا من البنادق.

وفي يوم كذا تسلم فلان مبلغ كذا من المال.

وفي يوم كذا قبض على فلان في طريقه إلى الدويش فاعترف بكذا وكذا إلى آخر ما جاء في تلك اللائحة الطويلة.

وقد تلقيت على كتابي هذا ردًا مستعجلًا من يس الهاشمي جاء فيه: «ساعة وصول كتابك ذهبت إلى البلاط وأطلعت الملك عليه، وبعد مناقشة طويلة طلب مني أن أؤكد لك أن فيصل الدويش لن يتلقى أية مساعدة من العراق بعد الآن. ويمكنك أن تؤكد هذا الأمر لمن تشاء». وقد أرسلت خلاصة هذا الكتاب إلى فؤاد حمزة. ولا ريب في أنه عرضه على مليكه وأنه كان موضع سرور الجميع.

---

(252) جبرائيل تقلا (1891-1943): من عائلة تقلا اللبنانية التي أسست جريدة **الأهرام**. انتخب نقيبًا للصحافة المصرية في عام 1919.

(253) هيليوبوليس (Heliopolis) هي مصر الجديدة، شرق القاهرة.

(254) طاق كسرى أو إيوان كسرى: الأثر الباقي من أحد قصور كسرى أنو شروان جنوب مدينة بغداد، وهي تدعى طيسفون.

(255) جعفر أبو التمن (1881-1945): سياسي عراقي، شارك في ثورة العشرين ضد الاحتلال البريطاني. من مؤسسي حزب الإخاء الوطني. تقلّب في مناصب وزارية عدة.

(256) فيصل الدويش (1880-1931): حارب قوات عبد العزيز آل سعود وشارك في السيطرة على الحجاز. وكان أحد قادة «الإخوان» المقاتلين في صفوف آل سعود. اصطدم مع عبد العزيز، وخاض معارك ضده حتى سُحق تمرده واستسلم. توفي في السجن بعد أن سلمه الإنكليز لابن سعود.

(257) الملك فؤاد الأول (1868-1936): ابن الخديوي إسماعيل. درس في تورينو بعد نفي والده إلى إيطاليا. تسلّم العرش في عام 1917، له الكثير من الإنجازات المدينية والعمرانية.

(258) ثورة الآشوريين: في أعقاب المعاهدة العراقية - البريطانية في عام 1933، تمرد الآشوريون الذين شعروا أنهم تُركوا بلا حماية، وأن البريطانيين لم يلحظوا إقامة حكم شبه ذاتي لهم. وكانت ردة فعل الحكومة (برئاسة رشيد عالي الكيلاني) عنيفة. وقام الجيش العراقي بحملات في مناطق وجود الآشوريين أسفرت عن مقتل المئات.

(259) إشارة إلى اجتماع الملك عبد العزيز آل سعود والملك فيصل على ظهر سفينة بريطانية، وتوقيع معاهدة سلام ومصالحة في 22 شباط/فبراير 1930.

(260) إبراهيم بن معمر (1878-1958): رئيس الديوان الملكي في المملكة العربية السعودية وسفيرها في العراق.

الفصل الحادي عشر
قصتي مع نوري السعيد

نوري السعيد على حقيقته

لما جاء نوري السعيد إلى مصر بعد ثورة بكر صدقي[261] - نوري السعيد نفسه الذي أذكر هذه الحوادث للرد على افتراءاته عليّ - طلب مني أن أسعى لكي يشمله ابن السعود بعطفه، فيدعو أسرة جعفر العسكري إلى بلاده، أو يعهد إليه هو بأي عمل سياسي. وراقني هذا الطلب فكتبت إلى فؤاد حمزة بذلك. وتلقيت الرد بعد قليل وفيه أن جلالة الملك سره اقتراحي كثيرًا لأنه يعرف نوري باشا، وهو يريد الآن أن يعرف مني شيئًا عن أحواله الشخصية. وقد طلب الى فؤاد حمزة أن أذكر له ما أعرفه في هذا الصدد. وأطلعت نوري السعيد على كتاب فؤاد حمزة بعد أن اعتذرت له عن إثارة الموضوع بدون علم منه، كما أطلعته على ردي عليه. وقد كان ذلك من أهم الأسباب التي قربت نوري السعيد من الملك عبد العزيز فترة من الزمن.

وجاءني نوري بعد أيام طالبًا إلي أن أجمعه بأحد المقربين من الملك ابن السعود، كالشيخ كامل القصاب مثلًا، ففعلت ودعوتهما لتناول الغداء في اليوم التالي في منزلي، واختلينا نحن الثلاثة بعد الغداء، فتكلم نوري عن فظاعة الحكم في العراق وكيف أنه يعمل على هدم الفكرة العربية والقضاء على القائلين بها في الشبيبة والجيش. ثم قال: «إن هذا الحكم سينهار حتمًا إذا أرسل الملك ابن السعود إلى بغداد مدفع متراليوز بالبريد السياسي وأمر بتسليمه إلى شخص أختاره أنا».

وابتسم الشيخ كامل القصاب، وأصبت أنا بذهول شديد لأني لم أكن على علم أن نوري السعيد أضاع صوابه إلى هذا الحد. فنهضت حينئذ وقلت: «إن هذا الاقتراح يا باشا لا يُمكن عرضه على الملك عبد العزيز، فلنعتبره إذن كأنه لم يكن». ثم انتقلنا إلى أحاديث أخرى إلى أن انتهى الاجتماع.

وأفظع مما تقدم اقتراح نوري باشا على أحد زعماء العراق، فإن جميل المدفعي سافر مرة على رأس وفد عراقي إلى اليمن ومرّ بالقاهرة في طريقه إليها، واجتمعنا به فيها، ولم يكن ينوي المرور بها في طريق العودة. ولكن نوري باشا طلب مني أن أدعوه إليها بإلحاح وإصرار لمسألة خطيرة وفعلت، وجاء جميل المدفعي وسألني عن سبب البرقية فأخبرته، وذهبنا معًا إلى «الذهبية» حيث كان يقيم نوري السعيد.

وما كان أشد دهشتي حينما طلب نوري السعيد إلى جميل المدفعي أن يحمل أبناء شقيقته (أو شقيقه لا أذكر) على اغتيال بكر صدقي. وقد أجيب على هذا الطلب بأن لك أبناء شقيقة من الشبان الأشداء الذين قتل هذا الرجل والدهم اغتيالًا، فلماذا تريد أن ينتقم غيرهم لك ولهم، وأين المنطق في ذلك؟.

وزرت العراق بعد اغتيال بكر صدقي. ويذكر جميل المدفعي الذي كان حينئذٍ رئيسًا للوزارة بأية لهجة تحدث معه ومع إبراهيم كمال[262] وزير ماليته في دفع التهم التي كانا يُكيلانها لنوري السعيد، وفي المطالبة بتحسين معاملته. وكان تحسين العسكري قد صحبني في زيارته بعد وصولي إلى بغداد ثم طاف بي في حديقة داره لأرى رجال البوليس المقيمين فيها لمراقبته.

ومما قاله نوري السعيد حينئذ، وقد بلغه نبأ اهتمامي به، أنه سيعتزل السياسة نهائيًا في عهد الملك غازي[263]. ولما نظرت إليه نظرة شك واستغراب قال: «أنت ترى أن عندنا جهلًا وقلة أخلاق، أما جيراننا – ويقصد السعوديين– فعندهم جهل وأخلاق فهم خير منا. والعمل معهم أفضل من العمل مع جماعتنا». وقد نقلت كلمة نوري السعيد هذه إلى الأمير فيصل آل سعود رغبة مني في تصفية الجو بين البلدين.

ودعيت إلى حفلة تأبين الملك غازي. وطلب إلي نوري السعيد ثاني يوم الحفلة أن أذهب معه لتناول الغداء، في داره حيث يتسع لنا الوقت للكلام إلى أن يحين موعد الشاي الذي يقيمه علي جودة وزير الخارجية في الساعة الرابعة بعد الظهر.

وجلسنا في الحديقة بعد الغداء وتحدثنا بصراحة في كل شيء: في وفاة الملك وأسبابها، وفي الوصاية على العرش وما يقال فيها، كما تحدثنا عن أحوال البلاد الداخلية والخارجية وعن علاقة الإخوان بعضهم ببعض، وعن مركز القضية العربية والجهود التي يجب أن تُبذل في سبيلها، وعن العلاقات بين الدول العربية وتعزيزها.

وكان الأستاذ أسعد الفقيه[264] سفيرًا للمملكة السعودية في بغداد وصديقًا لي. وقد فهمت منه أن العلاقات غير حسنة بين السعودية والعراق، وأن هناك مذكرة شديدة وصلت إلى بغداد، ولم أعرف شيئًا عن فحوى تلك المذكرة ولم أحاول ذلك، ولكني انتهزت فرصة وجودي مع رئيس الوزارة العراقية وقلت:

– لماذا يا باشا هذا التوتر المستمر في العلاقات بينكم وبين الملك ابن السعود؟

– إنه رجل بدوي، إذا سُرق لأحد رعاياه جمل، لرد هذا الجمل في الحال، ونحن لا نستطيع ذلك إلا بعد محاكمة السارق وثبوت الجرم عليه.

فقلت: «يستطيع الملك عبد العزيز أن يدفع ثمن الجمل الذي يُسرق لأحد رعاياه، كما أنكم تستطيعون أداء هذا الثمن إلى أن يُسترد من السارق، فالمسألة ليست هنا، المسألة في نظري مسألة ثقة فقط».

وبعد بحث طويل قال:

– ماذا تقترح الآن؟

– أن تذهب إلى الرياض وتتحدث إلى الملك عبد العزيز بكل صدق وإخلاص وأن تعمل معه دائمًا على هذا الأساس.

– أنا مشغول وأمامي انتخابات نيابية قريبة، فاقترح عليّ من يستطيع القيام بهذه المهمة.

– أقترح ناجي السويدي رئيسًا للوفد الذي تنتدبه إلى الرياض.

– إنه خرف، فسمِّ غيره.

– ما دام أنه خرف، فلست أدري من هو الذي بقي عاقلًا في العراق.

– اذا استطعت أن تقنع صديقك جميل بالسفر فأنا مستعد لمنحه جميع «الصلاحيات».

– إذا رأى جميل أن الحالة خطرة قَبِلَ هذه المهمة عن طيبة خاطر بدافع من وطنيته.

– يهمني جدًا أن أعرف رأيه الليلة، فاذهب وقابله الآن، وسأكون في منزل فلان حتى الساعة العاشرة، وبعد ذلك في منزلي. وتستطيع أن تخاطبني بالتليفون أو توقظني من النوم في أية ساعة شئت لهذا الغرض، ما دمت ترى في ذلك مصلحة قومية.

وكان موعد الشاي قد فات، وحان موعد العشاء في السفارة المصرية في الساعة الثامنة. فقلت:

– إذا كان لك صديق يا باشا، مضى على صداقته ثلث قرن، ولم تر في حياته كلها أي غبار على إخلاصه لوطنه أو لإخوانه الوطنيين، فمثل هذا الصديق يستطيع أن يسألك ما يشاء.

- بالطبع وخصوصًا إذا كان هذا الصديق أنت.

- لماذ عزلت فلانًا؟

- أنه رجل دنيء لئيم لا شرف له ولا كرامة.

- إنه صديقي، ولا أريد أن أسمع عنه من هذا القبيل إلا ما يمكن اثباته.

- لما طُرِدت شقيقتي من بغداد لم يُحسن استقبالها في بيروت.

- لم يكن حينئذٍ في بيروت بل كان في كراتشي.

- لما اعتُقل حكمت سليمان[265] أبرق يقول إن الاستياء من هذا العمل بلغ أشده في سورية ولبنان.

- لما اعتقل حكمت سليمان أشيع في سورية ولبنان أن 85 ضابطًا ورئيس وزارة [سابقًا] أعدموا في بغداد، فهل تعتقد أن هذه الإشاعة تقابل بالسرور والابتهاج في دمشق وبيروت؟. ثم إن سعد الله الجابري الذي كان وزيرًا لخارجية سورية موجود هنا في بغداد الآن، فاسأله هل أقامت سوريا حينئذٍ الأفراح والليالي الملاح اغتباطًا بهذا الحادث. لو كنت أنا في مصر يوم راجت هذه الإشاعة لأرسلت إليك كتابًا من نار.

- يمكنك أن تفعل ذلك، أما هو فلا.

- إذا هو فعل ذلك قام بما يفرضه عليه الواجب، لا كوطني فقط، بل كموظف سياسي، أما أنا فأكون متطفلًا.

ونظر إلى نظرة عتاب وغضب ثم قال:

- اسمع يا أسعد، إما هو صديقك أو أنا، فاختر؟

ونظرت إلى الساعة في يدي وكانت الثامنة إلا دقائق قليلة وقلت:

- لقد اخترت يا باشا، وقد حان الآن موعد العشاء في السفارة المصرية. ثم نهضت وقلت: «استودعك الله يا باشا». فقال:

- أنا مدعو أيضًا وسنذهب معًا فانتظر ريثما أجيء بمعطفي. ثم نادى السائق الذي كان معي وطلب منه أن يسبقنا إلى دار السفارة المصرية.

وجلست في سيارته صامتًا بضع دقائق، والتفت إلي قائلًا: «لا تؤاخذني فقد كنت عصبيًا».

- يستطيع نوري السعيد أن يكون عصبيًا، أما رئيس وزراء العراق فلا.

ورآني في أثناء العشاء مع طه الهاشمي، فاقترب مني وهمس في أذني قائلًا:

- أرجو أن لا تنسى مقابلة جميل المدفعي بشأن الموضوع الذي اقترحته. فإنه يهمني كثيرًا وسأنتظر النتيجة حتى الصباح.

وقابلت السيد جميل في النادي، ولما عرف غرضي قال:

- لماذا تريد أن تنفيني من بغداد؟

- ليس هذا نفيًا بل هو سعي لإصلاح الحالة بين العراق وابن السعود بعد أن ساءت كثيرًا في الأيام الأخيرة.

- لقد كانت الحالة حسنة جدًا في عهد وزارتي، فلماذا لا تلقون التبعات على أصحابها.

- ليست المسألة مسألة وزارتك ووزارة غيرك، بل هي مسألة خلاف بين شعبين شقيقين وحكومتين يرجو العرب من تعاونهما كل خير.

- ولكني لا أعرف كيف ساءت هذه العلاقات ولماذا، وإلى أي حد بلغ الضرر.

– إن وزير الخارجية (وكان علي جودة الأيوبي) صديق لك فاذهب إليه غدًا وأطلب منه أن يطلعك على حقيقة الحالة، فإذا رأيتها حسنة لا خطر فيها فلا تقبل أن ينفيك أحد من بغداد، وإذا رأيت غير ذلك فقم بواجبك كله.

ووعدني بأن يفعل ذلك. وقد أبلغت نوري ما جرى وسافرت بالطائرة إلى القاهرة، وما كدت أصل إليها حتى كانت البرقيات قد سبقتني بنبأ ذهاب وفد عراقي إلى الرياض برئاسة السيد علي جودة وزير الخارجية، ففهمت من ذلك أن العراق كان حريصًا على تحسين علاقاته بالمملكة العربية السعودية، فنفذ اقتراحي بطريقة أكثر لباقة ولياقة من الطريقة التي اقترحتها.

تطور علاقاتي مع نوري السعيد

وكانت علاقاتي بنوري السعيد يوم تركت بغداد حسنة لم تتأثر بحادثة الصديق الذي ذهب ضحية ظلمه إلا تأثرًا وقتيًا. وما كنت أظن أنه بدأ من ذلك الحين يجهد ذهنه وخياله ليختلق لي التهم ويفاجئني بالعدوان، وذلك أنه وقع في أثناء وجودي في العراق حادث لم أعرف حقيقته إلا بعد أن مرت عليه سنتان أو أكثر، حين علمت من الدكتور أمين رويحة[266] أن الضباط الأربعة[267] الذين كانوا حينئذ مسيطرين على الجيش، تلقوا ذات يوم أنباء مؤلمة عن فلسطين، فقرروا أن يتحدثوا بشأنها مع رئيس الوزارة. وكان الوقت بعد العشاء، فخاطبوه بالتليفون طالبين منه مقابلة مستعجلة. وكان هذا الطلب من قِبل هؤلاء الأشخاص يعني في ذلك الحين شيئًا آخر غير البحث السياسي، وقد اضطرب الرئيس ولكنه احتفظ برباطة جأشه وقال:

- أنا في السرير، ولكن يمكنكم أن تشرفوا الآن إذا كان الموضوع مستعجلًا. أما إذا لم يكن كذلك فيسرني الاجتماع بكم غدًا.

- نحن ذاهبون الآن ولن نضايقكم سوى بضع دقائق.

ولما وصل الضباط الأربعة إلى دار نوري السعيد وجدوه في انتظارهم قلقًا مضطربًا، ولكن قلقه تحول إلى طمأنينة حينما سمع أحدهم يقول:

- لماذا يا باشا كل هذا الإهمال لقضية فلسطين؟

- إننا باذلون أقصى الجهد في سبيل هذه القضية، ولكنكم تعلمون أن يدًا واحدة لا تصفق.

- كيف تقول هذا والأمة العربية كلها مصممة على التضحية بكل شيء في سبيل فلسطين.

- أين هي الأمة العربية يا إخواني؟. مصر منهمكة بشؤونها الداخلية، وسوريا غير موجودة، ولبنان مثلها، والأردن مستعمرة. فلم يبق غير العراق.

- وابن السعود أين هو؟ إن العراق وابن السعود يستطيعان وحدهما إنقاذ فلسطين، فلماذا لا تسيران معًا في هذا السبيل؟

- ابن السعود**!!**. سأتلو عليكم يا أخوتي المذكرة التي تلقيتها أخيرًا منه. وتناول السيد نوري المذكرة وتلاها على طريقة «لا تقربوا الصلاة» فقرأ منها ما خلاصته: «العالم مقبل على حرب هائلة ونحن ضعفاء محاطون بإعداء ألدّاء في مقدمتهم تركيا وإيران، وليس لنا في العالم سوى صديقين هما إنجلترا وفرنسا. فإذا شئنا أن نخرج من هذه الحرب سالمين فيجب علينا أن نتعاون معًا على إقناع إخواننا السوريين بقبول ما تريده فرنسا لهم، وإقناع إخواننا الفلسطينيين بالاكتفاء بالحل الذي تختاره إنجلترا لقضيتهم، وذلك لكي نتمكن من السير معهما متحدين متآزرين، فنكفل بذلك سلامة بلادنا ونجني ما يمكن جنيه من ثمار النصر المكفول لهما[268]**!!**..

فما سمع الضباط الأربعة ما تلاه نوري السعيد من هذه المذكرة حتى ثارت ثائرتهم على الملك ابن السعود.

وكان لا بد من وصول تفاصيل هذا الحادث إلى الرياض، حيث أثار السخط الشديد على حكومة بغداد والاشمئزاز التام من تشويه رئيسها لما ورد في مذكرة رسمية.

وكنت في القاهرة على جهل تام بكل ما جرى، أتبادل الرسائل الودية مع نوري السعيد كالعادة غافلًا عن كل ما يُدبّر في الخفاء.

وفي تلك الأثناء تلقيت عدة كتب من أصدقائي في دمشق تتضمن كلها سؤالًا واحدًا هو: «سمعنا هنا أن نوري السعيد أطلع بعض الوفود التي اشتركت في حفلة تأبين الملك غازي، على وثائق تثبت أن الملك ابن السعود قبِل رشوة من اليهود مقابل وعد منه بمساعدتهم في فلسطين. فهل سمعت أنت شيئًا من هذا، وماذا تعرف عن الموضوع كله؟».

ولم أعبأ بهذه الكتب في أول الأمر، ولكنها كثرت وأصبح مرسلوها من الذين لا يمكن إهمالهم، أمثال شكري القوتلي ورياض الصلح والحاج أديب خير وغيرهم، ثم تعدى الأمر دمشق إلى بيروت، فسألني كثيرون نفس السؤال، إلى أن نقلت **الأهرام** ذات يوم من مراسلها في بيروت برقية هذا معناها: «يردد دعاة السوء في هذه الأيام إشاعات مؤداها أن رئيس الوزارة العراقية أطلع بعض رؤساء الوفود التي اشتركت في حفلة تأبين الملك غازي في بغداد على وثائق تؤكد أن ابن السعود تفاهم مع اليهود على مسألة فلسطين مقابل

مبالغ من المال. وليس من شك في أن هذه الإشاعات كاذبة من أساسها. وأن نوري السعيد الذي يعرف حقيقة العاهل السعودي وعلو همته وصدق وطنيته لا يسعه أن يصدق مثل هذه التهم فضلًا عن أن ينقلها، كما أن الملك عبد العزيز وهو في نظر العرب فوق كل الشبهات، لا يمكن أن يرقى إلى وطنيته أي شك أو أن يكون موضوع ارتياب. وينتظر العارفون الآن أن لا يسكت رئيس الوزارة العراقية على ما نقل عنه زورًا وبهتانًا».

ولما وصلت إليّ هذه البرقية كان عوني عبد الهادي في مكتبي في **الأهرام**، فأطلعته عليها وسألته رأيه فيها وفي نشرها. فقال: «قد لا يسر نشرها صديقنا نوري، ولكن هذا الدمل يجب أن يُفقأ». ثم قال: «هيا بنا إلى المقهى». فأودعت البرقية وما كان أمامي من أوراق في أحد أدراج مكتبي وقمت مع عوني على أن أعود بعد قليل، ولكني شغلت. فلما رأيت أني لا أستطيع العودة، لجأت إلى التليفون ورجوت من أحد زملائي أن يتصرف بالأوراق التي على مكتبي أو في الدرج الأيمن منه. وقد نسيت أن أذكر البرقية أو أن أشير اليها.

وتناولت **الأهرام** في اليوم التالي، وإذا بالبرقية منشورة بلا تعليق. فلمت نفسي لأني نسيت أن أنبّه زميلي إلى تأجيل نشرها. ولكني عدت فقلت ما سبق وقاله عوني: «إن هذا الدمل يجب أن يُفقأ».

ولم أكن أتوقع لنشر هذه البرقية ما أحدثته من ضجة وضوضاء، بدأت بدعوة السفارات والمفوضيات السعودية في جميع العواصم العربية، الزعماء والصحفيين وكبار المشتغلين بالشؤون العربية إليها، لإطلاعهم على نص مذكرة سرية بعثت بها حكومة الرياض إلى حكومة بغداد.

وزرت السفارة السعودية في القاهرة مع زائريها، واطلعت مع من اطلعوا على هذه المذكرة، ولكني أبيت أن أنشرها كاملة في **الأهرام** لأن فيها إشارة صريحة إلى اعتقاد الملك بأن تركيا وإيران من أعداء العرب. ولذلك اكتفيت بتلخيصها متجاوزًا عن تلك الفقرة، ثم رجوت من أحد أصدقاء الملك ابن السعود أن يلفت نظره إلى ما في نشر المذكرة من ضرر.

نوري يهاجمني في الصحف

وكنت أظن أن الأمر سيقف عند هذا الحد، ولكن الملك عبد العزيز لم يكتف بنشر المذكرة السرية بل أرسل إلى نوري السعيد مذكرة أخرى شديدة اللهجة، لم يستطع نوري أن يتمالك دموع الغيظ والقهر لدى قراءتها. فأرسل الى معروف الأرناؤوط صاحب جريدة **فتى العرب** الدمشقية، وكان وقتئذ في بغداد، يدعوه إليه، وأملى عليه مقالة نارية ضد «صحفي في جريدة كبرى بالقاهرة له اتصال بجميع رجالات العرب، الذين عرفوه في الماضي بإخلاصه وصدق وطنيته، ولكن أموال الأجانب أغرته على ما يظهر فوضع قنبلة في أساس العروبة والإسلام، لولا حكمة رئيس وزارة العراق لانفجرت وعم خرابها الشرق كله». ولم يذكر نوري السعيد في تلك المقالة اسم ذلك الصحفي، ولكنه وصفه وصفًا جعل الجميع يدركون تمامًا من هو المقصود.

ثم استكتب إحدى الصحف العراقية في الموضوع نفسه دون أن يذكر الاسم أيضًا. وكان صاحب تلك

الجريدة عبد الغفور البدري متغيبًا عن بغداد. فلما اطلع على المقالة عرف من هو المقصود فيها، فأرسل إليّ كتاب إعتذار مبينًا عزمه على القيام بحملة ضد نوري السعيد ولو أدى الأمر إلى إعدامه. فشكرته ورجوت منه ألا يفعل لأن الحالة الدولية تنذر بحرب عالمية تقضي علينا بالترفع عن أمثال هذه السفاسف والمهاترات.

ولكني كتبت في الوقت نفسه إلى بعض أصدقائي في بغداد شاكيًا لهم افتراءات نوري السعيد عليّ، وراجيًا منهم أن يسألوه عن سببها. وقد طلبت من طه الهاشمي بنوع خاص أن يسمح لي بوضع كراسة صغيرة أنقل فيها بضع فقرات من كتب أخيه المرحوم يس الهاشمي إلي، تضع حدًا لمحاولات نوري السعيد القائمة كلها على أساس الافتراء والتضليل.

وقد رد طه عليّ راجيًا مني ألا أهتم بهذه الحملة الموجهة ضدي لأن العراق يعرفني، فلن يكون لها أي تأثير فيه، ولأن القائم بها معروف لا يجد من يصدّقه، ولأن العالم مقبل على حرب تقضي على كل وطني أن لا يشغل الرأي العام العربي بمثل هذه الأمور.

وكتب إليّ جودت يقول: «هل عرفت الآن من هو نوري؟ وهل علمت أني كنت على حق في كل ما قلته لك عنه؟».

وحاولت مرارًا أن أعرف السبب الحقيقي لانقلاب نوري السعيد عليّ، وقد تدخل في ذلك كثيرون من الأصدقاء، في مقدمتهم عوني عبد الهادي وتحسين العسكري وعبد الستار الباسل وغيرهم. فكان هو ينكر أن بيننا أي خلاف ويقول إنه على استعداد لزيارتي في كل حين. وكنت أقول لهم إن المسألة ليست مسألة زيارة، فهو قد اتهمني بأني وضعت في أساس العروبة والإسلام لغمًا كان يكفي لنسفهما معًا لو لم يتداركه هو بحكمته ويحول دون انفجاره، وإن أموال الأجانب أغرتني ودفعتني إلى هذه الخيانة العظمى، فأما أن يثبت لي ذلك أو أن يعترف بخطئه وافترائه، وحينئذ يمكن أن أتناسى سيئاته.

وكان حينما يجتمع بي في مصر يعاملني معاملة الصديق، كأن لا شيء بيننا، ويتحدث معي في الشؤون العربية كما كان يتحدث في الماضي. أما أنا فكانت علاقتي به علاقة تحفظ ومجاملة وخصوصًا أمام الأصدقاء.

مثال ذلك أني اتفقت مرة مع عوني عبد الهادي وتحسين العسكري على تناول الغداء في قهوة الحمام. ثم ذهبا لزيارة نوري السعيد، وقد خاطبني أحدهما بالتليفون على مسمع منه طالبًا أن ألقاهما في القهوة المذكورة. فقال لهما نوري: «أنا أحب الحمام فمن منكما هو الداعي؟»، فأجاب عوني: «لا فرق بيننا، فإما أن أكون أنا أو تحسين أو أسعد، فتفضل معنا». فقال بعد أن سمع اسمي: «لو لم أكن مدعوًا لذهبت معكم، ولكننا بعد غد – الجمعة – سنرجو من خير الدين الزركلي أن يدعونا جميعًا إلى تناول (الكبيبة) عنده». ولم يكن خير الدين حينئذ معهم. وقد استغرب عوني أن تكون الكلفة مرفوعة إلى هذا الحد بين نوري السعيد وخير الدين الزركلي.

ولبى الثلاثة الدعوة، أما أنا فلم أذهب. ولما حان موعد الغداء ولم يحضر أحد غيرهم، فتح خير الدين باب الصالون ودعاهم لتناول الطعام. فسأل نوري: «أنحن وحدنا على المائدة؟». فقال خير الدين: «لم أدعُ أحدًا من الوزراء والسفراء لاعتقادي أنكم تفضلون أن تكون الدعوة عائلية». فقال نوري: «لم أقصد هؤلاء

الذين ذكرتهم، لكني تساءلت عن أسعد». فقال خير الدين: «إن أسعد يعتبر هذا المنزل منزله، ولكني لم أخبره لأن عوني ذكر أمامي أن بينكما شيئًا من الجفاء». فقال نوري: «أبدًا، فإن صداقتنا لا يمكن أن تتبدل».

وبعد بضعة أيام دعانا عبد الستار الباسل إلى مأدبة غداء كان فيها نوري السعيد وعوني عبد الهادي، وقد جلسا إلى يمين الداعي ويساره. ولما لم يرني الداعي التفت إلى عوني قائلًا: «أين أسعد يا عوني؟»، فالتفت عوني إلى نوري وسأله: «إلى متى يا باشا هذا الجفاء؟». فقال نوري: «أي جفاء؟ لقد كان عندي الآن في السفارة». وبالفعل كنت يومئذ في السفارة، ولكن بزيارة تحسين العسكري.

نوري السعيد والجامعة العربية

وكان كل مرة يقابلني فيها، يتحدث إليّ ويظهر لي كل ود وثقة كما كان يفعل في الماضي، ويتظاهر بأنه يفضي إليّ بكل أسراره وآرائه وأفكاره. ولكنه في الوقت نفسه أعلن حربًا على جامعة الدول العربية بسببي وبسبب عبد الرحمن عزام الأمين العام، فلما علم بأننا قررنا مع بعض الوطنيين العراقيين الدعوة إلى عقد مؤتمر عربي عام، وأنه تم تأليف لجنة تحضيرية لهذا المؤتمر من بعض كبار الوطنيين المصريين، أرسل إلى كل من دول الجامعة العربية مذكرة طلب فيها التعاون مع حكومة العراق وسائر الحكومات العربية في الضغط على مصر لمنع هذا المؤتمر، لما فيه من خطر على كيان جامعة الدول العربية. كما احتج على الجامعة لأنها قررت عقد مثل هذا المؤتمر الخطير دون أن تخبر العراق بذلك، مع علمها بأن العراق عضو فيها لا يجوز إهماله.

وقصة نوري السعيد معي ومع هذا المؤتمر غريبة جدًا. فقد اتهم جامعة الدول العربية بأنها هي التي قررت عقد المؤتمر دون استشارة العراق من جهة، ثم اتهم المؤتمر بأنه يرمي إلى هدم هذه الجامعة فكيف يمكن تفسير هذا التناقض؟

والحقيقة أنه رأى في هذا المؤتمر تأييدًا كبيرًا للجامعة العربية التي بدأ يناهضها بإيعاز من الإنجليز بعد أن رفضت أن تكون آلة في أيديهم. فقرر معارضته، ولم يترفع في سبيل ذلك عن الافتراء وتشويه الحقائق لاستغلال مجاملة مصر له وضعف حكومتها حينئذٍ تجاهه. وقد وجد في مساعده فاضل الجمالي[269] خير مساعد له في ذلك.

واستمرت الأمور على هذه الحالة بين السيد نوري السعيد وبيني، جفاء مكتوم تحجبه مظاهر الصداقة. وقد بحثت كثيرًا عن السبب في ذلك فلم أجده، وكثيرًا ما كنت ألجأ إلى الحدس والتخمين فتكذبني الحوادث. وجعلت أتلمس الدافع لذلك عند أصدقائي، فلم أظفر بما يروي غليلي.

وساءت العلاقات بين جامعة الدول العربية والعراق بمساعي نوري السعيد. وأخذت الحالة تتحرّج إلى أن أصبحت شديدة الخطر على علاقات الدول العربية بعضها ببعض، والذين شهدوا اجتماعات جامعة الدول العربية في تلك الأثناء كان يُخيّل إليهم أنهم في ميدان حرب باردة، لا في مباحثات بين إخوة.

وخشيت عاقبة هذه الحالة، ورأيت من واجبي أن أعمل على معالجتها. فانتهزت فرصة مرور الأمير عبد الإله (الوصي حينئذ على عرش العراق)[270] بالإسكندرية في طريقه إلى أوربا وأميركا، واتفقت مع وجيه بيك - وكان أكبر

موظف في جامعة الدول العربية حينئذٍ - على السفر إلى الإسكندرية للترحيب بسموه باسمها (ذلك لأن الأمين العام عبد الرحمن عزام كان متغيبًا وقتئذٍ في أميركا). وبعد أن استقبلنا الوصي في مطار الإسكندرية، وكان برفقته نوري السعيد، عاد زميلي إلى القاهرة وبقيت أنا في الإسكندرية لتنفيذ الخطة التي رسمتها لنفسي. وفي طريق عودتي إلى الفندق التقيت بأحد أنجال جعفر العسكري، وهو ابن شقيقة نوري السعيد، فأقبل عليّ معتذرًا عن عدم تمكنه من السلام عليّ في المطار، وجعل يحدثني عن نوري السعيد ومبلغ حبه لي، وكيف أنه أثناء مرافقته إياه بالسيارة حتى فندق سان ستِفانو، كان يحقق ويدقق في الاستعلام عن شؤوني وأعمالي. وقد ظن صديقي الشاب أن خاله كان يفعل ذلك بدافع الود القديم، وبالغ في الإسهاب. فقاطعته بقولي: «هل تعرف أين يسكن عوني عبد الهادي؟». فلما أجاب بالإيجاب قلت: «خذني إليه أكن شاكرًا».

والتقيت بعوني وهو خارج من منزله، فعاد معي إليه وجعل يشدد في دعوة صديقي، ولكنه اعتذر. وبادرت عوني بالسؤال:

- هل سلّمت على سمو الوصي؟

فأجاب وقد تملكته الدهشة:

- وهل الوصي هنا؟

قلت:

- إنك سعيت يا عوني مرارًا لإزالة الجفاء القائم بين السيد نوري السعيد وبيني، وكنت أعارض في ذلك المسعى لاعتقادي بأن هذه المسألة شخصية. أما الآن وقد أدركت أن الضرر سيكون عامًا وسيؤثر في أعمال الجامعة العربية، فقد جئت لأرجو منك التدخل في الموضوع واستئناف مساعيك الطيبة.

واتفقنا على طريقة هذا التدخل، ثم انطلقنا إلى فندق سان ستِفانو لتحية الأمير. وقد دعوت سموه باسم جامعة الدول العربية إلى تناول الغداء في القاهرة، فاعتذر بأن السفارة البريطانية سبقت فدعته وهو في بغداد. وقال إن شاء الله سيكون ذلك في العودة، فيلبي الدعوة بسرور ويكون حينئذ عبد الرحمن [عزام] قد عاد.

مع نوري وجهًا لوجه

وكان نوري السعيد حاضرًا، ولما قمنا للانصراف وودعنا سمو الأمير، أسر عوني إلى نوري قائلًا: «نريد أنا وأسعد الاجتماع بك». فقال: «تفضلا». وسار معنا إلى غرفته حيث جلس بيننا. وأخذ عوني يحدثه عن فلسطين. وكان عليّ أن لا أتكلم، ولكن من حسن حظي أن جاءت إحدى قريباته وجلست إلى جانبي وجعلت تحدثني، مما سهل مهمة الصمت عليّ، وقد سأل عوني السيد نوري عن رأيه في قضية فلسطين. فأجاب أن لديه مشروعًا هو خير ما يمكن تحقيقه، فقال عوني: «وما هو هذا المشروع؟». فأجابه همسًا: «لا أستطيع أن أقول فإن أسعد يسمع». وهنا اقترب عوني منه وقال: «قل في أذني ما هو؟»، فأجاب: «لا أستطيع. لأن كل سر جاوز الإثنين شاع».

ودق سمو الوصي حينئذ باب غرفة نوري للخروج، فقمنا لوداعهما، وفي أثناء وداع السيد نوري لي قال:

«أريد أن اجتمع بك وحدك». قلت: «متى؟ وأين؟». فأجاب: «هنا اليوم في الساعة السادسة مساءً».

وفي الساعة السادسة وصلت إلى الفندق فوجدت نوري في انتظاري، وقد بادرني قائلًا: «إن المكان هنا مليء بالجواسيس، فهلم بنا إلى الحديقة». وقبل أن نجلس فيها قلت:

– أريد أن أتحدث معك خمس دقائق كما كنا نتحدث دائمًا. ولكني قبل أن تبدأ هذه الدقائق الخمس أتحداك وأتحدى كل انسان أن يجد في حياتي كلها أي غبار على إخلاصي لوطني أو صداقتي لإخواني الوطنيين. فإذا كان لديك أي دليل على عكس ذلك فقدمّه لأدحضه في الحال! فقال:

– أبدًا! فأنت كنت وستظل أحب الإخوان إليّ وأجدرهم بتقديري. أما شعورك بما أصبح بيننا من عدم الانسجام، فناشئ عن تبدّل في اتجاهاتنا السياسية لا في علاقاتنا الشخصية أو في الصداقة القديمة التي تربط بيننا. فقلت:

– ما هذا الكلام يا باشا؟ ان اتجاهاتنا واحدة لا يمكن أن تتبدل، وإن اختلفت الطرق أحيانًا. وقد يحيد أحدنا عن الطريق خطوة إلى اليمين أو اليسار، ولكنه لا يلبث أن يعود إليها في الحال. وأنت تعلم أننا لا نسير وحدنا، بل لنا إخوان وأصدقاء كثيرون يسيرون معنا في الاتجاه الذي نسير فيه، فكيف نتجاهل هؤلاء الأصدقاء ونهملهم وقد يكونون أقدر منا على خدمة الأمة؟ فابتسم وقال:

– يجب ألا نعيش دائمًا في الخيال، فأنت وأنا وجميع هؤلاء الأصدقاء لسنا في هذا العالم سوى حجارة شطرنج في أيدي ملوك طامعين وملوك حاقدين. قلت:

– إذا كنت تعتقد يا باشا أن هذه الأمة المؤلفة من تسعين مليونًا تضحي بكرامتها ومستقبلها وكيانها في سبيل أشخاص فأنت مخطئ، وإذا جعلت هذا الاعتقاد أساسًا لسياستك فأنت مجرم. فقال:

– أنا رجل عملي. أتلمس دائمًا الحقائق وأذعن للأمر الواقع.

– ولكن الاستهانة بالشعوب هي الخطأ الذي لا يجوز لرجل سياسي أن يقع فيه. وقد كنت أتوقع أن أراك الملك غير المتوج للأمة العربية، فأينما كنت وحيثما حللت، في مصر ولبنان وسورية والعراق والأردن، يكون لرأيك المقام الأول لدى حكومات هذه الأقطار، وكان ذلك ممكنًا لولا انهماكك بشؤون العراق المحلية والأخطاء التي اقترفتها في معالجتها. لقد قضيت حياتك في أعلى المناصب، فكنت أكثر من 16 مرة رئيسًا للوزارة، ونلت من المال ما أردت، وكان عهدي بك أنك في غنى عنه، وكان الجاه في متناول يدك فأخذت منه ما شئت، ولم يبق أمامك سوى تحقيق تلك الأمنية الغالية التي عشنا جميعًا ونموت في سبيلها، وهي حرية البلاد العربية ووحدتها واستقلالها. أَفلست ترى معي أن بعض سفاسف الحياة قد أبعدتك عنها؟

– إني أرى أننا نكافح بقرنين، أحدهما من طين والآخر من عجين. وهذا ما حملني على البحث عن أصدقاء أقوياء يمهدون أمامنا الطريق إلى المستقبل. وهؤلاء الأصدقاء هم إنجلترا في الدرجة.

– هذه فكرة قد تصلح أساسًا لسياسة معينة، فأعلنها على الناس لاتباعها.

– ليس في العرب جميعًا من يوافقني عليها.

– وبأي حق إذن تحاول أن تملي على الأمة فكرة لا يقرها أحد من أبنائها؟. أفلا ترى أن عملك هذا في مقدمة الأسباب التي نفّرت الأمة منك؟ أليس من العار عليك أن يُجمع العرب الآن على اتهامك بالخيانة دون أن يشذ منهم أحد؟

– أنا أعمل بمقتضى وجداني.

– إذا كنت تريد أن تعمل بمقتضى وجدانك دون أن تراعي أي اعتبار آخر فاذهب إلى الصومعة. أما إذا كنت تريد البقاء بيننا، هذا يرجو خيرك وذاك يخشى شرك، فلا يمكنك ان تعمل كما لو كنت في الحياة وحدك. والآن، لماذا أنت ناقم على جامعة الدول العربية؟ وما هو سبب عدائك لعبد الرحمن عزام ولي أنا أيضًا؟

- أما الجامعة فقد كانت ولا تزال من أقدس أمانيَّ، كما أن عبد الرحمن عزام من أعز أصدقائي، ولا أريد أن أتحدث عنك أنت، ولكن أخطاء الجامعة كثيرة، ورغبتكما في الإصلاح قليلة، والأمة تستعجلنا في سيرها إلى الأمام.

- اذكر لي خطأ واحدًا، وأنا أتعهد لك بإصلاحه في الحال.

ففكر طويلًا ثم قال:

- تأتينا الدعوة إلى اجتماع مجلس الجامعة قبل نصف شهر على الأكثر، فلا نستطيع أن نستعد الاستعداد الكافي له. ولو وصلتنا قبل شهر أو شهرين، لدرسنا موضوعاتنا بدقة وعاد اجتماعنا بفوائد أعظم.

فضحكت وقلت:

- أهذا هو الخطأ الذي تناوئها من أجله؟. إن ما تلقاه منك يدل على أن السبب أعظم مما قلت بكثير. وأنا أخشى أن يكون ناشئًا عن السياسة الإنجليزية، لأن إنجلترا لما أيقنت أنها لا تستطيع أن تسيطر على الجامعة قامت تناصبها العداء وتعلن عليها حربًا لا هوادة فيها، بواسطتك وبواسطة غيرك. وكان يجب على إنجلترا أن تعلم أن الجامعة المنبثقة من الأمة العربية، لا من تلك الحكومات الهزيلة التي تعرفها. لا تستطيع أن تكون مع الإنجليز ضد العرب، لا سيما وأن جميع القضايا العربية هي قضايا ضد الإنجليز. فإذا تعذر عليها إدراك ذلك، وبقيت أنت في سياستك الموالية للإنجليز، فأخشى أن تتفاقم الأمور كثيرًا في المستقبل. وكل ما أرجوه منك الآن أن تكون آداة خير بين العرب والإنجليز، وأن تحاول إقناع إنجلترا - وهي التي تعرفك خير صديق لها - بأنه يستحيل أن تطالب الجامعة بتأييد إنجلترا ضد العرب، أو بالتخلي عن المصالح العربية مراعاة لإنجلترا. أقول هذا وأنا أشعر بشدة الحاجة إلى الصداقة البريطانية، كما أشعر بإهمال عظيم لنا من جانب إنجلترا، ورغبة شديدة منها في اهتضام حقوقنا ومناصرة أعدائنا علينا، فإذا استطعت أن تفعل شيئًا في هذا الشأن، فإنك بذلك تقدم للفريقين أجلّ الخِدَم وأعظمها.

– إن جهودي في هذا السبيل ستكون غير مثمرة، ما دام قادة الأمور في معظم أقطارنا يناوؤون الإنجليز وينكرون فضلهم ولا يقدرونهم قدرهم.

– إن موقف العرب يمكن أن يتبدل إذا أمكن تعديل السياسة البريطانية، ولكن كيف تطلب من العرب أن يثقوا بإنجلترا وهم لا يرون منها غير سوء النية؟ فقد سيطرت على معظم بلدانهم، ووضعت يدها على اقتصادهم، واغتصبت أعز أقطارهم وأهدتها إلى شر شعوب الأرض، فكيف تريدهم أن يحبوها؟

– تستطيع إنجلترا أن تفيدنا أكثر مما تستفيده منا، مهما تكن تضحياتنا عظيمة في سبيلها.

– أعتقد أننا بذلنا كثيرًا من كرامتنا وحقوقنا وكنوز بلادنا ومن دمائنا أيضًا، في سبيل تنمية مصالحها والدفاع عنها، فكان جزاؤنا منها تحقيرًا لنا واهتضامًا لحقوقنا وممالأة للأعداء علينا، وجعل بلادنا لقمة سائغة للطامعين، والعمل على إذلالنا وإفقارنا إلى حد نعجز معه تمامًا عن المحافظة على كياننا والدفاع عن حقوقنا.

– قلت لك من سنوات، وأكرر ما قلته، وهو أننا عُمْنا مع الإنجليز، فلا بأس من أن نغرق معهم إذا اقتضى الحال. وهذه هي السياسة الوحيدة التي يمكن بها خدمة العرب. فإذا لم يرَ أحد منهم هذا الرأي، فالذنب ليس ذنبي.

– إذا لم يكن أحد من قومك على رأيك فلست منهم. وإذا عملت غير ما يريدون فإنك تخون عهدك لهم، وليس لأحد مهما عظم شأنه أن يفرض إرادته على أمته.

– أتريد أن ينقاد الزعماء إلى الغوغاء، وأن يسير القادة وراء الجهلاء؟ فكيف تصبح حالة العالم بعد ذلك؟

– الزعيم هو الذي يسيطر على العقول والقلوب بقوة الحجة وحسن الخلق وسداد الرأي. والقوة لا تخلق زعيمًا ولا تبرر عملًا.

– والآن ماذا تريدني أن أعمل؟

– إلى أين أنت ذاهب؟

– أنا ذاهب إلى أمريكا، فأنت أعلم مدى اهتمام العراق بقضية فلسطين وعزمه الصادق على إنقاذها.

– أنت ذاهب إذن للدفاع عن حقوق أهل فلسطين؟

– بكل قواي!.

– لقد قلت لك إن العرب جميعًا يعدونك خائنًا، وأهل فلسطين من العرب، فهل أخبرتهم بأنك ذاهب للدفاع عن قضيتهم؟.

– كيف يمكن ذلك؟ وأين هم الآن؟

– أنت تعلم أنه يوجد منهم في العراق وسورية ولبنان ومصر.

– هل المفتي في القاهرة؟

– أنت تعرف ذلك.

– لقد كنا صديقين ويسرني أن أجتمع به لو أمكن غدًا بعد وصولي إلى القاهرة لتناول العشاء في السفارة البريطانية.

– لن يجتمع بك المفتي في دار السفارة البريطانية، ولذلك أرى أن يكون هذا الاجتماع في السفارة العراقية إذا أمكن تقديم موعد سفركم إلى القاهرة.

– لا بأس، فنحن سنسافر إذن من هنا الساعة الخامسة، فنصل إلى القاهرة السادسة. فإذا جاء المفتي في السادسة أمكنني الاجتماع به نحو ساعة أو أكثر.

وطال الحديث بيننا، وخُيّل إليّ في نهايته أننا على أتم تفاهم في الخطة والعمل.

وخاطبت المفتي بالتليفون بعد هذا الحديث، واتفقت معه على أن يزور السفارة العراقية في الساعة السادسة تمامًا من مساء اليوم التالي، وكنت أشعر باغتباط عظيم لما توهمته من نجاح مسعاي في إعادة نوري السعيد إلى الصواب، والتفاهم معه على ما فيه خير العرب.

وذهبت في اليوم التالي إلى المطار، فلما أبصرني السيد نوري فيه أقبل عليّ بلهفة وسألني أن أرجو من المفتي أن يؤجل زيارته للسفارة العراقية في القاهرة نحو نصف ساعة، لأن الطائرة ستتأخر قليلًا في طريقها، كما أنه سيصحب سمو الوصي إلى القصر الملكي لتسجيل اسميهما قبل الذهاب إلى السفارة العراقية. فقلت إن هذا أصبح مستحيلًا لأني لا أستطيع أن أجد المفتي في داره، فهو الآن في طريقه إلى السفارة العراقية.

وقد أبرقت بعد ذلك إلى السيد علي جودت الأيوبي سفير العراق في أمريكا، بأن نوري السعيد سيصل إليها قريبًا، وأن في اتفاقه مع عبد الرحمن عزام فائدة كبيرة للعرب، وإني أرجو منه أن يمهد لهما سبل الاجتماع وإزالة كل ما بينهما من أسباب الخلاف. وأرسلت إلى عزام كتابًا مسهبًا في هذا الموضوع، عرضت فيه عليه هذا الرجاء أيضًا.

ولما مرّ عبد الرحمن الدملوجي بالقاهرة للالتحاق بالوفد العراقي في أمريكا، قلت له: «إن خدماتك للقضية العربية تخولك الحق في دعوة عزام ونوري إلى التفاهم، لأن في تفاهمهما أعظم خدمة لها». وقد رد علي جودت قائلًا إنه الآن في مكان بعيد عن نيويورك بعدي عنها، ومع ذلك سيبذل كل جهوده لتحقيق أمنيتي، ثم قال: «وأنت تعرف صديقنا عزام وصدق وطنيته وطيبة قلبه، أما نوري فإنه كما تعلم لا يعمل إلا بوحي».

وقد وعدني عبدالله الدملوجي بتحقيق رغبتي، وأكد لي أنه سيبذل كل جهده في سبيلها، لأنه يدرك ما في ذلك من فوائد للقضية العربية. وقد كان لاجتماعي بنوري السعيد، وللمساعي التي قام بها علي جودت وعبد الله الدملوجي، واهتمام عبد الرحمن عزام بصديقه وإزالة ما بينهما من خلاف، أعظم تأثير في إصلاح الحال. وهكذا عاد نوري من الأمم المتحدة وحضر اجتماع مجلس جامعة الدول العربية في القاهرة ثم عاد إلى بغداد.

لماذا خرجت عن صمتي؟

على أن السيد نوري السعيد لم يدم طويلًا على الحالة التي وصفتها، فما كاد يصل إلى العراق حتى تبدّل موقفه، فاستأنف مناوراته ضد الجامعة العربية وضد القضايا العربية. وبالرغم من تظاهره بصداقتي فإنه كان يضمر لي العداء الشديد، ويحاول الحط من مكانتي وإلحاق الأذى بي بجميع الوسائل. وصبرت على ذلك كثيرًا، إلى أن تبين لي ما في صبري وسكوتي من ضرر. إذ رأيت من جهة أن حملات نوري السعيد على الجامعة وعلى عبد الرحمن عزام بنوع خاص، أوشكت أن توجد انقسامًا، أو بالأحرى عداءً بين العرب، ورأيت من جهة أخرى أن الحملات الموجهة إليّ جعلت من لا يعرفني من الشبان العراقيين يسيؤون الظن بي. وقد وقع لي حادثان حملاني على الخروج عن

صمتي، أحدهما مع السيد مزاحم الباجه جي[271]، يوم كان رئيسًا للوزارة العراقية، وكان قد جاء إلى مصر بمهمة خطيرة، هي إزالة سوء التفاهم بينها وبين العراق، فإنه بعد أن حدثني عن هذه المهمة أثناء زيارتي له في فندق سميراميس، طلب مني أن أجتمع به دائمًا لمساعدته على تحقيق هذه الغاية. فقلت له ليس بين مصر والعراق أي خلاف، بل هناك عدم ثقة، فأوجدوا هذه الثقة وكل شيء ينتهي على أحسن حال.

وكنت أتردد كثيرًا على الفندق واجتمع به وبصديقه وزميله في الوزارة علي حيدر، للبحث في وسائل التقريب بين الحكومتين المصرية والعراقية، وقد سألني مرة:

- هل يستطيع رئيس الوزارة المصرية أو وزير الخارجية أن يقول لي إن مصر لا تثق بنوري السعيد؟

- أنت رجل سياسي، تعلم جيدًا أن وزيرًا مسؤولًا لا يستطيع أن يجهر بهذا القول. لكن يمكنك أن تفهم منه هذا المعنى إذا جهزت أذنك بالإحساس السياسي.

وكان حينئذٍ على موعد مع وزير الخارجية، فتركني مع علي حيدر وذهب، ثم عاد بعد الاجتماع مقطب الجبين تبدو عليه مظاهر العصبية والغضب، وكنت منهمكًا مع محدثي في حديث هام، قاطعه السيد مزاحم حين وصوله بقوله:

- إن جامعة الدول العربية أُنشئت للتقريب، لا للتفريق بين العرب.

فأجبته:

- هذا صحيح! ولا يستطيع أحد أن يدّعي غير ذلك.

فثارت ثائرته حينئذٍ ووجّه إلى عبد الرحمن عزام وإليَّ تهمًا شنيعة بالدس وبذر بذور الخلاف والشقاق.

ونهضت حينئذٍ متجهًا نحو الباب، ولحق بي علي حيدر وهو يقول: «أحسبها عليّ ولا تعتب عليه! فهذه نوبة لا تلبث أن تزول». ووصلت إلى المصعد وهو ممسك بي، فقلت له: «أنا لا تهمني إهانة رئيس وزراء العراق لي بعد كل هذه الإهانات التي نلقاها من اليهود. أما قلة الأدب فكل إنسان يستطيعها، سواء كان خادمًا أو رئيس وزارة في العراق».

وما كدت أصل إلى مكتبي في الجامعة حتى دقّ جرس التليفون، وكان المتحدث علي حيدر، فابتدرني بقوله:

- إن صديقنا يريد أن يعتذر لك عما بدر منه. فقد كان في حالة عصبية أخرجته عن الصواب.

- لا أريد اعتذارًا من أحد. ولكني أرجوك أن تعرف لي سبب هذا الجنون المفاجئ من رجل، يعرف الناس جميعًا أن تهم الدس والعمل على إثارة الخلاف لا يمكن توجيهها إلى الحامعة العربية ولا إلى أمينها العالم ولا إليّ أنا أيضًا، إنما توجه إليه كما وُجِّهت غير مرة!».

- أرجو أن لا ترفض المقابلة وأن تقبل الاعتذار وتنسى كل شيء.

- لا أريد الاعتذار. وأنت صديقي، وأنا على استعداد لمقابلتك حينما تشاء. أم هو فلا.

– أين تريد أن نجتمع؟ هل تقبل دعوتي للغداء؟

- بكل سرور، ولكن ليس في فندق سميراميس.

- نحن ذاهبان الآن لوضع إكليل من الزهور على ضريح النقراشي، فإلى أين تريد أن نعود؟

- عد أنت إلى حيث تريد أن نجتمع. أما هو فاعذرني إذا رفضت الاجتماع به.

- سننتظرك الساعة الثانية عشرة في السفارة العراقية التي هي بيت العرب جميعًا.

- سأنتظرك في السفارة العراقية أنت وحدك.

وفي الموعد المعين ذهبت إلى دار السفارة العراقية، فأحدق بي الموظفون وجعلوا يسألونني باهتمام:

- ماذا جرى؟ ولماذا يريد أن يعتذر؟

- لا أدري. ماذا تعنون، ومن هو؟

- فقال أحدهم:

- سمعنا أن مزاحم بك قادم إلى هنا للاجتماع بك.

- لا أعرف شيئًا.. ولم أسمع شيئًا.

وفي تلك الساعة وصل علي حيدر[272]، فخرج الموظفون، وقد قال لي إنه أقنعه بأن لا يأتي معه، وأن يكتفي بتوجيه كتاب اعتذار إلي. ثم ناولني الكتاب، فأخذته ومزقته قبل أن أفضه وقلت: «ألم أقل لك إني لا أريد اعتذارًا؟!».

وقد فهمت من صديقي علي حيدر أن ما سمعه الباجه جي من دعاية نوري السعيد ضدي وضد الجامعة، وما قرأه في الصحف المصرية من آراء تتفق مع ما يسمعه مني، جعله يعتقد بأني أنا الذي أوحي للصحف المصرية وأدفع المسؤولين المصريين إلى سياسة كره العراق، فضحكت وضحك معي.

ولكن عواطف النبل وكرم الأخلاق التي يمتاز بها مزاحم الباجه جي منعته من أن يبرح القاهرة دون أن يسترضيني. فلما تعذر عليه الاجتماع بي، ذهب إلى عبد الرحمن عزام وأعرب له عن أسفه لما بدر منه ضدي وضده. وطلب منه أن يساعده على الاجتماع بي ليُعرب عن أسفه لما جري لي معه. وقد تم ذلك بعد بضعة أسابيع.

وبعد أيام زارني شابان عراقيان من طلبة الجامعة، وقال لي أحدهما إنه كثيرًا ما كان يسمع عني من المرحوم والده الذي كان يعدّني خير قدوة لشباب هذا الجيل. ولكن إشاعات كثيرة أخذت تحوم حولي في الأيام الأخيرة في أذهان الشبان الذين لا يعرفون شيئًا عني.

وهذه الواقعة جعلتني أدرك الخطر الذي يهدد سمعتي وكرامتي، وهما لديّ أعز من حياتي، ففكرت في أن أثير ضجة في الصحف والمجلات، وأن أنشر كتبًا ونشرات لدحض افتراءات نوري السعيد. ثم عدت فرأيت أن الأحوال المضطربة في بلادنا بل في العالم كله، تمنعني من محاولة إشغال الرأي العام في مسائل شخصية صغيرة. فاكتفيت بأن أشكو نوري السعيد إلى الوصي على عرش العراق، وأرسلت إلى سموه الكتاب التالي مع نسخ من بعض الكتب التي سبق لي إرسالها إلى السيد نوري السعيد وإلى زميله في الوزارة

السيد فاضل الجمالي. وهذا نص كتابي إلى الوصي على عرش العراق:

كتابي إلى الوصي

حضرة صاحب السمو الملكي الأمير عبد الإله المعظم أعزه الله

أرفع إلى مقامكم فروض الإحترام والإجلال سائلًا المولى تعالى أن يرعاكم ويسدد خطاكم إلى كل ما فيه خير العراق والعرب أجمعين.

وبعد يا سيدي، ألجأ إلى سموكم، لأشكو إليكم أعظم عدوان واقع الآن على ما هو أعز من حياتي، أي على كرامتي وسمعتي وماضيّ، بما يوجهه إليّ أحد رجالكم من تهم باطلة وافتراءات ما أنزل الله بها من سلطان.

وأرى من حقي على سموكم، وقد رُبّيت في ظل عمكم العظيم ونعمت بعطفه ورعايته سنوات طويلة، وأحببت العراق ورجالاته حبًا جمًا، وعقدت عليه كل آمالي في مستقبل العرب، أن تحققوا في أسباب هذا العدوان وأن تُعيدوا الحق إلى نصابه وتوقفوا المعتدي عند حده.

إن صديقي القديم السيد نوري السعيد الذي أخلصتُ له طول حياتي، وبقيت وحدي إلى جانبه يوم كان الناس جميعًا يوجهون إليه أفظع التهم سواء في سوريا أم في العراق، أنكر الصداقة وأنكر الماضي، وأنكر كل تلك الجهود والتضحيات المشتركة لغير ما سبب، وناصبني عداءً لا هوادة فيه ولا كرامة ولا رجولة. فلما رأى نفسه عاجزًا عن أن يُلحق بي أي أذى مادي، لأني لا أملك شيئًا يمكن اغتصابه، ولأن حياتي في يد الله فلا يقوى هو على انتزاعها، عمد إلى ما هو أفظع من ذلك كله، أي إلى قتلي في قلوب إخواني الوطنيين وخصوصًا في العراق، بالنميمة والافتراء والغش والخداع. وأنا يا سيدي كما عرضت، لا أملك في هذه الدنيا سوى عطف إخواني، وهذا العطف هو أعز عليّ من حياتي لأنه الثمرة الوحيدة التي جنيتها منها كلها، وسأحتفظ به وأدافع عنه كما أدافع عن نفسي مهما كلفني الأمر. ولذلك ألتمس العفو عن جرأتي هذه على سموكم فالغرض منها الدفاع عن النفس، وعن ذكريات 25 سنة قضيتها جنديًا من جنود العروبة.

وقد صبرت على افتراءات السيد نوري السعيد سنوات طويلة لاعتقادي بأن جميع الوطنيين في العراق وسائر الأقطار العربية لا يقيمون لافتراءاته أقل وزن. ولكنني بعد حادثة وقعت لي مع أحد رؤوساء الوزارة العراقية السابقين – ثم اعتذر عنها مرتين تفضلًا منه حينما اتضح له أنه كان مخطئًا فيما صدقه عني – وبعد ما رأيت بعض الشبان العراقيين الذين لا يعرفونني يتساءلون عن حقيقتي، أيقنت بأن الصبر لم يعد ممكنًا وأن من قال: «أُكذب، أكذب دائمًا، فلا بد من أن يبقى للكذب أثر» كان على حق في قوله.

وأنا يا سيدي أتحدى نوري وكل عربي في العالم أن يجد في حياتي كلها أي غبار على صداقتي لوطني أو صداقتي لإخواني الوطنيين. وأتحداه كما أتحدى كل إنسان أن يأتي بأي دليل على أني عملت أو سعيت أو كتبت أو استكتبت أو نويت أو فكرت أو أضمرت أي رأي أو فكرة أو مشروع يمس العراق أو أي قطر عربي آخر، أو يسيء إلى التعاون بين البلاد العربية، بل بالعكس كنت دائمًا ولا أزال أشيد بفضل العراق

وأعقد عليه أعظم الآمال، لأني أعرف عن كثب ما فعله في سبيل العروبة والعرب، ولأني من الأفراد القلائل الذين كانوا موضع ثقة الملك فيصل في تنفيذ سياسته في سورية وفلسطين، وفي توثيق عرى التعاون بين العراق والحكومات العربية المختلفة. يعرف ذلك نوري السعيد ولا أعتقد أنه يستطيع إنكاره، كما يعرفه يس الهاشمي وجميل المدفعي وعلي جودت وطه الهاشمي ومولود مخلص وتحسين قدري وإسماعيل نامق وتحسين علي وغيرهم وغيرهم من سيوف فيصل العظيم. رحم الله من اصطفاه منهم وحفظ لنا من بقي وغفر لمن أساء.

وأرى واجبًا علي يا سيدي أن أنتهز هذه الفرصة لألفت نظر سموكم إلى تصرفات نوري الأخيرة كلها من حملاته المغرضة على الجامعة، والإصلاحات الهائلة!! التي أراد أن يُدخلها على نظامها الداخلي، وكانت موضوع سخرية الرأي العام، إلى سلوكه مع الوفود وآرائه وتصريحاته المختلفة في مختلف الموضوعات. فقد رأى الوطنيون في ذلك كله أكبر دعاية ضد العراق والعروبة والتعاون بين العرب. وهذا القول يمكنكم أن تسمعوا مثله من رجال العراق أنفسهم ومن أصدقاء العراق في مختلف الأقطار العربية ومن الرأي العربي العام في الوطن والمهاجر. ودمتم سيدي.

أسعد داغر

القاهرة في 3 نوفمبر [تشرين الثاني] سنة 1949

وإلى القراء صور الرسائل التي شفعتها بالكتاب المتقدم، وقد أرسلتها إلى نحو عشرين من أصدقائي وأصدقاء نوري السعيد القدماء الباقين من سيوف الملك فيصل. وهي:

من أسعد داغر إلى السيد نوري السعيد

صديقي القديم السيد نوري السعيد حفظه الله

بعد التحية، لا أستطيع أن أعرب لك عن أسفي العظيم على انهيار تلك الصداقة التي جمعت بيننا ثلث قرن كامل (1909–1939) وكانت العروبة لحمتها، وكان رائدها الإخلاص والتضحية. ولا أكتمك الألم العميق الذي شعرت به يوم أنكرت تلك الصداقة وجاهرتني العداء بلا سبب. فقد شعرت كأن صديقًا عزيزًا انتُزِع من قلبي تاركًا محله جرحًا لا يلتئم. وبكيت حينئذ من فرط الألم، كما بكيت يوم فقدت يس الهاشمي وسعدالله الجابري وتحسين العسكري وغيرهم من أصدقائي القدماء. ولم يكن عليّ في ذلك أقل ذنب أو لوم، فقد أحببتك كل هذه السنوات الطويلة حبًا خالصًا، لاعتقادي بصدق وطنيتك ونبل خلقك، ولم تصدر عني أية إساءة إليك أو إلى وطني وإخواني الوطنيين، بل كنت دائمًا إلى جانبك في الأزمات. وكنت في بعض الأحيان الصديق الوحيد الذي يدافع عنك ويفند التهم التي كانت توجه إليك، سواء في دمشق أو بغداد أو غيرهما. وقد أغضبتُ إخواني الآخرين غير مرة لأنهم كانوا أبعد مني نظرًا فعرفوك قبل أن عرفتك، ولكنهم كانوا دائمًا يصفحون عني اعتقادًا منهم بإخلاصي وحسن نيتي، ولدي كتب كثيرة منك ومنهم، توضح هذه الحقيقة التي يعرفها جميع إخواننا وأصدقائنا في مختلف الأقطار العربية.

ولكنك يا سيدي بدأت تتنكر لي ولوطنك ولأصدقائك منذ أوائل الحرب العظمى الثانية، فلم تعد ذلك الصديق المخلص البعيد النظر الذي عرفناه، بل أصبحت رجلًا آخر من جميع الوجوه، فأنكرت إخوانك وماضيك وأنكرت المبادئ التي نشأت عليها، وأحببت المال الذي كنت لا تعرف له قيمة، وسرت وحدك في طريق أفقدتك ثقة الأمة العربية كلها، وجعلتها تتهمك بأفظع التهم. لقد قلت لك بكل إخلاص يوم اجتماعي بك في الإسكندرية، وأنت في طريقك إلى هيئة الأمم المتحدة للدفاع عن قضية فلسطين، إنه في إمكانك، لو سلكت الطريق المستقيم، أن تصبح المستشار الأول لجميع الحكومات العربية، وإنه من العار عليك أن تُجمع الأمة العربية على وصمك بالخيانة بعد كل تلك الجهود والتضحيات التي بذلتها سواء في الحرب أو في السلم والتي أعرفها أنا أكثر من سواي. وقد أجبتني حينئذ بأن صداقتك لي ولجميع إخوانك القدماء باقية كما كانت، ولكن الاتجاهات السياسية هي التي تبدلت تبدلًا أساسيًا ليس معي فقط، بل معهم جميعًا. وسألتك من هم إذن الأصدقاء الجدد الذين تعمل معهم الآن، فقلت ليس لي أصدقاء جدد. ولما لمتك على ذلك بعبارات ملؤها الإخلاص أجبتني بقولك: يجب أن تعرف يا أسعد أني أنا وأنت ونحن جميعًا لسنا في هذا العالم سوى حجارة شطرنج في أيدي ملوك طامعين وملوك حاقدين.

ولا أريد الآن أن أعيد إلى ذاكرتك تفاصيل ذلك الاجتماع الذي توهمت أنه سيكون فاتحة صفحة جديدة في تاريخك، ولا أن أكرر على مسامعك كل ما قلته بكل صراحة في تفنيد ما سمعته حينئذٍ من آرائك، وحسبي أني خرجت من ذلك الاجتماع موقنًا بأنك وافقت على كل ما أبديته لك من وجهات النظر. ولذلك باشرت السعي إلى الجمع بينك وبين سماحة المفتي. ورجوت من عبدالله الدملوجي، وكان مسافرًا إلى أمريكا، أن يمهد السبل لاجتماع صريح بينك وبين عزام باشا الذي كان حينئذٍ فيها لاعتقادي بأن في تفاهمكما خيرًا للعرب. وأبرقت إلى علي جودت بك ملحًا في وجوب تهيئة عدة اجتماعات من هذا النوع، وكتبت بعد ذلك إلى عزام راجيًا منه التفاهم معك مهما كلفه الأمر. وقد تم ذلك على ما أعلم، وعدتَ فخامتك من تلك الرحلة وحضرتَ بعض اجتماعات الجامعة، وكان سلوكك فيها خير سلوك سلكته منذ إنشائها.

ولكن ذاكرتك على ما يظهر لم تعد صالحة لاستيعاب شيء، فنسيت اجتماعنا في الإسكندرية وأثره الطيب، كما نسيت كل شيء حتى ذلك الماضي الطويل المملوء بالحوادث الخطيرة والذكريات المؤثرة والتضحيات الخالدة، وناصبتني عداء لا سبب له ولا هوادة فيه، سلاحه النميمة والافتراء والمغالطة وتشويه الحقائق. وقد صبرت على افتراءاتك سنوات طويلة اعتقادًا مني بأنها لا تترك في النفوس أقل أثر ضدي، وأن مجرد صدورها عنك يكفي دليلًا على عدم صحتها، وأنها ستكون خير شهادة لي، كما قال المتنبي في قصيدة شهيرة له.

ولكني بعد الحادث الذي جرى بيني وبين فخامة مزاحم الباجه جي في أحوال كان فيها قلبي وكل عواطفي معه، ثم تساؤل بعض العراقيين الذين لا يعرفونني عن حقيقة أمري بتأثير دعايتك ضدي، كل ذلك حملني على الخروج من صمتي خصوصًا بعد أن عرفتُ بالتجربة أن من قال: «أكذب، أكذب دائمًا، فلا بد من أن يبقى للكذب أثر» كان محقًا في قوله.

نعم إن مزاحم بك الذي أساء إليّ بتأثير افتراءاتك عرف خطأه في الحال، واعتذر عنه مرارًا تفضلًا منه واذعانًا للحق. وكذلك الإخوان العراقيون القلائل الذين استطعتَ أن تخدعهم لأول وهلة، فقد عادوا جميعًا إليّ وفتحوا لي قلوبهم ولاموا أنفسهم على الوقوع في شراكك.

فإذا جئتُ الآن أشكو منك فأنا على حق في هذه الشكوى، وفي استعجال عرضها على الرأي العام، لأن المسألة تتعلق بما هو أعز من حياتي، تتعلق بشرفي وكرامتي ووطنيتي وماضيّ وتهدد بفقدي عطف إخواني الوطنيين ولا سيما في العراق.

ولكن إلى من أشكو؟ إلى ضميرك الذي أصبح العرب جميعًا في شك من سلامته!! أم إلى ماضيك وقد أنكرته!! أم إلى إخوانك وقد جحدت بهم!! أم إلى قلبك وقد أصبح كالصخر!!.

لقد رفعت إلى سمو الوصي كتابًا طلبت فيه إنصافي منك، وسأوجه مثل هذا الطلب إلى الأمة العربية في مختلف أقطارها ومهاجرها وإلى تاريخ هذا الجيل وإلى إخواني في العراق بنوع خاص.

1 – أشكو يا باشا من أنك تعمدتَ قتلي. فلما رأيت أن حياتي ليست في متناول يدك، بل هي في يد الله، ورأيت أني لا أملك مالًا ولا منصبًا تستطيع انتزاعه مني، لجأتَ إلى ما هو أفظع من ذلك، أي إلى قتلي في قلوب إخواني وفي مقدمتهم تلك البقية من سيوف فيصل العظيم.

2 – أشكو اتهامك إياي ظلمًا وعدوانًا بأني من أعداء العراق. وأجد في هذه التهمة إهانة لكل عراقي شريف يصدقها، فأنا أعرف أكثر من غيري ما فعله العراق من أجل سوريا وفلسطين. أعرف تضحياته العظيمة وإقدامه على المخاطر المختلفة وأياديه البيضاء الكثيرة على الوطنيين السوريين سواء في أثناء الثورات التي قاموا بها أو في أثناء مفاوضاتهم مع الفرنسيين أو في خلال أزمة الجلاء. فمن الاستهانة بأسمى عواطف الشكر وعرفان الجميل، ومن الجهل المطبق بمقتضيات الأخلاق الكريمة أن يصدق عراقي واحد بأني أنا، أو أي سوري أو عربي حرّ، يستطيع أن يتدنى إلى إنكار فضل العراق ورجالاته الأبرار على سوريا وفلسطين بل على العروبة في مختلف أقطارها، وأن يضمر للعراق وشعبه العظيم غير الحب والولاء والإجلال والتقدير. وأنا بنوع خاص أعد العراق قلب العروبة النابض وملاذها ومدار افتخارها، وقد عشت ربع قرن كامل وكل آمالي معقودة عليه كما تعرف أنت ويعرف جميع إخواني وأصدقائي. فلا يمكنني في هذه الحالة أن أقابل بغير ابتسامة السخرية والاحتقار كل من يريد أن يلقي الشك على حبي وإخلاصي للعراق العزيز، أو صداقتي لكل بلد عربي آخر، أو جهادي في سبيل تقوية الجامعة العربية التي هي رمز التعاون الذي يزداد توثقًا بين الدول العربية.

3 – أشكو من افترائك عليّ بأن أموال الأجانب قد أغرتني فوضعت لغمًا هائلًا في أساس العروبة والإسلام كاد يؤدي انفجاره إلى نسفهما معًا – لا سمح الله – لولا حكمة نوري باشا السعيد ودرايته – كما قلت أنت في جريدة **فتى العرب** قبيل إعلان الحرب العظمى الثانية.

4 – أشكو من دسائسك ومساعيك المتواصلة لحمل الناس على الاعتقاد بأني أنا الذي أكتب أو استكتب الصحف المصرية وغيرها مقالات ضد العراق، وأتحداك أن تجد أي دليل على ذلك.

5 – أشكو سعيك لإبعادي من بغداد في يناير الماضي [1949]، وقد ذهبت إليها لأنبل الغايات وأشرفها وهي التقريب بين العراق ومصر بعد تلك الأزمة التي نشأت عن موقف الجيش العراقي في فلسطين.

6 – أشكو من تلك الوشاية الحقيرة التي نشرتها بعض صحفك بعد سفري من بغداد، وهي أنه لم يكن لي أي عمل في العراق سوى الطعن بمصر والدعاية للإخوان المسلمين (أليس عمل الشرطي الذي وضع الحشيش في جيب أحد المارة ثم وشى عليه بأشرف من هذا العمل).

7 - أشكو من تلك الحملة التي وجهتها إليّ أنت ووزير خارجيتك في البرلمان العراقي لأني كنت من الساعين لعقد مؤتمر عربي عام، ولأني أبرقت إلى عزام باشا أرجو منه التوسط لدى جلالة ملك اليمن في السماح لنجله وشقيقه بزيارة بغداد ولأني تلقيت الرد بالشفرة.

أما المؤتمر يا باشا فالأمة العربية كلها كانت مُجمعة على ضرورة عقده ومن جملتها وزير خارجيتك الدكتور فاضل الجمالي، فقد وافق عليه مرتين، الأولى في حديث خاص دار بيني وبينه في القاهرة بحضور الأستاذ أكرم زعيتر، والثانية في اجتماع عام عقدته الجبهة المتحدة في العراق وشرفتني بدعوتي إليه. وقد ضم ذلك الاجتماع جميع رؤساء الوزارات والوزراء السابقين والنواب والأعيان ورجال الأدب والاقتصاد والمال في العراق.

ولا أدري أية خيانة اقترفتُها يا باشا إذا كنتُ قد رغبت في أن يزور الأميران اليمانيان عاصمة العراق بعد أن زارا عواصم جميع البلاد العربية. وهل كنت تريد أن لا أستعمل «الشفرة» في برقياتي فيعرف اليهود أن الأميرين الجليلين أصبحا في حاجة إلى استئذان جلالة الملك الإمام في زيارة بغداد بعد الموقف الذي اخترته أنت للجيش العراقي أثناء حرب فلسطين؟

وهل تجهل يا باشا أن الشفرة يستعملها التجار أنفسهم فضلًا عن الصحفيين، وأني شخصيًا كنت أراسل **الأهرام** من إنجلترا بحروف رمزية خاصة في أثناء انعقاد مؤتمر فلسطين في لندن سنة 1939، وأني موظف كبير في هيئة عربية دولية لديها أعمال تستوجب الكتمان.

وإني أتهمك يا باشا أمام الرأي العام وأمام التاريخ بأنك أنكرت ماضيك وغدرت بإخوانك وعاديت أمتك وعبثت بحق وطنك عليك.

وأتهمك، وأنت أحد مؤسسي الجامعة العربية، بأنك انقلبت عليها منذ اتضح لك أنها لن تكون مطية لدولة عظمى، وخصوصًا الدولة التي كرست نفسك لخدمة مصالحها، ونبذتَ أمتك وبلادك تقربًا منها.

أتهمك بأنك تآمرتَ على الجامعة التي كانت ولا تزال محط آمال العرب، وتعمدت قتلها بحملات الافتراء التي وجهتها إليها وتعاونت على ذلك مع ألّد أعدائها، خدمة لأغراض ومصالح لا تمتّ إلى العروبة بأية صلة.

أتهمك بأنك كنت السبب في ضياع فلسطين بما حكته من الدسائس والمؤمرات لمنع الجيش العراقي من أن يحارب العدو فيها بالبسالة المعروفة عنه، وفي الحيلولة دون تحقيق إرادة الشعب العراقي والبرلمان والحكومة العراقية، فعرّضت بذلك مستقبل العرب للخطر وألحقت بهم عارًا لا يُمحى.

أتهمك وقد جئت إلى الحكومة لتنفيذ قرارات البرلمان العراقي بأنك بذلت قصارى جهدك لإحباط هذه القرارات، ونجحت في ذلك نجاحًا باهرًا.

أتهمك بأنك مزقت وحدة العراق ووحدة العرب بسياسة الدس والوقيعة التي سرت عليها في الداخل، وسياسة الضغينة وإثارة الأحقاد وبث بذور الخلاف والشقاق بين البلاد العربية في الخارج.

أتهمك بأنك شطرت العرب شطرين وأوجدت لهم محورين لم يكن لهما وجود إلا في مخيلتك، وعرقلت كل أعمال الجامعة بموقفك تجاهها وافتراءاتك المتوالية عليها.

أتهمك بأنك عاديت كل مخلص في البلاد العربية، وألحقت بكل وطني أقصى ما تستطيع من أذى، وأفسدت كل صالح من الأعمال، وكرّست كل قوتك ومواهبك لبذر بذور الشقاق بين العرب في كل مكان، وفرضت طغيانك على العراق بقوة الأجنبي، فكرهك العراق وكرهتك الشعوب العربية قاطبة.

أتهمك بممالأة الصهيونية ومساعدة عمالها على استغلال العراق واستثماره، كما أتهمك بالاتصال برجالها السياسيين اتصالًا مستمرًا كان يؤدي إلى مشروع جديد من مشروعاتك الكثيرة لحل قضية فلسطين وهي المشروعات التي كنت دائمًا تتحدث عنها ولا تجرؤ على إعلانها.

أتهمك بما تتهمك به الأمة العربية جمعاء في مختلف أوطانها ومهاجرها وأقول معها إنك أصبحت الرجل الذي يجب أن يخشى العرب شره، وأن لا ينتظروا منه أي خير.

هذا بعض ما اتهمك به يا باشا، وسأورد تفاصيله في فرصة مقرونة بها في كتبك السابقة وكتب جميع إخواني إليّ من الشواهد والأدلة على مبلغ حبي لوطني وصداقتي لإخواني الوطنيين، وفي كل حرف منها ما يشرفني، وما أعده فخرًا وثروة لي، وتكذيبًا قاطعًا لكل ما لفقته أو تستطيع تلفيقه عليّ.

وإني أتحداك أيها الصديق القديم، وأتحدى كل عربي في العالم أن يجد في حياتي كلها أي غبار على حبي لوطني أو صداقتي لإخواني، كما أتحداك وأتحدى كل إنسان أن يقيم أي دليل على أني نويت أو فكرت أو أضمرت أو كتبت أو استكتبت أو قلت أي شيء يمسّ إخلاصي للعراق أو لأية دولة عربية أخرى أو للتعاون القائم بين الدول العربية، أو يؤيد عن قرب أو عن بعد أي افتراء من افتراءاتك عليّ.

أوجه إليك هذا التحدي على مرأى ومسمع من الأمة العربية جمعاء، وأسألك بشرفك العسكري أن لا تتهرب منه، وأن تكون صريحًا في ردك عليّ، فالرجوع عن الخطأ فضيلة، وأما الافتراء والكذب فكل إنسان يستطيعهما إذا فقد رجولته وكرامته.

وتفضل يا فخامة الباشا بقبول فائق احترامي.

أسعد داغر

القاهرة في نوفمبر [تشرين الثاني] سنة 1949

من أسعد داغر إلى السيد نوري السعيد

حضرة صاحب الفخامة حفظه الله

بعد التحية، أرى من حقي عليك ومن واجباتك نحوي أن تطلعني على الأسباب الحقيقية التي حملتك

على مجاهرتي العداء بأفظع أشكاله. فهل أنت حقيقة موقن بأني أسأت إلى وطني أو إليك بشيء؟ وهل استطعت أن تجد في حياتي كلها أي غبار على إخلاصي لأمتي أو صداقتي لإخواني؟ فإذا كان لديك شيء من هذا فقله لأقنعك بعكسه في الحال وأجعلك بعبارة واحدة تطأطئ الرأس حياءً وخجلًا.

وما دمتُ يا سيدي لا أعرف السبب الحقيقي في عدائك لي، فإن دفاعي عن نفسي لا يمكن أن يقوم بطبيعة الحال إلا على تفنيد ما يُحتمل أن يمر بخاطرك من أوهام وخيالات، وهي احتمالات ليس لها أول ولا آخر في ذهن رجل واسع الخيال مثلك. ومع ذلك سأجرب هذه الطريقة معك.

كانت بادرة هجومك عليّ واتهامك إياي في جريدة **فتى العرب** الدمشقية سنة 1939 بأن أموال الأجانب أغرتني فوضعتُ لغمًا هائلًا في أساس العروبة والإسلام، لولا حكمتك لانفجر ودكهما دكًا والعياذ بالله. فما هي هذه القنبلة يا باشا التي وجدتها أنا قبل ظهور القنبلة الذرية بسنوات؟ وهل تعتقد حقيقة أن المال يغريني؟ ضع يدك على قلبك وأجب. ثم أين هو هذا المال الذي أغراني؟ وكل ما أملك لا يكفيك يومًا واحدًا.

بلغني يا باشا قولك عني إني بوق عزام باشا ومدير دعايته، فهل تعتقد حقيقة في قرارة نفسك أني أصلح لأن أكون بوقًا لأحد؟ وهل كنت في حياتي بوقًا لك لكي أكون بوقًا لغيرك؟ ثم من هو عزام باشا الذي تتوالى إساءاتك إليه بلا انقطاع منذ سنوات؟ أَلم يكن موضع ثقتك وحبك واحترامك؟ أَلم تكن تعتقد أنه خير رجالات العرب؟ أَلم تطلب إلى النحاس باشا اشراكه في المباحثات التمهيدية للجامعة ست مرات متوالية؟ أَلم يكن أحب أصدقائك إليك وأوفاهم عهدًا وأكثرهم فائدة لك وللقضية العربية؟ أَنسيت كم مرة وسّطته في شؤون مختلفة يوم كان وزيرًا [مفوضًا لمصر] في بغداد؟ أَنسيت موقفه منك بعد انقلاب بكر صدقي؟ أنسيت أنك كنت في مقدمة الذين أجمعوا على انتخابه أمينًا للجامعة؟ فمتى استحق عزام هذه الحملات الرخيصة التي توجهها إليه، ولماذا استحقها؟ أَلأنه كان طول حياته مجاهدًا في سبيل العروبة وواسطة خير بين رجالات العرب وبين الحكومات العربية؟ أم لأنه تقدم في رضوى إلى جلالة الملك عبد العزيز بحضور الملك فاروق وعلى مرأى ومسمع من رجال الحاشيتين وقال له: «أناشدك يا مولاي أن يشغل العراق في قلبك المكانة التي تشغلها مصر، وأن يكون نوري السعيد في نظرك خيرًا من عبد الرحمن عزام»؟ أم لأنه كان دائمًا يعمل للتوفيق بينك وبين رجالات العرب الآخرين فيُسهّل زياراتك لمصر في أوقات كثيرة كانت فيها هذه الزيارة غير مستحبة ولا مرغوب فيها، ويمهد أمامك سبل التفاهم مع الحكومة المصرية وحكومات الدول العربية الأخرى؟

أَلم تقل لي يا باشا في اجتماعنا الأخير بدارك في بغداد يوم 12 يناير [كانون الثاني] الماضي بحضور الدكتور سامي شوكت[273]: «هناك رجل يجب أن نضع رجليه على رؤوسنا ونرفعه إلى السماء مهما يفعل» فقلت أنا: «من هو، سمو الوصي؟». فقلت أنت: «لا، إنه ثانوي في الموضوع، أما الذي يرجع إليه الفضل كله في تبني مصر لقضية فلسطين فهو عبدالرحمن عزام».

على أن ذلك لم يمنعك يا باشا من أن تحمل على الجامعة وأمينها العام وموظفي الأمانة العامة وعليّ أنا بنوع خاص حملات منكرة تعدّت البرلمان العراقي ومجلس الجامعة إلى الصحافة والرأي العام. هذه الجامعة

التي انقلبتَ عليها منذ رأيتَ أنها لن تكون أداة في يدك وأيدي سادتك. فرفعت صوتك عاليًا ضدها بحجة المطالبة بإصلاحها حتى تصبح قادرة على استرداد أوطان العرب المغتصبة وتحقيق كل آمالهم واستعادة سابق عزهم ومجدهم. وقد خُيّل الى الذين سمعوك تتكلم عن عيوب الجامعة أن هذه العيوب كانت السبب المباشر لجميع النكبات التي حلّت بنا. وأنه لو ألهمك الله أن تتقدم بإصلاحاتك قبل سنة ونيف من هذا التاريخ لكان العرب اليوم في أوج عزهم يتصرفون بحدود الأرض وتخمها. ولكن الجبل تمخض يا باشا فولد فأرًا. والإصلاحات التي اقترحتَها كانت موضوع سخرية الأطفال في كل مكان كما تعلم. فكيف يليق بمثلك أن يشغل مجلس الجامعة بها أقل ما يُقال عنه إنه صبياني؟ وكيف تقبل ذلك على نفسك ويقبله العراق لك؟.

أشرت يا باشا غير مرة إلى علاقاتي بأصدقائي في المملكة السعودية في أحاديثك عني مع بعض إخواني. وأنا أؤكد لك بكل افتخار أني أتمتع بعطفهم وثقتهم جميعًا، كما أتمتع بعطف وثقة جميع رجالات العرب في كل مكان إلاك أنت وحدك في العراق، فهل هذا ما تعيبني عليه؟

ثم إن هذا العطف الذي ألقاه من رجالات المملكة العربية السعودية يرجع معظم الفضل فيه إليك لأنك أنت سببه الأول. أنسيت يا سيدي أني اقترحت مرة على فؤاد بك حمزة – بناء على رغبتك – أن ينتفع جلالة الملك عبد العزيز بخبرتك وتجاربك وذلك يوم كنت منفيًا من بغداد في عهد بكر صدقي؟ وتفضل جلالته فاهتم بهذا الاقتراح اهتمامًا أحلّه مكانة سامية في نفسي وجعلني غريق بحر أفضاله. وقد كنت قبل هذا الحادث وبعده أعمل بإخلاص للتقريب بين العراق والمملكة العربية السعودية، وكان المرحوم يس الهاشمي نفسه قد اختارني صلة وصل بينه وبين فؤاد حمزة. بل كنت منذ عهد الملك فيصل في سوريا أعمل في هذا السبيل من تلقاء نفسي مع بعض إخواني الوطنيين، وسأظل كذلك ما دام في عروقي دم يجري.

وتأييدًا لقولي هذا أذكّرك بأننا ألفنا لجنة في القاهرة سنة 1921 كان فيها ميشيل لطف الله وشكري القوتلي وساطع الحصري وسعدالله الجابري والسيد رشيد رضا والشيخ كامل القصاب وعوني عبد الهادي وغيرهم. وأن أول قرار اتخذته هذه اللجنة التي أطلق عليها اسم لجنة الصلة بين الأحزاب كان إرسال وفد إلى الحجاز ونجد للتوثيق بين عاهليهما [الشريف حسين وعبدالعزيز آل سعود] بمساعدة سمو الأمير عبد الله الذي كنا نظن حينئذ أنه من محبذي هذه الفكرة.

ثم إني أذكرك بأول اجتماع لنا بعد اجتماع الملكين فيصل وعبد العزيز في مياه الكويت، فقد قابلتك في محطة مصر وأنت في طريقك إلى الإسكندرية، ولما جاء ذكر هذا الاجتماع قلت لي: «لو كنت فيه مع الملك فيصل لحلت دون كل ما يجري». وكان القطار حينئذ قد بدأ يتحرك فقفزت إليه في آخر لحظة وسافرت معك للتفاهم على هذا الموضوع. ولا أريد أن أذكر كل ما سمعته منك، ولكني قلت لك ما خُيّل إليّ أنه أقنعك بصحة رأيي في وجوب الاتفاق بين العراق والمملكة العربية السعودية تمهيدًا لجمع كلمة العرب. فهل نسيت هذا الاجتماع ونسيت أنك اقترحت عليّ السفر معك إلى جدة يوم ذهبت إليها مع موفق الألوسي[274] لبحث مشروع الحلف العربي؟ وهل نسيت اجتماعي بك في القنطرة لما قامت عليك القيامة من أجل هذا المشروع وقولك لي: «لقد نفذنا رأيك أفلا ترى من واجبك الآن الدفاع عنه ضد حملات المعارضة»؟

ولما قامت ثورة الدويش وعرفت ما يشكو منه أصدقائي في المملكة العربية السعودية كتبت إلى المرحوم

يس أقول: «حرام علينا المقارنة بين عبد العزيز وفيصل الدويش أو مساعدة ثانيهما على الأول أقل مساعدة، وخصوصًا أن أحوال الجزيرة تنذر بالتفاقم وليس لديكم أنتم القوة الكافية لتهدئتها، وسيكون ذلك سببًا في تدخل الأجنبي». ثم ذكرت له ما كنت قد سمعته من بعض أصدقائي عن المساعدات التي يتلقاها الدويش من العراق.

وبعد مضي وقت قصير على إرسال هذا الكتاب تلقيت من المرحوم الهاشمي كتابًا مفصلًا جاء فيه أنه أطلع المغفور له الملك فيصل على كتابي، وأنه يؤكد لي باسم جلالته واسمه أن هذه الشكاوى لن تتكرر.

ولما استقالت وزارة السويدي على ما أذكر عقب أزمة شديدة مع إنجلترا، ألقى يس الهاشمي في خلالها – وكان حينئذٍ وزيرًا للمالية – خطبة خطيرة في البرلمان ضد الإنجليز توترت على إثرها العلاقات بين العراق وإنجلترا إلى حد كبير، وخشي بعض إخواننا في العراق أن يقف الملك عبد العزيز موقفًا لا يُرضيهم، فلفت بعضهم نظري إلى هذا الموضوع، وكتبت إلى فؤاد حمزة أذكره بأن العراق يُعادي الإنجليز الآن دفاعًا عن حريته وكرامته، وأن العرب جميعًا يرجون من الملك عبد العزيز تأييده في طلبه وهم موقنون بأن جلالته لا يخيب هذا الرجاء.

وقد أطلعت رشيد الخوجة قنصل العراق حينئذ في مصر على هذا الكتاب بل إني كتبته بالاشتراك معه، ولا أعلم ماذا كان تأثيره، ولكني أعرف أن الأمة العربية طالعت في الصحف بعد أيام تصريحًا خطيرًا لجلالة الملك عبد العزيز جاء فيه: «إن بيننا وبين العراق اختلافات شديدة ولكنها اختلافات إخوة. فإذا دخل العراق في نزاع مع دولة أخرى فنحن بطبيعة الحال نقف دائمًا في جانبه».

فلماذا كنت يا باشا راضيًا حينئذ عن صداقتي لأصدقائي في المملكة العربية السعودية وكنت تعدني وتعدهم وسائل حسنة للخير؟ ولولا ذلك لما كنت تقترح عليّ ما تريده منهم وتتقرب إليهم عن طريقي مع علمك بأني لا أنفذ إلا الاقتراحات التي أعتقدها في مصلحة العرب سواء جاءت منك أو من غيرك.

ثم أنت يا باشا تنسى أو تتناسى مبادئك أو آرائك إلى هذا الحد. ألم تفر من اسطنبول للالتحاق بابن السعود ووضع نفسك في خدمته لمصلحة العرب؟ ألم تكرر لي في بغداد ما سبق أن قلته في مصر: لو كان عندنا في العراق أخلاق جيراننا في الجنوب لكنا أحسن حالًا مما نحن الآن بما لا يُقاس؟

قلت غير مرة لبعض أصدقائي: «نحن لم نتخلَّ عن أسعد بل هو الذي تخلى عنا»، مشيرًا بذلك إلى حملة الصحف المصرية على الحكومة العراقية أثناء معركة فلسطين، وهي الحملة التي اتهمتني بأني أنا الذي أثرتها. ومع أني مصري أحب مصر وأفتديها بحياتي، ومع ألمي الشديد من موقف العرب منها في تلك الأثناء، أؤكد لك أني بذلت جهدي لوقف تلك الحملة والتخفيف من حدتها بإلقاء تبعة هذا الموقف على عاتق الحكومات لا على عاتق الشعوب العربية أو جيوشها. ولذلك تحاشت الصحف المصرية بقدر الإمكان ذكر أي شي عن الشعب العراقي أو أي شعب عربي آخر، ولم يكن في الإمكان حينئذ عمل أي شيء غير هذا يا باشا لأن التيار كان شديدًا جدًا، وقد خبره وزير خارجيتك بنفسه لما كان في مصر.

سألك أحد الأصدقاء عن سبب عدائك لي وهل لديك أي دليل على صحة أية تهمة من التهم التي

توجهها إلي، فأجبته: أنا أطلب منه دليلًا على أنه لم ينقلب علينا، فليؤيد مشروع الاتحاد السوري العراقي وأنا مستعد لأن أذهب إليه وأقبّل رأسه ويديه ولكنه هل يفعل؟. وابتسم صديقي وانصرف.

اتهمتني يوم إبعادي من بغداد على لسان إحدى صحفك البغدادية بأنه «لم يكن لي عمل في العراق سوى الطعن بمصر والدعاية للإخوان المسلمين الذين أعرف عن كثب ما اقترفوه من الجنايات والفظائع وفي مقدمتها مقتل الوطني العظيم النقراشي باشا». أفلم تدرك يا باشا ما في هذه الوشاية الحقيرة من سخافة، وهل يعقل أن يتدنى مثلك إلى مثلها؟ إن مجرد الإشارة إليها ما يغني عن كل تعليق.

سمعت أنك قلت لبعض المسؤولين في مصر إني ذهبت إلى بغداد لتدبير مؤامرة ضدك، وأن لديك وثائق تثبت ذلك. فإذا صحّ ما سمعت فأنا أدلك على شركائي. إني لم أقابل في بغداد في زيارتي الثانية لها سوى سمو الأمير زيد ووزراء الدول العربية المفوضين، وبعض وزراء العراق السابقين وهم جميل المدفعي وعلي جودت ومزاحم الباجه جي وحكمت سليمان، وثلاثة أو أربعة من أصدقائي القدماء كمولود [مخلص] ونجيب الراوي وأحمد الراوي فهؤلاء هم شركائي في المؤامرة، وهؤلاء هم منفذوها.

حملتك عليّ في البرلمان العراقي قامت على أربعة أسباب هي أولًا: سعيي لعقد المؤتمر العربي العام، وهو المؤتمر الذي وافقت عليه الأمة العربية في جميع أقطارها - ما عداك -. وثانيًا: رغبتي في أن يزور صاحبا السمو الأميران نجل جلالة ملك اليمن وشقيقه عاصمة العراق بعد أن زارا جميع عواصم البلاد العربية، ولا أدري أية خيانة للعراق أمكنك أن تستخلصها من هذه الرغبة والجهود التي بذلتها في سبيل تحقيقها. وثالثًا: كوني تلقيت برقية رمزية في موضوع الأميرين اليمانيين كأنك كنت تريد أن يعرف اليهود أن هذين الأميرين الجليلين أصبحا في حاجة إلى استئذان جلالة الملك الإمام في زيارة العراق بعد الموقف الذي اخترته لجيشه الباسل. ورابعًا: زيارتي لبغداد مرتين، وأنت تعلم يا باشا أني أحب بغداد وأني دائمًا في شوق لزيارتها، كما تعلم أن زيارتي لها في عهد مزاحم بك كانت بدعوة فخامته لبحث موضوع المؤتمر العربي. أما زيارتي الثانية لها في عهد وزارتك في أوائل هذا العام فكانت للسعي في مقاومة التيار الذي كاد يقذف ببعض الدول العربية إلى خارج نطاق العروبة.

فأين هي الخيانات التي اقترفتها بقيامي بهاتين الزيارتين والتي وجدت فيها مبررًا لتلك المعاملة التي عاملتني بها؟

أليس من المخجل يا باشا أن ترسل شرطتك لتفتيش غرفتي في بغداد في الوقت الذي كنت تحدثني فيه عن سياستك وتحثني على أن أقترح عليك ما أراه مفيدًا في استرضاء مصر وخطب ودها وإعادة المياه إلى مجاريها الطبيعية، وبعد أن تشرفت بزيارة الوصي - وهو مريض في غرفة نومه - زيارة استغرقت ساعتين؟ وهل وجدت في حقيبتي يا باشا غير تبكيت ضميرك واستغراب رجال الشرطة واستنكارهم لعملك؟ إن أعمالك في السنوات الأخيرة غريبة عجيبة ولكن أشدها غرابة في نظر الجميع أن تأمر بتفتيش حقائب أسعد داغر في بغداد وهو الذي كان يحمل الحكومات العراقية في أوقات أخرى على رفع البوليس من حديقة دارك وإلغاء المراقبة المفروضة عليك؟

هذا بعض ما يُخيّل إلي أنه دار ويدور في مخيلتك.

وتفضلوا بقبول فائق احترامي.

أسعد داغر

وقد أرسلت إلى نوري السعيد الكتاب التالي يوم كُلفت الخروج من بغداد

صديقي القديم حضرة صاحب الفخامة:

ما كنت أظن أن الغاية النبيلة التي جئت من أجلها إلى بغداد، والعطف العظيم الذي لقيته من أمير هذه البلاد ورئيس وزرائها، والمساعي الشريفة التي بذلتها بالاشتراك مع رجالات العراق، ما كنت أظن أن هذا كله يمكن أن يوحي إليك فكرة إبعادي عن بغداد، ولم يكن عليّ في ذلك ذنب. فقديمًا أُبعد النبي محمد عن بلاده، وحديثًا أخرجت أنت وبعض أصدقائي الأعزاء عليّ من بغداد نفسها، وشقيقتك وأطفالها أبعدوا وشردوا في الصحراء ولم يكن في ذلك عليهم ذنب أو عار، بل العار وقع على الذين فعلوا معهم ذلك.

ولم أقصد بهذه الكلمة أن أشكو أو أتظلم، بل قصدت أن أقول لك إني لا أتحول عن رأيي ومبدئي مهما بالغت في ظلمك وعدوانك، وأني سأظل دائمًا وراءك أنا وجميع إخواني الوطنيين – كما قلت لك في اجتماعنا الأخير – ما دمتَ سائرًا في السياسة التي بسطتها لي إذا كنت جادًا في كلامك. ولكن اعذرني يا باشا إذا شككت في صحة ما سمعته منك بعد الذي فعلته معي، فقد قلت لي إن سياستك قائمة على الأسس التالية وهي:

أولًا – استرضاء مصر، وأنا مصري ومع ذلك أبعدتني من دون حق.

ثانيًا – تقوية الجامعة، وأنا موظف كبير فيها ومع ذلك أبعدتني من دون حق.

ثالثًا – توثيق العلاقات بين الدول العربية – ولي في كل من هذه الدول أصدقاء يعطفون عليّ – ومع ذلك أبعدتني من دون حق.

ومع ذلك أجدد عهدي لك يا باشا بأنني سأسير دائمًا في تأييد السياسة التي أوضحتها لي.

وتفضل يا سيدي بقبول فائق الاحترام.

تحريرًا في 16 يناير [كانون الثاني] 1949.

أسعد داغر

خطاب وجهته إلى الدكتور فاضل الجمالي على أثر حملته على الجامعة في البرلمان العراقي

عزيزي الدكتور فاضل الجمالي

تحية واحترامًا وبعد. لا أريد أن أكون طرفًا تاسعًا أو عاشرًا أو تاسع عشر في هذه المهاترات التي أدمت قلبي وقلب كل عربي مخلص. ولا أدري ما هي الحكمة في محاولة زجي فيها. فبعد أن أضعنا كل شيء، بلادنا وكرامتنا ومستقبلنا وكياننا، أصبحت لا يهمني ماذا يُقال أو لا يُقال عني، وصارت الحياة في نظري عبئًا ثقيلًا. والآن إذا تيسر لك أو لغيرك أيًا كان – وهذا ما أسأل الله أن يتم – إنقاذ ما أضعناه كله أو بعضه، فهذه حياتي، وهذا دمي بين يديك تتصرف بهما كيف تشاء.

على إني، رغبة مني في قتل هذا الوقت الثقيل الرابض كالكابوس على صدري، أردت الآن أن أوجه إليك كلمة عتاب خاصة من صديق عرفك في نادي المثنى، وعرفك بعد ذلك، فاكتسبت صداقته.

أنا لست مدير دعاية عزام ولا مدير دعاية الجمالي أو غيره، بل أنا عربي صادق مخلص، ميزته الأولى، بل ميزته الوحيدة، إخلاصه لوطنه وأصدقائه الوطنيين وهذا ما يعرفه جميع أصحابي. وأولى الناس بمعرفته صديقي القديم نوري السعيد.

وأنا آخر عربي يمكن أن يُطرد من العراق، ونوري وجميع أصدقائه وأصدقائي يعرفون كل شيء عن المساعي النبيلة التي كنت أقوم بها في جميع زياراتي للعراق العزيز منذ دعاني دولته إليه للمرة الأولى سنة 1930 إلى أن أخرجني منه في المرّة الأخيرة سنة 1949. وقد سرّتني تعزية معاليك يوم قلت لي من المفوضية العراقية بمصر قبيل عودتك الأخيرة إلى بغداد: «لقد كانت مسألتك نتيجة نرفزة لا أكثر ولا أقل».

أما المؤتمر الشعبي الذي أشرت إليه في البرلمان، وإلى أني «جبت الأقطار العربية من أجله»، فيسرني أن أذكّر معاليك بأني كنت قد حدثتك عنه قبل ثلاث سنوات مع الأخ أكرم زعيتر، فقد رجونا منك حينئذ أن تبذل كل جهدك لاكتساب عطف العراق شعبًا وحكومة على هذا المؤتمر الذي كنا جميعًا نعقد عليه أعظم الآمال. وقد اقترحنا عليك حينئذ أن نرسل وفدًا من إخواننا لبسط برنامج المؤتمر وأغراضه على ولاة الأمور في بغداد بصفة خاصة، كما قررنا أن نفعل ذلك مع جميع الحكومات العربية اجتنابًا لكل سوء تفاهم. فأبديت كل اهتمام بالمؤتمر وقلت لأكرم ولي: «لا حاجة إلى إرسال أحد فسأقوم أنا بنفسي بهذه المهمة في بغداد، ولكن بشرط واحد هو. أن لا تنسوا دعوتي إلى هذا المؤتمر إذا عقد في وقت أكون فيه خارج الوزارة لأني حريص جدًا على حضوره». وأنت تعلم ماذا جرى للمؤتمر بعد ذلك، ولماذا لم يمكن عقده، وتعلم أيضًا أنه لما استؤنف التفكير في عقد مؤتمر شعبي عام بعد اشتداد أزمة فلسطين تشرفت بزيارة بغداد، فوافقت جميع الهيئات والأحزاب والجماعات في العراق كما في غيره على استعجال عقد هذا المؤتمر لشدة الحاجة إليه، وحضرت أنت على ما أذكر جيدًا الجلسة التي عقدتها الجبهة المتحدة خصيصًا لهذا الغرض. وهذه الزيارة كانت موضوع تنديد في خطابك إلى رئيس مجلس النواب العراقي لأسباب لم أتبيّنها. فأنا يا سيدي لي صفة أخرى ككل إنسان، غير صفة الموظف في الجامعة، وقد قمت بهذه الزيارة من تلقاء نفسي. وذهبت إلى بغداد بدعوة من حكومتها، وكنت ضيفًا عليها طول المدة التي أقمتها فيها. فأي غبار على عملي هذا الذي أنفقت فيه كل ما لدي من المال والجهد في سبيل تنفيذ مشروع اعتقدته واعتقده جميع رجالات البلاد مفيدًا للأمة، وربما كان قد وقانا شرورًا كثيرة لو أمكن تنفيذه.

ثم حدث التوتر الذي تعرفونه في علاقات الدول العربية، وبدأت مصر تنكمش على نفسها، فطار لَبّي وأسرعت إلى إخواني في لبنان وسورية طالبًا معونتهم لدرء هذه النكبة الجديدة، نكبة انهيار التعاون بين البلاد العربية بعد نكبة فلسطين. فطلبوا مني أن أسرع إلى بغداد. ولذلك لم أزر دمشق حينئذ إلا في طريق عودتي. ولم أجتمع بأحد في بغداد أثناء هذه الزيارة غير رجال الوزارة الحاليين وبعض رؤوساء الوزارة والوزراء السابقين وعدد قليل جدًا من خاصة الأصدقاء.

ولا أرى أي ضرر في أن يكون معي شفرة خاصة. ولو كان أحد منكم سألني لكفيته مؤونة التعب في محاولة فك رموزها خلسة مني. وحقيقة البرقية التي أشرت إليها هو أني اجتمعت بالأمراء اليمانيين في بيروت، وسألتهم لماذا لا يزورون بغداد وقد كنت حريصًا على أن يزوروها ولو لمجرد الاجتماع بهم فيها. فقيل لي إنه وردت عليهم برقية من جلالة الإمام يستعجل فيها عودتهم إلى مصر فرجوت أن يستأذنوا جلالته من هذه الزيارة. ولكن اقترح بعضهم عليّ حينئذ أن أرجو من عزام أن يتوسط بالاستئذان من جلالته، وقد فعلت ذلك. ويظهر أنه وقع خطأ في برقيتي فهم عزام منه أنه هو الذي نصح الأميرين بعدم السفر لبغداد، فكذب هذا بالبرقية التي حاولتم حلها والتي أقدم لكم نصها الصحيح وهو: «أنا لم أنصح الأميرين بعدم زيارة بغداد بل شجعتهما عليها، ولكني ذكرت أنه لم يبق أمل في حمل العراق على استئناف الحرب لأن الهدنة قد عقدت. تحياتي».

وهذا هو كل موضوع البرقية. فأية جناية اقترفتها في تفكيري بحمل الأميرين على زيارة بغداد؟.

لقد أضعت كثيرًا من وقتك الثمين، وقتلت أنا قسمًا من وقتي الثقيل، أو خففت ثقله على صدري بما أوضحته في هذه الرسالة، وأنا كما قلت لك ولجميع الإخوان الذين أحدثهم أو حدثتهم في مصائبنا العربية، لا يمكن أن أحيد عن طريق المصلحة العامة قيد أنملة ولو بذلت في سبيل ذلك حياتي التي أصبحت رخيصة عليّ. والذي أرجوه أن يكون عهد المهاترات قد انتهى، وأن ننظر جميعًا إلى ما ينتظرنا من مصائب عاجلة فنعمل مخلصين على درئها، ونتناسى أنانيتنا ونهمل هذه الترهات التي يغتبط العدو لانشغالنا عنه بها ويقوم كل واحد منا بواجبه كله لاسترداد ما فقدناه من شرفنا وكرامتنا ولإنقاذ كياننا من الانهيار.

أسعد داغر

القاهرة في 6 يونيو [حزيران] سنة 1949

ربما يكون القارئ قد ملّ هذا الاسهاب في بحث علاقاتي بالسيد نوري السعيد من بعض وجوهها، فليعذرني على ذلك، على أني لم أفعل ما فعلت إلا لأسباب تبرره في نظري، أهمها الرغبة في كشف النقاب عن أسباب تحامله عليّ، ومحاولة دحض افتراءاته، وإيضاح سياسته، وبيان ما ظهر واستتر من نياته.

ويُخيّل إليّ الآن أن القارئ قد أدرك مما تقدم أن السيد نوري السعيد، الذي استطاع بواسطتي أن يحظى بعطف الملك ابن السعود الأدبي والمادي، قاسني بمقياسه، وعزا السبب في ذلك إلى أني أصبحت منفذًا لرغبات الملك وخادمًا لأغراضه، ولا يبعد أن يكون قد استنتج من ذلك أيضًا أني أنا الذي أثرت غضب الملك بما نقلته إليه عن المذكرة، وأني كنت سبب الضوضاء التي قامت حولها.

ولو أن نوري السعيد أخلص لنفسه وفكره بأمانة، لتذكر أني اجتمعت به في حديقة داره هو، فلم تكن المذكرة حينئذٍ في جيبه ليمكنه إطلاعي عليها، وإني لم أطلع من أحد على نصها ولم أعرف شيئًا عن محتوياتها. فكيف أستطيع أن أتخذها وسيلة لإثارة الخلاف بين المملكة السعودية والعراق؟.

السيد نوري السعيد أعرف الناس بترفعي عن هذه الصغائر، وبأني طول حياتي لم أفكر إلا في التقريب بين العرب وجمع كلمتهم وتوحيد صفوفهم. وأنا أتحداه وأتحدى كل إنسان أن يقول غير ذلك، الآن أو بعد الآن.

أما السبب الثاني للإسهاب في بحث علاقتي به، فهو محاولة دحض افتراءاته عليّ. وهذا مما لم أعد في حاجة إليه بعد أن عرف العرب جميعًا من هو نوري السعيد.

والسبب الثالث هو إيضاح سياسته، وقد ظهرت للعيان بالموقف الذي وقفه من قضية فلسطين منذ بدايتها حتى الآن، وبالخطة التي انتهجها لتمزيق العرب، وبخلق حلف بغداد لترسيخ أقدام المستعمرين في البلاد العربية، وإثارة العداء بين شعوبها، وفصل الشعب العراقي عنها وضمه إلى أعدائها.

إني أشعر بأسف شديد لاضطراري إلى توجيه مثل هذا النقد إلى السيد نوري السعيد في هذه الظروف الدقيقة التي تجتازها بلادنا العزيزة. ولكني أرجو أن يثق رفاقي وإخواني أنني ما كنت لأسمح لنفسي أن أثير هذا الموضوع لو أن أثره ينحصر فيّ شخصيًا ولا يتعداني إلى المصلحة العامة.

ويحز في نفسي أن أعلن لهم اليوم ما أصبحت أعتقده في السيد نوري السعيد، مستندًا إلى تجربتي معه وما لمسته من تصرفاته، خفيّها وظاهرها، وهو أنه رجل لا يمكن أن يرجو العراق، ولا غيره من الأقطار العربية، أي خير على يديه. وأن توليه زمام أي أمر، لن تكون نتيجته إلا جلب الضرر وجرّ البلاء على العراق خاصة، وعلى البلاد العربية عامة.

هذا الاعتقاد هو الذي دفعني إلى عرض أمري معه على الرأي العربي العام. أقوم به على اعتبار أنه واجب لقومي عليّ، وجزائي في هذا أني أكون قد ساعدت من خُدعوا مثلي على كشف الغشاوة عن أبصارهم.

---

(261) بكر صدقي (1889-1937): قائد أول انقلاب عسكري في العراق في عام 1936. درس في الكلية العسكرية في اسطنبول وانضم إلى الجيش العراقي ووصل إلى رتبة فريق. أيّد انقلابه شيوعيون ونقابات طالبت بحرية التعبير، لكن صدقي حكم العراق بقبضة متشددة. اغتيل في عام 1937.

(262) إبراهيم كمال: سياسي عراقي تسلّم مناصب وزارية عدّة في العهد الملكي.

(263) الملك غازي بن فيصل (1912-1939): تسلم عرش العراق بعد وفاة والده في عام 1933. كانت له ميول قومية عربية. توفي في حادث سيارة في عام 1939، وسرت شائعات كثيرة عن أن الإنكليز اغتالوه. ورثه ابنه فيصل الثاني.

(264) أسعد الفقيه: دبلوماسي سعودي من أصل لبناني، أول سفير للملكة العربية السعودية في الولايات المتحدة في عام 1945.

(265) حكمت سليمان (1889-1964): درس الحقوق في اسطنبول ثم في المدرسة الملكية. سياسي عراقي، فرضه بكر صدقي رئيسًا للوزراء بعد قيامه بانقلابه.

(266) أمين رويحة (1901-1984): سوري، درس الطب في ألمانيا، ومارس المهنة في مصر والحجاز والعراق وسوريا. من مؤسسي نادي المثنى في بغداد في عام 1935. شارك في ثورة رشيد عالي الكيلاني في عام 1941، وشارك في جيش الانقاذ في عام 1948. هو نفسه صاحب كتاب **التداوي بالأعشاب**.

(267) الضباط الأربعة: عرفوا أيضًا باسم «المربع الذهبي»، وهم صلاح الدين الصباغ وكامل شبيب وفهمي سعيد ومحمود سليمان. وكان لهؤلاء شأن كبير في الحياة السياسية العراقية من خلال نفوذهم في الجيش. شاركوا مباشرة في حركة رشيد عالي الكيلاني في عام 1941، وأعدموا بعد فشل التمرد.

(268) الدعوة الواردة في المذكرة هي دعوة العراق إلى التعاون مع المملكة السعودية على العمل معًا في سورية وفلسطين لتحسين أحوالهما قبل وقوع الحرب الثانية، وذلك بالضغط على إنجلترا وفرنسا الدولتين الصديقتين لحملهما على التساهل إلى أقصى حد ممكن لإرضاء سوريا وفلسطين من جهة، والسعي من جهة أخرى إلى إقناع إخواننا السوريين والفلسطينيين بقبول أقصى ما يمكنهما الحصول عليه من هاتين الدولتين درءًا لأخطار الحرب وتمهيدًا لما بعدها. (المؤلف)

(269) فاضل الجمالي (1903-1997): درس في الجامعة الأميركية في بيروت، وتابع دراسته في جامعة كولومبيا. تقلّب في مناصب علمية وسياسية عدة، وأصبح رئيسًا للوزراء في العراق في عام 1953. له العديد من المؤلفات في التربية والسياسة منها: **الأمة العربية إلى أين؟** و**الخطر الصهيوني**.

(270) عبد الإله بن علي الهاشمي (1913-1958): الوصي على عرش العراق بعد وفاة الملك غازي في عام 1939؛ إذ كان فيصل الثاني في السادسة. استمر في هذا المنصب حتى عام 1953.

(271) مزاحم الباجه جي (1891-1982): دبلوماسي وسياسي عراقي. رئيس وزراء العراق (1948-1949). هو والد السياسي العراقي عدنان الباجه جي.

(272) علي حيدر: درس في الجامعة الأميركية في بيروت، تسلّم مناصب دبلوماسية عدة. وله مؤلفات.

(273) سامي شوكت (1893-1987): درس الطب في اسطنبول. التحق بالحكومة العربية في دمشق في عام 1919، وتسلّم وزارة المعارف العراقية في عام 1940، له مؤلفات عدة.

(274) موفق الألوسي: ضابط عراقي تسلّم منصب مدير الأمور الخارجية في الجيش.

الفصل الثاني عشر
العرب في خلال الحرب العالمية الثانية وما بعدها

في مؤتمر لندن

بلغت أحوالنا وأحوال العالم أقصى حدود التفاقم في الفترة التي سبقت إعلان الحرب العالمية الثانية. فأخذت الأزمة الدولية في التعقيد بسبب حوادث السوديت[275] والممر البولندي[276]، واشتدت أزمة فلسطين، فاضطرت الحكومة البريطانية إلى التفكير في معالجتها في مؤتمر تشترك فيه مع الدول العربية واليهود، ووجهت الدعوة إلى هذا المؤتمر الذي عقد في أوائل عام 1939.

وقد لبت هذه الدعوة جميع الدول العربية المستقلة حينئذ، وهي مصر والعراق والمملكة السعودية والأردن واليمن. فكان الأمير السابق عبد المنعم[277] رئيسًا للوفد الذي يمثل مصر، ومعه علي ماهر وعبد الرحمن عزام والسفير المصري في لندن وبعض الخبراء، ورأس الوفد السعودي سمو الأمير فيصل[278]، وكان معه فؤاد حمزة وحافظ وهبة وإبراهيم السليمان بن عقيل وبعض الخبراء، ومثل العراق نوري السعيد الذي كان رئيسًا للوزراء ومعه بعض المستشارين، ثم خلفه توفيق السويدي بعد أسبوعين. ورأس توفيق أبو الهدى[279] رئيس وزراء الأردن الوفد الأردني. وكان الوفد اليمني برئاسة أحمد سيف الإسلام، وناب عن فلسطين بعض أعضاء لجنتها التنفيذية وفي مقدمتهم جمال الحسيني وعوني عبد الهادي وحسين الخالدي وابن التميمي وجورج أنطونيوس[280] وغيرهم. واتيحت لي فرصة زيارة لندن أثناء انعقاد هذا المؤتمر، واستطعت أن أرقب حوادثه وأتتبع أعماله عن كثب، واطلعت على كثير من مزايا رجالنا وعيوبهم.

وقد اصطدم هذا المؤتمر قبل انعقاده بعقبتين، الأولى رفض الوفود العربية الجلوس في المؤتمر إلى جانب اليهود. والثانية رفض الوفد الفلسطيني أن يقبل بين أعضائه بعض الفلسطينيين الذين دعتهم الحكومة الإنجليزية ولم يكونوا أعضاء في اللجنة العربية العليا. وقد ذللت العقبة الاولى بجعل المؤتمر مؤتمرين، أحدهما يجتمع فيه الإنجليز مع العرب والثاني مع اليهود. وذللت العقبة الثانية بحمل الوفد الفلسطيني على قبول عضوين من الذين جاء بهم الإنجليز من وجوه فلسطين.

ورأس المستر مكدونلد[281] وزير المستعمرات البريطاني هذا المؤتمر الذي اطلق عليه اسم «مؤتمر المائدة المستديرة» بعد أن افتتحه رئيس الوزرء واستمرت جلساته على غير نتيجة إلى أن ازداد خطر الحرب في أوربا، وأصبح الناس يتوقعون نشوبها بين يوم وآخر. وقد قدم الإنجليز اقتراحات لحل المشكلة الفلسطينية، رفضها العرب واليهود معًا. فقررت إنجلترا حينئذ سياسة جديدة لفلسطين، قائمة على أساس هذه الاقتراحات التي تضمنها كتاب أبيض جديد أصدرته في 17 مايو [أيار] عام 1939. وتتلخص في تشكيل حكومة فلسطينية مستقلة خلال عشر سنوات بعد موافقة العرب واليهود على تشكيلها، وإنشاء مجلس تشريعي إن أمكن، والسماح لـ 75.000 يهودي بالهجرة إلى فلسطين خلال خمس سنوات «للمرة الأخيرة»، وحل مشكلة الأراضي بإصدار تشريعات من شأنها منع وتحويل أو إباحة انتقال الأراضي لليهود حسب

ظروف مناطق فلسطين المختلفة، وتحديد فترة انتقال يُمنح فيها أهل البلاد نصيبًا متزايدًا في حكم بلادهم.

وبعد أن أعلن كل من العرب واليهود رفض هذه المقترحات، بدأت الوفود العربية تجمع حقائبها للرحيل، وذهبتُ لأودع الامير فيصل في جناحه الخاص بفندق دورشستر الذي كانت معظم الوفود العربية تُقيم فيه، وإذا بفؤاد حمزة يدخل عليه ويقول: «إن المستر مكدونلد يريد أن يودع سموك»، فأجابه: «ادعه لتناول الشاي اليوم». ولما دنت الساعة الخامسة هممت بالانصراف ولكن سموه استبقاني مع فؤاد حمزة.

كلمات للأمير فيصل

كنا حينئذٍ في اليوم الخامس عشر من مارس [آذار] عام 1939، وكان الجو قاتمًا والسماء ممطرة والعالم في قلق وذعر من حوادث أوربا. وقد بدأ الإنجليز في لندن يحفرون الخنادق ويُعدون المخابئ في الحدائق والشوارع والمنازل، ولا حديث لهم إلا حديث الحرب وما فعلته ألمانيا في السوديت.

ودخل المستر مكدونلد على الأمير فيصل ومظاهر القلق بادية على محياه وهو يقول:

- لا ادري يا سمو الأمير أي أناس هم، فبعد عملهم في السوديت وإدخال هذا السرطان الفظيع في قلب دولتهم المصابة بهستيريا الحرب، لا أدري كيف يمكنهم أن يتوقعوا الفوز.

فابتسم الامير وقال: «هل تعتقد يا مستر مكدونلد أن ألمانيا هي الدولة الوحيدة التي تدخل الحرب وفي قلبها مثل هذا السرطان؟».

إنك تعنينا يا سمو الأمير، وتعني الموقف الذي نقفه من فلسطين، وأنت تعلم أننا بذلنا أقصى جهودنا لإرضاء أهلها، وأننا عازمون على مواصلة هذا البذل إلى النهاية. وإذا شئتم سموكم فنحن على استعداد لاستئناف أعمال المؤتمر في الحال.

ولكننا على أهبة السفر، وقد سبقنا كثيرون من الإخوان أعضاء الوفود العربية.

سندعوهم إلى الانتظار في باريس ونستأنف الاجتماع فيها.

لقد وصل بعضهم إلى مصر، أو هم على وشك الوصول إليها.

وهكذا كانت الملاحظة التي أبداها الأمير فيصل للمستر مكدونلد السبب في استئناف المباحثات بشأن فلسطين في القاهرة بعد وصول الوفود العربية إليها.

ولا بد لي في هذه المناسبة من ذكر بعض ما رأيته من هذا الأمير في أثناء انعقاد مؤتمر لندن. فقبل سفرنا من القاهرة تناولنا الغداء معًا منفردين في فندق سميراميس، وكان قد قيل إن المملكة العربية السعودية قبلت الاشتراك في مؤتمر لندن بقصد المساومة على العقبة، تحت ستار الدفاع عن قضية فلسطين. فرأيت من صراحة الأمير وصدق وطنيته وكريم خلقه ما دفعني لمصارحته بما سمعت. فابتسم وقال ردًا على كلامي:

اذا وقعت الواقعة فستروننا في المقدمة على حدود فلسطين.

إذا ضاعت فلسطين فلا أمل لأي قطر عربي في البقاء. ولن تكون المملكة العربية السعودية أقل استهدافًا للخطر من غيرها.

إن فلسطين هي قلب العروبة، ويتوقف كيان العرب ومصيرهم على بقائها عربية، وهذه حقيقة لا يجوز أن يجهلها أو يتجاهلها عربي واحد.

فتجاسرت وقلت:

أرجو أن يكون جلالة الوالد على هذا الرأي.

لو عرفت المغريات والمؤثرات المادية وغير المادية التي تعرض لها لاقتنعت بذلك.

وشجعني ما رأيته من عطف الأمير على الاسترسال في طرق بعض الموضوعات الحساسة، فقلت:

أتعرفون يا سيدي ماذا يُقال عنكم؟

ماذا يُقال؟

يُقال إنه اذا توفى جلالة الوالد – بعد عمر طويل...

أدري ... وكل شيء يمكن حدوثه إلا هذا.

ولما وصلنا إلى لندن أقمنا في فندق واحد مع معظم الوفود العربية، وكان جناح سمو الأمير قبلة الجميع. وقد شجعني صديقي الشيخ إبراهيم السليمان بن عقيل على الإكثار من زيارة سموه، كما إني أخذت أشجع أصدقائي الآخرين على ذلك. فكنا جميعًا نرى منه الرزانة والحكمة وبعد النظر وسداد الرأي. وقد قلت مرة لصديقي عوني عبد الهادي:

ألا ترى صفات الزعامة متجسمة في شخص هذا الأمير، وأنه يشغل الآن المكانة الأولى في جميع وفود الدول العربية؟

ذلك على ما اعتقد لأنه ابن ملك محترم مُهاب.

فأطرقت قليلًا ثم قلت:

لو أنه من عامة الشعب لما كانت مكانته أقل منها الآن.

ووافقني عوني على ذلك. وتوالت زياراتنا للأمير بقصد التعمق في درسه وتحديد شخصيته. وقد اتبعت في ذلك طريقة خاصة حققت غرضي. فقد كنت أعرف أن بين الأسرتين السعودية والهاشمية عداءً شديدًا وكرهًا متبادلًا، فجعلت أكثر في أحاديثي من ذكر سميّه المرحوم ملك العراق، وأروى عنه ما يُحببه الى القلب ويزيد في تقدير الرأى العام له.

وفي ذات ليلة استرسلت في الحديث عن الملك فيصل ورأيت من سموه إصغاءً تامًا، فاسهبت وبالغت في المدح والثناء وأنا أرقب وقع ذلك في نفس الأمير باهتمام، وذكرت لسموه فيما ذكرت بعض حوادثه معي، كحادث المقالة التي نشرتها جريدة **الأهرام** لخير الدين الزركلي، وجوابي له على ما قاله لي تهديدًا لياسين الهاشمي، وردي عليه يوم اجتماعي به في جبال عجلون بحضور الدكتور أحمد قدري، إلى غير ذلك من

الحوادث والأعمال والأقوال التي تدل على ما كان يتحلى به من حسن الخلق وكريم الصفات.

وكان الأمير فيصل يُصغي اليّ ووجهه يطفح بِشرًا وارتياحًا، فلما خُيّل إليه أني أنهيت حديثي قال: «لقد فقدناه قبل الآوان لسوء الحظ. ولو أنه بيننا الآن لكانت أحوالنا أفضل بكثير مما هي عليه». ثم قال: «إن الرجال ثلاثة كما يقولون، رجل رجل ورجل نصف رجل، ورجل لا رجل. فالرجل الرجل هو الذي يُحيط نفسه بأصدقاء عقلاء ويُصغي الى نصائحهم، ويكون هو سديد الرأي واسع الإدراك. والرجل النصف رجل هو من كان سليم العقل ولكنه يأبى قبول النصائح وليس له أصدقاء عقلاء. أما الرجل اللارجل فهو الذي حُرم من نعمة العقل والأصدقاء معًا. وقد كان الملك فيصل رحمه الله الرجل الرجل بكل معنى الكلمة. عوض الله هذه الأمة عنه خيرًا».

ونقلت إلى عوني عبد الهادي هذا الحديث فدهش وقال: « قد يكون هذا مجاملة منه لك لأنه يعرف علاقتك بالملك فيصل». ولم أقتنع بهذا القول بل واصلت الدرس والبحث.

وفي ذات مرة كنت مع سموه في القاهرة، وجاء أحد سكرتيريه فأبلغه أن إحدى السيدات على الباب ترجو مقابلته. وكان الحاضرون جميعًا يعرفون هذه السيدة، وأنها أصبحت في حاجة ماسة إلى المال منذ خروج الملك حسين من مكة. فاستقبلها الأمير فيصل بلطفه المعهود. ولكنها أرادت أن تتقرب منه بالتنديد بمن تظنهم خصومًا له (أي بالأمراء الهاشميين). فما كاد يسمع أول كلمة في هذا الموضوع حتى أوقفها بكلمة قوية رقيقة. فتلعثمت، وساعدناها جميعًا على الخروج من هذا المأزق.

ودار الحديث مرة حول العراق، فقلت إن من أعظم أمانيّ في الحياة أن أرى انتهاء الخلاف بينكم وبين العراق.

وقد لاحظ أن هذا الرجاء صادر من أعماق قلبي. فقال متأثرًا: «ليس بيننا وبين العراق أي خلاف، فإذا وجد، فنحن نقبل كل حلّ تقترحه. وأنا على استعداد لأن أوقّع على ذلك من الآن».

فجعلت أبحث في الأمر واثقًا من أن الأمير فيصل يعني دائمًا ما يقول. وسألت كثيرين من إخواني العراقيين أن يذكروا لي أي خلاف بينهم وبين المملكة العربية السعودية، فلم أسمع منهم غير التهم والانتقادات. وقد قال لي أحدهم:

إن يوسف يس هو سبب كل شر، فلماذا ينتدبه الملك عبد العزيز لتمثيله في جامعة الدول العربية؟

وما شأنكم أنتم في هذا الموضوع، وما علاقة ذلك بالخلاف بينكم وبين الملك ابن السعود؟

إن هذا الرجل هو الذي يُثير هذه الخلافات.

وهل اذا أمكن إبعاده عن الجامعة تعود المياه إلى مجاريها؟

ثم قلت بمرارة:

حرام عليك يا أخي أن تُسيء الظن إلى هذا الحد برجل كيوسف يس.

ولا أزال الآن، وبعد الآن، على استعداد لمطالبة الأمير فيصل بتنفيذ وعده الكريم في تسوية كل خلاف يمكن أن يظهر بين الرياض وبغداد.

ولما اشتدت أزمة فلسطين وظهرت حاجة العرب إلى السلاح، اقترح بعض الوطنيين على البنك العربي أن يتولى هو سد هذه الحاجة. وقد قلت لمديره مرة:

حرام على البنك العربي أن تذهب فلسطين ويبقى هو.

دلوني على من يشتري السلاح مني وأنا كفيل بإحضاره.

وذهبت إلى الأمير فيصل، وكان حينئذٍ بفندق شبرد، وأخبرته بما اشترطه البنك العربي لشراء السلاح. فتناول في الحال ورقة وكتب الكلمة التالية الموجهة إليّ: «بناء على ما حدثتني به عن استعداد البنك العربي لشراء السلاح للدفاع عن فلسطين، فأني بصفتي وزيرًا لخارجية المملكة السعودية وممثلًا لها في جامعة الدول العربية، أتعهد بشراء ما قيمته 600.000 جنيه من هذا السلاح، خصوصًا اذا كانت فيه أسلحة ضخمة». إمضاء: فيصل.

وخرجت من الفندق وقلبي يطفح سرورًا، وأخبرت عبد الرحمن عزام تليفونيًا بما جرى. فطلب مني كتاب الأمير ليُضيف إليه باسم الجامعة العربية تعهدًا آخر بمثل القيمة التي تعهد بها سموه.

ومررت بالبنك العربي في طريقي إلى الجامعة وقابلت مديره عبد الحميد شومان وأخبرته بأني ذاهب إلى الجامعة للحصول على توقيع من أمينها العام على تعهد مثل هذا، فأخذ الكتاب منى وجعل يفحص التوقيع بدقة، ثم قال متلعثمًا: «هذا توقيع... الأمير فيصل». قلت: «نعم» وسيضاف إليه بعد قليل توقيع الجامعة العربية فيُصبح المبلغ الذي يُرصد لشراء السلاح مليونًا ومائتي ألف جنيه.

وبعد أن تلى الكتاب مرارًا وأنا مستعجل لإنهاء الموضوع، سألني قائلًا: «ومن يضمن؟» فنظرت إليه شذرًا وقلت: «أنا!»، ثم انفجرت غضبًا وتدفقت من فمي ألفاظ قاسية لم يسبق لأحد أن سمعها مني.

كيف ظهرت جريدة القاهرة

كانت فكرة إنشاء جريدة عربية كبرى لا تزال تراودني من أكثر من عشرين عامًا. وكنت قد فكرت في العراق، يوم كان قبلة العرب. وقد تحدثت بشأنها حينئذ مع الملك فيصل ويس الهاشمي وغيرهما من رجالات العراق. وكانوا قد وعدوني بتخصيص 180.000 جنيه لهذا المشروع، بالإضافة إلى ما يمكن جمعه من البلاد العربية الأخرى، لجعل الجريدة عربية من جميع الوجوه، لكل قطر عربي نصيب فيها. وقد قال لي يس الهاشمي: «إذا أمكن إصدار جريدة على هذا الشكل استطعنا أن نستعيض بها عن الأحزاب والهيئات والزعامات المختلفة. فإن رأيها سيكون أشد تأثيرًا في الشعوب من أي رأي آخر، بل من رأي أية حكومة عربية على حدة. لأن ما يكتب فيها لن يصدر عن رجل واحد أو حزب واحد، بل يكون رأي الأمة جمعاء».

وعدت من بغداد وأنا عظيم الأمل بإنشاء جريدة تتولى توجيه الأمة العربية في مختلف شؤونها السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية وغيرها توجيهًا صحيحًا. ورجوت كثيرين من أصدقائي، وفي مقدمتهم خير الدين الزركلي وإبراهيم عبد القادر المازني[282]، أن نتعاون معًا على إخراج هذا المشروع إلى حيز

الوجود. وكنت ألقى من جميع رجالات الأمة كل تأييد. ولكن ظروفًا قاهرة حملتني على إرجاء هذا المشروع، إلى أن اتضح لي في عام 1936، بعد انقلاب بكر صدقي، أن ذلك كان في مصلحتي ولحسن حظي.

وبدأت الآمال المعقودة على العراق تنهار بالتدريج وتتحول إلى عواصم أخرى غير بغداد، إلى الرياض ودمشق ثم إلى القاهرة، حيث نرجو أن تكون قد استقرت نهائيًا.

ولما تفضل سمو الأمير فيصل وسألني – وكان مدير البنك العربي حاضرًا –: «ألا ترى أن أعمالًا وطنية كثيرة لا تزال تنتظر الأمة؟»، اتجهت أنظاري إلى مشروع الجريدة، فقلت: «أعتقد يا سيدي أن الأمة العربية في حاجة شديدة الآن إلى جريدة توجيهية كبرى تكون فوق الأقاليم والحكومات والأحزاب، تعالج القضايا العربية من وجهة نظر العروبة، وتستمد آراءها وتوجيهاتها من نخبة من رجالات العرب في مختلف الاقطار بحيث تصبح هذه الآراء أشد تأثيرًا في نفوس الشعوب من آراء الحكومات نفسها». فالتفت سموه حينئذ إلى مدير البنك وقال: «أنا لست بنكًا ولكني على استعداد لأن اشترك في مشروع الجريدة، هذا مبلغ 90.000 جنيه. فأؤمل أن يفعل البنك أكثر من ذلك». ثم قال لي: «إجمع ما تستطيع جمعه من الأقطار العربية والبنك العربي ثم عد إليّ»، فقلت: «يا سيدي أرجو أن ألقى من كل قطر عربي مثل هذا الإقبال على مؤازرة الجريدة. ولكني أخشى أن تحول الظروف الحاضرة دون التمكن من الاتصال بجميع الأقطار العربية. لذلك أرجو من سموكم ومن حضرة مدير البنك العربي أن تعدوا ببيع ما يزيد عن نصيب المملكة العربية السعودية وفلسطين من أسهم الجريدة، بعد تأليف شركة لها». فابتسم الامير وأجاب: «لك هذا!» ثم قال: «أرجو أن تكون الجريدة فوق الأحزاب والأشخاص، وفوق المنازعات المحلية، تدافع عن العرب في كل خلاف يقعون فيه مع الأجانب وتعمل على التهدئة إذا وقع سوء تفاهم بينهم».

واتصلت بعد ذلك بكثرين من رجالات البلاد العربية في مصر والعراق وسوريا ولبنان والمغرب وغيرها. فقابلت علي ماهر بالقاهرة وعرضت عليه الفكرة فاستحسنها، وقد قال لي: «هذه الجريدة ستكون أعظم جريدة في الشرق إذا سارت على المبادئ التي تقول عنها». ثم وعد بتأييدها أدبيًا وماديًا. واجتمعت بالسيد وزير خارجية مصر حينذاك تمهيدًا لمفاوضته في تولي رئاسة تحرير الجريدة. كما تحدثت مع السيد رياض الصلح، وبعض رجال العراق وفي مقدمتهم السيد نجيب الراوى السفير العراقي بمصر، والسيد نوري فتاح[283] أحد كبار رجال المال في العراق، وكثيرين غيرهم، واتصلت في هذا الموضوع بكبار المهاجرين العرب في أمريكا، فتلقيت منهم جميعًا كثيرًا من الوعود المشجعة.

هكذا ظهرت فكرة إنشاء «جريدة **القاهرة**»، فكان أول من حدثته بشأنها نجيب الراوي سفير العراق في مصر سابقًا، ونوري فتاح صاحب المصانع المعروفة في بغداد، ثم الأمير فيصل والرئيس شكري القوتلي وعلي ماهر ورياض الصلح... إلخ.

اما الأمير فيصل فقد استطعت أن أثير اهتمامه بالموضوع على أثر الحادث التالي: أقمت ذات يوم في مقر جمعية الوحدة العربية مأدبة شاي لسموه، حضرها كثيرون من رجالات العرب الذين كانوا في القاهرة، وجلست مع بعض الأصدقاء في إحدى القاعات وقد سألني أحدهم:

لماذا لا تنشرون ما يصدر عن الجمعية من نشرات ويُلقى من خطب وبيانات في الصحف المحلية.

إن الصحف لا تخوض الآن في مثل هذه الموضوعات، ولكننا نفكر في إصدار مجلة لهذا الغرض.

وبعد لحظة ناولني صديق لي رسالة، فقرأتها ثم قمت واتجهت نحو القاعة التي جلس فيها الأمير فيصل وكبار المدعوين. وكان توفيق دياب[284] يخطب حينئذٍ، فقاطعته وقلت: «أنت يا سيدي الأستاذ أديب الشرق وخطيبه المفوّه، ولكني اليوم سأخطب للمرة الأولى أحسن منك. أنت تنطق كلامًا وأما أنا فسأنطق بالذهب، وحانت مني التفاتة الى الوراء فرأيت إميل البستاني[285] الثري اللبناني المعروف يشير بيده ألاّ أفعل، ولما رأى تصميمي على قراءة الرسالة أسرع بالخروج خجلًا وحياء. وكان توفيق دياب قد سكت، فقرأت: «إذا كنتم عازمين على إصدار جريدة يومية كبرى فأنا على استعداد لأن أتبرع لها بعشرة آلاف جنيه مصري كدفعة أولى».

الإمضاء: «إميل البستاني»

وصفق الحاضرون ودعاني الأمير فيصل إليه وشجعني على المضي في هذا المشروع. ولم يكن الأمير فيصل قد عرف ما جرى لي مع مدير البنك العربي يوم نقلت إليه وعد سموه الخطّي بشراء الأسلحة منه. غير أنه علم بأن الموضوع لم يتم. ولما جاء السيد شومان لزيارته بعد مدة كنت في حضرته، فأخبرته حينئذ أمام شومان نفسه بأنه لم يفِ بما وعد به، وأنه ترك فلسطين تضيع ولكنه احتفظ بالبنك الذي أُنشئ منها ولها، فقال سموه: «لو تمكن البنك من شراء الأسلحة اللازمة لقام بعمل وطني كبير». ثم أضاف الى ذلك قوله: «على أنه لا تزال أمام الأمة أعمال وطنية كثيرة أرجو من البنك العربي الاّ يتخلّى عنها».

ولا أريد أن أقول الآن هل تخلى البنك العربي عن جريدة **القاهرة** أو لا، لكني أردت أن يعتقد الناس كما أصبحت أعتقد بأن الاعتماد على وطنية التاجر أو المتمول في بلادنا أحيانًا في غير محله. على أن ما كنت أرجوه من الأمة العربية لجريدة أُنشئت لخدمتها والدفاع عن أهدافها العليا، قد وجدته كله في رجل واحد، عالي الهمة، بعيد النظر، سمح اليدين، كبير النفس، هو صاحب السمو الملكي الأمير فيصل بن عبد العزيز، فقد احتضن هذه الجريدة وهي في المهد، وشملها بعطف لم يسبق له مثيل، ورعاها بعناية فائقة أملتها عليه المصلحة القومية العليا دون سواها. فقد أراد لها الكمال، وبذل كل جهده في سبيل ذلك. ولكن الأحوال التي اكتنفت صدور هذه الجريدة كانت قاسية جدًا، وقد خفف سموه من قسوتها بعطفه السامي وتوجيهاته الثمينة التي حفظت لهذه الجريدة الناشئة مركزًا ممتازًا في العالم العربي، حيث كانت على الدوام لسان حال الوطنية الصادقة والرأي الناضج، والتوجيه الصحيح والعروبة المتأججة حماسة، والمبادئ الصحيحة والآراء الصائبة. لا تعرف غير الحق ولا تُقر غير العدل. وتدعو دائمًا إلى القوة والاتحاد وتعمل من أجل السلم والنظام.

وكان سموه يوصي دائمًا بالصدق والتسامح واحترام حرية الرأي، والأمانة في نقل الأخبار وحسن اختيارها، وتوخي الفائدة من إذاعتها، مستنكرًا ما يعمد إليه بعض الكتاب من مسايرة أهواء الجمهور ورغباته تحقيقًا لكسب مادي، أو استدرارًا لعطف أدبي.

وقد وجدتُ سموه خبيرًا في شؤون الصحافة، عارفًا بآدبها وسُبلها كخيرة رجالها. وكنت أقول دائمًا: «لو

كان هذا الأمير صحفيًا لما تمكن أحد من مجاراته». ثم أتمادى في التساؤل قائلًا: «لو كان أديبًا أو شاعرًا أو فيلسوفًا أو خطيبًا أو عالمًا أو قائدًا...»، وأجيب بمثل ما أجبت به عن السؤال الأول. وهكذا تعلمت كثيرًا في الأوقات القصيرة التي أتاحت لي فرصة الاجتماع به والتحدث إليه، في الأدب والتاريخ والسياسة والاجتماع، وفي علوم الحرب والإدارة والاقتصاد، وغير ذلك مما جعلني أعجب بسعة معارفه وسمو إدراكه وشدة إقباله على المطالعة واهتمامه وعنايته برجال العلم والفن والأدب. وهو يجيد بضع لغات، وله شغف كبير بتاريخ الشعوب ودرس سير النوابغ والعظماء وأولى الناس بإعجابه منهم خالد بن الوليد ومعاوية بن أبي سفيان وابن رشد والمتنبي والمعري. وهو يحفظ الكثير من الشعر، هادئ الطبع قليل الكلام لا يعرف الحقد ولا الغضب ولا الشماتة. حاولت في أسابيع طويلة أن اكتشف فيه عيبًا أو ضعفًا فلم أجد، فاعتقدت بأنه من أقرب الناس إلى الكمال.

إنه الرجل الذي لا يتغير ولا يتبدل. هو في الشدّة كما في الرخاء، وفي الضراء كما في السراء، تولّى مهامًا تكللت كلها بالنجاح وواجه صعوبات كثيرة ذللها كلها بلا جهد ظاهر ولا عناء. وكان يجد دائمًا أحسن الحلول للمشكلات التي تعترض سبيله. ويتخذ خير القرارات التي تُمليها المصلحة القومية. ولو أردت أن أسرد الأدلة على ذلك لاحتجت إلى مجلدات ولكني أكتفي بذكر بعض الحوادث على سبيل المثال.

لما وصلت الجيوش السعودية التي كان يقودها إلى الحديدة في أثناء حرب اليمن، وجدت قوة من الإيطاليين قد سبقتها إلى المدينة ونزلت فيها بحجة حماية الأجانب. ووجدت أسطولًا إنجليزيًا يعد عدته لإنزال قوة في المدينة للسبب نفسه. فأعلن الأمير في الحال أن القوات السعودية احتلت المدينة، وأنها أصبحت مسؤولة عن الأمن فيها. ثم طلب إلى القوات الإيطالية الانسحاب، وأبلغ الأسطول البريطاني أنه يأخذ على عاتقه المحافظة على الأمن في المدينة.

وقد توقف الإنجليز عن إنزال الجنود على أثر هذا البلاغ، أما الإيطاليون فإنهم لم يحركوا ساكنًا. وكانت القوات السعودية قد عسكرت حول مواقع الإيطاليين، فتلقت الأمر بالبقاء. ولما حان وقت استبدال القوات الإيطالية بأخرى سهلت القوات السعودية لها سبل العودة إلى سفنها ولكنها حالت دون إنزال قوات جديدة محلها، وكاد هذا الحادث يؤدي الى أزمة، ولكن حزم الأمير وحسن تصرفه كان لهما الفضل في إنهاء المشكلة بأسرع ما يمكن.

وكان سموه من الراغبين في المضي في الحرب الى النهاية، ولكنه لم يلبث أن أصبح من أكبر مؤيدي صلح سريع مع اليمن بعد أن أدرك عظم المطامع الأجنبية التي تحوم حولها. وكان ذلك رأي الملك عبد العزيز فعقد الصلح على أهون سبيل، وعلى أساس الأخوّة العربية الصادقة بين الدولتين.

وكان هذا الصلح نصرًا للقضية العربية، أعظم من الانتصارات العسكرية التي أحرزها ابن السعود على اليمن، لأنه جنّب البلاد أخطار المطامع ووطد لها أركان السلم، ومهّد للأمة العربية سبيل التعاون، وفتح أمامها باب الاتحاد على مصراعيه.

وأذكر أن اللجنة السياسية التابعة لجامعة الدول العربية، اجتمعت مرة في الإسكندرية لبحث الموقف الذي يجب أن يقفه العرب في المؤتمرات الدولية، وهل يقترعون مع الغرب أو مع الشرق. وكان هذا البحث

شائكًا. فظهر الارتباك على جميع المندوبين، وبدت عليهم مظاهر الحيرة وسادهم الصمت العميق. وفي أثناء هذا الصمت مال «الأمير فيصل» على سعد الله الجابري وهمس في أذنه كلمة وقف سعد الله على أثرها وقال: «اسمعوا أيها الإخوان. إن سمو الأمير قد حلّ الموضوع الدقيق الذي نعالجه من ثلاثة أيام بكلمة واحدة هي أننا في المجتمعات الدولية يجب ألا نكون مع الشرق ولا مع الغرب، بل مع الحق حيثما وجد. فنحن ضعفاء، والحق هو أعظم قوة يمكن الاستناد إليها». ووافقت اللجنة السياسية على هذا الاقتراح بالإجماع. ولعل هذه الموافقة كانت من أهم أسباب قوتها وعطف الرأي العام العالمي عليها.

وأذكر مرة أن مؤتمر لندن أشرف على الفشل، فاجتمع رؤوساء الوفود العربية عند الأمير فيصل. وبعد مناقشة قصيرة خرج سموه لزيارة المستر تشمبرلن[286] رئيس الوزارة البريطانية وقتئذ. فلما عاد إلى الفندق علمت أن الأزمة انفرجت، وأن الرئيس البريطاني أعلن لسموه أنه لن يترك المؤتمر يفشل وهو رئيس للوزارة. وطلب منه أن يؤكد ذلك لجلالة والده. وهكذا كنت أشهد كل يوم بأم عيني كيف كان سموه يذلل العقبات، ويحلّ المشكلات، ويُعالج الأمور بما اشتهر عنه من حكمة ودراية وسعة صدر.

وكنت أزداد تقديرًا لسموه كلما ازددت معرفة به. ولا ينطبق هذا القول عليّ وحدي، بل يتناول جميع الإخوان الذين كانوا مثلي قليلي الاتصال بسموه إلى ذلك الحين، كعوني عبد الهادي وغيره.

جمعية الوحدة العربية

ظهرت هذه الجمعية أولًا بين صفوف طلبة الجامعة في سنة 1936. ثم احتضنها عدد من المفكرين العرب، من مصر ومن غير مصر، المؤمنين «بأن لا عروبة بدون مصر، ولا وحدة ولا استقلال إلا بعد دخولها معهم»، وكان من بين أعضائها العاملين عبد الستار الباسل وعبد الرحمن عزام ومنصور فهمي ومحمد علي علوبة وكاتب هذه السطور الذي عُهد إليه بسكرتيرية الجمعية.

وقد ظهرت هذه الجمعية في القاهرة لتحقيق هذا الغرض بعد أن تلاشت الآمال التي كانت معقودة على العراق في تحقيق الوحدة العربية، وبعد أن ثبت أن مجال العمل في سوريا ولبنان وفلسطين مستحيل لوجود قوات الاستعمار فيها. وقد تلقّت الجمعية عطفًا أدبيًا وماديًا من رجالات العرب وخاصة سمو الأمير فيصل آل سعود. وكانت باكورة أعمال الجمعية في توجيه الرأي العام المصري توجيهًا عربيًا قوميًا إذ دعت إلى عقد اجتماعات سياسية، حضرها عدد كبير من المسؤولين والساسة العرب، نوقشت فيها القضية العربية، وإذ دعت كبار رجال الفكر لإلقاء محاضرات عن القومية وتاريخ الأمة العربية في اجتماعات عامة كان لها أثر قوي في نشر الفكرة العربية بين المواطنين. وقد وضعت الجمعية المبادئ التالية وأقرّت العمل على أساسها وهي:

- **أولًا**: الأمة العربية هي التي تسكن الأقطار العربية المتاخمة الممتدة بين المحيطين الأطلسي والهندي، والعرب هم الذين لغتهم العربية يتأدبون بآداب الأمة العربية ويستحقون ماضيها ويعتزون بعزتها وعزة الانتساب إليها.

– **ثانيًا**: البلاد العربية وطن واحد امتزج سكانه منذ آلاف السنين وتكونت وحدته الثقافية من قرون عديدة. فكل ما طرأ عليه من تجزئة مخالفة لإرادة أبنائه لا تقره الأمة العربية ولا تعترف به.

– **ثالثـًا**: ترفض الأمة العربية الاستعمار بجميع أشكاله من أية جهة جاء وإلى أي سبب استند، وتناصر مبدأ الحرية للجميع.

– **رابعًا**: الوحدة العربية حاجة طبيعية، والنظام الذي تريده الأمة العربية لهذه الوحدة هو النظام الحر الناشئ عن رضى وتعاون بين شعوبها لتحقيق استقلال العرب وعزتهم ورفاهيتهم والمساهمة في حضارة المستقبل والسلام العام.

وقد فرضت الجمعية على أعضائها ومؤيديها أفرادًا وجماعات واجبات مختلفة نذكر منها ما يلي:

– **أولًا**: نشر الفكرة العربية وترسيخها في النفوس، ودرس التاريخ العربي والحضارة العربية ورسالة الأمة العربية درسًا صحيحًا قائمًا على العلم.

– **ثانيًا**: السعي للإصلاح القومي من جميع وجوهه بإصلاح البيت والمدرسة ونشر التعليم وروح الوطنية والتضحية والفضيلة بين الجماهير وإصلاح الحالة الحزبية.

– **ثالثًا**: السعي لتأمين العمل والعلاج والتعليم لكل عربي وعربية وتحسين الحالة المعيشية في الريف وتحضير البدو ومضاعفة العناية بتعليمهم.

– **رابعًا**: اعتبار البلاد العربية وحدة اقتصادية طبيعية لا تنافُس بين أقطارها ولا تضارُب، واعتبار جميع الصناعات والحرف متساوية في الشرق في الوجهة الاجتماعية، والحث على القيام بمشروعات عمرانية للزراعة والري والصناعة وإنشاء المعامل والمصانع والمزارع وشركات الثروات الطبيعية.

ولما كان نشر الفكرة العربية بين المواطنين في مصر لا يقوم إلا على أسس قوية في المعرفة بتاريخ العرب ونشأتهم وتحديد وطنهم ومستقبل قضيتهم ودولتهم إلخ، فقد عمدت الجمعية إلى شرح هذه الأسس التي يقوم عليها كيان العرب في كراس صغير جاء في مقدمته: «هذه كراسة صغيرة تقدمها جمعية الوحدة العربية لكل عربي وعربية في مختلف أقطار العرب، راجية قراءاتها وتفهم معناها، لتكوين فكرة صحيحة عن حقيقة القضية العربية وأهدافها، وعن بعض ما يجب أن يعرفه كل عربي عنها وعن واجباته نحوها»... إلخ.

1. الوطن العربي – هو البلاد التي يسكنها العرب، ويتكلم أهلها اللغة العربية في آسيا وأفريقيا، وتحدها من الشمال جبال طوروس والبحر المتوسط، ومن الغرب البحر المتوسط والمحيط الأطلسي، ومن الجنوب المحيط الهندي والهضبة الحبشية والصحراء الكبرى، ومن الشرق جبال بشتكوه والبختيارية وخليج البصرة. وتؤلف الآن من الأقطار الآتية: العراق وسورية ولبنان وشرقي الأردن وفلسطين والمملكة العربية السعودية واليمن والإمارات الواقعة على شواطئ جزيرة العرب في الشرق والجنوب ومصر والسودان وبرقة وطرابلس الغرب وتونس والجزائر ومراكش والجزر المجاورة التي يقطنها العرب.

2. الأمة العربية – هي الجماعة التي تسكن هذا الوطن المتشاكلة والمتحدة في لغتها وثقافتها وتقاليدها

وسائر الروابط الاجتماعية، وليس لها عصبية تمنعها من الاندماج في القومية العربية. والفرد العربي هو الشخص الذي ينتمي إلى الأمة العربية (مقيمًا كان أو مهاجرًا) بحيث يكون ولاؤه المطلق ببداهة حسه وتفكيره لها ولا يكون له ولاء لغيرها.

3. القومية العربية – هي مجموعة الصفات والمميزات والخصائص والإرادات التي ألّفت بين العرب وكوّنت منهم أمة متحدة في الوطن واللغة والثقافة والتاريخ والمطامح والآلام والجهاد المستمر والمصلحة المادية والمعنوية المشتركة.

4. القضية العربية هي الحركة التي يقوم بها العرب لتحرير أمتهم من الاستعمار والاستعباد والفقر والجهل ومختلف ضروب الوهن، بتأليف كتلة أو كتل قومية عربية قوية متحضرة تنهض بكيان العرب المادي والمعنوي وترفع من شأنهم وتشد أزرهم في أداء رسالتهم الإنسانية والعمرانية.

5. الدولة العربية – دولة قومية لا دينية، والأديان عندها هي سبيل المرء إلى خالقه، أما العبادات فهي مقدسة ومحترمة على الدوام. والحريات العامة حق مقدس للجميع، ولكن يسوّغ للقانون تقييدها إذا قصد بذلك مصلحة الأمة.

6. إيمان العربي - سبيل كل نهضة محفوف بالصعوبات، فليس غريبًا أن تصادف النهضة العربية ما نراه من عقبات. ولكن إيمان العربي بمستقبله لا يتزعزع، وعزيمته لا تكل من جراء المصاعب التي تعترضه والمساوئ التي يلحظها والتي واجهت مثلها وأشد منها وتغلبت عليها جميع الأمم التي نهضت واتحدت في التاريخ. ويؤمن العربي أيمانًا راسخًا بأن الأمة العربية التي نهضت في الماضي نهضتها الجبارة لا بد لها من أن تستأنف نهضتها وتسترد المكانة اللائقة بماضيها المجيد في العالم الجديد.

7. وحدة الهدف - يؤمن العربي بأن هدفه القومي واحد لا يتجزأ مهما تختلف أسباب الوصول إليه، وبأن جميع الجهود الفردية والجماعية يجب أن توجه إلى هذا الهدف. وهو يرى أن المساعي والجهود التي تبذل في هذا القطر العربي أو في ذلك لا يجوز أن تؤدي إلا إلى التحرر والاتحاد.

8. الجهاد - قعود العربي وإحجامه عن الانتظام في مواكب المجاهدين عار وضلال يشبهان الخيانة، ومثله الإخلال بالنظام، وفي ميسور كل عربي أن يجاهد بيده أو قلمه أو لسانه أو ماله أو قلبه، ولا عذر لمتخلف ولا سيما في ساعات الخطر أو أوقات البعث والنهضة.

9. العمل القومي - ليس في مطامع العرب اعتداء على أحد، فهم إنسانيون متعاونون دوليًا في حدود النظم العالمية التي لا تؤذي نهضتهم وكيانهم ولا تمس كرامتهم. على أنهم يعملون بالطبع على مقاومة كل اعتداء يقع عليهم ويعدون عملهم هذا دفاعًا مشروعًا عن النفس.

10. الحقوق المقدسة- لا يملك العربي أن يتخلى لأجنبي، سواء بالرضا أو الإرغام، عن كرامته أو حريته أو عن بقعة من وطنه أو عن أي جزء من هذه الثروات جميعًا. ومن باب أولى العرب كجماعات، فكل تنازل أو عقد في هذا القبيل فاسد باطل.

11. العروبة وسيلة النجاة – يؤمن العربي إيمانًا لا شك فيه بأن ما من قطر عربي يستطيع النجاة العاجلة أو الآجلة من الفقر والجهل والاستعباد والاستعمار إلا بعروبته.

12. فكرة الوحدة العربية – نتيجة طبيعية لوجود الأمة العربية، تستمد نشاطها من حياة اللغة العربية وتاريخ الأمة واتصال البلاد العربية بعضها ببعض.

العرب والثقافة

وبعد هذا التعريف بهذه الأسس التي ترتكز عليها القومية العربية عمدت الجمعية إلى شرح أهمية الثقافة في مستقبل العرب «لأن الثقافة ثروة إنسانية يساهم العرب في خدمتها بوحي تقاليدهم، وهي تكفل لهم – أفرادًا وأمة – وسائل العيش والرقي الفكري والعزة القومية والغذاء الروحي ومنفعة الجنس البشري إذا استمدت عناصرها من مميزاتهم وخصائصهم وتاريخهم ومصلحتهم».

وفي هذا الاتجاه سارت الجمعية بكل قواها منذ سنة 1939، وشعار دعاتها «الإيمان والنظام والطاعة والعمل»، وهي تعمل بجد وإخلاص لتحقيق أهدافها إلى أن قامت جامعة الدول العربية فتوقفت عن العمل. ومع أن الجمعية لم تعش طويلًا، إلا أنه يمكننا القول إنها تمكنت من غرس فكرة العروبة في أفئدة المصريين، وسجلت علنًا بدء ظهور القومية العربية في مصر.

ويجدر بنا ونحن نؤرخ لهذه الفترة التي بُعثت فيها القومية العربية في القطر المصري أن نشير إلى أهمية الدور الذي قام به الأساتذة والطلبة في نشر هذه الفكرة بين المواطنين. فقد كان الأساتذة المصريون الذين تستعيرهم البلاد العربية دعاة للقومية العربية بعد عودتهم إلى مصر، وكان الطلبة العرب الذين يأتون إلى مصر من الدول العربية الشقيقة طلبًا للعلم في مدارسها وجامعتها دعاة لهذه القومية في المدارس والمعاهد والجامعات. كذلك كانت البعثات العلمية والرياضية والثقافية التي تزور القاهرة. ثم كان للجهود التي بذلها المفكرون المصريون فيما بعد في هذا السبيل، والتأثير الذي أحدثه قيام جامعة الدول العربية، ثم حرب فلسطين، كل هذا من الأسباب التي استعجلت بعث القومية العربية في مصر والتي تولت قيادتها منذ ثورتها التحررية الكبرى في 23 يوليو [تموز] سنة 1952.

آمال تتحقق

لقد كنت دائمًا أقول إن الأمة العربية أصبحت الآن في حاجة إلى نبي أو زعيم وإن هذا الزعيم لا بد من أن يظهر قريبًا، وقد كنت أعتقد بهذه الحقيقة منذ بدء النهضة العربية، وسبق لي أن سمعت بعض الذين عقدت عليهم الأمل من رجالات الأمة العربية، فأضاعوه الواحد بعد الآخر إلى أن قامت ثورة مصر الكبرى بقيادة الرئيس جمال عبد الناصر. وهنا وجدت آمالي بدأت تتحقق، وأن الفكرة العربية التي كانت حلمًا لذيذًا لي ولإخواني في عهد الصبا أصبحت حقيقة ملموسة في عهد الكهولة. وجدت أن مصر أصبحت ركن العروبة وملاذها. وجدت أن الشعوب العربية التي كانت متناثرة متخاذلة، لا كيان لها ولا وجود إلى ما قبل سنوات قليلة، قد اتحدت وتضامنت وسارت بخطى الجبابرة في طريق المثل العليا، ووجدت أن كل شيء قد تبدّل حولنا، فالتواكل الذي كنا نشكو منه تحول إلى جرأة وإقدام واعتماد على النفس. والخوف الذي كنا نشعر به لوقوع أي حادث تحول إلى شجاعة واستبسال وإقبال على التضحية. فبعد أن كنا نخشى أن نُصاب بأي شيء، أصبحنا نتحدّى الموت في سبيل الكرامة ومجد الوطن.

دُعيت مرة مع بعض أصحاب الصحف للاجتماع بقائد الثورة الرئيس جمال عبد الناصر للمرة الأولى. وفي أثناء الاجتماع كان الرئيس يُعرب عن آرائه بطلاقة وحماسة نادرتين، وكانت حماسته غير مصطنعة، وكان صريحًا تبدو عليه ملامح القوة وصدق العزيمة والإيمان.

أطلت النظر في الرئيس وأخذت أدرس حركاته وسكناته بكل دقة وعناية. وقد تبدلت صورته تمامًا في مخيلتي، وأصبحت أرى فيه الزعيم الذي اختاره الله لإنقاذ الأمة العربية، ووهبه من الحكمة والجرأة وقوة الإرادة ما هو كفيل بذلك.

وخرجت من ذلك الاجتماع وأنا أعظم ثقة بالمستقبل مما كنت في كل زمن مضى، فقد كانت حياتي الماضية قائمة على التفاؤل أكثر منها على الحقيقة، وكنت أعقد فيها آمالي على تقدير مني للرجال بصرف النظر عن الإمكانيات التي لم تكن متوفرة لأحد في ذلك الحين.

أما الآن فقد وجدت الرجل الذي كنت أبحث عنه طول حياتي، ووجدت معه الإمكانيات الهائلة التي لم تكن تخطر ببالي، إمكانيات مصر كلها بثروتها وثقافتها وعدد سكانها، وإمكانيات الأمة العربية بما فيها من كنوز أدبية ومادية. ومن ذلك الحين وأنا أقول مع أرخميدس «وجدت...وجدت»[287].

---

(275) السوديت: إقليم يقع في غرب تشيكيا على الحدود الألمانية.

(276) الممر البولندي أو ممر دانتزغ: أقيم بعد الحرب العالمية الأولى لإعطاء بولندا ممرًا إلى بحر البلطيق.

(277) الأمير عبد المنعم (1899-1979): ابن الخديوي عباس حلمي الثاني، شغل منصب الوصي على عرش الملك أحمد فؤاد الثاني بعد ثورة الضباط في عام 1952.

(278) الأمير فيصل بن عبد العزيز (1906-1975): ملك المملكة العربية السعودية (1964-1975).

(279) توفيق أبو الهدى (1895-1956): ولد في عكا، ودرس الحقوق في اسطنبول. تسلّم منصب رئاسة الحكومة في المملكة الهاشمية الأردنية 12 مرة.

(280) جورج أنطونيوس (1892-1942): ولد في دير القمر بلبنان، ودرس في كامبردج. سكرتير الوفد العربي إلى مؤتمر «المائدة المستديرة» في لندن في عام 1939. له كتاب **يقظة العرب** وهو تاريخ الحركة القومية العربية.

(281) مالكوم ماكدونالد (1901-1981): عضو مجلس العموم البريطاني. شغل مناصب حكومية عديدة. كان حاكم بريطانيا على كينيا بين عامي 1963 و1994.

(282) إبراهيم عبد القادر المازني (1889-1949): أحد أدباء مصر المعروفين في النصف الأول من القرن العشرين. تخرّج في مدرسة المعلمين. عمل في الصحافة فاشتهرت كتاباته. له قبض الريح وعود على بدء وثلاثة رجال وامرأة.

(283) نوري فتاح (1869-1936): تخرج في المدرسة العسكرية في اسطنبول. شغل منصب محافظ كركوك في بداية العهد الملكي.

(284) توفيق دياب (1886-1963): صحافي وكاتب مصري. أصدر صحيفة الجهاد في عام 1931. أقفلت بسبب مقالته ضد الاحتلال الإنكليزي.

(285) إميل بستاني (1907-1962): عاش يتيمًا، فاهتمت به والدته. درس في المدرسة الإنجيلية في صيدا بلبنان، وتابع دراسة الهندسة في الولايات المتحدة الأميركية. أسس في عكا شركة مقاولات (CAT)، وانتقلت إلى بيروت بعد نكبة 1948، ثم امتدت فروعها في دول الخليج وآسيا وأفريقيا. توفي في إثر سقوط طائرته في البحر قبالة بيرو سنة 1963.

(286) نيفيل تشمبرلين (1869-1940): سياسي بريطاني. شغل العديد من المناصب، فكان رئيسًا للوزراء (1937-1940) ووزيرًا للصحة ووزيرًا للمالية. عُرف بمحاولته استرضاء أدولف هتلر من خلال معاهدة كان هدفها تفادي الحرب. استقال تحت ضغط المعارضة.

(287) هنا وقف قلم الفقيد الكبير، صاحب هذه المذكرات وكان قد أعد للاستمرار في كتابتها، رسائل وأوراقًا ووثائق وصورًا، حالت منيته دون تنسيقها وربط بعضها ببعض. ولم نرض التعرض لها لئلا نتجه بآرائه وجهة قد لا تأتلف مع الوجهة أو النتيجة التي كان منصرفًا إليها. وكان، كما يظهر من بعض أوراقه، يود أن يختم مذكراته بقول شوقي:

خلقت كأنني عيسى، حرام على قلبي، البغيضة والشمات

وصفح في التراب إذا التقينا ولوشيت العداوة والترات

أحسن الله جزاءه عن خدماته العظيمة لقضايا أمته وبلاده. (الناشر)

مراجع التقديم والتحقيق

أبو شعر، هند غسان (إعداد وتحرير). **بناء الدولة العربية الحديثة. تجربة فيصل بن الحسين في سورية والعراق**. 2 ج. عمان: وزارة الثقافة، 2018.

الأدهمي، عبد السلام. **نضال القومية العربية**. دمشق: مطبعة الحياة، 1959.

برفنس، مايكل. **الثورة السورية الوطنية وتنامي القومية العربية**. ترجمة وسام داوود. دمشق: قدمس للنشر والتوزيع، 2013.

بيهم، محمد جميل. **سورية ولبنان 1918–1922**. بيروت: دار الطليعة للطباعة والنشر، 1968.

جمال باشا. **مذكرات**. إعداد محمد السعيدي. بيروت: دار الفارابي، 2013.

جمعة، أحمد محمود. **إنشاء جامعة الدول العربية: مقدماتها، وتطورها**. 3 ج. القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، 2006.

الحصري، ساطع. **يوم ميسلون، صفحة من تاريخ العرب الحديث**. دمشق: منشورات وزارة الثقافة، 2004.

الحكيم، يوسف. **سورية والانتداب الفرنسي**. بيروت: دار النهار للنشر، 1983.

______. **سورية والعهد الفيصلي**. ط 3. بيروت: دار النهار للنشر، 1986.

______. **الصراع الدولي في الشرق الأوسط وولادة دولتي سوريا ولبنان**. ط 2. بيروت: دار النهار للنشر، 1966.

حيدر، رستم. مذكرات. تحقيق نجدة فتحي صفوة. بيروت: الدار العربية للموسوعات، 1988.

خوري، فيليب. **أعيان المدن والقومية العربية**. ترجمة عفيف الرزاز. بيروت: مؤسسة الأبحاث العربية، 1993.

______. **سوريا والانتداب الفرنسي** (1920–1945). بيروت: مؤسسة الأبحاث العربية، 1997.

داغر، أنطوان. **أسعد داغر وإسهامه في النهضة العربية من خلال أدبه السياسي**. أطروحة لنيل شهادة الدكتوراه. بيروت، كلية الآداب والعلوم الانسانية- الفرع الثاني، 2000.

______. **رسائل من زمن النضال، مراسلات أسعد داغر**. إصدار خاص، 2018.

دروزة، محمد عزة. **مذكرات**. 6 مج. بيروت: دار الغرب الإسلامي، 1994.

______. **رجال عرفتهم، منتقى من المذكرات**. دمشق: دار البينة للطباعة والنشر، 2012.

زين، زين نور الدين. **نشوء القومية العربية مع دراسة تاريخية والعلاقات العربية- التركية**. بيروت: دار النهار، 1968.

سعدون، فواز. **الحركة الاصلاحية في بيروت في أواخر العصر العثماني**. بيروت: دار النهار، 1994.

سعيد، أمين. **الثورة العربية الكبرى، تاريخ مفصل جامع للقضية العربية في ربع قرن**. 3 ج. القاهرة: مكتبة مدبولي، [د.ت].

العسكري، جعفر. **مذكرات**. تحقيق نجدة فتحي صفوة. لندن: منشورات دار اللام، 1988.

عبد الهادي، عوني. **مذكرات**. تقديم وتحقيق خيرية قاسمية. بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، 2002.

قاسمية، خيرية. **الحكومة العربية في دمشق 1918-1920**. ط 2. بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر، 1982.

كوثراني، وجيه (تقديم وتحقيق). **وثائق المؤتمر العربي الأول 1913**. الدوحة/بيروت: المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، 2019.

موسى، سليمان. **الحركة العربية، المرحلة الأولى للنهضة العربية الحديثة**. بيروت: دار النهار، 1986.

ناصر الدين، علي. **قضية العرب**. ط 3. بيروت: منشورات عويدات، 1963؛ ط 1، 1946.